محمود ممتاز الهوارى

صور من حياة الصحابة والتابعين

مكتبة عالم المعرفة
المنيا - ملوى - ت: ٠٨٦/٦٤١٤٦٠

المنيا - ملوى - تليفون: ٠٨٦/٦٤١٤٦٠

توزيع

دار التقوى _ ٥ شارع ١٥ مايو - منشية الحرية - شبرا الخيمة - ت: ٢٢٠٤٢٨٣ - ٤٧١٥٥٠٦ - ٢٢٢٩٩١٨

الطبعة الأولى
١٤٢٠ - ٢٠٠٠

تم الصف والتنضيد بـ

مؤسسة الهدى
إحياء تراث - ترجمة - طباعة
نشر - توزيع - أبحاث علمية

القاهرة - مصر
هاتف: ٥٨٧٣٩٤٢-٥٦١٩٠٤٦
٠١٠١٤٨١٩٧٤
بريد ألكتروني: akatta@maktoob. com

بسم الله الرحمن الرحيم

منهج البحث

هناك طريقان:

الأول: هو التعرف على الإسلام كدين عالمى بالتعرف على حياة الرسول وتتبعها.

الثانى: هو التعرف على الإسلام كدين عالمى أيضًا عن طريق التعرف على صحابة رسول الله ﷺ، وفهم القاعدة الأولى التى طبق عليها الإسلام، والتعريف بالصحابة هو بالضرورة تعريف بمعلمهم ومربيهم الأول. إذ لابد من إسناد تصرفاتهم وأقوالهم وأفعالهم إلى ما جاء به من تشريع.

لذلك فقد اخترنا الطريق الثانى؛ أن نتعرف على الإسلام ورسوله العظيم من خلال التعرض لبعض النماذج المتعددة من صحابته الكرام. هذه النماذج تشمل من يقع عليه الاختيار منهم من الرجال والنساء.

من سارع إلى الإسلام ومن تباطأ، من أسلم يوم الفتح أو بعده.

ونعتقد أن هذا المنهج يتيح لنا إلقاء الضوء على جوانب الإسلام وعلى شخصية الرسول وعلى شخصيات من تناولهم هذا العرض من صحابته رجالاً ونساء. والله نسأل العون والتوفيق.

* * *

الرسول، والرسالة، والذين معه

التشريعات الإسلامية ظلت تتقاطر كالندى على صدر محمد ﷺ تتشربها نفسه المهيأة لتقبلها من قبل الله تعالى.

وكذلك تتشربها نفوس أصحابه.. استمر إنزالها على القلوب الصالحة والنفوس المعدة على مدى ثلاثة وعشرين عامًا.

منها ثلاثة عشر عامًا بمكة، وعشرة أعوام بالمدينة يتتابع فيها الوحى قرآنًا وسنة على خاتم الأنبياء.

كان النبى عليه الصلاة والسلام يخشى أن يفوته شيء من الوحى فكان يستعجل حفظه.. ولكن الله تعالى طمأن نفسه الراغبة وقلبه الخصب وذاكرته الواعية فنهاه عن التعجل فى ترداد ما يهبط عليه من وحى فأنزل عليه:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦-١٩].

كما أن الله تعالى لم يتكفل بحفظ كتاب سماوى كما تكفل بحفظ القرآن، بل ووصفه بالذكر دليلاً على أن هذا الكتاب سيظل مذكورًا على الدوام ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]

ثلاثة وعشرون عامًا يضاف إليهم رصيد ضخم من الصدق والأمانة والصحبة الطيبة عرفت عن محمد قبل البعثة.

التحق الصحابة فى هذا المعهد النبوى الكريم يتلقون عن الرسول ﷺ كل ما يهبط من السماء فور نزوله طبقًا لما يمر من أحداث قريبة أو بعيدة عن المحيط الإسلامى كانتصار الفرس على الروم والتنبؤ بانتصار الروم على الفرس فى بضع سنين قادمة توثيقًا وتأكيدًا لعالمية الدعوة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿ الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِيٓ أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) ﴾ .

هل كان محمد يستطيع أن يغامر بالإخبار عن أحداث فى ضمير الغيب فيجزم بوقوعها..

وأية آثار كانت ستصيبه وتصيب دعوته لو لم تتحقق هذه الأخبار..

إن هذا ليؤكد صدق محمد فيما أبلغ به عن ربه !

لذلك فإن كل من شرف بالانضمام إلى موكب هذه الدعوة ازداد حبا وإجلالا وتقديرا لهذا المعلم والرسول الأمى الذى لم يعرف القراءة والكتابة..

تلقى العلم عن خالق السماوات والأرض وما فيهن فكان نعم المؤدب ونعم المعلم ونعم الطبيب.

وإنه لشرف كبير للمرأة المسلمة فى جميع العصور أن كانت السيدة خديجة بنت خويلد زوج محمد ﷺ هى أول من آمن به من النساء أو الرجال استنادا إلى فطرتها السليمة وما عرفته عنه من صدق وأمانة، فساندته وآزرته حينما عاد إليها يرتجف عند بداية الوحى فقالت له: «أبشر يا ابن عم وأثبت، فوالذى نفس خديجة بيده، إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة، ووالله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم.. وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتعين على نوائب الحق».

حكم أصدرته كأسمى ما تكون أحكام القضاء، وأسباب مقنعة كأروع ما تكون الأسباب !

وأسلم «على بن أبى طالب» بعدها كأول صبى فى الإسلام، عرض

الرسول ﷺ عليه الإسلام ففكر فى مشاورة أبيه، ولكنه عاد فحزم أمره وقضى على أى تردد يخالج نفسه وقال: «لقد خلقنى الله تعالى من غير أن يشاور أبا طالب فما حاجتى أنا إلى مشاورته لأعبد الله».

كلمات حكيمة تصدر عن صبى!

كذلك أسرع زيد بن حارثة.. الذى سبق له أن فضل محمدا على أبيه وعمه وأسرته قائلا لهم جميعا حينما حضروا لفدائه وتحريره من عبوديته: «إنى رأيت من هذا الرجل شيئا، ما أنا بالذى أختار عليه أحدا، فهو منى بمكان الأب والأم».

وأسلم أبو بكر إسلاما فوريا بدافع الفطرة السليمة فى أبى بكر والأخلاق الكريمة فى رسول الله ﷺ فهو الصادق الأمين: «إن من لا يكذب على الناس يستحيل عليه أن يكذب على الله تعالى».

قضية عقلية منطقية تحمل دليل صحتها فى داخلها، واستمر التحام الداعية بأتباعه.. يخبرهم بما يوحى إليه ويشرح ويبين ويأخذ بأيديهم كلما خشى عليهم العثرات أو الجنوح إلى شدة على النفس أو مغالاة لا يرتضيها الإسلام فى أى أمر من أمور الدين.

سمع أن بعض الشباب اجتمعوا وتداولوا فيما بينهم قال أحدهم: أقوم الليل كله ولا أنام..! وقال الآخر: وأنا أصوم جميع الأيام..! وقال الثالث: وأنا لا أتزوج النساء..!.

وخشى الرسول أن تنتشر هذه الأفكار بين المسلمين فجمع الناس وقال: «ما بال أناس يقولون كذا.. وكذا، والله إنى لأتقاكم لله وأخوفكم منه، ولكنى أصوم وأفطر.. وأقوم من الليل وأنام.. وأتزوج النساء.. فمن رغب عن سنتى فليس منى».

هذه العناية والمتابعة المستمرة لشئون المسلمين جعلتهم يلتفون حوله يحبونه أكثر من أنفسهم، وأولادهم ووالديهم، ويطيعونه عن إخلاص حقيقى، وتقدير لا نظير له.

فما نجد في التاريخ البشرى تمازجًا حقيقيًا بين الداعية وأتباعه، كما نجده فى محمد ﷺ ولا نعرف أحدًا أحب أحدًا كما أحب صحابة محمدٍ محمدًا، هذا باعتراف أعداء محمد أنفسهم.

ها هو عروة بن مسعود مفاوض قريش فى صلح الحديبية يعود لهم فيقول: يا معشر قريش إنى جئت كسرى فى ملكه، وقيصر فى ملكه، والنجاشى فى ملكه، وإنى والله ما رأيت ملكًا فى قومه قط مثل محمد فى أصحابه، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا يسقط من شعره شىء إلا أخذوه، وإنهم لن يسلموه لشىء أبدًا، فانظروا رأيكم.

ولا كصحابة محمد صحابة وصفهم الله تعالى بقوله:

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ [الفتح: ٢٩].

قال مالك رضى الله عنه: «بلغنى أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا».

وصدقوا فى ذلك فقد أنبأ السيد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام أن تلاميذه - حوارييه - سيتخلون عنه، وناموا وقد طلب منهم أن يسهروا، وتنكروا له، وأنكروا أنهم من تلاميذه [يوحنا ١٨].

أما أتباع موسى عليه السلام فأمرهم عجب.

قص الله عنهم فقال سبحانه وتعالى:

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾

[الأعراف: ١٣٨].

فهاهم أولاء بلا خجل.. وعقب إنقاذهم وإغراق فرعون وخروجهم إلى البر سالمين بعدما كانوا خائفين مرتجفين.. يقولون وهم يرون فرعـون يدنـو من خلفهم يكاد يلحق بهم إنا لمدركون.. ويطمئنهم نبيهم معلنا لهم:

﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

عقب كل ذلك يطلبون من نبيهم الذى آمنوا به أن يجعل لهم صنما مثـل عبدة الأصنام ! وياله من مطلب غريب!

قص الله تعالى عنهم موقفا ينم عن جحودهم وجبنهم وتجاوزهم حـدود التأدب مع الله تعالى مما دفع موسى إلى الجـهر بأنـه لم يعـد يملـك إلا نفسـه وأخاه متبرئا من مقالة السفهاء وطالبا الفصل بينه وبين هؤلاء الخارجين عن طاعة الله بحكمه العادل:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

هؤلاء هم صفوة بنى اسرائيل الذين أنجاهم الله تعالى مع نبيـهم كليـم الله بمعجزة كبيرة هى شق البحر أمام أعينـهم وتحـت أقدامـهم وأغـرق فرعـون ومن معه من جند..

وإن المرء ليتساءل: إذا كانت هذه هى أخلاق الصفوة من بنى اسرائيل.. وفى حضور نبيهم معهم.. فكيف تكون أخلاق من دونهم !!

أما صحابة محمد ﷺ فإنهم لم يخدعوا بعجل كعجل السامرى له خوار ويتخذوه إلها لهم!

ولم ينصرفوا عن طاعته ليبقى وحيدا فى الميدان ولكنا نقرأ عنهم أنهم خرجوا لموقعة «بدر» فماذا كان موقفهم مع قائدهم.

موقف الصحابة فى بدر:

نترك الحديث لنسمعه من داخل الموقع نفسه وعلى لسان أصحابه..

خرجوا لملاقاة قوم يزيدون عليهم فى العدد ثلاثة أضعاف قال الرسول ﷺ لمن معه: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها.. أشيروا على»

أدلى أبو بكر وعمر برأيهما ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله.. أمض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ! ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون.

ولكن الرسول لم يكتف بذلك.. كان يريد أن يسمع رأى الأنصار.. فقال: «أشيروا على أيها الناس». وفطن الأنصار إلى أنه يريد أن يعرف رأيهم. وكان سعد بن معاذ هو حامل رايتهم، فقال: لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ أجل، لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، أعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض لما أردت فنحن معك فوالذى بعثك بالحق.. لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، وما تخلف منا رجل واحد «ومانكره أن تلقى بنا عدونا غدا..

إنا لصبر فى الحرب، صدق فى اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله».

وتلألأ وجه الرسول ﷺ بالبشر، وقال: «سيروا وابشروا.. فإن الله قد وعدنى إحدى الحسنيين، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم».

وهكذا كانت مواقف أصحاب محمد دائمًا معه.

ما هو السر إذًا فى هذه الفوارق الشاسعة بين صحابة محمد ﷺ وبين غيرهم من أتباع النبيين السابقين؟

يتعين علينا أن نتعرف على صفات رسول الله ﷺ.. منطقه.. حالات رضاه.. وحالات غضبه.. مدخله.. مخرجه.

منطقه عليه الصلاة والسلام:

عن الحسن بن على، قال: سألت خالى هند بن أبى هالة وكان وصافا، قلت له: صف لى منطقه، قال: كان رسول الله ﷺ «متواصل الأحزان.. دائم الفكرة.. ليست له راحة.. لا يتكلم فى غير حاجة.. يتكلم بجوامع الكلم فصلا لا فضول ولا تقصير.. ليس بالجافى ولا المهين، يعظم النعمة وإن دقت (أى صغرت وقلت)، ولا يذم منها شيئًا، لم يكن يذم ذَوَاقًا (أى مأكلا أو مشربا) ولا يمدحه، لا تغضبه الدنيا وما كان لها، فإذا تُعُدِىَ الحق (أى اعتدى على الحق) لم يقم لغضبه شىء حتى ينتصر له، لا يغضب لنفسه.. ولا ينتصر لها، إذا أشار.. أشار بكفه كلها.. وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها وضرب براحته اليمنى بطن إبهامها اليسرى، إذا غضب أعرض وأشاح، جُلَ ضحكه التبسم.

قال الحسن: فكتمتها الحسين زمانا ثم حدثته بها فوجدته قد سبقنى إليه فسأله عما سألته عنه، ووجدته قد سأل أباه عن: مدخله.. ومخرجه.. وشكله.. فلم يدع منه شيئًا.

مدخله ﷺ:

قال الحسين: سألت أبى عن دخول رسول الله ﷺ فقال: كان إذا أوى إلى منزله.. جزأ دخوله ثلاثة أجزاء، جعل جزءا لله تعالى، وجزءا لنفسه، وجزءا لأهله، ثم جزءا بينه وبين الناس، لا يدخر عن الخاصة والعامة منه شيئًا

جزء الأمة: كان من سيرته فى جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه وقسمه على قدر فضلهم فى الدين.. فمنهم ذو الحاجة ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج.. فيتشاغل بهم ويشغلهم فيما يُصلحهم والأمة وإخبارهم بالذى ينبغى لهم ويقول: «ليبلغ الشاهد منكم الغائب.. »، «أبلغونى حاجة من لا يستطيع إبلاغها.. »، فمن فعل ذلك ثبت الله قدميه يوم القيامة.. لا يُذكَر عنده إلا ذلك، ولا يقبل من أحد غيره يدخلون روادا.. ولا يفترقون إلا عن ذواق – أى تذوق للعلم والمعرفة – ويخرجون أدلة – أى أدلة على الخير.

مخرجه:

قال الحسين: سألت أبى عن مخرجه كيف كان يصنع فيه ؟ قال الإمام على رضى الله عنه: كان رسول الله ﷺ يخزن لسانه إلا فيما يفيد، يؤلف الناس، ولا ينفرهم، يكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم، يحذر الناس ويحترس منهم - أى لا يُخدع - من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره ولا خلقه - أى أنه يتعامل مع الناس بحذر، ولكن ببشاشة وحسن خلق - يتفقد أصحابه، ويسأل الناس عما فى أيدى الناس، يُحسن الحسن ويقويه، ويُقبح القبيح ويُوهيه، معتدل الأمر غير مختلف لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملوا لكل حال عنده عتاد – أى عدة – لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه الذين يلونه من الناس خيارهم، أفضلهم عنده أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة.

مجلسه:

كان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر –أى ذكر الله – إذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ويأمر بذلك. يعطى كل جلسائه نصيبهم، لا يحسب جليسه أن أحدًا أكرم عليه ممن جالسه. مَنْ سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول. وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أبا، وصاروا عنده فى الحق سواء.

مجلسه مجلس علم وحياء وصبر وأمانة، لا تُرْفَعُ فيه الأصوات، ولا تُؤْبَنُ فيه الحرم – أى لا تنتهك فيه الحرمات – يتعاطفون فى مجلسه بالتقوى متواضعين يوقرون فيه الكبير، ويرحمون الصغير، ويؤثرون ذا الحاجة، ويحفظون الغريب.

سيرته فى جلسائه:

قال الحسين لأبيه: كيف كانت سيرة الرسول فى جلسائه؟ فقال: كان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب، ولا فحاش، ولا عياب، ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهى لا يُوئسُ ولا يخيب فيه مؤمليه، قد ترك نفسه من ثلاث:

١ – المِرَاء، ٢ – الإكثار، ٣ – ومالا يعنيه. وترك الناس من ثلاث:

١ – لا يذم أحدًا ولا يعيبه، ٢ – لا يطلب عورة أحد، ٣ – لا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه.

إذا تكلم أطرق جلساؤه.. كأنما على رؤوسهم الطير، وإذا سكت تكلموا. لا يتنازعون عنده الحديث. من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ. حديثهم عنده حديث أولهم. يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون – أى يشاركهم مشاعرهم فى تواضع – يصبر للغريب على الجفوة فى منطقه ومسألته – أى يتحمل غلظة الغريب فى مقاله أو سؤاله فى صبر – ويقول: «إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فارفدوه»، أى أعطوه حاجته. لا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز – أى ينتهى – فيقطعه بنهى أو قيام. رواه الترمذى.

حالات سكوته:

كان سكوته على أربع: على الحلم، والحذر، والتقدير، والتفكر.

١ – فأما التقدير: ففى تسوية النظر والاستماع من الناس.

٢ – وأما تفكره: فيما يبقى وما يفنى.

٣ – وأما الحلم: فقد جمع له الحلم فى الصبر.. فلا يغضبه شىء ولا يستفزه.

٤ – **وأما الحذر**: فقد جمع له الحذر فى أربع:

أخذه بالحسن ليقتدى به.
تركه القبيح ليتناهى عنه.
اجتهاده الرأى فى إصلاح أمته.
القيام للأمة فيما جمع لهم من خيرى الدنيا والآخرة.

صور من حسن خلقه:

قال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

قال عنه أنس بن مالك: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لى: أف، ولا لِمَ صنعت؟ ولا ألا صنعت؟». رواه البخارى.

تواضعه:

كانت الأمة – المرأة – من أهل المدينة لتأخذ بيده فتنطلق به فى حاجتها – أى يقضى لها حاجتها – أى يعين الضعفاء.
وقالت عنه أم المؤمنين عائشة: «إذا دخل بيته يكون فى مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج فصلى». أخرجه البخارى.
كان يوم الأحزاب ينقل التراب، وقد وارى التراب بياض بطنه، وهو يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

شفقته ورحمته:

كان يدخل الصلاة يريد إطالتها فيسمع بكاء الطفل فيتجوز فى صلاته.

حلمه وصفحه:

جبذه أعرابى جبذة شديدة أثرت فى صفحة عنقه ﷺ ثم قال له: يا محمد مر لى من مال الله الذى عندك، أرأيت إلى هذه الغلظة فى الطلب ؟ ولكن الرسول لم يفعلْ له شيئًا بل التفت له ثم ضحك.. وأمر له بعطاء.

جوده وسخاؤه:

كان أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان وكان أجود بالخير من الريح المرسلة.

أتاه رجل فسأله فأمر له بشاءٍ كثير بين جبلين من شاء الصدقة. قال أنس: فرجع الرجل إلى قومه، فقال: «يا قوم أسلموا، فإن محمدا يعطى عطاء من لا يخشى الفقر!».

شجاعته:

حياته كلها مثال للشجاعة والإصرار على تبليغ منهج الله لأهل الأرض جميعًا.

قال على بن أبى طالب: وهو من هو، صاحب المواقف المشهودة فى الإسلام، فاتح خيبر، الذى سقط من يده الترس، فتترس بباب، وقاتل عمرو ابن ود فى غزوة الخندق، عليٌّ هذا يقول: كنا إذا اشتد القتال وحمى الوطيس احتمينا برسول الله ﷺ.

فضل الرسول على سائر الخلق حتى الأنبياء:

وأى فضل أكبر من أن يكون الرسول هو خاتم الأنبياء، وأنه يشهد على جميع الأمم السابقة بما أنزله الله تعالى عليه فى القرآن الكريم كما جاء فى قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال رسول الله ﷺ وهو الذى لا ينطق عن الهوى: «أنا أول الناس خروجًا إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا يئسوا، لواء الحمد بيدى، وأنا أكرم ولد آدم على ربى ولا فخر». رواه الترمذى.

وقال: «أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر،

وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لى الغنائم، ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت للناس عامة».

تقديم محبته على النفس والولد والأهل:

عن عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبى ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إلىّ من كل شىء إلا نفسى، فقال الرسول: «لا والذى نفسى بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك»، فقال له عمر: فإنه الآن، والله لأنت أحب إلىّ من نفسى، فقال النبى ﷺ: «الآن يا عمر، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه ووالده وولده والناس أجمعين». أخرجه البخارى ومسلم.

هذا الحب الوارد فى الحديث عن رسول الله ﷺ ليس هو الحب العاطفى الذى مبعثه هوى النفس، ولكنه الحب الإيمانى العقلانى، والرسول يستحقه بيقين وليس تفضلا من أحد عليه؛ لأنه بعث رحمة للعالمين.

ولأنه كما قال الله تعالى فى قرآنه:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

فهو حب يفرضه الإيمان، ولذلك نجد عمر بن الخطاب حينما سمع النبى يقسم له بأنه «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه ووالده وولده والناس أجمعين» أسرع عمر لتصديق رسول الله فيما قال؛ لأنه لا ينطق عن الهوى، وقال فورًا: «فإنه الآن، والله لأنت أحب إلىّ من نفسى!».

الرسالة الخاتمة

دخل أبو بكر وعمر زيارة لأم أيمن مولاة رسول الله بعدما قبض، فبكت، فقيل لها: ما يبكيك على رسول الله ﷺ؟ فقالت: إنى علمت أن النبى سيموت، ولكن أبكى على الوحى الذى انقطع.

حقاً، لقد انقطع الوحى بموت النبى ولكنه بعد ما نزل قول الله تعالى :

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وكما أن محمدًا عليه الصلاة والسلام هو خاتم الأنبياء والمرسلين، كذلك فإن رسالة الإسلام هى الرسالة الخاتمة العامة التى تشمل كل الزمان، وكل المكان.

* * *

رسالة الإسلام تخاطب الناس جميعًا، والأجناس جميعًا، على اختلاف ألوانهم:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

والرسالة التى تخاطب الناس جميعًا لابد وأن تكون واضحة صافية نقية لا تصطدم بالعقل السليم أو الفكر المعتدل، والإسلام لا يخاطب الناس بأكثر مما يطيقون بخلاف غيره من الديانات السابقة.

وساعد على أحكام الشريعة الإسلامية ومرونتها أنها لم تنزل كلها دفعة واحدة، بل كان القرآن الكريم يتنزل منجمًا مقسطًا على الرسول، وطبقًا لما يحدث للصحابة فى حياتهم اليومية، وكان الرسول على صلة دائمة بأتباعه ليلاً ونهارًا يخبرهم بكل ما يتنزل عليه أولاً بأول.

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

قد يكون التكليف شاقًا ولكن: قد ينزل التكليف شاقًا لاختبار المؤمنين ليتدبروا آياته، ويظهر وقع التدبر على سلوكهم وأقوالهم، ويظهر حزنهم الحقيقى لعدم قدرتهم على تحمل ما نزل، فيفصحون عما بهم للرسول الرءوف الرحيم، فيرشدهم إلى ما يجب عمله من تسليم بما أنزل الله تعالى،

والدعاء بالتخفيف عنهم، ويستجيب الله تعالى لهم.

وفي هذا مالا يخفى من الصلة والتفاعل بين الآمر ومتلقى الأمر من الله، وتطبيقًا لما قرره الله تعالى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

والأدلة على ذلك كثيرة نذكر منها ما يؤيدها:

حينما أنزلت:

﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [٢/٢٤٨].

اشتد الحزن على الصحابة رضى الله عنهم، فجثوا على الركب وقالوا: يا رسول الله، كُلفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة - وقد خفضت إلى خمس صلوات بعد خمسين - والصيام، والحج، والجهاد، والصدقة، ولا نطيق ما جاء بهذه الآية.

إنها تحاسب على مجرد خواطر النفس التى تتولد فى الأذهان، ولا يعرف الإنسان من أين جاءت..

قال الرسول : أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم سمعنا وعصينا ! بل قولوا : ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فلما أقر بها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله في أثرها: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

فتجوز الله تعالى لهم عن حديث النفس، وأخِذُوا بالأعمال.

وجاء فى الصحيحين عن أبى هريرة تأكيدًا لهذا المعنى القرآنى الرحيم: «إذا هم عبدى بحسنة و لم يعملها كتبتها له حسنة، فإن عملها كتبتها له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، وإذا هم بسيئة فلم يعملها لم أكتبها

عليه، فإن عملها كتبتها سيئة واحدة».

أرأيت إلى هذا الفضل العظيم من الله تعالى، وكأن هؤلاء الصحابة، بتدبرهم في معنى ما نزل وبخشوعهم وتضرعهم وبكائهم وجثيهم على الركب لله تعالى كانوا سببا في التخفيف عن أنفسهم، وعمن جاء بعدهم إلى قيام الساعة، إذ لا قرآن يُستَجَد نزوله بعد انقطاع الوحي بقبض رسول الله ﷺ.

ما هو الحديث النفسي؟

سألهم رسول الله ﷺ عنه، فقالوا: إنه يشمل ما يسمى بالوسوسة، وما يتعاظم أن يذكره الإنسان مما يدور بخاطره، قال الرسول: «وقد وجدتموه؟»، قالوا: نعم، قال: «ذلك صريح الإيمان».

شريعة المستطاع:

الشريعة الإسلامية كدين عالمي توافق ما تطيقه الطبيعة البشرية نرى أن الإسلام احترم حق الإنسان في التملك بالطرق المشروعة، فنظم الثروات ولم يلغها أو يصادرها، وحدد نصاب الزكاة تحديدًا دقيقًا ميسورًا لكل من يتوافر لديه النصاب، وليت المسئولين عن الضرائب على مستوى العالم يأخذون به، ولو فعلوا لاختفت صور كثيرة من صور التحايل والكذب في الإقرارات، وازدادت حصيلة الدول الآخذة به، جعل الإسلام الزكاة حقا للفقير، وليست منةً وتفضلاً عليه من الغنيّ، كذلك فقد نظم التوارث تنظيمًا دقيقًا لا يجوز لأحد مخالفته، وهذا لا مثيل له في تشريعات الأديان السابقة.

الأناجيل خالية من نظم التوارث:

بل أنها تعتبر أن المال يحول بين الإنسان وبين رضوان الله عليه، جاء في إنجيل متى الإصحاح ١٩: «تقدم شاب للسيد المسيح عيسى ابن مريم، وقال له: أيها المعلم الصالح: أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية؟

أجاب بقوله: لماذا تدعونى صالحًا ليس أحد صالح إلا واحد وهو الله، ولكن إن أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا: لا تقتل، لا تسرق، لا تزن، لا تشهد الزور، أكرم أباك وأمك، وأحب قريبك كنفسك. قال الشاب: هذه كلها قد حفظتها منذ حداثتى، فماذا يعوزنى بعد؟ أجابه قائلاً: إن أردت أن تكون كاملاً فأذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء، فيكون لك كنز فى السماء، وتعال اتبعنى. فلما سمع الشاب الكلمة مضى حزينًا؛ لأنه كان ذا أموال كثيرة، فقال المسيح عليه السلام لتلاميذه: الحق أقول لكم، إنه يعسر أن يدخل غنى إلى ملكوت السماوات، وأقول لكم أيضًا: إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى الملكوت».

هذه صورة لشاب لم يستطع أن يتبع السيد المسيح عليه السلام، ولكن مثله يستطيع أن يتبع بلا حرج ما جاء به محمد عليه السلام رغم أن الديانة المسيحية تستند إلى العهد القديم، وتعتبره جزءًا من الكتاب المقدس، وهى تعلم أن نبى الله: سليمان عليه السلام قد آتاه الله ملكًا لم يؤته فى الماضى، ولا فى الحاضر، ولا فى المستقبل أحدًا من العالمين.

وقد جاء فى (الإصحاح الأول): «قد أعطيتك حكمة ومعرفة، وأعطيك غنى وأموال وكرامة لم يكن مثلها للملوك الذين قبلك، ولا يكون مثلها لمن بعدك».

وموطن الاستشهاد هنا هو ملك سليمان الذى جاء عنه فى القرآن: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥].

وما نود التعليق عليه هو: أن هذا الملك على اتساعه لم يكن حائلاً أو سدًا يمنع من القرب إلى الله تعالى، ولكن الشرائع السابقة على الإسلام كانت موقوتة بزمن محدد، وعلى شعب محدد، ومن الظلم أن تقارن بشريعة تتسع لكل الزمان، وكل المكان.

ومهما قيل فى سمو المبادئ من الناحية النظرية، فإن المعول عليه هو

ملاءمة المبادئ للطبيعة البشرية، ولقد كان من صحابة رسول الله ﷺ من كان واسع الثراء كعبد الرحمن بن عوف، ومنهم من كان لا يملك شيئًا كأهل الصفة، والحكم الفاصل فى النهاية هو:

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

فإن الغنى والفقر أداتان من أدوات الابتلاء والاختبار للكشف عن حقيقة الإيمان، ومدى رسوخه فى القلب.

مقاومة الشر:

جاء بإنجيل «متى» الإصحاح الخامس: «سمعتم أنه قيل عين بعين، وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشر بل مَنْ لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضًا، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فأترك له الرداء أيضًا، ومن سخرك ميلاً واحدًا فاذهب معه اثنين».

أما الإسلام فهو دين الفطرة السليمة.. يراعى ما يمكن تطبيقه بشرط العدالة للطرفين. دين إيجابى يقاوم الشر ولا يتركه لكى يستفحل، لا يقف المسلم متفرجًا على ما يمر به من أحداث.

«من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وهذا أضعف الإيمان».

الدعوة إلى الله تعالى لا تكون بالعنف، وإنما تكون كما قال الله تعالى فى محكم آياته:

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

هذا هو المنهج الذى رسمه الله تعالى وحدده لخاتم رسله أن يبلغ دين الله إلى الناس بالرفق، وليس له أن يقهر أحدًا على تغيير ما لا يريد تغييره، وليس لأحد أن يزعم أنه أغير على دين الله من الله تعالى.

ولكن عليه فقط أن يُخلِص فى تبليغ منهج الله تعالى بكل الطرق التى يجب أن يتحلى بها الداعية من علم وفطنة وذكاء، وانتقاء الأسلوب واختيار أنسب الأوقات لعرض دعوته.. إلخ.

ما تعرض الإنسان للطم على وجهه أو تجريده من ثيابه وتسخيره ميلاً أو ميلين، أو التعرض لأى صورة أخرى من صور العدوان، فإن الله تعالى لم يُلزم المسلم بترك نفسه للأشرار، يفعلون به ما يشاءون، وإنما يعطيه متسعًا لتقدير كل حالة بظروفها بلا تجاوز للعدالة.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]

التشريع العالمى يضع لكل حالة ما يناسبها، فمن يقدر على الصبر فى حالة تستدعيه وفى ظروف يحتملها المعتدى عليه، ففى الصبر خير له..

ولذلك نجد النتائج مختلفة تمامًا بين التشريع المسيحى والتشريع الإسلامى:

من يرد اللطمة بمثلها مثلاً... يعتبر آثمًا فى التشريع المسيحى، أو مخالفًا له على الأقل، بينما لا يعتبر كذلك فى التشريع الإسلامى.

فأى التشريعين يكون متفقًا مع ضمير الإنسان، ويكون صاحبه أكثر انسجامًا واصطلاحا مع نفسه ومع الآخرين.

التشريع الإسلامى يسمح برد الاعتداء فى حدود العدل والحق، وهو تشريع إيجابى يواجه الشر ويقاومه ويربى أتباعه على احترام النفس، يصلح للحاكم والمحكوم، يصلح لضبط وتنظيم شئون الدنيا كلها بجميع أفرادها أبيضها وأسودها فى كل زمان ومكان.

أما تعاليم السيد المسيح التى اشتملت عليها موعظة الجبل، فهى عظات سامية عالية غاية فى التسامح لا يرفضها التشريع الإسلامى، ولكنها تدخل فى نطاقه تحت قول الله تعالى ولننظر إلى دقة التشريع الإسلامى فى قوله تعالى:

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

ثم إن الذى ينتصر لنفسه بعد وقوع الظلم عليه فلا يؤاخذ على فعله هذا، وإنما يجب مؤاخذة الظالمين الباغين.

﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤١، ٤٣].

القرآن الكريم... وضع الله فيه ما يراعى ويقدر الدوافع البشرية..

فلو أن ما يسمى بالنظام العالمى الجديد أخذ بهذا التشريع العادل المحكم لاستراحت البشرية وعمها الخير وارتدع المجرمون عن ارتكاب الشر.

* * *

صور من حياة الصحابة

أولا: الصديق
أبو بكر الصديق

هل لك يا أبا بكر فى صاحبك ؟ يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة.. ؟ فما يعجبكم من ذلك ؟ إنه ليخبرنى الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه فهذا أعجب مما تعجبون منه والله لئن كان قال لقد صدق.

أبو بكر الصديق
عبد الله بن أبى قحافة

اسمه: عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن تيم بن مرة.

أمه: أم الخير.

اسمها: سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة. أمه ابنة عم أبيه (أبى قحافة).

أولاده:

١- عبد الله.

٢- أسماء ذات النطاقين. أمهما: قتيلة بنت عبد العزى.

٣- عبد الرحمن.

٤- عائشة. أمهما: أم رومان بنت عامر بن عوير بن عبد شمس بن عتاب بن أذينه.

٥- محمد وأمه: أسماء بنت عميس بن معد بن تيم.

٦- أم كلثوم.. وأمها: حبيبة بنت خارجة بن الخزرج، وكانت بها نسأ، فلما توفى أبو بكر ولدت بعده.

اختلف فى اسمه:

فقيل: كان عبد الكعبة، فسماه رسول الله عبد الله؛ وقيل: إن أهله سموه عبد الله، يقال له: عتيق.

وقيل سبب هذه التسمية: لحسن وجهه وجماله، لأنه لم يكن فى نسبه شيء يعاب به؛ لأن رسول الله ﷺ قال له: «أنت عتيق من النار»، عتيق الله من النار.

وقيل له الصديق:

عن عائشة قالت: لما أسرى بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح بذلك يحدث الناس، فارتد ناس ممن كان آمن وصدق به وفُتِنُوا، فقال أبو بكر: إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء غدوة أو روحة.

فلذلك سمى أبو بكر الصديق. وقال أبو محجن الثقفى:

وسميت صديقا وكل مهاجر   سواك يسمى باسمه غير منكر
سبقت إلى الإسلام والله شاهد   وكنت جليسا فى العريش المشهر

* * *

إسلامه

أسلم أبو بكر رضى الله عنه فأظهر إسلامه ودعا إلى الله ورسوله، وكان أبو بكر رجلا مألفا لقومه، سهلا، محببا، كان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر.

وكان تاجرا ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لأكثر من أمر، لعلمه وتجارته، وحسن معاملته ومجالسته، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه.

وعن أسماء بنت أبى بكر، قالت: أسلم أبى أول المسلمين، ولا والله ما عقلت أبى إلا وهو يدين الدين.

وقالت عائشة رضى الله عنها: ما عقلت أبوى إلا وهما يدينان الدين، وما مر علينا يوم قط إلا ورسول الله يأتينا فيه بكرة وعشية.

وقال رجل لبلال: من سبق؟ قال: محمد، قال: من صلى؟ قال: أبو بكر، قال الرجل: إنما أعنى فى الخيل، قال بلال: إنما أعنى فى الخير.

من أسلم من الصحابة بدعوة أبى بكر:

أسلم عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس، وأسلم الزبير ابن العوام بن خويلد بن أسد، وأسلم عبد الرحمن بن عوف، وأسلم سعد

ابن أبى وقاص، وأسلم طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب، فجاء بهم أبو بكر إلى رسول الله ﷺ حين استجابوا له فأسلموا وصلوا.

الإسلام بلا تردد:

قال رسول الله ﷺ: «ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة - أى تأخير فى الإجابة - ونظر وتردد إلا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة ما عكم عنه حين ذكرته له، وما تردد فيه».

وذكر ابن الأثير: قال أبو بكر الصديق: كنت جالسا بفناء الكعبة، وكان زيد بن عمرو بن نفيل قاعدا، فمر به أمية بن أبى الصلت، فقال: كيف أصبحت يا باغى الخير؟ قال: بخير، قال: هل وجدت؟، قال: لا، ولم آل من طلب، فقال: أى أمية بن أبى الصلت:

كل دين يوم القيامة إلا ما قضى الله والحنيفة بور

أما إن هذا النبى الذى ينتظر منا أو منكم أو من أهل فلسطين، قال: أى أبو بكر، ولم أكن سمعت قبل ذلك بنبئ ينتظر أو يبعث فخرجت أريد ورقة ابن نوفل، وكان كثير النظر فى السماء، كثير همهمة الصدر فاستوقفته، ثم اقتصصت عليه الحديث، فقال: نعم يا ابن أخى.. أبى أهل الكتاب والعلماء إلا أنه هذا النبى الذى ينتظر من أوسط العرب نسبا، ولى علم بالنسب وقومك أوسط العرب نسبا، قلت: يا عم، وما يقول النبى؟ قال: يقول. ما قيل له، إلا أنه لا ظلم ولا تظالم، فلما بعث النبى ﷺ آمنت.

رواية أخرى فى إسلام أبى بكر وأنه كان أول من أسلم: عن عبد الله ابن مسعود، قال: قال أبو بكر الصديق: إنه خرج إلى اليمن قبل أن يبعث النبى ﷺ، فنزل على شيخ من الأزد عالم قد قرأ الكتب، وعلم من علم الناس كثيرا، يقول أبو بكر: فلما رآنى قال: أحسبك حرميا؟ قال أبو بكر: قلت: نعم أنا من أهل الحرم، قال: وأحسبك قرشيا؟ قال أبو بكر: قلت: نعم أنا من قريش، قال: وأحسبك تيميا؟ قال: قلت: نعم أنا من تيم بن مرة، أنا عبد الله بن عثمان، من ولد كعب بن سعد بن تيم بن مرة، قال:

بقيت لى فيك واحدة، قلت: ما هى؟ قال: تكشف عن بطنك، قلت: لا أفعل أو تخبرنى لم ذاك؟ قال: أجد فى العلم الصحيح الصادق.. أن نبيا يبعث فى الحرم، يعاون على أمره فتى وكهل، فأما الفتى فخواض غمرات ودفاع معضلات، وأما الكهل فأبيض نحيف، على بطنه شامة وعلى فخذه اليسرى علامة، وما عليك أن ترينى ما سألتك، فقد تكاملت لى فيك الصفة إلا ما خفى على، قال أبو بكر: فكشفت له عن بطنى، فرأى شامة سوداء فوق سرتى، فقال: أنت هو ورب الكعبة، وإنى متقدم إليك فى أمر فاحذره، قال أبو بكر: قلت: وما هو؟ قال: إياك والميل عن الهدى، وتمسك بالطريقة المثلى الوسطى، وخف الله فيما خولك وأعطاك.

قال أبو بكر: فقضيت باليمن أربى، ثم أتيت الشيخ لأودعه، فقال: أحامل عنى أبياتا من الشعر قلتها فى ذلك النبى؟ قلت: نعم، فذكر أبياتا. قال أبو بكر: فقدمت مكة وقد بعث النبى ﷺ فجاءنى عقبة بن أبى معيط، وشيبه، وربيعة، وأبو جهل، وأبو البخترى، وصناديد قريش، فقلت لهم: هل نابتكم نائبة، أو ظهر فيكم أمر؟ قالوا: يا أبا بكر، أعظم الخطب: يتيم أبى طالب يزعم أنه نبى، ولولا أنت ما انتظرنا به، فإذ قد جئت فأنت الغاية والكفاية، قال أبو بكر: فصرفتهم على أحسن مس، وسألت عن النبى، فقيل: فى منزل خديجة، فقرعت عليه الباب فخرج إلى، فقلت: يا محمد، فقدت من منازل أهلك وتركت دين آبائك وأجدادك؟ قال: يا أبا بكر، إنى رسول الله إليك، وإلى الناس كلهم، فآمن بالله، فقلت: ما دليلك على ذلك؟ قال: الشيخ الذى لقيت باليمن، قلت: وكم من شيخ لقيت باليمن؟ قال الشيخ الذى أفادك الأبيات، قلت: ومن خبرك بهذا يا حبيبى؟ قال الملك المعظم: الذى يأتي الأنبياء قبلى، قلت: مد يدك، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وإنك رسول الله، قال أبو بكر: فانصرفت وما بين لابتيها[1] أشد سرورا من رسول الله ﷺ بإسلامى.

وعن الشعبى، قال: سألت ابن عباس: من أول من أسلم؟ قال: أبو بكر:

(١) اللابة: الحرة .. وهى الأرض ذات الحجارة السود .. والمدينة بين حرتين عظيمتين.

أما سمعت قول حسان:

إذا تذكرت شجوا من أخى ثقة   فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البرية اتقاها وأعدلها   بعد النبى وأوفاها بما حملا
الثانى التالى المحمود مشهده   وأول الناس طرا صدق الرسلا

وروى أن عمرو بن عبسة سمع يقول: ألقى فى روعى أن عبادة الأوثان باطل، فسمعنى رجل وأنا أتكلم بهذا، فقال: يا عمرو، بمكة رجل يقول كما تقول، قال: فأقبلت إلى مكة أسأل عنه، فأخبرت أنه مختف لا أقدر عليه إلا بالليل يطوف بالبيت، فقمت بين الكعبة وأستارها، فما علمت إلا بصوته يهلل بالله، فخرجت إليه فقلت: ما أنت ؟ قال: رسول الله، فقلت: وبم أرسلك؟ قال: أن يعبد الله ولا يشرك به شىء، وتحقن الدماء، وتوصل الأرحام، قلت: ومن معك على هذا؟ قال: حر وعبد، فقلت: أبسط يدك أبايعك، فبسط يده فبايعته، فلقد رأيتنى وإنى لرابع الإسلام.

هذه الروايات السابقة ترسم لنا صورة عن أبى بكر الصديق الذى كان من رؤساء قريش فى الجاهلية، الرجل المحبب فيهم، والمألف لهم، والذى كان إليه أمر الإشناق - أى الديات - فى الجاهلية، فكان إذا حمل شيئا صدقته قريش وامضوا حمالته[1]، وحمالة من قام معه، وإن احتملها غيره خذلوه، ولم يصدقوه فهو لدى قريش وثيق صدوق.

وهو إلى جانب ذلك تاجر يتنقل على نطاق واسع فى رحلات الشتاء والصيف، بين الشام واليمن، مما زاده خبرة فى التعامل مع الناس ومعرفة طبائعهم وأخلاقهم، ثم هو صديق حميم لمحمد تزداد صداقتهما يوم بعد يوم لما يجمع بينهما من صفات مشتركة عمادها الصدق والأمانة والثقة وعدم الميل إلى ما كان يدفع غيرهم للهوى فى منحدرات هوى النفس وملذات الجاهلية.

صديق لمحمد لم يعهد عليه كذبا ولا زيفا ولا خلقا منحرفا، وقد أخبره

(١) الحمالة: الدية.

صديق الصدوق الذى شهد له الجميع بالصدق، بأنه رسول الله ﷺ، وفى وقت انتشرت فيه البشائر أنه آن الأوان لظهور نبى يدعوا إلى الحق، ولا يدعو إلى الظلم.

دعوة تتفتح لها القلوب السليمة، وتصل إلى قلوب البعض قبل أن يبعث النبى الجديد، كما وصلت إلى قلب زيد بن عمرو بن نكيل، وورقة بن نوفل، وعمرو بن عبسة السلمى، وحتى أمية بن أبى الصلت الذى آمن شعره، و لم يؤمن قلبه، فلماذا لا يصل إلى قلب أبى بكر ما وصل إلى قلوب هؤلاء الناس وما الذى لا يجعلنا نقابل بالتصديق ما جاء عنه فى الروايات السابقة.

إن مثل أبى بكر لحرى به أن يبادر إلى الإسلام فور العلم به من محمد الذى تجمعت به كل الصفات السامية النبيلة، والتى التقت فى الوقت المناسب مع القلب المتفتح لقبول هذه الأخلاق؛ لأن به الكثير مما يماثلها. وكان ذلك القلب هو قلب أبى بكر الصديق رضى الله عنه.

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ، قال ليلة أسرى به: «قلت لجبريل إن قومى لا يصدقونى»، فقال له جبريل: يصدقك أبو بكر، وهو الصديق. حتى فى هذا الحدث الذى لم تستوعبه بعض قلوب من أسلموا، وارتد عن الإيمان استوعبه قلب أبى بكر، ذهب الناس إلى أبى بكر فقالوا له: هل لك يا أبا بكر فى صاحبك، يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس، وصلى فيه، ورجع إلى مكة، قال أبو بكر لهم ليستكشف حقيقة نواياهم: إنكم تكذبون عليه، فقالوا: بلى، هاهو ذاك فى المسجد يحدث به الناس، فلما تأكد أنهم لا يخفون خديعة، رد على الفور ودون أن يذهب إلى محمد ويسمع من فمه شيئا، قال لهم مقسما بالله: والله لئن كان قاله لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك، فوالله أنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أعجب مما تعجبون منه.

أرأيت إلى قلب أبى بكر، و إلى تمكن الإيمان وتغلغله فيه، ومنطقه الإيمانى البسيط السليم، لم يكن منطق أبى بكر محتاجا إلى تبريرات معاوية ابن أبى سفيان، أو غيره وصولا إلى عهدنا الحاضر.

جاء فى سيرة ابن هشام ما يسمى بحديث معاوية، قال ابن إسحاق: وحدثنى يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس، أن معاوية بن أبى سفيان كان إذا سئل عن مسرى رسول الله ﷺ قال: كانت رؤيا من الله تعالى صادقة، ومن قبله حديث منسوب لأم المؤمنين عائشة، قال ابن إسحاق: وحدثنى بعض آل أبى بكر - ولم يذكر ابن إسحاق من هو الذى حدث - عن عائشة: «ما فقد جسد رسول الله ﷺ ولكن الله أسرى بروحه».

إن إيمان أبى بكر تجاوز وتخطى كل هذه المبررات، ووضع أساسا للإيمان قاعدة بسيطة تؤكد على أن الإسراء كان بالجسد والروح، ولنتأمل فى إجابة الصديق: إنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أعجب مما تعجبون منه!.

إن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض، وليس من مكة إلى بيت المقدس فقط، والساعة لا تعنى ما نقيس به نحن الزمن، ولكنها تعنى اللحظة التى ينزل فيها جبريل عليه السلام بالوحى، حينما نزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى مثلا:

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ هل يتصور عاقل أن سماع الله تعالى لهذا التحاور، وأمره تعالى بنزول جبريل بالحكم قد أخذ وقتا، يقدر بالساعات، أو بالدقائق، أو بالثوانى، إن جميع مخلوقات الله بالنسبة لله تعالى هى أشياء داخلة تحت سلطان: كن فيكون.

ومن هنا جاء منطق أبى بكر الإيمانى حاسما فى القضية: إن الله القادر على إنزال جبريل من السماء بالأمر الإلهى فى لحظة، لا يعلم قصرها غير الله، أو قل على الحقيقة فى لا زمن لقادر على أن يصعد محمدا إلى السماء،

ويعيده إلى حيث كان فى لا زمن أيضا، هذا هو المنطق الإيمانى لأبى بكر، الذى إذا وزن به إيمان الأمة لرجحها.

ومن العجيب أن نظل نحن فى عصر العلم الذى منحنا الله فيه القدرة على كشف أشياء ما كان من قدماء أن يكتشفوها فى حينها لازلنا نثير هذه القضية مع أنها ليست قضية فى الحقيقة، ونقول: هل كان الإسراء للجسد والروح، أم كان رؤيا منامية، والمشكلة الحقيقية أننا نتخيل ونقيس قدرات الله تعالى بقدرتنا البشرية المتغيرة تقدما، أو انحطاطا، وهذا خطأ جسيم يؤدى إلى نتائج خاطئة تضعف الإيمان.

ارتفع أبو بكر الصديق على هذا المنطق الإنسانى العاجز، واتسع قلبه الممتلئ بالإيمان إلى التصديق غير المحدود، وبدون السؤال عن الكيفية بقدرة الله تعالى، فأمن الزلل، وسلم من الوقوع فى الشك الذى يدخل الريبة على العقيدة نفسها.

عجيب أن نفكر هذا التفكير غير الإيمانى، ولا نسأل أنفسنا فى عصرنا الحاضر، كم يستغرق السفر من مكة إلى بيت المقدس فى زماننا؟ وما الزمن الذى تستغرقه الصواريخ العابرة للقارات والصاعدة إلى القمر، وإلى.. وإلى.. إلخ؟.

وتتوقف القلوب، وتتجمد العقول، عندما يكون الأمر متعلقا بقدرات الله تعالى، ونحسب أننا بعقولنا العاجزة القاصرة نقدم ما نحسبه تسهيلا على الله وتيسيرا لمنطقه وأحكامه وأوامره، ونعوذ بالله من ذلك.

كل هذه الهواجس لم تخطر ببال أبى بكر؛ لأنه سبق وآمن بمحمد رسول الله ﷺ، مبلغا عن ربه القادر، وتضوء قلبه وتلألأ بهذا الإيمان الصافى النقى ولن تبقى فيه ذرة شك. فقال بحسم: «إن كان قال فقد صدق».

الهجرة:

كان أبو بكر كثيرا ما يستأذن رسول الله ﷺ فيقول له: «لا تعجل يا أبا بكر، لعل الله يجعل لك صاحبا»، فيطمع أبو بكر أن يكون هو صاحب

رسول الله فى هجرته، وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين.

عدم الإعلان عن هجرة الرسول:

لماذا لم يعلن الرسول عن اليوم الذى سيهاجر فيه؟ لا يخطر ببال أحد أن عدم الإعلان عن موعد الهجرة يقلل أو يمس شجاعة رسول الله ﷺ ، فإذا كان أبو بكر لم يستطع أن يقدم على الهجرة إلا بعد استئذان الرسول، فكيف يخرج الرسول مهاجرا دون أن يستأذن ربه ويأذن له؟ بل إن أقصى الشجاعة أن يبقى رسول الله فى مكة بعد أن هاجر معظم أصحابه، و لم يبق معه أحد بمكة إلا على بن أبى طالب، وأبو بكر الصديق، ومن حبس أو فتن من المسلمين.

هذا هو غاية التحدى، لقد سهل الأمر على المشركين هدفهم المحدد هو الرسول ومكانه معروف، وعليهم أن يفكروا مطمئنين إلى التخلص منه، ومن هنا تظهر الشجاعة، وتظهر المعجزات التى يريد الله إظهارها، ولو تمكنوا من القضاء على محمد ﷺ ، فإن المسلمين الذين خرجوا من مكة مهاجرين لم يستطيعوا العودة إليها ثانيا إلا مهانين مفتونين بعد تقديم فروض الطاعة والولاء لقريش ولديانتها وأصنامها، فإن الدعوة تكون فى بدايتها بلا محمد أى بلا داعيه.

هذا ما فكر فيه الكافرون المشركون، أو هو الإغراء الذى وضع لهم، وأراد الله تعالى أن يظهر عجزهم، ويبطل مكرهم وتدبيرهم لعلهم يرجعون عن عنادهم، فيؤمنون بالله وبالنبى الذى أرسلهم إليهم، فإن أبوا إلا الكفر فإن ما حبط من تفكيرهم وتدبيرهم سيدفع غيرهم إلى الإيمان بالله تعالى، واحتقار صناديد قريش من عبدة الأصنام والأوثان.

ثم هناك ملمح أخر يفيد فى تأخر الرسول فى الهجرة عن سائر المهاجرين، إنه يمثل القائد الملتحم بجنوده الذى لا يتركهم من خلفه للأعداء لا يشاركهم آلامهم، والمتاعب التى يواجهونها، ويخرج هو إلى الجهة الآمنة

التى أخذ عليها العهد ألا يسلمونه لشيء أبدا.

ولكنه أخذ بيعة العقبة الأولى والثانية ليكون المهاجرون الأوائل آمنين على حياتهم بالمدينة، أما هو كقائد فإنه بقى بمكة ليحافظ على جنوده وأتباعه، ويضرب لهم المثل فى القدوة، وفى تحمل أذى المشركين، فهو إذن أول من يواجه العدو، وآخر من ينصرف عنه بعد أن يطمأن على سلامة جميع أفراد جنوده!.

وهكذا نرى تأخير هجرة الرسول ومعه أبو بكر وعلى هو قمة الشجاعة والتضحية والفداء، لقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يضع لمن معه ومن يجئ بعده أولى مبادئ الجهاد الحق وشرف الجندية.

تآمر قريش:

وهكذا ذهبت قريش للتشاور والتآمر بدار الندوة، وتواعدوا على اللقاء فى يوم سموه يوم الرحمة، فاعترضهم إبليس فى هيئة شيخ جليل عليه بتله – كساء غليظ – فوقف على باب الدار، فلما رأوه قالوا له: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد سمع بما تواعدتم عليه، فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا يعدمكم منه رأيا ونصحا، قالوا: أجل، فادخل، ونظر بعضهم إلى بعض يقولون: حسن إنه ليس من أهل تهامة، فإن هوى أهل تهامة مع محمد، وتمتم الشيطان قائلا: نعم من نجد التى قال محمد: «منها يطلع قرن الشيطان»، فدخل معهم، وقد اجتمع فيها أشراف قريش من بنى عبد شمس: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب. ومن بنى نوفل بن عبد مناف: طعيمة بن عدى، وجبير بين مطعم، وحارث بن عامر بن نوفل. ومن بنى عبد الدار بن قصى: النضر بن الحارث بن كلدة. ومن بنى أسد بن عبد العزى: أبو البخترى بن هشام، وزمعة بن الأسود بن المطلب، وحكيم بن حزام. ومن بنى مخزوم: أبو جهل بن هشام، ومن بنى سهم: نبيه ومنبه ابنا الحجاج. ومن بنى جمح: أمية بن خلف. ومن كان معهم وغيرهم ممن لا يعد من قريش.

ولنا أن نتأمل فى وجوه هؤلاء وغيرهم، لنعرف أهمية هذا الاجتماع وما أعد له من قيادات مشركة ناقمة على محمد ﷺ، قال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأيا فتشاوروا، ثم قال قائل منهم: احبسوه فى الحديد، وأغلقوا عليه بابا، ثم تربصو به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله زهيرا والنابغة، ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم.

قال الشيخ النجدى: لا والله، ما هذا لكم برأى، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأى، فانظروا فى غيره؟.

فتشاوروا، ثم قال قائل منهم: نخرجه من بين أظهرنا، فننفيه من بلادنا، فإذا خرج عنا فو الله ما نبالى أين ذهب، ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه، فأصلحنا أمرنا، وألفتنا كما كانت.

قال الشيخ النجدى: لا والله، ما هذا لكم برأى، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به؟ والله لو فعلتم ما أمنتم أن يحل على حى من أحياء العرب، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم فى بلادكم، فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد، دبروا فيه رأيا غير هذا.

فقال أبو جهل بن هشام: والله إن لى فيه لرأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد، قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليدا نسبيا وسيطا فينا، ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب

قومهم جميعا، فإذا رضوا منا بالعقل - أى بالدية - فعقلناه - أى دفعنا ديته - استرحنا منه. قال الشيخ النجدى: القول ما قال الرجل، هذا الرأى الذى لا رأى غيره.

واجتمع الشباب الجليد النسيب الوسيط فيهم، اجتمعوا بسيوفهم المنتقاة على باب رسول الله ﷺ يرصدونه متى ينام، فيثبون عليه وثبة رجل واحد.

وخرج عليهم رسول الله ﷺ، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه، فلا يرونه فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾.

حتى فرغ رسول الله ﷺ من هذه الآيات، ولم يبق منهم رجل إلا قد وضع على رأسه ترابا ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب.

فآتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال: ما تنتظرون هاهنا؟ قالوا: محمدا، قال: خيبكم الله، قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلا إلا وقد وضع على رأسه ترابا وانطلق لحاجته أما ترون ما بكم؟ فوضع كل رجل منهم يده على رأسه، فإذا عليه تراب

أرأيت أى خيبة أمل، وأى ذل وهوان وازدراء لحق بكل هؤلاء المشركين الشياطين المجتمعين بقيادة كبيرهم إبليس اللعين، والذى نسى ما سبق أن أفصح به أمام رب العالمين: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾ [ص: ٨٢، ٨٣] ولم يسأل نفسه: ما موقع محمد من هؤلاء المخلصين، وإن لم يكن محمد منهم، فمن يكون سواه؟!.

بكاء أبو بكر لشرف الصحبة:

عن عائشة أم المؤمنين قالت: كان لا يخطئ رسول الله ﷺ أن يأتى ببيت أبى بكر أحد طرف النهار إما بكرة وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذى أذن رسول الله ﷺ بالهجرة والخروج من مكة من بين ظهرى قومه آتانا

رسول الله ﷺ بالهاجرة فى ساعة كان لا يأتى فيها، فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر قد حدث، فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس، ليس عند أبى بكر إلا أنا وأختى أسماء، فقال رسول الله ﷺ : «أخرج عنى من عندك»، فقال أبو بكر: إنما هما ابنتاى، وما ذاك؟ فداك أبى وأمى، قال: «إن الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة»، قال أبو بكر: والصحبة يا رسول الله؟ قال الرسول: «والصحبة»، قالت عائشة أم المؤمنين: فو الله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدا يبكى من الفرح، حتى رأيت أبا بكر يومئذ، ثم قال: يا نبى الله، إن هاتين راحلتان، قد كنت أعددتهما لهذا.

فاستأجرا عبد الله بن أريقط رجلا من بنى الدئل بن بكر، وكانت أمه امرأة من بنى سهم بن عمرو، وكان مشركا يدلهما على الطريق، فدفعا إليه راحلتيهما، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما.

خرج رسول الله ﷺ من بيته مهاجرا إلى الله تعالى، والله مؤيده وناصره ومطمئنه، فقد ضرب على أبصار المحيطين ببيته، فما رأوه وهو يشق طريقه إلى خارج الدار وينثر على رءوسهم التراب والغبار، وكأنه يقول لهم: التفتوا إلى هذه المعجزة، أنتم بشبابكم وقوتكم وكثرتكم وأسلحتكم وسيوفكم تحيطون بالدار لا تدعون منفذا لداخل أو خارج تستهدفون فردا واحدا داخل الدار، وتزمعون قتله بضربة رجل واحد ليضيع دمه بين القبائل، وهو لم يؤذ أحدا منكم، ولم تعرفوا عنه إلا الصدق والأمانة، وهاهو ذا داخل هذه الدار، ورغم كل هذه الاحتياطات التى أنتم عليها، فقد خرج من بينكم لا تدرون كيف، وهو ليس بساحر ولا شاعر، ولكنه رسول الله وخاتم النبيين، فالتفتوا إلى هذه المعجزة، وتأملوا كيف تمكن من اختراق هذا الحصار المسلح لعلكم تتعرفون على الحق، وتتركون ما أنتم عليه من الباطل.

لقد ترك الرسول ما ترك على رءوسهم فى شجاعة وثقة بالله تعالى، فهو لم يزل بمكة ولم يخرج بعد منها، والتراب المنثور على رءوسهم يشير إلى

غفلتهم والسخرية منهم مما يدفعهم إن لم يؤمنوا إلى مزيد من الغيظ والحنق، والسعى الحاقد إلى الإمساك بهم قبل أن يفلت منـهم، ويغادر مكة ولكن أنى لهم هذا والله تعالى هو الذى أذن لـه بـالهجرة لنشر الدعـوة فـى مكـان آخر، ورغـم هـذه الثقـة بـالله تعـالى التـى لا حـد لهـا، فلابـد مـن الأخـذ بالأسباب.. لماذا؟ لأن الأخذ بالأسباب عمل بشرى، والتأييد الإلهى مشـيئة إلهية، ولابد للإنسان من تقديم العمل، وبذل الجهد قدر استطاعته ليحصل على التأييد الإلهى ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [محمد: ٧].

ومحمد ﷺ هو آخر الأنبياء وخاتمهم، وهو الذى يتلقـى الوحـى عـن الله تعالى ويبلغه للناس، ولا وحى بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى، فكيف يترك أمته بعده دون أن يرشدها إلى كيفية مواجهة المشكلات، والعمل على حلها بالتفكر السليم، والتخطيط الرشيد، ليكونـوا أهـلا لنصـرة الله تعـالى، وحتى يكون لهم التقدير والتوقير والاحترام فى المجتمعات التى تعيـش معـهم أو تعيش من حولهم، فيرى فيهم من يعيش معهم فى الداخل، ومـن يتعـامل معهم فى الخارج أنهم أهل للتقدم والريادة لأنفسهم ولغيرهم، وأنهم أرباب حضارة وقيادة.

التخطيط للهجرة:

لكل ما سبق نجد الرسول عليه السلام بحث أمر الهجرة من جميع جوانبه، ووضع المبادئ الآتية:

١ – رد الودائع:

لم يكن أحد بمكة عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عند رسول الله ﷺ لما يعلم من صدقه وأمانتـه، والعجيـب أن أعـداء رسـول الله والمـتربصين بـه لقتلـه لم يلتفتـوا إلى هـذا الخلـق الكريـم الـذى يحـرص علـى المحافظـة علـى الأمانات المودعة لديه، حتـى فـى أشـد المواقـف، فقـد تـرك الرسـول عليـه السلام «على بن أبى طالب»، وأمره أن يبقى بعد هجرته ليرد الأمانـات إلى أصحابها! فهذا مبدأ إسلامى لا تجوز مخالفته تحت أى ظرف من الظـروف،

ومهما كان موقف أصحابها منه.

٢ – التكتم الشديد:

«استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان»، فلم يعلم بمخبئهما فى الغار غير عبد الله بن أبى بكر وأختيه عائشة وأسماء، ومولاهم عامر بن فهيرة، ومع عناية الله خرج الرسول عليه السلام من بيته فى الثلث الأخير من الليل إلى دار أبى بكر، وخرج من دار أبى بكر هو والصديق من خوخة – فتحة صغيرة – فى ظهر الدار فى موعد غير مألوف.

سار أيضا فى طريق غير معتاد؛ لأنه متيقن من أنهم سيقتفون أثره، فانطلقوا جنوبا إلى غار ثور، كما لو كان متجها نحو «اليمن» ليعمى عليهم طرق البحث عنه إذ أن هذا الإتجاه لم يكن يرد على البال، قام بتوزيع الأدوار على المتعاونين معه.

فقد عمدا إلى غار ثور «جبل أسفل مكة» فدخلا فيه، وأسند إلى عبد الله ابن أبى بكر أن يتسمع ما يقوله الناس فيهما طول النهار بمكة، ثم يأتيهما فى المساء بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر، وأسند إلى عامر بن فهيرة أن يرعى الغنم بالنهار ثم يريحها عليهما، فيحتلبا حاجتهما من اللبن ويذبحا، وإذا عاد عبد الله بن أبى بكر من عندهما تبعه عامر بالغنم، فعفى على آثاره ومحى آثار أقدامه، أقاما بالغار ثلاثة أيام، وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما بالطعام إذا أمست بما يصلحهما، فلما مضت الأيام الثلاثة، ويئست قريش من معرفة مكانهما أو العثور عليهما، وسكنت حركة البحث عنهما أتاهما صاحبهما الذى استأجراه ببعير لهما وبعير له.

ذات النطاقين:

وأتتهما أسماء بنت أبى بكر بما يتودان به فى سفرهما، ونسيت أن تأتى بما يربط به على فم المزادة ليحفظ ما فيها – العصام – فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة، أو المزادة، أو الوعاء الذى فيه الطعام فلم تجد الحبل الذى يعلق به وهو ما يسمى بالعصام، فحلت نطاقها فجعلته عصاما، ثم علقتها

به، فسميت منذ ذاك الحين بـ«ذات النطاقين»؛ لأنها شقت نطاقها اثنين، علقت زاد السفر بواحد، وانتطقت بالآخر.

فدائية أبى بكر رضى الله عنه:

حينما انتهى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار ليلا، دخل أبو بكر قبل رسول الله يتلمس ما فى الغار، ويستكشف ليفدى بنفسه رسول الله ﷺ إذا ما كان فى الغار ما يعرض الرسول للأذى كسبع، أو حية، أو أى شىء آخر خطر على رسول الله ﷺ فلما اطمأن إلى سلامة الغار من الداخل دخل الرسول بعده.

اللحظات الرهيبة:

فى أثناء الأيام الثلاثة بالغار، لم تكف قريش عن البحث عنهما وطلبهما لضيقهما من إفلات الرسول من بين أيديهما رغم محاصرته فى بيته، وتضييق الحصار عليه، ثم إفلاتهما معا هو وصاحبه بخروجهما معا مهاجرين لاستكمال العدة فى بلد آخر آمن لهما هو «يثرب».

أبو جهل وأسماء:

حدثت بنت أبى بكر، قالت: لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر رضى الله عنه، آتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبى بكر، فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك يا بنت أبى بكر؟ قالت أسماء: لا أدرى والله أين أبى؟ قالت: فرفع أبو جهل يده، وكان فاحشا خبيثا، فلطم خدى لطمة طرح منها قرطى.

وما فعله أبو جهل إنما يدل على مدى غيظه من إفلات محمد ﷺ وصاحبه للمرة الثانية من بيت أبى بكر، هذا الغيظ الذى يدل على مدى ما كان يعانيه من وقع هذا الفشل على نفسه، والذى جعله يفقد السيطرة على نفسه، ويلطم فتاة لا أحد معها فى ذلك الوقت يدافع عنها، ولطمها يعتبر سبة فى جبين رجولته، حتى فى عهد الجاهلية!.

كيف يفلت هذه المرة أيضا، والطريق إلى يثرب واحد؟ وها هم أولاء فتيان قريش، من كل بطن رجل يدورون باحثين منقبين في كل اتجاه يحملون الأسياف والعصى والهروات، لينقضوا بها على هذا الرجل الأعزل من أى سلاح هو وصاحبه. وأراد الله تعالى هذه المرة أيضا أن يصفع كبرياءهم ويخزيهم، فيعودوا مطأطأة رءوسهم، يجرون أذيال الخيبة والفشل.

معجزة الغار:

رأى فتيان قريش راعيا على مقربة من غار ثور، فسألوه، فكان جوابه قد يكونان بالغار، وإن كنت لم أر أحدا أمه!.

يا لقدرة الله، ويا للموقف الرهيب الذى وجد أبو بكر نفسه فيه، ويا لليقين الإلهى، والثقة الربانية، التى أودعها الله تعالى بقلب محمد ﷺ.

أقبل بعض القرشيين يتسلقون إلى الغار، ثم عاد أحدهم أدراجه، فسأله أصحابه: مالك لم تنظر فى الغار؟ قال: إن عليه العنكبوت من قبل ميلاد محمد، وقد رأيت حمامتين وحشيتين بفم الغار، فعرفت أن ليس أحدا فيه.

ولنتخيل مقدار الرعب والخوف فى قلب صاحب محمد أبى بكر الصديق، لخوفه على صاحبه وحبيبه، وعلى الرسول والرسالة، هذه الحالة الرهيبة التى كان عليها أبو بكر صورها فى هذه الكلمات القليلة الهامسة: «لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا».

ولنتصور مقدار فزعه لو حدث وتمت هذه الرؤية، ولكن الرسول الذى كان فى حالة من اليقين لا يعرف حقيقتها إلا الله واهبها، وقلب رسوله الذى كان مستقرا ومستودعا لهذا اليقين..

«لا تحزن.. إن الله معنا ما ظنك باثنين الله ثالثهما». أى شرف يصل إلى هذا المدى الذى وصل إليه أبو بكر بفضل صحبته للرسول ﷺ.

شرف «معية الله»!! شرف «اثنان الله ثالثهما»!! ما هذه السماوات، وهذه الارتقاءات التى رفع الله إليها أبا بكر، وأية درجة تلك، ومن يجرؤ

على القول أنه يشاركه فيها من صحابة رسول الله ﷺ أليست هى الدرجة التى جعلت رسول الله يصمم على ألا يؤم المسلمين أحد بعد رسول الله ﷺ إلا أبو بكر، أليست هى درجة الصديقية التى تفرد أبو بكر بالوصول إلى أعلى درجاتها ومرتقياتها، والتى كان يراها الرسول فى إمامة المسلمين فى الصلاة، الصلاة التى صعد الرسول من أجلها إلى أعلى عليين، ليرجع الرسول بفرضيتها على جميع المسلمين، وبالطريق المباشر بين رب العزة ورسوله، دون وساطة جبريل عليه السلام! كبير الملائكة أجمعين!.

وعاد فتيان قريش.. وهاهم أولاء ينسحبون بعيدا عن الغار فى بطء وتثاقل وزادهم اقتناعا أن رأوا الشجرة تدلت فروعها إلى فوهة الغار، ولم يجدوا فى نفوسهم من القناعة ما يجعلهم يزيلون هذه الفروع، عاد فتيان قريش يجرون أذيال الفشل والخيبة للمرة الثانية أو الثالثة، يسترجعون المشاهد التى مرت بهم، عجزهم عن الإمساك به فى بيته، عجزهم عن القبض عليه وعلى صاحبه فى بيت أبى بكر، عجزهم وفشلهم فى معرفة المكان الذى يختبئ فيه وهم يقفون على بابه!.

ولو نظر أحدهم تحت قدميه لرآهم على تعبير أبى بكر الصديق، ولم يعتبروا، ولم يلتفتوا إلى هذه العناية التى أحاط الله بها رسوله، بأى دافع؟ أهو الكبر؟ أهو انغلاق صدورهم على الكفر مما حجب نور الإيمان وحال بينه وبين الدخول إلى هذه القلوب القاسية الجاحدة لآيات الله؟ تلك الآيات التى يرونها رأى العين: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٣] إنه الله الذى أعماهم عنه فى كل مرة كان يبدوا فيها وكأنه بين أيديهم، ولا منقذ له، ولا مهرب منهم، لكنه كان ينجو بطريقة تزيد المؤمنين بالله إيمانا، تزيد الكافرين كفرا وجحودا.

وهذه هى الخاصية العجيبة التى أودعها الله تعالى فى قرآنه الكريم، فقال: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ ﴾ [فصلت: ٤٤].

سجل الله تعالى فى قرآنه الموقف فى الغار بقوله: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ

نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [التوبة: ٤٠].

أرأيت هذا الحشد الهائل من جنود الله، وهل كان لفتيان قريش، أو لأى أحد آخر أن يخترق هذا الحشد، ويصل إلى رسول الله وصاحبه، إن العنكبوت الذى نسج ما نسج على الغار، واليمامتين الوحشيتين اللتين باضتا ببابه! أو لم تبض، والشجرة التى دلت فروعها إلى الباب!.

هذه صور مرئية شاهدها فتيان قريش، وكانت قابلة للرؤيا لأى أحد يقف هناك وينظر إليها لكن الله تعالى لم يكتف بهذا ولكنه قال: ﴿ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾، فما هى هذه الجنود غير المرئية إن الله جعل لنا فيما نراه دليل صدق على ما لا نراه، ويخبرنا به سبحانه وتعالى؛ لأن نجاة الرسول وصاحبه لم تكن مرهونة بخيط من خيوط العنكبوت، ولا بحمامتين، ولا بفروع شجرة، وبدون هذه الأشياء الظاهرة لم يكن أحد بقادر على أن يمس رسول الله وصاحبه بسوء، وإنما رسمت وجعلت هذه الأشياء الضعيفة الهيئة لتهوين أقدار هؤلاء الذين يطاردون الرسول ﷺ، فأقدارهم وعيونهم وقوتهم غير قادرة على أن تدرك من وراء هذه الستائر الشفافة الضعيفة الواهنة فما أوهنهم على الله تعالى.

ويقول «درمنجم» المستشرق: هذه الأمور الثلاثة هى وحدها المعجزة التى يقص التاريخ الإسلامى: نسيج العنكبوت، وهوى حمامة، ونماء شجيرة، وهى أعاجيب ثلاث لها كل يوم فى أرض الله نظائر.

يذكر أن هذه الأمور الثلاثة هى وحدها المعجزة! فهل يا ترى وصل هذا المستشرق إلى ما وراء هذه المظاهر الثلاث التى لها كل يوم فى أرض الله نظائر، فهل وصل إلى ما ليس له فى أرض الله نظائر، والذى أخفاه الله

تعالى وذكره في قوله: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أم أنه توقف عند هذه الأشياء فقط، ولم يتأمل فيما هدأ بعد منها.

يمامة الغار:

وكانت يمامة الغار مبعث إعجاب شديد كإحدى جنود الله عز وجل، فكانت مصدر هذه الأبيات أخاطبها بها رغم مضى كل هذه السنون:

يمامة الغار قلبي نهر أسئلة فهل أصادف في عينيك شطآنا؟
يمامة الغار من أوصاك أن تقفي ببابه حارسا للحب يقظانا
آما رأيت جنود الشرك قد وفدوا والحقد أضرم في الأحشاء نيرانا
وأزمعوا القتل ما لانت عزيمتهم وأنت بالباب ما أزمعت هجرانا
هل قلت للظلم إن الحق منتصر حتى ولو كان يبدو أعزلا آنا
هل كنت أول من في الطير صدقه فجئت تعطينه عهدا وبرهانا؟!
أم كنت أخت أبي بكر مرافقة أم كنت في رقة الإحساس عثمانا؟!
أم جئت تفدينه بالروح.. يا عجبا أيعرف الطير الاستشهاد أحيانا
أم أنت حين رأيت الغار فوهة حشوت نفسك بارودا ودخانا
أم أنت لما رأيت الغار مزدلفا ما عدت تخشين إنسيا ولا جانا
يمامة الغار لو أعطيت أجنحة لجئت أهديك فوق السحب شكرانا
كنت الوفاء الذى غابت ملامحه كنت الإخاء الذى ننساه نسيانا
كنت التحدى إله الكون صوره في لوحة حية بالباب إعلانا
فكيف نجهل ما صورت من قصص وكيف نجحد ما قدمت نكرانا
وكيف ننسى أياديك التي سلفت جزاك ربى على الإحساس إحسانا

فشل قريش، نصر للرسول:

إن فشل قريش في القبض على محمد ﷺ يعتبر من أعظم الانتصارات التي حققها الله تعالى له بلا سلاح، وبلا قتال، ولا شك أن ما حدث أثناء الهجرة، وما شاهده أبو بكر بحكم الصحبة والمرافقة، كل ذلك عمل عمله في قلب أبي بكر، وجعله يتلألأ نورا وإيمانا وثقة وطمأنينة إلى الله تعالى.

وفى هذه المطاردة القرشية لمحمد ﷺ، وفشلها فى اللحاق به نزل قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾. [الأنفال: ٣٠].

الفرق بين مكر ومكر، مكر قريش كشفه الله سبحانه وتعالى وحدده فى ثلاث صور:

١ - إثبات رسول الله: وهو يعنى القيد أو الحبس أو القيد والحبس معا.

٢ - القتل.

٣ - الإخراج.. إلى حيث يريدون هم.

وقد فشلت قريش فى تحقيق أى صورة من هذه الصور.

لماذا فشلت قريش؟

لأن الله تعالى يقابل مكرهم بما يبطله، ومن اللافت للنظر أن الله تعالى هو الذى يتصدى بذاته العلية لمكر الكافرين دفاعا عن المؤمنين، على نحو يطمئن بالنصر المحقق الأكيد، إذا توافر الإيمان الحقيقى فى قلب المؤمن.

وذلك لأن المكر أمر غيبى يدبر فى الخفاء، ولا قدرة لأحد على العلم بما يدبر فى قلوب الآخرين، وإنما القادر على ذلك هو الله تعالى، والمؤمن هو: ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [ق: ٣٣].

والمكر فى اللغة يعنى الخديعة، ومكر الكافرين يستهدف الإضرار، ولذلك فإن الله تعالى هو الذى تكفل بالتصدى لمكر الكافرين، ولم يطلب من رسوله ولا من أحد من المؤمنين أن يمكر بأحد، ونجد هذا فى كثير من الأيات القرآنية:

﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٥٤]، ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٢٦]، ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النمل: ٥٠].

فأى طمأنة للمؤمن أشد وأقوى من أن يتصدى الله تعالى لمكر وخديعة من يخطط ويدبر ويعمل على الإضرار بالمؤمنين؟! فيبطل مكره، ويرده على صاحبه وبالا عليه؟.

* * *

رافق أبو بكر رسول الله ﷺ فى رحلته إلى يثرب تلك الرحلة الممتعة الشاقة التى امتزج فيها الجهد الإنسانى بالعناية الإلهية، فتزود بخير ما يتزود به إنسان له سجايا وشمائل أبى بكر مرافقا لأعظم نموذج بشرى بعثه الله للناس.

– لقد اتخذ إلى يثرب طريقا غير الطريق الذى ألفه الناس.

– اتجه بهما عبد الله بن أريقط دليلهما فى الرحلة، إلى الجنوب بأسفل مكة، ثم متجها إلى تهامة قرب شاطئ البحر الأحمر، ثم اتجه بهما شمالا بحذاء الشاطئ مع الابتعاد عنه، ويتخذ سبلا قل أن يطرقها أحد.

وبقيا طيلة الليل، وصدر النهار على رواحلهم لا يعبآن بمشقة أو تعب، يريدان قطع المسافة فى أسرع وقت وفى حذر شديد خشاة أن يراهما أحد، أو يلحق بهما طالب ثأر لم يرتكباه!.

قصة سراقة:

حدث سراقة بن مالك، قال: لما خرج رسول الله ﷺ مهاجرا من مكة إلى المدينة جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم، فبينما أنا جالس فى نادى قومى إذ أقبل رجل منا فوقف علينا، فقال: والله قد رأيت ثلاثة ركبان مروا على آنفا إنى لأراهم محمدا وأصحابه، أومأ إليه سراقة أن أسكت، ثم قال سراقة: إنما هم بنو فلان يبتغون ضالة لهم، قال الرجل: لعله، ثم سكت، قال سراقة: ثم مكثت قليلا، ثم قمت فدخلت بيتى، ثم أمرت بفرسى فقيد لى إلى بطن الوادى، وأمرت بسلاحى فأخرج لى من دبر حجرتى، ثم أخذت قداحى التى أستقسم بها، ثم انطلقت فلبست لأمتى، ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها، فخرج السهم الذى أكره –

لا يضره - قال: وكنت أرجو أن أرده على قريش، فآخذ المائة ناقة، فركبت على إثره، فبينما فرسي يشتد بي عثر بي، فسقطت عنه، فقلت: ما هذا؟ ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها، فخرج السهم الذى أكره - لا يضره - فأبيت إلا أن أتبعه، فركبت في آثره، فلما بدى لى القوم ورأيتهم، فذهبت يداه في الأرض، وسقطت عنه، ثم انتزع يديه من الأرض، وتبعهما دخان كالإعصار.

قال سراقة: فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع مني، وأنه ظاهر فناديت القوم، فقلت: أنا سراقة بن جعشم، انظرونى أكلمكم، فوالله لا أريبكم، ولا يأتيكم منى شيء تكرهونه، فقال رسول الله لأبى بكر: قل له: «وما تبتغى منا»؟ فقال ذلك أبو بكر، قلت: تكتب لى كتابا يكون آية بينى وبينك، قال الرسول: «اكتب له يا أبا بكر»، فكتب لى كتابا فى عظم أو فى رقعة أو فى خزفة، ثم ألقاه إلى، فأخذته، فجعلته فى كنانتى، ثم رجعت، فسكت فلم أذكر شيئا مما كان، وأخذت أضلل من يطاردونه بعد أن كنت أطارده!.

* * *

ومضى الركب إلى يثرب، ولنا أن نتخيل ما عاناه الصاحبان من مشقة وإرهاق بدنى طوال سبعة أيام يجتازان أغوار صحراء تهامة تلك الصحراء القاسية التى تبدو نهارا وكأنها تتلمظ قيظا، وتبتلع صهدا، وتنفخ لهبا، فينيخ الصاحبان نهارا رفقا بأجسامهما لا يخشيان شيئا، فقد تيقنا أن الله تعالى معهما، حتى إذا جاء المساء، واختفت الشمس فى أحشاء الأفق، وظهرت النجوم كحبات مسبحة متلألئة، وأصلا سراهما على سفينة الصحراء لا يغتران عن التأمل وذكر الله والدعاء.

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم: ١٧، ١٨].

وبعد سبعة أيام من المعاناة الجسدية والمفاجأة الروحية، وصل الركب

النبوى إلى حيث تقيم قبيلة بنى سهم، حيث استقبلهما شيخها بريدة فحياهما بتحية الإسلام، وصارا على مقربة من «يثرب» وتهيأت المدينة لاستقبال أكرم وافد عليها عرفه التاريخ.

كيف عرفوا الرسول:

لقد عرفت المدينة رجالا من أصحاب رسول الله، من خير الدعاة دماثة خلق ولين جانب، ودعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وأظهرهم حجة وبرهانا أناسا يألفون ويؤلفون يواجهون كآبة الباطل بنور الحق وبشاشته، يأخذون الناس بالرحمة والرفق يوضحون حقيقة الإسلام، ولا يجبرون أحدا على ترك عقيدته، فإذا كان هؤلاء الدعاة الأوائل على ما هم عليه من شمائل، فكيف بمعلمهم الأول، ونبيهم المرسل الذى سمعوا عنه، ولم يروه، وماذا قال شهود العيان؟.

عن عبد الرحمن بن عويمر بن ساعدة، قال: حدثنى رجال من قومى من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: لما سمعنا بمخرج رسول الله ﷺ من مكة وتوكفنا [1] قدومه كنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حرتنا [2] ننتظر رسول الله ﷺ فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال، فإذا لم نجد ظلا دخلنا، وذلك فى أيام حارة، حتى إذا كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله ﷺ جلسنا كما كنا نجلس، حتى إذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا، وقدم رسول الله حين دخلنا البيوت، فكان أول من رآه رجل من اليهود قد رأى ما كنا نصنع، وأنا ننتظر قدوم رسول الله ﷺ علينا، فصرخ اليهودى بأعلى صوته: يا بنى قيلة، جدكم [3] قد جاء، قال: فخرجنا إلى رسول الله ﷺ وهو فى ظل نخلة، ومعه أبو بكر رضى الله عنه فى مثل سنه، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله ﷺ قبل ذلك وركبه [4] الناس، وما يعرفونه من أبى

(١) توكفنا: انتظرنا قدومه.

(٢) الحرة: أرض ذات حجارة نخرة سود بالجهة القبلية من المدينة.

(٣) جدة: أنصار ينسبون إليها.

(٤) ركب: إزدحموا عليه.

بكر، حتى زال الظل عن رسول الله ﷺ فقام أبو بكر فأظله بردائه، فعرفناه عند ذلك، وهكذا كان توقير أبى بكر وحبه وخوفه على رسول الله خلة دائمة.

وشارك أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى بناء مسجد قباء، وبناء مسجد المدينة، ولم يتخلف عن رسول الله ﷺ فى عمل قط، وآخى الرسول فى المدينة بين أبى بكر، وخارجة بن زهير أخى بلحارث بن الخزرج، فكانا أخوين، وذلك ضمن خطة رسول الله فى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وبهذه المؤاخاة التى تشاور فيها الرسول ووزيراه أبو بكر وعمر كما كان يسميهما ازدادت وحدة المسلمين توكيدا.

فقد جعل الرسول لهذا الإخاء حكم إخاء الدم والنسب.

أبو بكر وفنحاص:

ما كان لأبى بكر وهو أول من علم أمر رسول الله، وصدق به وأسلم على يديه من أسلم من المسلمين الأوائل، ومن المبشرين بالجنة.

ما كان له أن يترك الدعوى إلى الله بالمدينة المنورة، فدعا يهوديا يدعى فنحاص إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، ولكن اليهودى فنحاص استثاره إلى الحد الذى أخرجه فيه عن طوره، وما هو معروف عنه من دماثة خلق ولين طبع وطول صبر.

قال فنحاص لأبى بكر: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه، كما يتضرع إلينا، وإنا عنه أغنياء، وما هو عنا بغنى، ولو كان غنيا عنا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ينهاكم عن الربا ويعطيناه! ولو كان عنا غنيا ما أعطانا!.

أتأملت إلى ما فى هذا القول من سوء أدب، سوء أدب حتى مع الله تعالى، إن فنحاص.. هذا اليهودى الكافر الذى يخلط ويسئ الأدب ويسئ الفهم عن الله تعالى إنما يشير إلى قول الله عز وجل: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ

ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

لم يصبر أبو بكر، بل لم يطق صبرا على هذا التعدى، فضرب فنحاص ضربا شديدا لا يستحق غيره، وأسرع فنحاص إلى رسول الله ﷺ وشكا له ما فعل أبو بكر به، وأنكر ما قاله لأبى بكر، كما هو حال الكاذبين المفترين. إن الله تعالى، وهو الغنى، مالك الملك، خالق السموات والأرض وما فيهن ومن فيهن.

إنه سبحانه يتقرب إلى عباده، ويحببهم فى الصدقات من المال الذى سبق لله تعالى أن رزقهم به وأعطاه لهم، صورة من الرفق والرحمة والكرم. والحث على الصدقات وأعمال الخير التى لا تعود على الله بشىء، ولكنها تدعم التكافل والتضامن والترافق بين الناس.

صورة من الخلق الربانى إن جاز هذا التعبير، لا تصدر إلا عن الله تعالى الذى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ بدلا من أن يقول فنحاص: ما أكرم هذا الإله الواحد الأحد الذى يعطى، ويقول للمعطى له: «أقرضنى مما أعطيك، بأن تعطى شيئا منه لأخيك فلان، أو لأى إنسان يستحق العطاء، فأزيد عطاءك فى الدنيا، وأكافئك فى الآخرة بما عندى من نعيم لا يزول».

لنتأمل قلب فنحاص المغلق الذى يحاول وهو يعلم أنه على غير الحق، بدليل إنه أنكر ما سبق أن قاله عند تقديم شكواه، لرسول الله ﷺ، ولكن الله المطلع على حقيقة الأمر فضح كذبه، وأصدر الحكم فيما صدر منه. فنزل قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ﴾[آل عمران: ١٨١].

و لم يكتف الله تعالى بالرد على ما قال فنحاص من كذب وبهتان، بل كشف عن ماضيهم السىء فى قتلهم الأنبياء بغير الحق ليبين لنا أن من قتلوا الأنبياء بغير الحق لا يستغرب منهم أن يقولوا مثل هذا الذى قاله فنحاص.

فبالله عليك يا أخى ألم يك فنحاص جديرا بما وقع عليه من

ضرب؟!وهل كان يكفى ضرب هذا «الفنحاص» باليد مهما كان الضرب موجعا وشديدا، أم أن أبا بكركان حليما، وفى غاية الحلم، حين لم يضربه بشيء آخر جدير به على أم رأسه، التى حبلت وولدت هذا الجنين المشوه من الأفكار.

* * *

غزوة بدر:

من المشاهد التى شهدها أبو بكر الصديق مع رسول الله ﷺ نذكر من هذه الغزوة ما يتصل بأبى بكر الصديق، وإن كانت صلته برسول الله القائد الأعلى للمسلمين يتعذر فصلها، فقد كان هو وزيره الأول الذى لم يفارقه مدى الحياة فى كل الأمور، وكل الغزوات بالمشورة والمشاركة الفعلية، إلا إننا نحاول هنا أن نكتب عن الصديق بما لا يحجب أدوار الآخرين، أو يضطرنا إلى تكرار ما سبق ذكراه.

مبدأ المساواة فى نقل القوات المحاربة:

نقول: إن أبى بكر رضى الله عنه أعتقب بعيرا واحدا مع اثنين آخرين من الصحابه هما: عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما، من «سبعين بعيرا» تمثل مركبات نقل الجنود، جعلوا يعتقبونها كل اثنين منهم وكل ثلاثة، وكل أربعة يعتقبون بعيرا، إقتداء برسول الله ﷺ الذى كان حظه فى هذا كحظ سائر أصحابه، فقد كان هو وعلى بن أبى طالب ومرثد بن أبى مرثد الغنوى يعتقبون بعيرا، فمبدأ المساواة من المبادىء الأساسية فى الإسلام، وكان الرسول عليه السلام فى هذا المبدأ وفى غيره مثلا أعلى فى التطبيق على أرض الواقع.

بعض مناشدتك ربك:

لما رأى رسول الله كثرة قريش، وقلة عدد المسلمين فى وقعة بدر، وضعف عدتهم وأسلحتهم، إذا قيست بعدة وأسلحة المشركين، عاد إلى العريش الذى يمثل مركز قيادة المسلمين، ومعه أبو بكر، واتجه إلى القبيلة،

وجعل يبتهل إلى الله تعالى، ويتضرع إليه، ويسأله النصر ويقول: «اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها، تحاول أن تكذب رسولك، اللهم فنصرك الذى وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد....». وما زال يهتف بربه ويتضرع له حتى سقط رداؤه، وجعل أبو بكر، وهو واقفا وراء النبى يرد رداءه على منكبيه، ويقول: يا نبى الله بعض مناشدتك ربك، فإن الله منجز لك ما وعدك».

فيا لهذا الاشفاق الحقيقى الصديقى النابع والمتدفق من قلب رفيق النار، والذى رأى بعينيه من آيات تأييد الله للنبى ﷺ ما جعله مستيقنا من وفاء الله بالنصر الذى وعد به رسوله، فانطلقت من بين شفتيه هذه الكلمات الواثقة ليطمئن صاحبه وقائده ومرشده الحبيب بأن نصر الله قريب، وكأن كلمات أبى بكر كانت هى البشارة الحقيقية.

فخرج الرسول يعلن من حوله من جند الإسلام قائلا: «والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنه».

موقف الصديق فى قضية أسرى بدر:

بدأت غزوة بدر طلبا للعير، واحتمال القتال الناشب عن الدفاع عن العير، وكان عدد المسلمين أكبر بكثير من المشركين الذين وكل إليهم المحافظة على أموال التجارة التى حاول المسلمون التعرض لها، وأخذها عنوة واقتدار، ولذا قال الرسول لهم: «هذه عير قريش، فيها أموالهم لعل الله أن ينفلكموها».

فأسرع من أسرع إلى ذلك، وأبطأ عنه بشر كثير، وانتهى الأمر بعد خروج المسلمين إلى أن يصبح مواجهة قريش بعدد من المقاتلين يزيد على ثلاثة أضعاف عدد المسلمين، مع كثرة فى العدد والسلاح.

واستشار الرسول الصحابة فى هذا الموقف الجديد، واستقر على خوض معركة غير متكافئة حقق الله لهم فيها النصر المؤزر، وقتل فيها من قتل من

صناديد قريش وعتاولة التعذيب مثل أبى جهل وعتبة وشيبة وغيرهم، وأسر المسلمون الكثير من المشركين، وفرق الرسول عليه السلام الأسرى بين أصحابه، وقال لهم: «استوصوا بهم خيرا».

وبدأ التشاور: أيقتلهم أم يأخذ منهم الفداء؟ وتمخض التشاور عن رأيين، فقد بعث الأسرى إلى أبى بكر يبدون استعدادهم للفدية، لأنه أولى قريش لأرحامهم وأكثرهم رحمة وعطفا، وليس أحد آثر منه عند محمد، ولقد خاف الأسرى رأى عمر لما هو معروف لهم عنه.

رأى أبى بكر:

وقف أبو بكر أمام الرسول يدافع عما يرى فى قضية الأسرى، فيقول: يا رسول الله، بأبى أنت وأمى قومك فيهم الأباء والأبناء والعمومة وبنوا العم والإخوان، وأبعدهم منك قريب، فامنن عليهم من الله عليك أو فادهم (تقبل منهم الفداء) يستنقذهم الله بك من النار، فتأخذ منهم ما أخذت قوة للمسلمين، فلعل الله أن يقبل بقلوبهم على الإسلام. وسكت الرسول ليسمع رأى عمر، وجاء عمر فجلس مجلس أبى بكر، وقال: يا رسول الله، هم أعداء الله، كذبوك وقاتلوك وأخرجوك، اضرب رقابهم، هم رءوس الكفر، وأئمة الضلالة يوطئ الله بهم الإسلام، ويذل بهم أهل الشرك. و لم يجب الرسول، فعاد أبو بكر يتلطف ويستعطف، ويذكر القرابة والرحم، ويرجو لهم الهدى إن أبقى على حياتهم، وعاد عمر إلى رأيه الحاسم فى ضرورة قتلهم.

وقام رسول الله ﷺ فدخل قبته ليختلى بنفسه ساعة، ثم خرج فوجد الناس بعضهم فى صف أبى بكر، والآخر فى صف عمر رضى الله عنهما، فشاور الناس فيما يصنع، وضرب لهم الأمثال فى أبى بكر وعمر، فقال: إن مثل أبى بكر كمثل إبراهيم، كان ألين على قومه من العسل قدمه قومه إلى النار وطرحوه فيها، فما زاد على أن قال كما جاء فى كتاب الله تعالى: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧].

وكما قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٦﴾ [إبراهيم: ٣٦].

ومثله في الأنبياء كمثل عيسى إذ يقول: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١١٨﴾ [المائدة: ١١٨]. ومثل أبي بكر في الملائكة كمثل ميكال، ينزل برضا الله وعفوه على عباده، ومثل عمر في الملائكة كمثل جبريل ينزل بالسخط من الله والنقمة على أعداء الله، ومثله في الأنبياء كمثل نوح إذ يقول: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦﴾ [نوح: ٣٦]، وكمثل موسى إذ يقول: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝٨٨﴾ [يونس: ٨٨].

ثم قال رسول الله ﷺ : «وإن بكم عيلة، فلا يفوتنكم رجل من هؤلاء إلا بفداء أو ضربة عنق». وظل المسلمون في تشاورهم زمنا انتهوا بعده إلى قبول الفداء.

وقضية الأسرى إلى الوقت الذي انتهى فيه المسلمون إلى قبول الفداء، هي قضية عادية طرحت للبحث على مستويات متعددة، طرحت على كبار الصحابة، وطرحت على عامة المسلمين، واتخذ فيها الرأي بقبول الفداء، لكن الذي جعل لهذه القضية أهمية غير عادية أن نزل فيها قرآن كريم يتلى حتى آخر الزمان.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧﴾ [الأنفال: ٦٧]، ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٦٨﴾ [الأنفال: ٦٨]، ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًاۚ وَاتَّقُوا اللَّهَۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٦٩﴾ [الأنفال: ٦٩]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧٠﴾ [الأنفال: ٧٠].

وبالتأمل فى الآيات السابقة، نلحظ:

أنها لم تحرم على الرسول الخيار بين الفداء أو القتل فقد روى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة.

وقد استمر الحكم فى الأسرى عند جمهور العلماء.. أن الإمام مخير فيهم إن شاء قتل كما فعل ببنى قريظة، وإن شاء فادى بمال كما فعل بأسرى بدر، أو بمن أسر من المسلمين كما فعل رسول الله ﷺ بتلك الجارية وأبنتها اللتين كانتا فى سبى سلمة بن الأكوع، حيث ردهما وأخذ فى مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين، وإن شاء استرق من أسر. ابن كثير.

إن الآيات السابقة ترفض أن تكون الغنائم هى الهدف الأساسى الذى يدفع المسلمين إلى ساحات الجهاد فى سبيل الله، وتستنكر عليهم ذلك بدليل قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾.

فإرادة عرض الدنيا هى المرفوضة من جانب الحق تبارك وتعالى، أما إذا خاض المسلمون المعارك جهادا فى سبيل الله وتمخط القتال عن غنائم، فإن حقهم فى الغنائم لا غبار عليه.

فقد قال رسول الله ﷺ «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبل، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا، وأحلت لى الغنائم و لم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وبعثت إلى الناس عامة».

وما أروع رسول الله وأعدله وأحكمه حينما ضرب الأمثلة لأبى بكر وعمر من الملائكة ومن الرسل السابقين: فميكال وإبراهيم وعيسى عليهم السلام أمثلة لطاعة الله تعالى فى صورة الرفق والعطف، وجبريل ونوح وموسى عليهم السلام أمثلة لطاعة الله تعالى فى صورة الشدة والعنف، والجميع يعمل فى طاعة الله تعالى ولا يخرج عليها.

وأحسب أن لين أبى بكر ورفقه كان متجها إلى أولئك الذين يرجى

إيمانهم، ومن الأسرى من أعلن إسلامه فعلا مثل العباس بن المطلب، وأبو العاص بن الربيع، وسهيل بن عمر وغيرهم. وأحسب أن شدة عمر كانت منصرفة إلى أولئك الذين نكلوا بالمسلمين ولا ترجى توبتهم.

وفى الحديث الشريف: «لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها، أو من حمر النعم».

ويكفى أن نقول أنه جاء فى تفسير ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يعنى: فى أم الكتاب الأول أن المغانم والأسرى حلال لكم أو: «لولا أنى لا أعذب من عصانى حتى أتقدم إليه لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم» وتجدر الإشارة هنا إلى كلمة «فيما أخذتم» ثم أتى بعد ذلك تحليل الله تعالى لهذه الغنائم التى أخذت فى قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا﴾، فما فعله الرسول، وما أشار به الصديق صار حلالا طيبا، وليس حلالا فقط.

ومما يلفت النظر فى مسألة الأسرى وقتلهم، أن عمر نفسه الذى كان مثلا للشدة فى هذا الموضوع قبل الاستثناء فيه، بل وسعى إليه:

جاء عن ابن عمر أنه قال: لما أسر الأسرى يوم بدر أسر العباس فيمن أسر، أسره رجل من الأنصار قال ابن عمر: وقد أوعدته الأنصار أن يقتلوه، فبلغ ذلك النبى ﷺ، فقال: «إنى لم أنم الليلة من أجل عمى العباس، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه»، وقال عمر: أفآتهم، فقال الرسول: «نعم»، فأتى عمر الأنصار فقال لهم: أرسلوا العباس، فقالوا: لا والله لا نرسله، فقال لهم عمر: فإن كان لرسول الله ﷺ رضى، قالوا: فإن كانوا لرسول الله ﷺ رضى فخذه، فأخذه عمر، فلما سار فى يده قال له: يا عباس أسلم، فوالله لأن تسلم أحب إلى من أن يسلم الخطاب، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك.

ألا نرى أن الوزيرين أبا بكر وعمر يتقاربان، وإن بدا أحدهما رقيقا لينا غاية اللين، وظهر الآخر شديدا صارما غاية الشدة والصرامة، وفى النهاية إنما يعمل الاثنان فى طاعة الله ورسوله.

إذن فما ورد من أن رسول الله ﷺ قال: «لو أنـزل الله عقابا فـى أنفـال بدر ما نجى منا غير عمر».

أحسب أنه – والله أعلم – يمكن أخـذه علـى الوجـه التـالى: إن الآيـات القرآنية السابق ذكرها لم توجه لشخص رسول الله فى ذاته لمخالفة أرتكبها الرسول، أو أبو بكر أو غيرهما مـن هـذا الفريـق الـذى أتسـم رأيـه بـالرفق واللين، خاصة وأن أبا بكر طلب بداءة، وناشد رسول الله ﷺ أن يمن علـى الأسـرى، فيطلـق منـهم مـن يشـاء أن يطلـق بـلا فـداء، هـذا هـو الطلـب الأساسى، وكان من الواضح أنه كان يرجوا أن يغير الله ما بهم مـن مخالفـة للحق ويهديهم الله تعالى بهذا المن والعفو إلى الإسلام.

والآيات السابقة صريحة فى أنها تعنى وتشـير إلى أولئـك الذيـن يريـدون الحياة الدنيا، والله يريد الآخرة، أى هم الذين توجهت نيتـهم الأساسـية إلى الطمع فى الغنائم، أى للحياة الدنيـا، ولقـد قيـل عـن عبـد الله بـن مسـعود رضى الله عنه: ما كنت أحسب أن فينا من أهل بدر من يريد الحيـاة الدنيـا قبل نزول هذه الآية المشار إليها.

وإذا كان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، لم يظن بنفسه أنه من هؤلاء الراغبين فى الحياة الدنيا، فإن رسول الله ﷺ وأبا بكر رضى الله عنـه، كانـا ممن لا ينطبق عليهم هذا الوصف من باب أولى.

إن رسول الله ﷺ لم يخالف حكمـا نـزل بـه القـرآن، فـإن مـا جـاء فـى القرآن الكريم هو: ﴿ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ ﴾.

وليس لمسكم فيما فعلتم، ليشمل حرمة التخيير، وقد سبق أن رأينا أن حق الوالى فى أن يختار بين الفداء للأسير أو قتله أو استرقاقه، هو ما أستقر عليه رأى جمهور الفقهاء.

كذلك قول الله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

تفيد أن ما حدث كان هـو القـائم والثـابت فـى علـم الله، والمسـجل باللوح المحفوظ، وأنه كان حلالا أمروا بالانتفاع به وأخذه حلالا طيبا.

كما أن الآية سبعين من الأنفال تؤيد أن القتل للأسرى لم يكن حكما صادرا على جميع الأسرى بدليل ما جاء بها من مخاطبتهم عن طريق رسول الله ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾.

وكان العباس رضى الله عنه من هؤلاء، وكان يقول: ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا، وأن لى الدنيا، فقد قال تعالى: ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾. فقد أعطانى خيرا مما أخذ منى مائة ضعف، وقال تعالى: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾، وأرجو أن يكون قد غفر لى.

وقال على بن أبى طلحة فى هذه الآية: كان العباس أسر فى يوم بدر، فافتدى نفسه بأربعين أوقية من الذهب، وقال العباس حين قرأت هذه الآية: لقد أعطانى الله عز وجل خصلتين، ما أحب أن لى بهما الدنيا، أنى أسرت يوم بدر ففديت نفسى بأربعين أوقية، فأتانى الله أربعين عبدا، وإنى لأرجو المغفرة التى وعدنا الله بها.

وقيل فى تصديق ما جاء فى هذه الآية الكريمة: ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾ [الأنفال: ٧٠]. بعث ابن الحضرمى إلى رسول الله ﷺ من البحرين ثمانين ألفا، ما جاءه مال أكثر منه لا قبل ولا بعد، فنثرت على حصير ونودى للصلاة، وجاء رسول الله ﷺ فمثل قائما على المال، وجاء أهل المسجد، فما كان يومئذ عدد ولا وزن ما كان إلا فيضا، وجاء العباس ابن عبد المطلب فحثى - وضع - فى خميصة - رداء - عليه، وذهب يقوم، فلم يستطع فرفع رأسه، فقال: يا رسول الله أرفع على، فتبسم الرسول حتى خرج ضاحكه، وقال له: «أعد من المال طائفة، وقم بما تطيق»، ففعل، وجعل العباس يقول وهو منطلق: أما إحدى اللتين وعدنا الله، فقد أنجزنا وما ندرى ما يصنع بالأخرى، ثم قال: هذا خير مما أخذ منا، فما زال رسول الله ﷺ ماثلا على ذلك المال حتى ما بقى منه درهم، وما بعث إلى أهله بدرهم، ثم أتى الصلاة فصلى.

وجاء فى صحيح البخارى بخصوص هذا المال الوارد من البحرين أن رسول الله ﷺ قال: «انثروه فى مسجدى»، وكان أكثر مال أتى به رسول الله ﷺ، فخرج إلى الصلاة، و لم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه، فما كان يرى أحدا إلا أعطاه، إذ جاءه العباس فقال: يا رسول الله، أعطنى فإنى فاديت نفسى، وفاديت عقيلا، فقال له رسول الله ﷺ: «خذ»، فحثى فى ثوبه، ثم ذهب يقله - أى يقوم به - فقال: يا رسول الله، مر بعضهم يرفعه إلى، قال الرسول: «لا»، قال: فارفعه أنت على، قال الرسول: «لا»، فنثر منه، ثم أحتمله على كاهله، ثم أنطلق فما زال الرسول يتبعه بصره حتى خفى عنه عجبا من حرصه، فما قام رسول الله، وثم منها درهم. رواه البخارى.

لمحة خاطفة عن حديث الإفك:

نرجئ الحديث عنه إلى حين يأتينا شرف الحديث عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، لكن يلزم الوقف هنا وقفة قصيرة نلتقط فيها صورة خاطفة عن خلق الصديق، عن غضبه، عن حلمه، عن صفحه، عن سخائه، عن منزلته من ربه، عن تكريم الله له وخطابه بأجمل أسلوب.

كان مصلح بن أثاثة من أقرباء أبى بكر الذين يصلهم بما آتاه الله من سخاء من مال، ولكنه شارك فى حديث الإفك، وكان من الناقلين لهذا الكذب والافتراء على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، فلما ظهرت براءتها فى قرآن يتلى أقسم أبو بكر أن يقطع عنه المعونة التى كان يصله بها فنزل قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور: ٢٢].

ولنتأمل فى هذا الأدب الذى أراده الله تعالى للصديق.. ولعباده المؤمنين رغم أن الله تعالى، قال فى هؤلاء المروجين الناقلين للإشاعات الكاذبة: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النور:

٤١١ أي أن الله تعالى أصدر حكما بالعقوبة ووثقها بالتصديق الإلهي على كل من شارك في هذا الحديث الكاذب، وتوعد الله الذى تولى معظم هذا الحديث وأشاع هذا الافتراء والبهتان، وهو رأس النفاق ابن سلول بالعذاب العظيم فى الآخرة.

أما مسطح فقد أقيم عليه الحد، فضرب ثمانين جلدة، لكن اللفتة الإلهية السامية هى أن الله تعالى لم يرض لأبى بكر أن يقطع أعانته عن مسطح لماذا؟.

أهي الرحمة التى أراد الله أن تتسع لجميع المؤمنين رغم ما يقترفون من أخطاء. أهو فضل الله على أبى بكر برفع درجته أعلى وأعلى وتشريفه بوصفه من (أولى الفضل والسعة) فى قرآن يتلى إلى ما شاء الله. أهو بسط ساحة العفو والصفح والجمع بين الأمر به فى قوله: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ [النور: ٢٢] وبين الترغيب فيه بهذا التعبير الإلهي الرقيق غاية الرقة اللطيف غاية اللطف، والذى يكشف عن مدى تعامل الله مع عباده بصفات جماله فى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فنجد صفات الجلال تعانق صفات الجمال فى هذا الأسلوب الإلهى المعجز؟!

ولنتأمل فى هذه الآية التى احتشدت فيها هذه الأساليب المختلفة من نهى إلى أمر إلى تشويق وترغيب فى تناغم عجيب لا يصدر إلا عن الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾، أسلوب نهى ﴿يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ أسلوب أمر ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أسلوب استفهامى للترغيب والتشويق ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ القرار النهائى أسلوب تقرير بالقرار النهائى لله.

فيجيب أبو بكر على الفور: «بلى أحب أن يغفر الله لى». وهل هناك إجابة غيرها يمكن أن تقال فى هذا المقام السابق، فأعاد النفقة إلى مسطح وكفر عن يمينه وقال: «والله لا أنزعها منه أبدا».

ومن سوز إنفاقه فى سبيل الله:

أنه حمل كل ماله فى الهجرة إلى المدينة.

عن أسماء رضى الله عنها، قالت: لما خرج رسول الله ﷺ وخرج أبو بكر معه أحتمل أبو بكر ماله كله خمسة آلاف درهم، أو ستة آلاف درهم، فأنطلق بها معه، فدخل علينا جدى أبو قحافة، وقد ذهب بصره، وقال: والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه، قلت: كلا يا أبت، إنه قد ترك لنا خيرا كثيرا، قالت: وأخذت أحجارا فوضعتها فى كوة فى البيت الذى كان أبى يضع ماله فيه، ثم وضعت عليها ثوبا، ثم أخذت بيده، فقلت: يا أبت ضع يدك على هذا المال، فوضع يده عليه، فقال: لا بأس إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن، وفى هذا بلاغ لكم - أى ما يكفى لإطعامكم - ولا والله ما ترك لنا شيئا، ولكن أردت أن أسكن الشيخ بذلك.

وعن الحسن البصرى: أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه أتى النبى ﷺ بصدقته فأخفاها، فقال: يا رسول الله، هذه صدقتى، ولله عز وجل عندى معاد - أى سأعود للتصدق - وجاء عمر رضى الله عنه بصدقته فأظهرها، فقال: يا رسول الله، هذه صدقتى، ولى عند الله معاد، فقال رسول الله ﷺ: «يا عمر، وترت قوسك بغير وتر، ما بين صدقتكما كما بين كلمتيكما».

ويبدو الفارق فى التعبيرين إذ بدأ أبو بكر بتقديم الله، فقال: ولله عز وجل عندى معاد، بينما قال عمر رضى الله عنه: ولى عند الله معاد.

الأمر الثانى أن أبا بكر أخفى صدقته، وأن عمر رضى الله عنه أظهرها، وهناك فارق بين الصدقة فى السر، والصدقة فى العلن، وإن كان فى كل منهما خير.

كما يبدو أن رسول الله ﷺ كان يلحظ منافسات عمر رضى الله عنه، وأبو بكر رضى الله عنه فى كل مجالات الخير، ومنها فى الصدقات.

ومن صور إطعامه الأضياف:

أخرج مسلم (٢/١٨٦) عن عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما، قال: نزل علينا أضياف لنا، وكان أبى يتحدث إلى رسول الله ﷺ من الليل فانطلق أبى، وقال: يا عبد الرحمن، أفرغ من أضيافك - أطعمهم وقدم لهم

ما يحتاجونه - فلما أمسيت جئنا بقراهم - الطعام - فأبوا، وقالوا: حتى يجيء أبو منزلنا فيطعم معنا، فقلت لهم: إنه رجل حديد - شديد الغضب - وإنكم إن لم تفعلوا خفت أن يصيبني منه أذى، فأبوا، فلما جاء لم يبدأ بشيء أول منهم، فقال: أفرغتم من أضيافكم؟ - أي هل أطعمتم أضيافكم؟ - قالوا: لا والله ما فرغنا، قال أبو بكر: ألم آمر عبد الرحمن؟ وتنحيت عنه - أي اختفيت بعيدا عنه - فقال أبو بكر: يا عبد الرحمن، فتنحيت عنه، فقال: يا غنثر - الثقيل الوخم - أقسمت عليك إن كنت تسمع صوتي إلا جئت، قال: فجئت، فقلت: والله ما لي ذنب هؤلاء أضيافكم فسلهم؟ قد أتيتهم بقراهم، فأبوا أن يطعموا حتى تجئ.

قال أبو بكر للأضياف: ما لكم ألا تقبلوا عنا قراكم، فوالله لا أطعمه الليلة، فقالوا: فوالله لا نطعمه حتى تطعمه، فقال أبو بكر: ما رأيت شرا كالليلة قط، ويلكم ما لكم ألا تقبلوا عنا قراكم، ثم بعد أن هدأ، قال: أم الأولى - أي الحلف الذى صدر منه - فمن الشيطان، هلموا إلى الطعام، فجئ بالطعام فسمى فأكل وأكلوا، فلما أصبح غدا على النبي ﷺ، فقال بعد ما أخبره: يا رسول الله، بروا وحنثت، فقال الرسول: «بل أنت أبرهم وأخيرهم». قال الراوى: ولم تبلغنى كفارة عن قسم أبى بكر.

وكان الصديق لا يسأل الناس شيئا، وربما سقط الخطام من يده، فيضرب بذراع ناقته فينيخها فيأخذه، فإذا قيل له أفلا أمرتنا فناولكه، قال: إن حبيبي ﷺ أمرني ألا أسأل الناس شيئا، قال رسول الله ﷺ: «من تكفل لى ألا يسأل الناس شيئا، أتكفل له بالجنة».

وعن زهده:

حدث زيد بن أرقم رضى الله عنه، قال: كنا مع أبى بكر رضى الله عنه، فاستسقى، فأتي بماء وعسل، فلما وضعه على يده بكى وأنتحب، حتى ظننا به شيئا ولم نسأله عن شيء، فلما فرغ قلنا: يا خليفة رسول الله ﷺ، ما حملك على هذا البكاء؟ قال: بينما أنا مع رسول الله ﷺ إذ رأيته يدفع عن

نفسه شيئا، ولا أرى شيئا، فقلت: يا رسول الله، ما الذى أراك تدفع ولا أرى شيئا، قال: «الدنيا تطولت لى، فقلت: إليك عنى، فقالت: أما إنك لست بمدركى». قال أبو بكر: فشق ذلك على، وخشيت أن أكون قد خالفت أمر رسول الله ﷺ ولحقتنى الدنيا.

وعن ورعه:

حدث محمد بن سيرين، قال: لم أعلم أحدا استقاء من طعام أكله غير أبى بكر رضى الله عنه.

الميزان الذرى:

روى أنه كان لأبى بكر رضى الله عنه مملوك يغل عليه، فأتاه ليلة بطعام فتناول منه لقمة، فقال له المملوك: ما لك كنت تسألنى كل ليلة، و لم تسألنى الليلة، قال أبو بكر: حملنى على ذلك الجوع، من أين جئت بهذا؟ قال المملوك: مررت بقوم فى الجاهلية، فرقيت لهم فوعدوني، فلما أن كان اليوم مررت بهم، فإذا عرس فأعطونى.

وطبعا اشتبكت اللقمة الحرام مع ورع سيدنا أبى بكر.

فقال: أف لك، كدت أن تهلكنى، فأدخل يده فى حلقه فجعل يتقيأ، وجعلت لا تخرج، فقيل له: إن هذه لا تخرج إلا بالماء، فدعا بطست من ماء فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها، فقيل له: يرحمك الله، كل هذا من أجل هذه اللقمة، قال: لو لم تخرج إلا مع نفسى لأخرجتها، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به». فخشيت أن ينبت شيء من جسدى من هذه اللقمة. أخرجه أبو نعيم فى الحلية (٣١/١) عن زيد بن أرقم.

ولابد هنا من وقفة تأمل تكشف لنا عن شيء من حقيقة الإيمان الذى كان رابضا كالأسد فى صدر أبى بكر رضى الله عنه، حتى فى الوسط الذى كان يعيش فيه الصديق كان هناك أناس لا يرون فى مثل هذه اللقمة

شيئا يستحق ما فعله أبو بكر بنفسه، لكنه التصديق اليقينى بالرسول والرسالة، وأن الرسول لا ينطق عن الهوى، وإلا فإنه يمكن أن تبتلع أشياء كثيرة وخلفها المهضمات.

فى صلح الحديبية:

تشدد سهيل بن عمرو فى مسائل يتساهل النبى فى قبولها وخاصة، وكان المسلمون من حول النبى يسمعون أمر هذه المحادثات، ويضيق بعضهم بأمرها صبرا، وكان الممثل لهؤلاء الضائقين بل الذى كان فى الذروة منهم هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقد ذهب فى أعقاب المحادثات إلى أبى بكر رضى الله عنه، ودار بينهما هذا الحديث الذى يبدو فيه ما يقترب من نفاذ الصبر:

عمر: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟ أبو بكر: بلى، عمر: أو لسنا بالمسلمين، أبو بكر: بلى، عمر: فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟ أبو بكر: يا عمر، الزم غرزه – مكانك – فإنى أشهد أنه رسول الله، عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله!.

وإن الإنسان ليعجب لنتيجة هذا الحوار، الشهادة واحدة، ولكن رد الفعل مختلف، فريق تتغلب عليه الحمية الإيمانية، فيكون رد الفعل لديه هو ما عبر عنه عمر، وأبو بكر لا تنقصه هذه الحمية فهى لا تقل بأى حال عما يوجد، وعما يحس به الفريق الأول، ولكن يضاف إليها شىء أخر إنه الميزان الذرى القائم فى قلب أبى بكر، يشير إلى اليقين الكامل الذى ليس به ذرة من شك، فمحمد هو رسول الله ﷺ، وهو أدرى بما يقول وما يفعل، لأنه هو المبلغ عن الله، وهو لا ينطق عن الهوى، إن أبا بكر لا يستطيع أن يقول ما قاله عمر، ليس لعجزه عن القول أو لنقص فى الحمية الإيمانية، ولكن لأنه يرى فى هذا القول تجاوزا عبر عنه بقوله: يا عمر الزم غرزه، أى الزم رحلك أو بعباراتنا نحن: الزم حدك. فإنى أشهد أنه رسول الله.

ولم تمح هذه الإجابة ما بصدر عمر من ضيق، فانقلب إلى رسول الله ﷺ وكرر نفس الكلمات التى ذكرها لأبى بكر، وليس عجيبا أن تكون إجابة رسول الله ﷺ هى نفسها التى بعثت طمأنينة فى قلب أبى بكر، فمنعته أن يقبل ما قاله عمر.

قال الرسول لعمر: «أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعنى».

وهى فى التحليل النهائى لمضمونها نفس إجابة الصديق: الزم غرزه يا عمر، فإنى أشهد أنه رسول الله. ورسول الله ﷺ يعرف عن يقين هذه الحقيقة فى قلب أبى بكر.

مر أبو سفيان أمام مجموعة ممن كانوا مستضعفين بمكة منهم بلال وعمار وصهيب، فقالوا: إن سيف الله لم يأخذ حقه من عنق هذا المنافق وسمعهم أبو بكر، فقال لهم: أتقولون هذا على شيخ قريش؟.

ومضى أبو بكر فى طريقه، مشهد عادى وكلمة عابرة صدرت عن الصديق لكن الميزان الذرى الذى تحرك فى قلبه دفعه إلى أن يذهب على الفور إلى رسول الله ﷺ، ويروى له ما سمع وما قال.

قال الرسول ﷺ: «لعلك أغضبتهم يا أبا بكر، إن كنت أغضبتهم فقد أغضبت الله».

فعاد إليهم يستسمحهم ويسترضيهم حتى سمع منهم ما يرضيه وأنهم رضوا عنه.

ماذا قال أبو بكر بموازيننا نحن العادية أو حتى بموازيننا الذهبية؟ أما بميزان أبى بكر فالأمر جد دقيق.

هذه هى درجة الصديقية التى جعلت أبا بكر يبكى حينما سمع قول الرسول عليه السلام يتلو على الناس، قول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فقد أحس أن النبى ﷺ قد أقترب أجله، وأوشك أن يلحق بربه، هذه هى درجة الصديقية التى جعلت الرسول عليه السلام يأمر أن تقفل جميع الأبواب المؤدية إلى المسجد إلا باب أبى بكر ويقول: «إنى لا أعلم أحدا كان أفضل فى الصحبة عندى يدا منه، وإنى لو كنت متخذا من العباد خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن صحبة وإخاء إيمان حتى يجمع الله بيننا».

هذه الحساسية الإيمانية الرهيفة إلى أقصى حدود الرهافة هى الميزان المعلق فى صدر أو قلب أبى بكر، فلا تفلت كلمة أو شىء دون أن تعرض وتمر على هذا الميزان.

وأبو بكر الصديق لم يكن ليبحث لنفسه عن مبرر أيا كان، ومهما كان، قبل أن يعرضه على هذا الميزان فى حيدة كاملة، وكأنه يقف أمام ربه للحساب، بل لعل هذه هى حقيقة أبى بكر، وهذا هو ميزانه الذى لا يملك هو نفسه أن يغير فيه شيئا، أو يسقط من حسابه أى شىء، وقد ورد هذا الميزان فى كتاب الله فى قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

هل عرفت البشرية هذا الميزان فى معاملاتها فى الذهب أو فى الأحجار الكريمة أيا كانت قيمتها ونفاستها، عرفنا الوزن بالكيلو وبالجرام وبالدرهم وبأجزاء الدرهم فى الأشياء المادية ذات القيمة العالية، و لم نصل بعد إلى الوزن بمثقال الذرة، فهل وصلنا فى الأخلاقيات والإيمانيات والمعتقدات إلى شىء من هذه الموازين؟ هل وصلنا إلى وزنها بأجزاء الدرهم وبأجزاء الجرامات؟ إن أبا بكر رضى الله عنه وصل فى محاسبة نفسه إلى هذا الميزان الذرى بفطرته السليمة، وقلبه السليم النقى المعد لإقامة هذا الميزان فيه، مع الإيمان الذى لا يعتريه أدنى شك بالرسالة وبالرسول المبلغ عن الله تعالى، الإله الواحد الأحد المتفرد بكل صفات الجلال والجمال، والإيمان بالرسول الذى لا ينطق عن الهوى فى كل ما يفعل ويقول، ولذلك جاء فى الحديث:

«ما سبقكم أبو بكر فى صلاة أو صيام، لكن بشىء وقر فى قلبه».

هذه الصديقية هى التى جعلت الرسول عليه السلام حين ضعف عن الخروج للصلاة يقول: «مرو أبا بكر فليصل بالناس». قالت عائشة رضى الله عنها: إن أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء، إذا قرأ القرآن، قال الرسول عليه السلام مرة أخرى: «مرو أبا بكر فليصل بالناس»، وكررت السيدة عائشة ما قالته، فقال الرسول: «إنكن صواحب يوسف، مروه فليصل بالناس».

ونلحظ أن السيدة عائشة كانت تعرض وتقدم بعض الصفات الصديقية بلا قصد، وهى تعتذر عن أبيها.

هذه الصديقية هى التى جعلت الرسول لا يقبل أن يصلى بالمسلمين أحد إلا أبو بكر الصديق، دعا بلال إلى الصلاة، وطلب من عمر أن يصلى بالناس مكان أبى بكر، وكان عمر جهير الصوت، فلما كبر سمعه الرسول فقال: «فأين أبو بكر، يأبى الله ذلك والمسلمون».

ضجيج كضجيج الحجيج:

عند وفاة الرسول ﷺ، قال أبو بكر: اليوم قد فقدنا الوحى، ومن عند الله عز وجل الكلام.

أخبرت عائشة رضى الله عنها، أن أبا بكر أقبل على فرس من سكنه - بالسنح - حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس، فدخل على عائشة، فتيمم رسول الله ﷺ، وهو مغطى بثوب فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه وقبله وبكى، ثم قال: بأبى أنت وأمى ما أطيبك حيا وميتا، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتى التى كتبت عليك فقد متها، ثم خرج وعمر يكلم الناس، وقال: أجلس يا عمر، أما بعد: من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ

ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر، فتلاها الناس كلهم منه، فما أسمع بشرا من الناس إلا يتلوها، وقال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعرقت حتى ما تقلنى رجلاى، وحتى هويت إلى الأرض.

وهكذا استقبل أبو بكر وفاة رسول الله ﷺ بيقين وثبات أعاد لعمر بن الخطاب رضى الله عنه، وللناس زمام السيطرة على النفس فى هذا الموقف الفاجع الأليم لوفاة نبيهم خاتم المرسلين، وسمع لأهل المدينة ضجيج بالبكاء كضجيج الحجيج أهلوا جميعا بالإحرام.

بيعة أبى بكر فى الثقيفة:

قال عمر بن الخطاب: إنه كان من خبرنا حين توفى رسول الله ﷺ أن عليا والزبير ومن كان معهما تخلفوا فى بيت فاطمة بنت رسول الله، وتخلف عنها الأنصار بأجمعها فى ثقيفة بنى ساعدة، واجتمع المهاجرون إلى أبى بكر، فقلت له: يا أبا بكر، انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار، فانطلقنا نؤمهم حتى لقينا رجلان صالحان فذكرا لنا الذى صنع القوم، فقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ قال عمر: نريد إخواننا الأنصار، فقالا: لا عليكم ألا تقربوهم واقضوا أمركم يا معشر المهاجرين، قال عمر: والله لنأتينهم، فانطلقنا حتى جئناهم فى ثقيفة بنى ساعدة، فإذا هم مجتمعون، وإذا بين ظهرانيهم رجل مزمل - مغطى - فقلت: من هذا؟ قالوا: سعد بن عبادة، قلت: ما له؟ قالوا: وجع - مريض - فلما جلسنا قام خطيب الأنصار، فأثنى على الله بما هو أهله، وقال:

أما بعد، فنحن أنصار الله، وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط نبينا - أهل نبينا - وقد دفت دافة منكم يريدون أن يحتازونا من أصلنا، ويغصبونا الأمر - يعرض بالمهاجرين أنهم جاءوا من مكة إلى المدينة ويريدون اغتصاب الخلافة من أهل المدينة - وسكت خطيب الأنصار بعد

أن أفصح عن نيتهم فى إسناد الأمر بعد رسول الله ﷺ إلى واحد منهم. وأراد عمر بن الخطاب أن يتكلم بعد خطيب الأنصار لكن أبا بكر استوقفه وقال له: على رسلك يا عمر. يقول عمر: فكرهت أن أغضبه فتكلم، وكان أحكم منى وأوقر، فوالله ما ترك من كلمة أعجبتنى مما كنت سأقوله مما أعددته ونمقته مسبقا إلا قالها فى بديهته أو أفضل حين سكت.

فقال أبو بكر: أما بعد، فما ذكرتم من خير فأنتم أهله، ولكن ما تعرف العرب هذا الأمر – الإمارة – إلا لهذا الحى من قريش، فهم أوسط العرب نسبا ودارا – أى أشرفهم نسبا وأشرفهم بلدة وهى مكة – وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم، وأخذ بيد عمر وبيد أبى عبيدة بن الجراح.

يقول عمر بن الخطاب: لم أكره شيئا مما قال غيرها – أى ترشيحه له – كان والله أن أقدم فتضرب عنقى لا يقربنى ذلك إلى إثم أحب إلى أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر، فقال قائل من الأنصار فيما قال: منا أمير، ومنكم أمير، ورد عليه أبو بكر بأنه لا يمكن الجمع بين سيفين فى غمد واحد، وكثر اللغط وارتفعت الأصوات، وخشى عمر الفرقة والاختلاف من تبادل الكلمات أخذا وردا، فحسم الأمر، وقال لأبى بكر: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط أبا بكر يده، فبايعه عمر وبايعه المهاجرون، ثم الأنصار، وداسوا فى زحمة المبايعة سعد بن عبادة مرشح الأنصار. وقال قائل من الأنصار: قتلتم سعدا، فقال عمر: قتل الله سعدا.

ويعقب عمر بقوله: والله ما وجدنا فيما حضرنا أمرا هو أرفق من مبايعة أبى بكر، خشينا إن فارقنا القوم، ولم تكن بيعة أن يحدثوا بعدنا بيعة، فإما أن نبايعهم على ما لا نرضى، وإما أن نخالفهم فيكون فساد، فمن بايع أميرا عن غير مشورة المسلمين فلا بيعة له ولا بيعة لمن بايعه خوفا من القتل.

لقد كان أبو بكر فى هذا الموقف حكيما وحليما يذكرنا بأسلوب رسول الله ﷺ فى معالجته لما يحدث من خلاف، فهو يستميل الأنصار

بذكر فضلهم، وهذا حق لا خداع فيه، ثم يعرض الرأى الصائب الذى يقبله المنطق والعقل السليم، فقد قال لهم أبو بكر مما قال:

يا معشر الأنصار، إنا والله ما ننكر فضلكم ولا منزلتكم فى الإسلام، ولا حقكم الواجب علينا، ولكنكم عرفتم أن هذا الحى من قريش بمنزلة من العرب ليس بها غيرهم، وإن العرب لن تجتمع إلا على رجل منهم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، فاتقوا الله، ولا تصدعوا الإسلام، ولا تكونوا أول من أحدث فى الإسلام شيئا.

وبعد هذه الكلمات الواضحة الرقيقة التى تقر بالحق لأصحابه، والتى تحذر من الفتنة والخلاف، يقول أبو بكر: ألا وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، ويرفع يد عمر، ويد أبى عبيدة مما يظهر الصديق لكل الحاضرين فى هذا الاجتماع ما هو عليه من إيثار، وأنه لا يريدها لنفسه، وهذه هى حقيقة الصديق، وليست أسلوبا مفتعلا لأخذ الأصوات إلى جانبه هو؛ لأن تاريخه معروف للجميع، لذلك يكون الموقف كله إلى جانبه حينما يقول له عمر: أبسط يدك، ويبايعه يتزاحم الحضور على مبايعته مهاجرين وأنصارا، وتتم له البيعة ويجنب الله المسلمين شر الشقاق والفتنة فى هذه المناسبة التى كانت مهيأة لها.

تقديم الصحابة أبا بكر:

بعث أبو بكر إلى أبى عبيدة رضى الله عنهما: هلم أستخلفك، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لكل أمة أمينا، وأنت أمين هذه الأمة»، قال أبو عبيدة: ما كنت لأتقدم رجلا أمره رسول الله ﷺ أن يأمنا. وقال عثمان بن عفان: إن أبا بكر الصديق أحق الناس بالخلافة إنه لصديق، وثانى اثنين، وصاحب رسول الله ﷺ.

اعتذار أبى بكر عن الخلافة:

خطب أبو بكر الناس، فقال: والله ما كنت حريصا على الإمارة يوما ولا ليلة قط، ولا كنت فيها راغبا، ولا سألتها الله فى سر ولا علانية،

ولكنى أشفقت من الفتنة، ومالى فى الإمارة من راحة، ولكنى قلدت أمرا عظيما مالى به طاقة ولا يد إلا بتقوية الله عز وجل، ولا وددت أن أقوى الناس عليها مكانى اليوم.

فقبل منه المهاجرون ما قال وما اعتذر به، وقال على والزبير: ما غضبنا إلا لأننا أخرنا عن المشاورة، وإنا نرى أن أبا بكر أحق الناس بها بعد رسول الله ﷺ إنه لصاحب الغار، وثانى اثنين، وإنا لنعرف شرفه وكبر سنه، ولقد أمره رسول الله ﷺ بالصلاة وهو حى.

أبو سفيان يحرض على الفتنة:

لما بويع أبو بكر جاء أبو سفيان إلى على، فقال: أغلبكم على هذا الأمر أقل بيت فى قريش؟ أما والله لأملأنها خيلا ورجالا إن شئت، قال على رضى الله عنه: ما زلت عدوا للإسلام وأهله، فما ضر ذلك الإسلام وأهله شيئا، إنا رأينا أبا بكر لها أهلا.

وخالد بن سعيد أيضًا:

كان خالد بن سعيد بن العاص باليمن زمن النبى ﷺ، وتوفى النبى وهو بها، وقدم بعد وفاته بشهر وعليه جبة من حرير، فلقى عمر بن الخطاب، وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما، فصاح عمر بمن يليه قائلا: مزقوا عليه جبته، فقال خالد: يا أبا الحسن، يا بنى عبد مناف أغلبتم عليها؟ فقال على: أمغالبة ترى أم خلافة؟ قال: لا يغالب على هذا الأمر أحدا أولى منكم يا بنى عبد مناف، قال عمر لخالد: فض الله فاك، والله لا يزال كاذب يخوض فيما قلت، ثم لا يضر إلا نفسه.

هذه نماذج لإناس بدءوا يجسون نبض المجتمع الإسلامى ليعرفوا مدى استعداده للفتنة، يحرضون عليها ويتصلون بمن يظنون أنهم يرضون عن هذا الاتجاه ويسايرونه، فلا يجدون منهم إلا السخرية، وكشف مآربهم، ولا يسمعون منهم إلا الدعاء عليهم أن يفض الله أفواههم، ويريح منهم.

أبو بكر يحاول رد الخلافة على المسلمين:

قال أبو بكر: يا أيها الناس، إن كنتم ظننتم أنى أخذت خلافتكم رغبة فيها، أو إرادة استئثار عليكم وعلى المسلمين فلا، والذى نفسى بيده ما أخذتها رغبة فيها، ولا استئثار عليكم، ولا على أحد من المسلمين، ولا حرصت عليها ليلة ولا يوما قط، ولا سألت الله سرا ولا علانية، ولقد تقلدت أمرا عظيما لا طاقة لى به إلا أن يعين الله، ولوددت أنها إلى أى أصحاب رسول الله ﷺ على أن يعدل فيها، فهى إليكم رد ولا بيعة لكم عندى. [الكنز ٣/١٣١] فادفعوا لمن أحببتم، فإنما أنا رجل منكم، فقاموا إليه فقالوا: يا خليفة رسول الله ﷺ، أنت والله خيرنا. [الكنز ٣/١٣٥].

المبادئ التى أعلنها:

خطب الناس أول خلافته فقال: أيها الناس إنما أنا مثلكم، وإنى لا أدرى لعلكم ستكلفوننى ما كان رسول الله ﷺ يطيق، إن الله اصطفى محمدا على العالمين وعصمه من الآفات وإنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن استقمت فتابعونى، وإن زغت فقومونى، إن الله عز وجل لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه، فأريدوا الله بأعمالكم، اعتبروا عباد الله بمن مات منكم، وتفكروا فيمن كان قبلكم، أين كانوا أمس؟ وأين هم اليوم؟ أين الجبارون؟ أين الذين كان لهم ذكر القتال والغلبة فى مواطن الحروب؟ أين الملوك الذين أثاروا الأرض وعمروها؟ إن الله قد أبقى عليهم التبعات، وقطع عنهم الشهوات، ومضوا والأعمال أعمالهم والدنيا دنيا غيرهم، ألا إن الله لا شريك له، ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيرا، ولا يصرف عنه به سوءا إلا بطاعته واتباع أمره، واعلموا أنكم عبيد مدينون، وأن ما عنده لا يدرك إلا بطاعته، لا خير بخير بعده النار، أيها الناس، إن أكيس الكيس التقوى، وإن أحمق الحمق الفجور، وإن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ له بحقه، وإن أضعفكم عندى القوى حتى آخذ منه الحق.

رياح الابتلاءات:

كان لابد من أن يواجه الخليفة الأول للمسلمين مهام عمله ورياح

الإبتلاءات تهب على الساحة الإسلامية من جميع جوانبها، كانت تلك الاختبارات شديدة على المسلمين كافة، ولكنها كانت على الخليفة الأول أشد؛ لأنه كان فى القلب منها، وقد رأينا مدى حزن المسلمين لفقد نبيهم، وماذا فعل ذاك الحزن برجل قوى مثل عمر.

ورأينا الإعصار الذى هب على ثقيفة بنى سعد، وكيف عبر بسلام، وإن بقى فى نفوس القلة شىء، ورأينا محاولات الإيقاع بين كبار الصحابة من المسلمين الأوائل، وكيف تنبه لها وعصمهم الله تعالى من الوقوع فى مهاويها، وكيف كبت الله الساعين إليها ولو إلى حين يطول أو يقصر طبقا لما يشاء الله ويختار، فبقيت نارا تحت رماد يحتاج ليقظة دائمة، وعمل دءوب لمنع الرياح، رياح الفتنة أن تصل إليه فتذروه، وقد فطن الخليفة الأرل لكل ذلك وأشار إليه، ولكنه أصر على مواجهة اختبارين فى وقت واحد: ١ - بعث أسامة. ٢ - مواجهة الردة.

فقد حدث هشام بن عروة، عن أبيه، قال: لما بويع أبو بكر رضى الله عنه، وجمع الأنصار الأمر الذى افترقوا فيه، قال: ليتم بعث أسامة، وقد ارتدت العرب إما عامة، وإما خاصة فى كل قبيلة، ونجم النفاق، واشرأبت اليهود والنصارى والمسلمون كالغنم فى الليلة المطيرة الشاتية، لفقد نبيهم وقلتهم وكثرة عدوهم، فقال له الناس: إن هؤلاء معظم المسلمين والعرب على ما ترى، قد انتقدت به، فليس ينبغى لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين، فقال أبو بكر: والذى نفس أبى بكر بيده، لو ظننت أن السباع تتخطفنى لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولو لم يبق فى القرى غيرى.

أليس هذا ابتلاء شديدا لأبى بكر؟.

- إشارة إلى عظم الانتقاد، وأنه يشمل جل المسلمين والعرب.

- محاولة تخويفه وتروعيه من تفرق جماعة المسلمين عنه.

كل ذلك لعجم عوده واختبار صلابته، فهل كان عليه أن يرضخ

ويستكين لهذه المحاولات؟ لو أنه رضخ لما كان هو بعينه أبا بكر ثانى اثنين، وصاحب رسول الله ﷺ فى الغار، ومن أصر الرسول على أن يؤم المسلمين فى غيبته دون أحد سواه، بل أشار له الرسول عليه السلام أن يبقى مكانه فى الصلاة إماما للمسلمين وللرسول بعد حضوره للصلاة، ولكن أبا بكر رفع يديه شاكرا الله لهذه النعمة، وتأخر ليؤم الناس رسول الله ﷺ قائلا كلمته الشهيرة بعد أداء الصلاة: ما كان لابن أبى قحافة أن يتقدم بين يدى رسول ﷺ.

فليس عجيبا من أبى بكر إذن أن يصر على بعث أسامة، حتى ولو تخطفته السباع.

وقد سبق لأسامة حين علم بوفاة الرسول ﷺ أن توقف برجال جيشه الذين لم يجاوز أخرهم الخندق، وقال لعمر: ارجع إلى خليفة رسول الله، فاستأذنه يأذن لى أن أرجع بالناس.

وكان ذلك حرصا من أسامة على البقاء فى المدينة للدفاع عنها خوفا من مهاجمة المشركين لآل بيت النبى والمسلمين فى غيبة الجيش.

وكان أسامة على حق فى هذه الحيطة والحذر، كما حمل الأنصار رسالة أخرى مع عمر يبلغها للخليفة الأول للمسلمين قالوا فيها: فإن أبى إلا أن نمضى، فأبلغه عنا، واطلب إليه أن يولى أمرنا رجلا أقدم سنا من أسامة، فخرج عمر بالرسالتين، وأتى أبا بكر، فأخبره بما قال أسامة، فقال أبو بكر: لو خطفتنى الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله ﷺ، قال عمر: فإن الأنصار أمرونى أن أبلغك، وإنهم يطلبون إليك أن تولى أمرهم رجلا أقدم سنا من أسامة، فوثب أبو بكر، وكان جالسا، فأخذ بلحية عمر فقال: ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب، استعمله رسول الله، وتأمرنى أن أنزعه؟ فعاد عمر إلى الناس – أى الأنصار مع غيرهم – فقالوا له: ما صنعت؟ قال عمر لهم: امضوا ثكلتكم أمهاتكم، ما لقيت بسببكم من خليفة رسول الله ﷺ.

وسار جيش المسلمين بقيادة أسامة، حب رسول الله وابن حبه، وخرج الصديق وكبار الصحابة فى وداعه.

كان أسامة راكبا وكان الصديق سائرا على قدميه، قال أسامة - الذى تأدب بأدب برسول الله -: يا خليفة رسول الله ﷺ، لتركبن أو لأنزلن، قال الصديق - الذى كان أشد أدبا -: والله لا تنزل، ولا أركب، وما على أن أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله، واستأذنه بعد وداع الجيش أن يعود بعمر لحاجته إليه، فأذن له.

هذا هو الصديق ذو اليقين الذى لا شك فيه، فيما يصدر عن رفيق الغار ﷺ فى أحرج الأوقات وأصعبها، هذه الثقة الممتلئ بها قلب أبو بكر لابد لهذا القلب بإذن الله أن يضخها إلى كل من حوله من الرعية إلى أسامة، إلى كل فرد فى الجيش، إلى من بالمدينة، يضخها لرعيته أمنا، ويضخها للأعداء خوفا ورعبا، ولولا هذا الموقف وأمثاله من الصديق لازداد الأعداء استهانة، ولصار المسلمون أقل شجاعة، وربما أشد خوفا.

أما من كان فى نفسه شىء على قيادة أسامة لصغر سنه، فقد رأوا بأعينهم الخليفة الأول للمسلمين يسير ماشيا وأسامة راكبا، وعرفوا أن هذا الأمر ليس مباهاة، ولكنه الخروج والجهاد فى سبيل الله.

وصيته لجيش أسامة:

أيها الناس: قفوا أوصكم بعشر فاحفظوها عنى: لا تخونوا ولا تغلوا، ولا تخدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلا صغيرا، ولا شيخا كبيرا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونك بآنية من الطعام ألوانا فإذا أكلتم منها شيئا بعد شىء فاذكروا اسم الله عليها، وتلقون أقواما قد فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها ثم العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا، اندفعوا باسم الله.

أرأيت إلى هذه المبادئ الإسلامية فى القتال، وقارنتها بما يحدث للمسلمين من غيرهم إن الشواهد كثيرة، والعين بصيرة، ولكن......

الردة:

خرج جيش أسامة إلى تخوم حدود الروم، وروى مؤرخو تلك الفترة عن بعثة أسامة أنها كانت لا تمر بقبيل يريدون الارتداد إلا تخوفوا وسكنوا.

وقالوا فيما بينهم: لولا أن المسلمين لديهم القوة الرادعة لما دفعوا بهذا الجيش.

. وبقى أمام الصديق أمر المرتدين وكيف يعالج هذا الأمر، ووقف فيها أشهر مواقفه التاريخية، والتى لا غرابة فيها فهى امتداد لمواقفه السابقة، وهى تعبر عن الصديقية التى تفرد بها، وبالتسامى إلى قمتها من بين الصحابة أجمعين، نقول ذلك وصفا لها، وليس تفضيلا لأحد على أحد؛ لأنهم جميعا متكاملون متساندون يشد بعضهم بعضا كالبنيان المرصوص، والمختص بالتفضيل هو الله تعالى من يعلم بالسر وأخفى.

وكان لابد من قتال المرتدين، ودار حوار حول مانعى الزكاة، أيجوز قتالهم عليها أم لا؟ وقد بدت استهانة مانعى الزكاة تشيع فى أبيات شعرية تتداولها الألسنة فى مثل:

أطعنا رسول الله ما كان بيننا * فيا لعباد الله ما لأبى بكر
أيورثها بكرا إذا مات بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر
فهلا رددتم وفدنا بزمانه وهلا خشيتم حس راعيه البكر
وإن التى سألوكم فمنعتم لكالتمر أو أحلى إلى من التمر

ونقل لنا التاريخ هذا الحوار الذى دار بين الخليفة الأول للمسلمين، وبين عمر بن الخطاب.

كان عمر يقول: يا خليفة رسول الله ﷺ، تآلف الناس، وارفق بهم، كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا

لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله فقد عصم منى نفسه وماله إلا بحقه»، وكان أبو بكر يقول: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعونى عناقا - الأنثى من أولاد الماعز - أو عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه.

ويطول الحوار، فيغضب الصديق ويصيح فى وجه عمر: يا ابن الخطاب، رجوت نصرتك وجئتنى بخذلانك، أجبار فى الجاهلية، وخوار فى الإسلام؟ إنه قد انقطع الوحى وتم الدين أو ينقص وأنا حى؟.

وشرح الله صدر عمر كما شرح صدر أبى بكر من قبل بقتال المرتدين.

وقدم بعض الوفود إلى المدينة، وقابلوا أبا بكر، وعرضوا عليهم أن يقيموا الصلاة على ألا يؤتوا الزكاة، فرفض العرض، وقال: لو منعونى عقالا - أى ما يعقل به البعير - لجاهدتهم عليه إذا كانت عقل الزكاة على أهل الزكاة مع الزكاة، ورجع الوفد بلا اتفاق، فأخبروا عشائرهم بقلة أهل المدينة المدافعين عنها، وأطمعوهم فيها، وفطن أبو بكر، واستعد لاحتمال هجومهم ليلا أو نهارا، وتحقق ظنه، فهجم بعض المرتدين على المدينة ليلا مغترين بكثرتهم وقلة المدافعين عنها، ولكنهم فوجئوا بأن المسلمين يقظون، فهزموهم وطاردوهم حتى بلغوا «ذا حسى»، وعاد المسلمون سالمين لم يصب منهم أحد.

وبات أبو بكر ليلته يتهيأ، فعبأ الناس، ثم خرج فى آخر ليلته يمشى، وعلى ميمنته النعمان بن مقرم، وعلى ميسرته عبد الله بن مقرم، وعلى الساقة سويد بن مقرم معه الركاب، فما طلع الفجر إلا وهم والعدو فى صعيد واحد، ففاجئهم المسلمون وأعملوا فيهم القتل، ووضعوا فيهم السيوف، فولوا الأدبار، وغلبوهم وقتلوا قائدهم، وتتبعهم أبو بكر حتى نزل بذى القصة، ووضع بها النعمان بن مقرم بجنوده، ورجع إلى المدينة، فذل له المشركون، وعز المسلمون بواقعة أبى بكر، وازداد المسلمون ثباتا فى كل قبيلة على دينهم، وازداد المشركون انعكاسا من أمرهم فى كل

مدينة، وتوافدت الزكاة من القبائل إلى المدينة، وقدم أسامة بجيشه الإسلامى ومعه الأسلاب والغنائم، ولما ينقض على مبعثه شهران.

ولك أن تتخيل إصرار أبى بكر على مجاهدة المرتدين بنفسه، فقد استخلف أسامة على المدينة، وقال له ولجنده: أريحوا وأريحوا ظهركم.

ثم خرج فى الذين خرجوا للمرتدين فقال له المسلمون: ننشدك الله يا خليفة رسول الله أن تعرض نفسك، فإنك إن تصب لم يكن للناس نظام، ومقامك أشد على العدو، فابعث رجلا فإن أصيب أمرت آخر، فقال أبو بكر: لا والله لا أفعل، ولا أواسينكم بنفسى.

قال أبو رجاء البصرى: دخلت المدينة فرأيت الناس مجتمعين، ورأيت رجلا يقبل رأس رجل ويقول له: أنا فداؤك ولولا أنت لهلكنا، قلت: من المقبل ومن المقبل؟ قالوا: هو عمر يقبل رأس أبى بكر فى قتال أهل الردة إذا منعوا الزكاة حتى آتوا بها صاغرين.

* * *

الفاروق
عمر بن الخطاب

والله ما من أحد مـن المسـلمين.. إلا ولـه فـى هذا المال حق..

أعطى منه أو منعه..

* * *

يا بنى ضع رأسى على التراب...

لعل الله ينظر لى فيرحمنى...!

عمر بن الخطاب

هو: عمر بن الخطاب بن نفيل القرشى العدوى، كنيته أبو حفص.

أمه: حنتمه بنت هاشم بن المغيرة بن نفيل، فهى على هذا تكون بنت عم أبى جهل، وقيل: حنتمة بنت هشام بن المغيرة، ومن قال بذلك فقد أخطأ، ولو كانت كذلك لكانت أخت أبى جهل والحارث بن هشام، والحقيقة أنها ابنة عمهما؛ لأن هشامًا وهاشمًا ابنى المغيرة أخوان، فهاشم والد حنتمة أم عمر وهشام والد الحارث، وأبى جهل.

وكان يقال لهاشم جد عمر: ذو الرمحين. قال ابن منده: أم عمر أخت أبى جهل، وقال أبو نعيم: هى بنت هشام أخت أبى جهل، وأبو جهل خاله. ورواه عن ابن إسحاق. وقال الزبير: حنتمة بنت هاشم، فهى ابنة عم أبى جهل، كما قال أبو عمر.

وكان لهاشم أولاد فلم يُعْقِبُوا. ويجتمع عمر وسعيد بن زيد، رضى الله عنهما، فى نفيل.

ولد عمر بعد عام الفيل بثلاث عشر سنة. وروى عنه أنه قال: وُلِدتُ بعد الفجار الأعظم بأربع سنين.

كان عمر من أشرف قريش، أُسْنِدتْ إليه السفارة فى الجاهلية، كان القرشيون إذا وقع بينهم حرب، أو وقعت حرب بين قريش وبين غيرهم بعثوا عمر سفيرًا، وإن فاخرهم مفاخر، أو نافرهم منافر، رضوا بعمر، فبعثوه مفاخرًا ومنافرًا.

صفته: كان أبيض أمهق تعلوه حمره طوالا أصلع أجلح شديد حمرة العين فى عارضه خفة.

قال وهب: صفته فى التوراة: قرن من حديد، أمير شديد.

استخلاف الفاروق لما مرض أبو بكر دعا عبد الرحمن بن عوف، فقال

له: أخبرنى عن عمر بن الخطاب، قال عبد الرحمن: ما تسألنى عن أمر إلا وأنت أعلم به منى، قال أبو بكر: وإن.. - أى أخبرنى وإن كنت أعلم منك للمشورة - قال عبد الرحمن: هو والله أفضل من رأيك فيه، ثم دعا أبو بكر عثمان بن عفان، فقال له: أخبرنى عن عمر، فقال: أنت أَخْبَرُنَا به، فقال: على ذلك يا أبا عبد الله، فقال عثمان: اللهم علمى به أن سريرته خير من علانيته وأنْ ليس فينا مثله، فقال أبو بكر: يرحمك الله، والله لو تركته ما عدوتك، وشاور معهما سعيد بن زيد وأسيد بن حضير، وغيرهما من المهاجرين والأنصار.

فقال أسيد: اللهم ًاعْلَمهُ الخيرة بعدك، يرضى للرضا ويسخط للسخط الذى يُسِرُّ خير من الذى يعلن، ولن يلىَ هذا الأمر أحد أقوى عليه منه.

وسمع بعض أصحاب رسول الله ﷺ بدخول عبد الرحمن وعثمان على أبى بكر وخلوتهما به فدخلوا على أبى بكر فقال له قائل منهم: ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا؟ وقد ترى غلظته؟ فقال أبو بكر: أجلسونى، أبالله تخوفوننى؟ خاب من تزود من أمركم بظلم، أقول: اللهم استخلفت عليهم خير أهلك أبلغ عنى ما قلت لك مَنْ وراءك، ثم اضطجع، ودعا عثمان بن عفان، فقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجًا منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلا فيها، حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب أننى استخلفت عليكم بعدى عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا، وإنى لم آل الله ورسوله ودينه ونفسى وإياكم خيرًا، فإن عَدَلَ فذلك ظنى به، وعلمى فيه، وإن بَدَّلَ فلكل امرئ ما اكتسب، والخير أردت، ولا أعلم الغيب، وسيعلم الذين ظلموا أىَّ مُنْقَلَبٍ ينقلبون، والسلام عليكم ورحمة الله.

ثم أمر بالكتاب فختمه، ثم أمره فخرج بالكتاب مختومًا، ومعه عمر بن الخطاب، وأسد بن سعية القرظى، فقال عثمان للناس: أتبايعون لمن فى هذا الكتاب؟ فقالوا: نعم، وقال بعضهم: قد علمنا به. قال ابن سعد: على

القائل، وهو عمر، فأقروا بذلك جميعًا ورضوا به وبايعوا، ثم دعا أبو بكر عمر خاليًا فأوصى بما أوصاه به، ثم خرج فرفع أبو بكر يديه مدًا، ثم قال: اللهم إنى لم أرد بذلك إلا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة، فعملت فيهم ما أنت أعلم به، واجتهدت لهم رأيى فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليهم، وأحرصهم على ما فيه رشدهم، وقد حضرنى من أمرك ما حضرنى، فاخلُفْنِى فيهم، فهم عبادك ونواصيهم بيدك، وأصلح لهم وُلاتَهم، واجعله من خلفائك الراشدين، يتبع هدى نبى الرحمة وهدى الصالحين بعده، وأصْلِحْ له رعيته.

وروى عبد الرحمن بن عوف: أنه دخل على أبى بكر فى مرضه الذى توفى فيه فأصابه مُفيقًا، فقال له عبد الرحمن: أصبحت بحمد الله بارئًا، فقال أبو بكر: تُرَاهُ؟ قال: نعم، قال: إنى على ذلك لشديد الوجع، وما لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشد علىَّ من وجعى، إنى وليت عليكم خيركم فى نفسى، فكلكم ورم من ذلك أنفه يريد أن يكون الأمر له، قد رأيتهم الدنيا أقبلت ولمَّا تقبل، وهى مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائر الديباج، وتألموا من الاضطجاع على الصوف الأذربى كما يألم أحدكم أن ينام على حسك السعدان (الشوك).

وعن يسار قال: لما ثقل أبو بكر أشرف على الناس من كوَّة، فقال: يا أيها الناس، إنى قد عهدت عهدًا أفترضون به؟ فقال الناس: قد رضينا يا خليفة رسول الله ﷺ، فقال على: لا نرضى إلا أن يكون عمر بن الخطاب.

أول من كتب عمر أمير المؤمنين:

سأل سليمان بن أبى خيثمة - جدته الشفاء وكانت من المهاجرات الأوَّل وكان عمر إذا دخل السوق أتاها -: مَنْ أول من كتب «عمر أمير المؤمنين»؟ قالت: كتب عمر إلى عامله على العراقَيْنِ: أن ابعث إلى برجلين جلدين نبيلين، أسألهما عن أمر الناس، قال: فبعث إليه بِعَدِىٍّ بن حاتم، ولبيد بن ربيعة، فأناخا راحلتيهما بفناء المسجد، ثم دخلا المسجد، فاستقبلا

عمرو بن العاص، فقالا: استأذن لنا على أمير المؤمنين، فقال: أنتما والله أصبتما اسمه، وهو الأمير، ونحن المؤمنون، وقال: فأنطلقت حتى دخلت على عمر، فقلت: يا أمير المؤمنين، فقال: لتخرجن مما قلت، أو لأفعلن! قلت: يا أمير المؤمنين، بعث عامل العراقين بِعَدِى بن حاتم ولبيد بن ربيعة، فأناخا راحلتيهما بفناء المسجد، ثم استقبلانى، فقالا: استأذن لنا على أمير المؤمنين، فقلت: أنتما والله أصبتما اسمه، هو الأمير، ونحن المؤمنون.

وكان قبل ذلك يكتب: من عمر خليفة خليفة رسول الله ﷺ، فجرى الكتاب «من عمر أمير المؤمنين»، منذ ذلك اليوم.

وقيل: إن عمر، قال: إن أبا بكر يقال له: يا خليفة رسول الله، ويقال لى: يا خليفة خليفة رسول الله، وهذا يطول أنتم المؤمنون وأنا أميركم. وقيل: إن المغيرة بن شعبة قال له ذلك، والله أعلم.

إسلامه:

تتسم شخصية عمر بالعنف الذى يثوب إلى الرشد، والهدوء الذى قد يصاحبه الندم على ما بدر منه، ولكنه كان دائمًا صاحب القلب النقى، والعقل المتأمل، فإذا ما اقتنع كان من أشد الناس دفاعًا عن قناعته، كان كالنهر يبدوا جارفًا فى منبعه، رقيقًا فى مصبه، ولم يكن يؤمن بشىء ويفعل غيره.

قيل: أسلم بعد أربعين رجلا، وإحدى عشرة امرأة. وقيل: أسلم بعد تسعة وثلاثين رجلا وعشرين امرأة، فكمل الرجال به أربعين رجلا.

عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال: أسلم مع رسول ﷺ تسعة وثلاثون رجلا وامرأة، ثم إن عمر أسلم فصاروا أربعين، فنزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٤].

وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية بعد أن أورد هذا الأثر: وفى هذا نظر لأن هذه الآية مدنية، وإسلام عمر كان بمكة بعد الهجرة إلى أرض

الحبشة، وقبل الهجرة إلى المدينة.

ولكن ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اللهم أعز الإسلام بأحب العمرين إليك عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام»، يعنى أبا جهل.

ولقد أعز الله الإسلام بعمر بن الخطاب، ومعنى الحديث لا يبعد عن مضمون الآية السابقة.

كان عمر فردًا واحدًا.. رأى الرسول فيه عزًا للإسلام، فدعا الله به فاستجاب له.

تباشير إسلامه:

قال عمر بن الخطاب: خرجت أتعرض لرسول الله ﷺ قبل أن أسلم فوجدته قد سبقنى إلى المسجد، فقمت خلفه فاستفتح سورة «الحاقة» فجعلت أعجب من تأليف القرآن، فقلت: هذا والله شاعر كما قالت قريش، فقرأ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾، قال عمر: قلت: كاهن، قال: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾، إلى آخر السورة، فوقع الإسلام فى قلبى كل موقع. [مسند الإمام أحمد ١/١٧، ١٨].

وهكذا نراه وقد استمع إلى القرآن الكريم لأول مرة، فوقع الإسلام فى قلبه.. لكنه لم يسلم، إنه كرجل قوى، كان فى حاجة إلى صدمة قوية تهز كيانه هزا، فتزيل الغشاوة التى كانت على عينيه حتى تلك اللحظة، فَتَفْتَحَ الطريق إلى قلبه الذى كان مهيئًا للإسلام، وواتته اللحظة المناسبة الصدمة القوية التى رواها عن نفسه، فقال:

ذكره أسامة بن زيد، عن أبيه، عن جده أسلم، قال: قال لنا عمر بن الخطاب: أتحبون أن أعلمكم كيف كان بدء إسلامى؟ قلنا: نعم، قال: كنت من أشد الناس على رسول الله ﷺ، فبينا أنا يومًا فى يوم حار شديد

الحر بالهاجرة، فى بعض طرق مكة، إذ لقينى رجل من قريش، فقال: أين تذهب يا ابن الخطاب؟ أنت تزعم أنك هكذا، وقد دخل عليك هذا الأمر فى بيتك؟ قال عمر: وما ذاك؟ قال الرجل: أختك قد صبأت، قال عمر: فرجعت مغضبًا، وقد كان رسول الله ﷺ يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما عند الرجل به قوة، فيكونان معه، ويصيبان من طعامه، وقد كان ضم إلى زوج أختى رجلين، فجئت فقرعت الباب، فقيل: من هذا؟ قلت: ابن الخطاب، وكان القوم جلوسا يقرءون القرآن فى صحيفة معهم، فلما سمعوا صوتى تبادروا واختفوا وتركوا، أو نسوا الصحيفة من أيديهم فقامت المرأة - أخته - ففتحت له، فقلت: يا عدوة نفسها، قد بلغنى أنك صبوت؟ ورفع شيئًا فى يده فضربها به، فسال الدم، قال عمر: فلما رأت المرأة الدم بكت. ثم قالت:

يا ابن الخطاب، ما كنت فاعلا فافعل، فقد أسلمت، قال: فدخلت وأنا مغضب فجلست على السرير، فنظرت فإذا بكتاب فى ناحية البيت، فقلت: ما هذا الكتاب؟ أعطينيه، قالت: لا أعطيك لست من أهله أنت لا تغتسل من الجنابة، ولا تتطهر، وهذا لا يمسه إلا المطهرون.

قال: فلم أزل بها حتى أعطتنيه، فإذا فيه: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾، فلما مررت بـ «الرحمن الرحيم»، ذعرت ورميت بالصحيفة، قال: ثم رجعت إلى نفسى، فإذا فيها: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١]، قال: فكلما مررت باسم من أسماء الله عز وجل ذعرت، ثم ترجع إلى نفسى، حتى بلغت إلى قوله: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧] حتى بلغت إلى قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، قال: فخرج القوم يتبادرون بالتكبير استبشارًا بما سمعوه منى، وحمدوا الله عز وجل، ثم قالوا: يا ابن الخطاب أبشر، فإن رسول الله دعا يوم الاثنين، فقال: «اللهم أعز الإسلام بأحد الرجلين: إما عمرو بن هشام، وإما عمر بن الخطاب»،

وإنا نرجو أن تكون دعوة رسول الله لك، فأبشر، فلما عرفوا منى الصدق، قلت لهم: أخبرونى بمكان رسول الله ﷺ، فقالوا: هو فى بيت فى أسفل الصفا وصفوه، قال: فخرجت حتى قرعت الباب، قيل: من هذا؟ قلت: ابن الخطاب، قال: وقد عرفوا شدتى على رسول الله ﷺ ولم يعلموا بإسلامى، فما اجترأ أحد منهم أن يفتح الباب، فقال رسول الله: «افتحوا له، فإنه إن يرد الله به خيرًا يهده». ففتحوا لى، وأخذ رجلان بعضدى حتى دنوت من النبى ﷺ.

فقال: «أرسلوه»، فأرسلونى، فجلست بين يديه، فأخذ بمجمع قميصى فجبذنى إليه، ثم قال: «أسلم يا ابن الخطاب اللهم اهده»، قلت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فكبر المسلمون تكبيرة سمعت بطرق مكة، ثم خرجت فكنت لا أشاء أن أرى رجلا قد أسلم يُضْرَبُ إلا رأيته، فلما رأيت ذلك، قلت: لا أحب إلا أن يصيبنى ما أصاب المسلمين، فذهبت إلى خالى، وكان شريفًا فيهم، فقرعت الباب عليه، فقال: من هذا؟ قلت: ابن الخطاب، فخرج إلىَّ فقلت له: أشعرتَ أنى قد صبوت؟ قال: هل فعلت؟ فقلت: نعم، قال: لا تفعل، فقلت: بلى قد فعلت، قال: لا تفعل، وأجاف[1] الباب دونى وتركنى.

قلت: ما هذا بشىء، فخرجت حتى جئت رجلا من عظماء قريش، فقرعت عليه الباب، فقال: من هذا؟ فقلت: عمر بن الخطاب، فخرج إلىَّ فقلت له: أشعرت أنى قد صبوت؟ قال: هل فعلت؟ فقلت: نعم، قال: فلا تفعل، قلت: قد فعلت، قال: لا تفعل، ثم قام فدخل فجاف الباب دونى، فلما رأيت ذلك انصرفت، فقال لى رجل: تحب أن يُعْلَمَ إسلامك؟ قلت: نعم، قال: فإذا جلس الناس فى الحجر واجتمعوا أتيت فلانا رجلا لم يكن يكتم السر فأصغ إليه، وقل له - فيما بينك وبينه -: إنى قد صبوت، فإنه سوف يظهر عليك ويصيح ويعلنه، قال: فاجتمع الناس فى الحجر، فجئت الرجل فدنوت منه، فأصغيت إليه فيما بينى وبينه، فقلت: أعلمت أنى قد

---

(١) أجاف الباب: رده.

صبوت؟ فقال الرجل صارخًا: ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ، قال عمر: فمازال الناس يضربوننى وأضربهم، فقال خالى: ما هذا؟ فقيل: ابن الخطاب، فقام على الحجر فأشار بكمه، فقال: ألا إنى قد أجرت ابن أختى، فانكشف الناس عنى، وكنت لا أشاء أن أرى أحدًا من المسلمين يُضَربُ إلا رأيته، وأنا لا أضرب، فقلت: ما هذا بشىء، حتى يصيبنى مثل ما يصيب المسلمين؟.

فأمهلت – أى انتظرت – حتى إذا جلس الناس فى الحجر، وصلتُ إلى خالى، فقلت: اسمع، فقال: ما أسمع؟ قلت: جوارك عليك رد!! فقال: لا تفعل يا ابن أختى، قلت: بل هو ذاك، فقال: ما شئت! قال عمر: فمازلت أُضْربُ وأضرب حتى أعز الله الإسلام.

هذا هو عمر أرأيت ماذا فعل بأخته فى ثورة غضبه؟ ضربها بأى شىء فى يده، فلما سالت الدماء منها ثاب إلى الرحمة والإشفاق عليها، ولما رأى إصرارها على ما هى عليه وتحديها له عادت إليه فطرته المتأملة المتفكرة، ولعله ساءل نفسه ما الذى يدفع هذه المرأة الضعيفة العزلاء إلى مواجهة قوته الباطشة؟ وتقول له: يا ابن الخطاب ما كنت فاعلا فافعل فقد أسلمت! فذهب عنه سلطان الغضب، ولعله عاتب نفسه وأنَّبها على ما بدر منه، ورجحت كفة عقيدتها على ما كان هو عليه، رجحت كفة الإسلام فى قلبه، نستشف هذا من قوله لها: ما هذا الكتاب؟ أعطنيه.

نرى فى هذا القول بداية التصالح والاعتذار لها، والرغبة فى التحاور والتلطف معها، إن من يقتحم عليها بيتها، ويضربها فيسيل دمها، لقادر على أن يتناول هذا الكتاب رغما عنها لكن طلبه هذا يُعتبر فى حقيقة الأمر بداية جديدة للتواصل معها خاصة، وأنه استمع قبل ذلك إلى رسول الله ﷺ يتلو بعض آيات من القرآن الكريم فى الحجر، وذكر أن الإسلام وقع فى قلبه كل موقع، إذن فلماذا وقع منه على أخته ما وقع؟ بعدما وقع الإسلام فى قلبه كل موقع؟

قد يكون هذا لأنه ذهب إليها مغضبًا مستثارًا من طرفين متناقضين شحناه بهذه الثورة العارمة، أحد الطرفين هو قريش التى بعثته فى طلب رسول الله هذا هو جانب المشركين.

والطرف الثانى الذى أثاره وسخر منه هو «النَّحام»، فمن هو «النَّحام» ولماذا استثار عمر واستفزه وجعله يُغَيِرُ خط سيره إلى بيت أخته؟.

عن ابن إسحاق قال: ثم إن قريشًا بعثت عمر بن الخطاب، وهو يومئذ مشرك فى طلب رسول الله ﷺ، ورسول الله فى دار فى أصل الصفا، فلقيه النحام، وهو نعيم بن عبد الله بن أسيد، وهو أخو بنى عدى بن كعب، قد أسلم قبل ذلك، وعمر متقلد سيفه. قال النحام (نعيم بن عبد الله): يا عمر، أين تريد؟ قال عمر: أعمد إلى محمد الذى سفه أحلام قريش، وشتم آلهتهم، وخالف جماعتهم. قال النحام: أو تراك تفلت من بنى هاشم، وبنى زهرة وقد قتلت محمدًا؟ فتحاورا حتى ارتفعت أصواتهما، فقال له عمر: إنى لأظنك قد صبوت، ولو أعلم ذلك لبدأت بك! فلما رأى النحام أنه غير منته قال: فإنى أخبرك أن أهلك وأهل ختنك - زوج الأخت - قد أسلموا وتركوك وما أنت عليه من ضلالتك، فلما سمع عمر، قال: وأيهم؟ قال النحام: ختنك وابن عمك[1].. وأختك.

وكان رسول الله إذا أتته طائفة من أصحابه من ذوى الحاجة، نظر إلى أولى السعة فيقول: عندك فلان. فوافق ذلك ابن عم عمر وختنه زوج أخته.. سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، فدفع إليه رسول الله ﷺ خباب ابن الأرَتْ، وقد أنزل الله تعالى: ﴿طه ۝ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾، فذهب عمر مستثارًا إلى بيت أخته مدفوعًا بشحنتين، أو بعاصفتين، عاصفة السخط القرشى على محمد، وهذه العاصفة الثانية التى هبت عليه من الداخل من أهله، والتى تَحْمِلُ نسمات الإسلام القوية الناعمة التى استراحت لها نفسه وعقله وفكره فى نهاية الأمر.

(١) ابن عمك: يعنى به سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل.

فكان عمر الذى تكشفت حقيقته، الهادر، منبعه الرقراق مصبه، بعد هذا الدرس الذى تلقاه عن أخته فى الصلابة وعدم المبالاة بالأخطار.

قال عمر عند إسلامه:

والله لنحن أحق بالإسلام أن نظهره ونعلنه منا بالكفر، فليظهرن بمكة دين الله، فإن أراد قومنا بغيًا علينا ناجزناهم، وإن قومنا أنصفونا قلبنا منهم، فخرج عمر وأصحابه فجلسوا فى المسجد، فلما رأت قريش إسلام عمر أُسْقِطَ فى أيديهم.

وذكر ابن إسحاق: أن الرجل الذى كان لا يحفظ السر، ولا يقدر على كتمانه والذى أعلن إسلام عمر هو جميل بن عمر، كما ذكر إن الذى أجار عمر هو - العاص بن وائل - أبو عمرو بن العاص السهمى، وإنما قال عمر إنه خاله: لأن حنتمة أم عمر هى بنت هاشم بن المغيرة، وأمها الشفاء بنت عبد قيس بن عدى بن سعد بن سهم السهمية، فلهذا جعله خاله، وأهل الأم كلهم أخوال. ولهذا قال النبى ﷺ لسعد بن أبى وقاص: «هذا خالى»؛ لأنه زهرى، وأم رسول الله زهرية. وكان إسلام عمر فى السنة السادسة.

من سمى عمر، الفاروق؟

قالت عائشة رضى الله عنها: سماه النبى ﷺ.

وعن أيوب بن موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه، وهو الفاروق: فرق الله به بين الحق والباطل».

وعن ابن شهاب، قال: بلغنا أن أهل الكتاب كانوا أول من قال لعمر: الفاروق.

وقال الزبير بن العوام: قال رسول الله ﷺ: «اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب».

وقال عبد الله بن مسعود: كان إسلام عمر فتحًا، وكانت هجرته نصرًا، وكانت إمارته رحمة، ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلى فى البيت حتى

أسلم عمر، فلما أسلم قاتلهم حتى تركونا فصلينا.

وعن حذيفة رضى الله عنه: لما أسلم عمر كان الإسلام كالرجل المقبل، لا يزدادُ إلا قربًا، فلما قتل عمر كان الإسلام كالرجل المُدبر، لا يزداد إلا بعدًا.

هجرته:

قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه: ما علمت أن أحدًا من المهاجرين هاجر إلا مختفيا إلا عمر بن الخطاب، فإنه لَمّا هَمَّ بالهجرة تقلّد سيفه، وتنكّب قوسه، وامتضى فى يده أسهما، واختصر[1] عنزته[2] ومضى قبل الكعبة، والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعًا متمكنا، ثم أتى المقام فصلى متمكنًا، ثم وقف على الحلق - حلقات القوم - واحدة واحدة، وقال لهم: شاهت الوجوه - أى قبحت - لا يرغم الله إلا هذه المعاطس - الأنوف - من أراد أن تثكله أمه، ويوتم وَلَدَهُ، ويرمل زوجته، فليلقنى وراء هذا الوادى. قال على: فما تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين علمهم وأرشدهم، ومضى لوجهه.

وعن عبد الله بن عمر، عن أبيه، قال: لما اجتمعنا للهجرة تواعدت أنا وعياش بن أبى ربيعة، وهشام بن العاص بن وائل، قلنا: الميعاد بيننا «التناضب» - اسم موضع من أضاة بنى غفار - فمن أصبح منكم لم يأتها، فليمضِ صاحباه، فأصبحت عندها أنا وعياش بن أبى ربيعة، وحبس عنا هشام، وفتن فافتتن، وقدمنا المدينة.

منزله بالمدينة:

نزل على رفاعة بن المنذر فى بنى عمرو بن عوف هو وزيد بن الخطاب، وعمرو، وعبد الله ابنا سراقة، وخنيس بن حذافة، وسعيد بن زيد بن عمرو ابن نفيل، وواقد بن عبد الله، وخولى بن أبى خولى، وعياش بن أبى ربيعة،

(١) اختصر: أمسكها بيده.

(٢) العنزة: بفتح العين والزاى مثل نصف الرمح أو أكبر شيئا وفيها مثل سنان الرمح.

وخالد وإياس وعاقل بنو البُكَير.

وكان أول القادمين إلى المدينة: مصعب بن عمير، وتلاه ابن أم مكتوم، ثم قدم عمر بن الخطاب فى عشرين راكبًا، ثم قدم رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق معه.

المشاهد التى حضرها:

شهد بدرًا.. مع رسول الله ﷺ، وهو الذى أشار بقتل المشركين ببدر من الذين أسروا، فقد كان أشد الناس على الكفار، وأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، [الأنفال: ٨٦] وفصلنا هذا الأمر فى الحديث عن الصديق، كما حضر أحدا، وكان من الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ حينما دارت الدائرة على المسلمين بسبب مخالفة الرماة لموقعهم، ونزولهم للحصول على الغنائم ظنًا منهم أن المعركة انتهت لصالحهم، وأقتنص خالد بن الوليد هذه الثغرة، فالتف وحاصر المسلمين من الخلف، وحدثت الهزيمة وأشيع قتل الرسول.

ولما أراد أبو سفيان الانصراف أشرف على الجبل، ثم نادى بأعلى صوته! إن الحرب سجال يوم بيوم بدر، أعلو «هبل»! فقال رسول الله لعمر: «قم فأجبه، وقل: بل الله أعلى وأجل، لا سواء، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار»، فلما أجاب عمر أبا سفيان قال له: أنشدك بالله يا عمر، هل قتلنا محمدًا؟ قال عمر: لا وإنه ليسمع كلامك الآن، قال أبو سفيان: أنت أصدق عندى من ابن قمئة وأبرّ الذى زعم أنه قتل محمدًا.

كما شهد الخندق، وبيعة الرضوان، وخيبر، والفتح، وحُنَينًا، وغيرها من المشاهد، وكانت له مواقفه المتميزة، والمتشددة مع الكفار فى هذه الغزوات.

أراد الرسول أن يرسله إلى أهل مكة يوم الحديبية، فقال: يا رسول الله، قد علمت قريش شدة عداوتى لها، وإن ظفروا بى قتلونى، فتركه الرسول وأعفاه من هذه المهمة وأرسل عثمان، واعتراضه على بنود صلح الحديبية،

وما رآه فيها من شروط تبدو مجحفة بالمسلمين مما جعله يثور، ويتبادل مع أبى بكر حديثه المشهور:

عمر: يا أبا بكر أليس برسول الله؟ أبو بكر: بلى، عمر: أولسنا على الحق؟ أبو بكر: بلى، إلى أن قال: فلماذا نعطى الدنية فى ديننا؟ وكان هذا تعبيرًا عما يجيش فى نفسه من ثورة وعنف على تلك الشروط.

وفى فتح مكة حينما تملك الهلع قلب أبى سفيان لما رأى الجيش الإسلامى القادم لفتحها، فقال: ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرًا، وعرف العباس صوت أبى سفيان فناداه، وقال له: ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله فى الناس، واصباح قريش، إذ دخل مكة عنوة، وقال أبو سفيان: فما الحيلة فداك أبى وأمى؟ قال العباس: تركب عجز هذه البغلة، فأَسْتَأْمِنُ لك رسول الله، فوالله لئن ظفر بك ليضربن عنقك.

يقول العباس رضى الله عنه: خرجت بأبى سفيان أركض بغلة رسول الله ﷺ، فكلما مررت بنار من نيران المسلمين ونظروا إلىّ قالوا: عم رسول الله على بغلة رسول الله، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب، قال عمر: فى فرحة بالغة، أبو سفيان، الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم اشتد نحو النبى عليه السلام، وركضت البغلة حتى اقتحمت على باب القبة مركز قيادة رسول الله، وسَبَقتُ عمر بما تسبق به الدابة البطيئة الرجل البطئ، فدخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان عدو الله، قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد، فدعنى أضرب عنقه، قال العباس: يا رسول الله، إنى قد أجَرتُهُ، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ، فأخذت برأسه، فقلت: والله لا يناجيه اليوم أحد دونى، فلما أكثر فيه عمر، قلت: مهلا يا عمر، فوالله ما تصنع هذا إلا لأنه رجل من بنى عبد مناف، ولو كان من بنى عدى بن كعب ما قلت هذا، قال عمر: مهلا يا عباس، فوالله لأسلامك يوم أسلمت كان أحب إلىّ من إسلام الخطاب لو أسلم. فقال رسول الله ﷺ: «اذهب فقد آمناه حتى تغدو به على بالغداة».

ذكرنا قصة عمر مع أبى سفيان لأنها تشير إلى أشياء يهمنا منها:

أن عمر رضى الله عنه، وهو يسعى جاهدًا إلى ضرب عنق أبى سفيان كان يفعل ذلك حبًا لرسول الله ﷺ وبغضًا للمشركين لما فعلوه به وبإصحابه، وإلى عهد قريب كان أبو سفيان هو واضع الشروط المجحفة فى صلح الحديبية، ناهيك عما فعله منذ بدء الدعوة فى فتح مكة مما كان يستوجب قتله لولا استنقذه العباس من سيف عمر، فعمر لم يكن يبغض أبا سفيان؛ لأنه من بنى عبد مناف، ولو كان من بنى عدى لاختلف الأمر، ولعل هذه الكلمات أفلتت من فم العباس رضى الله عنه فى لحظة غضب عارم لحرصه على إنقاذ أبى سفيان، وربما عز عليه أيضًا أن طلب عمر ضرب عنق أبى سفيان بعدما طلب العباس إجارته.

أما عمر رضى الله عنه، فلانشك فى أنه كان صادقًا كل الصدق فيما قاله، وسمعه العباس منه حينما أسر يوم بدر فيمن أسر، أسره رجل من الأنصار وقد وعدته الأنصار أن يقتلوه، فبلغ ذلك النبى فقال: «إنى لم أنم الليلة من أجل عمى العباس، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه». قال عمر أفآتهم؟ قال: «نعم» ، فأتى عمر الأنصار، فقال لهم: أرسلوا العباس، فقالوا: لا والله لا نرسله، فقال لهم عمر: فإن كان رسول الله رضى؟ قالوا: فإن كان له رضى فخذه، فأخذه عمر فلما صار فى يده، قال له عمر: يا عباس أسلم، فوالله لئن تسلم أحب إلىَّ من أن يسلم الخطاب، وما ذاك إلا لمَّا رأيت رسول الله يعجبه إسلامك.

بل وأكثر من هذا دلالة على حب عمر لما يُرْضِى رسول الله ﷺ ما أخرجه ابن سعد (٤/١٢)، وأحمد وابن عساكر: عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، قال: كان للعباس ميزاب قناة يجرى فيها الماء على طريق عمر رضى الله عنهما، فلبس عمر ثيابه يوم الجمعة، وقد كان ذبح للعباس فرخان، فلما وافى الميزاب – وصل إلى الميزاب – صب فيه من دم الفرخين فأصاب عمر، فأمر عمر بنزعه، ثم رجع فطرح ثيابه ولبس غيرها، ثم جاء فصلى بالناس، فأتاه العباس، فقال: والله إنه الموضع الذى وضعه رسول الله

ﷺ، فقال عمر للعباس: عزمت عليك لما صعدت على ظهرى حتى تضعه فى الموضع الذى وضعه رسول الله، فحمل عمر العباس رضى الله عنهما على عنقه، فوضع رجليه على منكبى عمر، ثم أعاد الميزاب حيث كان فوضعه موضعه.

هذا هو عمر، وهذا حبه لرسول الله ، وإكرامه لعم الرسول إعمالاً لقول الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ،[الشورى: ٢٣] فهل يتصور ممن هو على هذا القدر من الحب والإيمان والتواضع أن يفضل أحد من أقاربه على أقارب رسول الله ﷺ، وعمر الذى اشتهر بأنه يتقرب إلى الله بالتشدد على أقاربه وحرمانهم مما لا يحرم منه عامة المسلمين.

علمه وهيبته:

عن قبيصة بن جابر، قال: لم أرَ أحدًا أقرأ لكتاب الله، ولا أفقه فى دين الله، ولا أقوم بحدود الله، ولا أهيب فى صدور الرجال من عمر.

ومن صفات العالم الحق وإخلاصه للعلم، أن يقول لسائله: لا أعلم فيما لا يعلم.

قال ابن عباس: مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن حديث ما منعنى منه إلا هيبته، حتى تَخَلَّفَ فى حج أو عمرة، فلما جاء وخلوت به قلت: يا أمير المؤمنين، إنى أريد أن أسألك عن حديث منذ سنتين ما يمنعنى إلا هيبة لك، قال: فلا تفعل، إذا أردت أن تسأل فسلنى، فإن كان منه عندى علم أخبرتك، وإلا قلت: لا أعلم، فسألت من يعلم، قلت: من المرأتان اللتان ذكرهما الله سبحانه أنهما تظاهرتا على رسول الله ﷺ، قال: عائشة وحفصة.

وهكذا كان ابن عمر، فعن مجاهد، قال: سئل ابن عمر رضى الله عنهما عن فريضة من الصلب، فقال: لا أدرى، فقيل له: ما يمنعك أن تجيب؟ فقال: سئل ابن عمر عما لايدرى، فقال: لا أدرى!.

وكان يعلل كثرة الأسئلة من بعض الناس بقوله: أتدرى ما يريد هؤلاء

السائلون؟ يريدون أن يجعلوا ظهورنا جسرًا إلى جهنم.

ومن الطريف أن رجلا كان يكثر غشيان باب عمر رضى الله عنه، فقال له عمر: أذهب فتعلم كتاب الله، فذهب الرجل ففقده عمر، ثم لقيه فكأنه عاتبه، فقال الرجل: وجدت فى كتاب الله ما أغنانى عن باب عمر، وفرح عمر بما فعل الرجل لكنه لم يكن فرحًا بغياب الرجل عن بابه.

وعمر رضى الله عنه يحذر من أخذ العلم عن غير أهله، وفى ذلك يقول: ما أخاف على هذه الأمة من مؤمن ينهاه إيمانه، ولا من فاسق بَيِّنٌ فسقه، ولكنى أخاف عليها رجلا قد قرأ القرآن، حتى أزلقه بلسانه - أى كان فصيحًا فى النطق به - ثم تأوله على غير تأويله.

وكان يحث على أخذ العلم عن علماء الصحابة، فيقول: من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبى بن كعب، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتنى، فإن الله جعلنى له وليًا وقاسمًا.

ومن أمارات شغفه بالعلم أنه كان يحب التحاور فيه، ولا يعيبه أن يسأل فيه ويسأل، لا يتوقف عند ظاهر النص، بل يميل إلى الغوص كصائد اللآلى ليستخرج من مكنونات بحره، ويسعد بالحوار وباللطائف التى وصل إليها، ويقر لشريكه فى الحوار بحجته إن كان لها الغلبة، ولا يجد غضاضة فى هذا الاقرار أيا كان المحاور ذكرًا كان أو أنثى فى مثل سنه، أو دون ذلك؛ لأنه كان يبحث عن الحق، ويتلمسه حيثما وجده.

عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال: سألت عمر بن الخطاب رضى الله عنه، عن قول الله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]، قال عمر رضى الله عنه: كان رجال من المهاجرين فى أنسابهم شىء، فقالوا يومًا: والله لوددنا أن الله أنزل قرآنا فى نسبنا، فأنزل الله ما قرأت، غضب رسول الله ﷺ يومًا لإلحاح البعض فى الأسئلة الغيبية التى لو كشفها الله لساءتهم، وقال الرسول لهم فى لحظة

ضيق وغضب حتى يردعهم عن كثرة الأسئلة وما وراءها: «سلونى فإنكم لا تسألونى اليوم عن شىء إلا أنبائكم به»، قال رجل: أين أبى؟ قال: «فى النار»، قال آخر: من أبى؟ قال: «أبوك حذافة»، فقام عمر بن الخطاب، فقال وهو يرتعد فرقًا من الاستمرار فى هذا التيار: رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيًا، وبالقرآن إمامًا، إنا يا رسول الله حديثوا عهد بجاهلية وشرك، والله أعلم من آباؤنا، فاعف عنا عفا الله عنك، وقبَّل رجل الرسول، فسكن غضبه.

أرأيت إلى سلامة قلب عمر، وحرصه على عدم كشف عورات المسلمين، هذه القصة مما أخذه ابن عباس، ورواه عن عمر رضى الله عنه فى تفسيره لهذه الآية، وتبادل عمر الحوار مع ابن عباس، وتطرق إلى الحديث عن على بن أبى طالب رضى الله عنهم جميعًا، قال عمر: إن صاحبكم هذا - يعنى عليًا - إن ولى زهد، ولكن أخشى عجبه بنفسه أن يذهب به، قال ابن عباس: يا أمير المؤمنين، إن صاحبنا من قد علمت إنه ما غيّر، ولا بدّل، ولا أسخط رسول الله ﷺ أيام صحبته.

فقال عمر: ولا بنت أبى جهل، وهو يريد أن يخطبها على فاطمة؟ قال ابن عباس: ردًا على هذه الهفوة من على كرم الله وجهه، قال الله عز وجل فى معصية آدم عليه السلام: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

فصاحبنا لم يعزم على إسخاط رسول الله ﷺ، ولكن الخواطر التى لا يقدر أحد على دفعها عن نفسه، وربما كانت من الفقيه فى دين الله العالم بأمر الله، فإذا نُبِّه عليها رجع وأناب، وهذا ماكان من أمر على.

فقال عمر: يا ابن عباس، من ظن إنه يرد بحوركم فيغوص فيها معكم حتى بلغ قعرها فقد ظن عجزًا. المنتخب [٥/٢٢٩].

لم يكن يستنكف أن تعارضه امرأة فيقر لها بسلامة حجتها وصواب رأيها.

خطب يومًا، فقال: ألا لا تتغالوا فى صداق النساء، وأنه لا يبلغنى عن

أحد ساق أكثر من شيء ساقه رسول الله ﷺ، أو سيق إليه إلا جعلت فضل ذلك فى بيت المال، ثم نزل فعرضت له امرأة من قريش، فقالت: يا أمير المؤمنين، لكتاب الله أحق أن يتبع أم قولك؟ قال: بل كتاب الله، فما ذاك؟ قالت المرأة: نهيت الناس آنفًا أن يتغالوا فى صداق النساء، قال: نعم، لو كان المهر سناء ورفعة فى الأخرة كانت بنات النبى ونساؤه أحق بذلك، قالت المرأة: لكن الله تعالى يقول: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾، [النساء: ٢٠] فقال عمر: اللهم غفرًا كل أحد أفقه من عمر، مرتين أو ثلاثًا، ثم رجع إلى المنبر، فقال للناس: إنى كنت نهيتكم أن تزيدوا فى صدقاتهن على أربعمائة، فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب، أو ما طابت نفسه، فليفعل. [ابن سعد ١٦١/٨، والكنز ٢٩٨/٨].

هذا هو عمر يتراجع أمام الحجة دون حرج لإيمانه القوى وشخصيته القوية، ولكنه ربط هذا الأمر بأن يكون العطاء من مال المعطى، ويكون محبًا لهذا العطاء ونفسه طيبة به، وليعط بعد ذلك قدر ما يستطيع دون إجبار.

عمر رضى الله عنه فى زهده:

قالت حفصة لعمر: يا أمير المؤمنين، لو اكتسيت ثوبًا هو ألين من ثوبك، وأكلت طعامًا هو أطيب من طعامك، فقد وسع الله من الرزق، وأكثر من الخير، فقال: إنى سأخاصمك إلى نفسك! أمَا تذكرين ما كان رسول الله ﷺ يلقىَ من شدة العيش، وكذلك أبو بكر؟ فما زال يُذكّرها حتى أبكاها، فقال لها: أما والله لإشاركنهما فى مثل عيشهما الشديد لعلى إدرك عيشهما الرخى. رواه أحمد.

فهذا رجل يزهد فى الدنيا؛ لأنه يتمثل ما عاش عليه رسول الله ﷺ، وصاحبه أبو بكر الصديق، وهو يوقن بنعيم الأخرة، ولذلك يخطىء من يظن أن الرسول، ومن سار خلف خطاه الزاهده فى متاع الدنيا، كان لقلة ذات اليد أو لعدم معرفة بأطايب الحياة، كلا إنما كان الزهد بهدف التقرب إلى الله تعالى، وليقابل هذا الزهد فى الجانب الآخر بكثرة الانفاق فى سبيل الله،

فهو عمله ذات وجهين:

الوجه الأول خاص بالنفس، فهو تهذيب وتأديب لها، وتطويع لها على الإيثار.

والوجه الآخر هو الإنفاق بلا حدود على المحتاجين إذ لا إسراف فى الخير، وإنما الإسراف فى الإنفاق على النفس وحرمان الأخرين.

عن الحسن البصرى، قال: أتيت مجلسا فى جامع البصرة، فإذا أنا بنفر من أصحاب رسول الله ﷺ يتذاكرون زهد أبى بكر وعمر رضى الله عنهما، وما فتح الله عليهما من الإسلام، وحسن سيرتهما، فدنوت من القوم، فإذا فيهم الأحنف بن قيس التميمى رضى الله عنه جالسا معهم، فسمعته يقول: أخرجنا عمر بن الخطاب فى سرية إلى العراق، ففتح الله علينا العراق وبلد فارس، فأصبنا فيها من بياض - الثياب البيضاء - فارس وخراسان، فجعلناه معنا واكتسينا منها، فلما قدمنا على عمر أعرض عنا بوجهه وجعل لا يكلمنا! فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتينا ابنه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما، وهو جالس فى المسجد، فشكونا إليه ما نزل بنا من الجفاء من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

فقال عبد الله: إن أمير المؤمنين رأى عليكم لباسا لم ير رسول الله يلبسه، ولا الخليفه من بعده أبو بكر الصديق رضى الله عنه، فأتينا منازلنا، فنزعنا ما كان علينا، وأتينا فى البِدّه - الثياب - التى كان يعهدنا فيها، فقام يسلم علينا، على رجل رجل، ويعانق منا رجلا رجلا، حتى كأنه لم يرنا قبل ذلك، فقدمنا إليه الغنائم، فقسمها بيننا بالسوية، فعُرض عليه فى الغنائم سلال [1] من أنواع الخبيص من أصفر وأحمر، فذاقه عمر فوجده طيب الطعم طيب الريح، فأقبل علينا بوجهه، وقال:

والله يا معشر المهاجرين والأنصار، ليقتلن منكم الإبن أباه، والأخ أخاه، على هذا الطعام! ثم أمر به فحمل إلى أولاد من قتلوا بين يدى رسول الله

(١) سلال: جمع سلة وهى الجونه.

ﷺ من المهاجرين والأنصار، ثم أن عمر قام منصرفا فمشى وراءه أصحاب رسول الله ﷺ فى أثره، فقالوا: ما ترون يا معشر المهاجرين والأنصار إلى زهد هذا الرجل وإلى حليته؟ لقد تقاصرت إلينا أنفسنا مذ فتح الله على يديه ديار كسرى وقيصر، وطرفى المشرق والمغرب، ووفود العرب والعجم يأتونه فيرون عليه هذه الجبة، وقد رقعها اثنتى عشرة رقعة، فلو سألتم معاشر أصحاب محمد ﷺ، وأنتم الكبراء من أهل المواقف والمشاهد مع رسول الله والسابقين من المهاجرين والأنصار أن يغير هذه الجبة بثوب ليِّنٍ يُهابُ فيه منظره ويُغْدَىَ عليه بجفنة من الطعام، ويُرَاح عليه بجفنة يأكله، ومن حضر من المهاجرين والأنصار ليس له إلا على أو حفصة، فقال القوم بأجمعهم: ليس لهذا القول إلا على بن أبى طالب، فإنه أجرأ الناس عليه، وصهره على ابنته، أو ابنته حفصة، فإنها زوجة رسول الله ﷺ، وهو موجب لها لموضعها من رسول الله ﷺ، فكلموا عليًّا، فقال على: لست بفاعل ذلك، ولكن عليكم بأزواج النبى ﷺ، فإنهن أمهات المؤمنين يجترئن عليه.

قال الأحنف بن قيس: فسألوا عائشة وحفصة رضى الله عنهما، وكانتا مجتمعتين، فقالت عائشة: إنى سائلة أمير المؤمنين ذلك، وقالت حفصة: ما آراه يفعل، وسيبين لك ذلك، فدخلتا على أمير المؤمنين، فقربهما وأدناهما، فقالت عائشة: يا أمير المؤمنين أتأذن أن أكلمك؟ قال: تكلمى يا أم المؤمنين.

قالت: إن رسول الله ﷺ مضى لسبيله إلى جنته ورضوانه لم يُرِدْ الدنيا، ولم تُرِدهُ، وكذلك مضى أبو بكر رضى الله عنه على آثره لسبيله بعد إحياء سنن رسول الله ﷺ، وقتل المكذبين، وأدحض حجة المبطلين، بعد عدله فى الرعية، وقسمه فى السوية، وإرضاء رب البرية، فقبضه الله إلى رحمته ورضوانه، وألحقه بنبيه ﷺ بالرفيق الأعلى، ولم يرد الدنيا، ولم ترده، وقد فتح الله على يديك كنوز كسرى وقيصر وديارهما، وحمل إليك أموالهما، ودانت لك أطراف المشرق والمغرب، ونرجو من الله المزيد، وفى الإسلام

التأييد، ورسل العجم يأتونك، ووفود العرب يَرِدُونَ عليك، وعليك هذه الجبة قد رقعتها اثنى عشرة رقعة، فلو غيرتها بثوب لين يُهْابُ فيه منظرك، ويُغدى عليك بجفنة من الطعام، ويراح عليك بجفنة تأكل أنت، ومن حضرك من المهاجرين والأنصار.

فبكى عمر عند ذلك بكاء شديدًا، ثم قال: سألتك بالله، هل تعلمين أن رسول الله ﷺ شبع من خبز بُرٍّ عشرة أيام أو خمسة أو ثلاثة؟ أو جمع بين عشاء وغذاء حتى لحق بالله؟ فقالت: لا، فأقبل على عائشة، فقال: هل تعلمين أن رسول الله ﷺ قُرِّبَ إليه طعام على مائدة في ارتفاع شبر من الأرض؟ كان يأمر بالطعام فيوضع على الأرض، وبالمائدة فترفع، قالتا: اللهم نعم، فقال لهما: أنتما زوجتا رسول الله ﷺ وأمهات المؤمنين، ولكما على المؤمنين حق وعليَّ خاصة، ولكن أتيتما تُرَغِبانى فى الدنيا، وإنى لأعلم أن رسول الله ﷺ لبس جبة من الصوف فربما حكَّ جلده من خشونتها، أتعلمان ذلك؟ قالتا: اللهم نعم.

فقال: هل تعلمين أن رسول الله ﷺ كان يرقد على عباءة على طاقة واحدة، وكان مسحًا ثوبًا من الشعر الغليظ فى بيتك يا عائشة تكون بالنهار بساطًا، وبالليل فراشًا، فندخل عليه فنرى أثر الحصير على جنبه؟ ألا يا حفصة، أنت حدثتينى أنك ثنيت له ذات ليلة فوجد لينها فرقد، فلم يستيقظ إلا بأذان بلال، فقال لك: «يا حفصة، ماذا صنعت؟ أثنيت السهاد ليلتى حتى ذهب بى النوم إلى الصباح؟ مالى وللدنيا؟ مالى وللدنيا؟ ومالى شغلتمونى بلين الفراش».

يا حفصة أما تعلمين أن رسول الله ﷺ كان مغفورًا له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، أمسى جائعًا، ورقد ساجدًا، ولم يزل راكعًا و ساجدًا وباكيًا ومتضرعًا فى آناء الليل والنهار إلى أن قبضه الله برحمته ورضوانه، لا أكل عمرُ طيِّبًا، ولا لبس ليِّنًا، فله أسوة بصاحبيه، ولا جمع بين أدمين إلا الملح والزيت، ولا أكل لحمًا إلا فى كل شهر.

«**ولا تعليق**.. لأن أى تعليق لا يرقى إلى مستوى هذا التدفق العمرى الصادق!».

فخرجتا فخبَّرتا بذلك أصحاب رسول الله، فلم يزل كذلك حتى لحق بالله عز وجل، كذا فى منتخب كنز العمال (٤/٤٠٨).

وأخرج بن سعد أن حفص بن أبى العاص رضى الله عنه، كان يحضر طعام عمر رضى الله عنه ولا يأكل منه، فقال له عمر: ما يمنعك من طعامنا؟ قال: إن طعامك خشن غليظ، وإنى راجع إلى طعام لين قد صُنع لى فأصيب منه، قال عمر: أترانى أعجز أن آمر بشاة فيُلقى عنها شعرها؟ وآمر بدقيق فينخل فى خرقة ثم آمر به فيخبز خبزا رُقَاقًا؟ وآمر بصاع من زبيب فيقذف فى وعاء ثم يُصَبُّ عليه من الماء فيصبح كأنه دم غزال؟ فقال حفص: إنى لا أراك عالمًا بطيب الطعام، فقال عمر: أجل، والذى نفسى بيده، لولا كراهية أن ينقص من حسناتى يوم القيامة لشاركتكم فى لين عيشكم.

وهكذا نرى من خلال حواره مع اثنين من أمهات المؤمنين؛ عائشة بنت أبى بكر وحفصة ابنته:

إن ارتداء الثياب اللينة غير الحريرية، وتناول الطعام غير الخشن مرتين فى اليوم مع صحابة المهاجرين والأنصار ليست هذه الملبوسات والمأكولات من المحرمات فى الإسلام، وإلا لما اتفق الصحابة وفيهم على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وأمهات المؤمنين رضى الله عنهن جميعًا لما اتفقوا على طلب شىء محرم من عمر بن الخطاب، ولو كانت هذه الأشياء من المحرمات لما سكت عليها عمر، ولنبههم إليها.

إنها تدخل فى نطاق المباحات، ولكن عمر لا يرتضيها لنفسه، كما أنه لا يفرض تلك الصورة من الزهد التى كان هو عليها على أحد غيره، ويؤيد هذا أنه بعدما غضب من معاوية بن أبى سفيان لاتخاذه الموكب الذى رآه عليه، واتخاذه الحجاب على بابه عاد فقال له: لا آمرك، ولا أنهاك.

وَوَصف معاوية فى كلتا الحالتين: حالة صدقه وحالة كذبه بأنه أديب أو أريب! وعمر لا يقول لمن يرتكب محرمًا ويُقِرَّ به أمامه: لا آمرك، ولا أنهاك، أو أنه أديب أو أريب. فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو مبدأ أساسى فى الإسلام لا يتهاون فيه مثل عمر بن الخطاب.

كالأمر الذى رأى عليه معاوية إنما يدور فى نطاق الحل لا الحرمة، ولكنه الاقتداء برسول الله ﷺ الذى لم يرد الدنيا ولم ترده وبما كان عليه أبو بكر وذكرته عائشة فى مقالها، وهو ما يريده عمر لنفسه أيضًا مثل صاحبيه، ولماذا لا يكون عمر مثلهما لم يرد الدنيا، ولم ترده.

الأمر الآخر الذى يلفتنا إليه هذا الحوار الحار الصادق النابع من قلب يرتع فى بحبوحة الإيمان، وثراء الإسلام وفيض العقيدة، وإن كان يبدو فى ظاهره حبيسًا فى متطلبات الزهد العمرى وتقواه.

يبدو لنا أن عمر كان يخشى على نفسه، وعلى المسلمين من بعده أن تستدرجهم المباحات شيئًا فشيئًا إلى السقوط فى حبائل الدنيا التى لم يعجزها أن تتخفى وراء حسن نية أمهات المؤمنين والمهاجرين والأنصار بدليل قوله لهما: أتيتما ترغبانى فى الدنيا.

وعاد يذكرهما بما كان عليه رسول الله ﷺ مع أن الله تعالى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكيف لعمر أن يحيد عن هذا الطريق الذى سلكه النبى، وليست لديه مثل هذه الشهادة الإلهية التى أنزلها الله عز وجل قرآنًا يتلى إلى نهاية الدنيا، بل ويتلى فى الآخرة أيضًا.

هذا الزهد العمرى هو الذى جعل طلحة بن عبيد الله يقول: ما كان عمر بن الخطاب بأولنا إسلاما، ولا أقدمنا هجرة، ولكنه كان أزهدنا فى الدنيا، وأرغبنا فى الآخرة.

وجعل سعد بن أبى وقاص يقول أيضًا: والله ما كان عمر بأقدمنا هجرة، وقد عرفت بأى شىء فضلنا، كان أزهدنا فى الدنيا.

ودخل على حفصة ابنته، فقدمت إليه مرقًا باردًا وخبزًا، وصبت في المرق زيتًا، فقال: أدمان في إناء واحد، لا أذوقه حتى ألقى الله عز وجل.

واستسقى عمر، فأُتِيَ بإناء من عسل، فوضعه على كفه، وجعل يقول: اشربها، فتذهب حلاوتها وتبقى نقمتها، قالها ثلاثًا، ثم دفعه إلى رجل من القوم فشربه.

وضع طعام بين يدى عمر، وجاء الغلام فقال: هذا عتبة بن فرقد بالباب، قال: وما أقدم عتبة؟ ائذن له، فلما دخل رأى بين يدى عمر طعامه: خبزًا، وزيتًا، قال عمر: اقترب يا عتبة، فأصب من هذا، فذهب يأكل فإذا هو طعام جشب - خشن غليظ - لا يستطيع أن يُسيغه، قال: يا أمير المؤمنين، هل لك فى طعام يقال له الحُوَّارى؟ - أى من الخبز الذى نخل مرة بعد مرة - قال عمر: ويلك، أويسع ذلك المسلمين كلهم؟ قال عتبة: لا والله، قال عمر: ويلك يا عتبة، أفأردت أن آكل طيبًا فى حياتى الدنيا واستمتع.

فعمر إذن يهمه أمر المسلمين جميعًا، ويسأل عما يسعهم مما يعرض عليه، فإذا كان لا يسعهم فكيف يتناوله هو، وحتى إن كان يسعهم، فإنه لا يرتضيه لنفسه؛ لأنه اتخذ الرسول ﷺ قدوة لا محيد لعمرٍ عن الإقتداء به، وإذا كان من غير المستطاع مجاراة عمر فى زهده، فليرغّب عمر المسلمين فى القناعة:

رأى على الأحنف بن قيس قميصًا، فقال له: يا أحنف، بكم أخذت قميصك هذا؟ قال: أخذته باثنتى عشر درهمًا، قال عمر: ويحك، ألا كان بستة دراهم، وكان فضله فيما تعلم، أى فى سبيل الله.

وكتب عمر رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه: اقنع برزقك فى الدنيا، فإن الرحمن فضل بعض عباده على بعض فى الرزق، بل يبتلى به كلا، فيبتلى به من بسط له، كيف شُكْرُهُ فيه، وشُكْرُهُ لله أداؤه الحق الذى افترض عليه فيما رزقه وخوَّله.

وكان يشدد على أهله فيما نهى الناس عنه، فيقول لهم: لا أعلمن أحدًا منكم وقع فى شىء مما نهيت عنه إلا أضعفت له العقوبة.

الله.. فى الرعية:

رجل فى رهافة قلب عمر، فتح الله على يديه البلدان فى مشارق الأرض ومغاربها، وتدفقت بالخير، فحرم نفسه وآثر بالخيرات غيره أملاً ورجاءً بوعد الله تعالى بجزاء الآخرة، وبصحبة النبى ﷺ بها كما صحبه فى الدنيا.

رجل راقب الله فى نفسه كأشد ما تكون المراقبة أيتصور منه أن يُهْمِلَ شأنًا من شئون رعيته؟ أم يتصور منه شدة الحرص عليها مرضاة لله تعالى؟ وماذا تكره الرعية فى عمر إذا كان يحرم نفسه ويؤثرها يتَبَلَّغ من الدنيا ويبسطها لرعيته؟.

لا شك أن رجلاً كعمر يُحَبُّ أشد الحب من رعيته، ويقَدرُ أعظم التقدير، وسيظل له هذا الحب متوارثًا عبر الأجيال حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

لقى عمر رضى الله عنه امرأة يقال لها: خولة، وهو يسير مع الناس، فاستوقفته فوقف لها، ودنا منها، وأصغى إليها رأسه، ووضع يديه على منكبيها، حتى قضت حاجتها وانصرفت، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، حبست رجالات قريش على هذه العجوز؟ قال عمر: ويحك أتدرى من هذه؟ قال: لا، قال عمر: هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات هذه خولة بنت ثعلبة، والله لو لم تنصرف عنى إلى الليل ما انصرفت حتى تقضى حاجاتها، لقد أنزل الله فيها: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾. [المجادلة: ١]

وقد كان عمر رضى الله عنه يستثمر عظم مسئوليته أمام الله تعالى عن رعيته، وكان لشدة حرصه وهمه فى ذلك يسلك عدة سبل للكشف عن أموالهم.

فكان إذا قدم عليه وفد سأله؟ كيف أميركم؟ أيعود المريض؟ أيعود

المملوك؟ أيجيب العبد؟ كيف بابه؟ ألَيِّنٌ هو؟ من يقوم على بابه؟ وهكذا، فإن قالوا: بابه لين، ويعود المملوك والمريض، تركه وإلا عزله.

وكان إذا بعث عماله شرط عليهم: لا تركبوا بروذنا - نوعًا من الخيل - تجنبًا للخيلاء، لا تأكلوا نقيًا - أى الخبز الأبيض المنخول مرات - لا تلبسوا رقيقًا، لا تغلقوا أبوابكم دون حوائج الناس، فإن فعلتم شيئًا من ذلك فقد حلت بكم العقوبة، ثم يشيعهم.

فإذا أراد أن يرجع قال: إنى لم أسلطكم على دماء المسلمين، ولا على أبشارهم، ولا على أعراضهم، ولا على أموالهم، ولكنى بعثتكم لتقيموا بهم الصلاة، وتقسموا فيهم فَيْأَهُم، وتحكموا بينهم بالعدل، فإذا أشكل عليكم شىء فارفعوه إلىّ، ألا فلا تضربوا العرب فتذلوها، ولا تعتلوا عليها فتُحْرَموها، إلخ.

وكان إذا استعمل رجلاً أشهد عليه رهطًا من الأنصار وغيرهم، يقول: إنى لم استعملك على دماء المسلمين.

وكتب إلى أبى سعيد عامر الجمحى، فقال: إنا مستعملوك على هؤلاء، تسير بهم إلى أرض العدو فتجاهد بهم، فقال سعيد: يا عمر، لا تَفْتِنى، قال عمر: والله لا أدعكم جعلتم الخلافة فى عنقى، ثم تخليتم عنى، إنما أبعثك على قوم لست أفضلهم، ولست أبعثك لتضرب أبشارهم، ولتنتهك أعراضهم، ولكن لتجاهد بهم عدوهم، وتقسم بينهم فيأهم.

حاول عمرو بن العاص أن يبنى له دارًا فى مصر تحت أى مسمى خطر بباله ربما كاستراحة مثلاً، كتب عمرو: إنا قد خططنا لك دارًا عند المسجد الجامع، فكتب إليه عمر: أنَّى لرجل من الحجاز تكون له دار بمصر؟ وأمره أن يجعلها سوقًا للمسلمين.

وكتب أيضا: إنه بلغنى أنك اتخذت منبرًا تَرَقَّى به على رقاب الناس، أوَمَا بحسبك أن تقوم قائمًا والمسلمون تحت عقبيك، فعزمت عليك لَمَا كسرته.

وكتب إلى **عتبة بن فرقد** في أن لا يترفع عن الرعية: يا عتبة بن فرقد، إنه ليس من كدك، ولا من كد أبيك، ولا كد أمك، فأشبع المسلمين في رحالهم مما تشبع منه في رحلك، وإياكم والتنعم، وزى أهل الشرك، ولبوس الحرير.

ما فعله مع أمير حمص:

تفقد عمر الناس في موسم الحج فمرَّ به أهل حمص فقال: كيف أميركم عبد الله بن قرط، قالوا: خير أمير إلا أنه بنى عِلِّية يكون فيها - أي ما يشابه الدور الثاني في أيامنا - فكتب عمر كتابًا.. وأرسل بريدًا وأمر صاحب البريد أن يحرق العِلِّيّة، فلما جاءها جمع حطبًا وحرق بابها، فأخبر الأمير بذلك، فقال: دعوه فإنه رسول، ثم ناوله كتاب عمر، فلم يضع الكتاب من يده حتى ركب إليه، فلما رآه عمر قال: إلحقني إلى الحِرة - مكان فيه إبل الصدقة - وهناك قال عمر للأمير: انزع ثيابك، وألقى إليه ثوبًا مخططًا من ثياب الأعراب من أوبار الإبل، ثم قال له: افتح الماء، واسق هذه الإبل، فلم يزل يرفع الدلو ويسقي الإبل حتى تعب، فقال له عمر: متى عهدك بهذا الأمر، قال: قريب يا أمير المؤمنين، قال عمر: فلذلك بنيت العِلِّية وارتفعت بها على المسكين والأرملة واليتيم، ارجع إلى عملك، ولا تعد.

عمر وجماعة من الصحابة في الشام:

كان عمر رضي الله عنه دقيق البحث والتحري عن عماله، وعن صحابة رسول الله ﷺ، وعن الرعية لا يتهم بلا دليل، ولا يؤاخذ بلا حجة، يذهب إلى من يريد أن يسأله، وفي جعبته كل الأوراق اللازمة خبيئة في عقله منظمة في فكره، فيفجؤه بما عنده، وكأنه كان يلازمه ساعة بساعة، أو لحظة بلحظة، إلى جانب حزم وعزم وهيبة تجعل المفاجأة لا يكاد يحير جوابًا.

استأذن أبو الدرداء عمر في أن يأتي الشام، فقال: لا آذن لك إلا أن

تصبح واليًا، قال أبو الدرداء: فإنى لا أعمل، قال عمر: فإنى لا آذن لك، قال أبو الدرداء: دعنى انطلق فأُعلم الناس سنة نبيهم، وأصلى بهم فآذن له، فخرج عمر رضى الله عن إلى الشام، فلما كان قريبًا منهم أقام حتى أمسى، فلما جنَّه الليل قال: يا يرفأ – وهو غلام عمر – انطلق إلى يزيد بن أبى سفيان أبصره عنده سُمَّار – أناس يتحدثون ليلاً – ومصباح مفترشًا ديباجًا وحريرًا من فئ المسلمين، فتسلم عليه، فيرد عليك السلام وتستأذن، فلا يأذن لك حتى يعلم من أنت، فانطلقنا حتى انتهينا إلى بابه.

فقال: السلام عليكم، فقال: وعليكم السلام، قال: أأدخل؟ قال: ومن أنت؟ قال يرفأ: هذا مَنْ يسوؤك هذا أمير المؤمنين، ففتح الباب، فإذا سُمَّار ومصباح، وإذ هو مفترش ديباجًا وحريرًا، فقال عمر: يا يرفأ الباب الباب، ثم وضع الدرة بين أذنيه ضربًا، وكوَّر المتاع فوضعه وسط البيت، ثم قال للقوم: لا يبرح منكم أحد حتى أرجع إليكم، ثم خرجا من عنده – أى من عند يزيد – ثم قال: يا يرفأ، انطلق بنا إلى عمرو بن العاص أبصره عنده سُمَّار ومصباح مفترش ديباجا من فَئْ المسلمين، فتُسلم عليه، فيرد عليك، وتستأذن عليه فلا يأذن لك حتى يعلم من أنت، فانتهيا إلى بابه، فقال عمر: السلام عليكم، قال: وعليكم السلام، قال: أأدخل؟ قال: ومن أنت؟ قال يرفأ: هذا من يسوؤك، هذا أمير المؤمنين، ففتح الباب، فإذا سُمَّار ومصباح، وإذا هو مفترش ديباجًا وحريرًا، قال: يا يرفأ: الباب الباب، ثم وضع الدرة بين أذنيه ضربًا، ثم كوَّر المتاع فوضعه فى وسط البيت، ثم قال للقوم: لا تبرحنَّ حتى أعود لكم، فخرجا من عنده.

فقال: يا يرفأ: انطلق بنا إلى أبى موسى، أبصرهُ عنده سُمَّار ومصباح مفترشًا صوفًا من مال المسلمين من فيئهم، فتستأذن عليه، فلا يأذن لك حتى يعلم من أنت، فانطلقنا إليه وعنده سُمَّار ومصباح، مفترشًا صوفًا فوضع الدِرَّة بين أذنيه ضربًا، وقال: أنت أيضًا يا أبا موسى؟ فقال: يا أمير المؤمنين، هذا وقد رأيت ما صنع أصحابى، أما والله لقد أصبت مثل ما أصابوا، قال: فما هذا؟ قال: زعم أهل البلد أنه لا يصلح إلا هذا، فكوَّر

المتاع فوضعه فى وسط البيت، وقال للقوم: لا يخرجنَّ منكم أحدًا حتى أعود إليكم.

فلما خرجنا من عنده، قال: يا يرفأ، انطلق بنا إلى أخى لنبصرنه ليس عنده سُمَّار، ولا مصباح وليس لبابه غلق مفترشًا بطحاء متوسدًا برذعة عليه كساء رقيق، قد أذاقه البرد، فتُسلم عليه، فيرد عليك السلام، وتستأذنه فيأذن لك، من قبل أن يعلم من أنت! فانطلقنا حتى إذا قمنا على بابه، قال: السلام عليكم، قال: وعليك السلام، قال: أأدخل؟ قال: ادخل، فدفع الباب، فإذا ليس له غلق، فدخلنا إلى بيت مظلم، فجعل عمر يتلمسه حتى وقع عليه، فجسَّ وسادة، فإذا برذعة، وجسَّ فراشه، فإذا هو بطحاء، وجسَّ دثاره - غطاءه - فإذا هو كساء رقيق، فقال أبو الدرداء رضى الله عنه: من هذا؟ أمير المؤمنين؟ قال: نعم، قال: أما والله لقد استبطأتك منذ العام، قال عمر رضى الله عنه: رحمك الله ألم أوسع عليك؟ ألم أفعل بك؟.

قال أبو الدرداء رضى الله عنه: أتذكر حديثًا حَدَّثَنَاهُ رسول الله ﷺ، قال: أى حديث؟ قال: «ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب»، قال: نعم، قال: فماذا فعلنا بعده يا عمر؟ فماذا فعلنا بعده يا عمر؟ ويقول عمر: ماذا فعلنا بعده يا أبا الدرداء؟ ماذا فعلنا بعده يا أبا الدرداء؟ فمازالا يتجاوبان بالبكاء حتى أصبحا، ونحن أيضًا نتجاوب معكما بالبكاء ونقول: ماذا فعلنا بعدك يا رسول الله ؟ عبر كل هذه السنين.

ومن صور تفقده لأحوال رعيته: أنه خرج رضى الله عنه فى سواد الليل، فرآه طلحة، فذهب عمر فدخل بيتًا، ثم دخل بيتًا آخر، فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت، فإذا بعجوز عمياء مقعدة، فقال لها: ما بال هذا الرجل يأتيك؟ قالت: إنه يتعهدنى منذ كذا وكذا يأتينى بما يصلحنى ويخرج عنى الأذى، فقال طلحة: ثكلتك أمك يا طلحة أعثرات عمر تتبع؟.

وعن زيد بن أسلم، عن أبيه، قال: خرجت مع عمر إلى السوق، فَلَحَقِتهُ امرأة شابة، فقالت: يا أمير المؤمنين، هلك زوجى وترك صبية صغارًا، والله

ما ينضجون كراعًا، ولا لهم زرع ولا ضرع، وخشيت عليهم الضيع أى أن حالهم فقر شديد – وأنا ابنة خفاف بن إيماء الغِفارى، وقد شهد أبى الحديبية مع النبى ﷺ، فوقف معها عمر ولم يمض، وقال: مرحبًا بنسب قريب، ثم انصرف إلى بعير ظهير كان مربوطًا فى الدار فحمل عليه غرارتين ملأهما طعامًا وجعل بينهما نفقة وثيابًا، ثم ناولها خطامه فقال: اقتاديه فلن يفنى هذا حتى يأتيكم الله بخير، فقال رجل: يا أمير المؤمنين أكثرت لها. فقال عمر: ثكلتك أمك، والله إنى لأرى أبا هذه وأخاها قد حاصرا حصنا زمانًا فافتتحاه، ثم أصبح يعود علينا نصيبهما من الغنائم. انفرد البخارى بإخراجه.

فرض عطاء لكل مولود فى الإسلام:

عن ابن عمر، قال: قدمت مجموعة من التجار فنزلوا المصلى، فقال عمر لعبد الرحمن: هل لك أن نحرسهم الليلة من السرقة؟ فباتا يحرسانهم، ويصليان ما كتب الله لهما، فسمع عمر بكاء صبى فتوجه نحوه، فقال لأمه: اتقى الله وأحسنى إلى صبيك، ثم عاد إلى مكانه فسمع بكاؤه، فأتى أمه فقال لها: ويحك إنى لأراك أم سُوءْ ما لى لا أرى ابنك ينام منذ الليلة، قالت: يا عبد الله قد أبرمتنى منذ الليلة إنى أريغه عن الفطام فيأبى، قال: ولما؟ قالت: لأن عمر لا يفرض العطاء إلا لمن فطم، قال: وكم له من العمر؟ قالت: كذا وكذا شهرًا، قال: ويحك لا تعجليه، فصلى الفجر، وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء، فلما سَلَّمَ، قال: يا بُؤسًا لعمر كم قتل من أولاد المسلمين؟.

ثم أمر مناديا فنادى: ألا تعجلوا صبيانكم على الفطام، فإنا نفرض لكل مولود فى الإسلام، وكتب بذلك إلى الآفاق أن يفرض لكل مولود فى الإسلام.

كيف كان يقسم النبى المال؟

قالت أم سلمة رضى الله عنها: إنى لا أعلم أكثر مال قَدِمَ على النبى ﷺ

حتى قبضه الله تعالى، قدم عليه فى جنح الليل خريطة - حافظة أموال كبيرة فيها ثمانمائة درهم وصحيفة، فأرسل بها إلى وكانت ليلتى، ثم انقلب بعد العشاء الآخرة، فصلى فى الحجرة فى مصلاه، وقد مهدت له ولنفسى فأنا أنتظر، فأطال، ثم خرج، ثم رجع، فلم يزل كذلك حتى دعى لصلاة الصبح فصلى، ثم رجع، فقال: أين تلك الخريطة التى فتنتنى البارحة؟ فدعى بها فقسمها، قلت: يا رسول الله، صنعت شيئًا لم تكن تصنعه، فقال: كنت أصلى فتخطر على بالى، فأنصرف حتى أنظر إليها، ثم أرجع فأصلى.

قسمة ثمانين ألفا بعثها العلاء بن الحضرمى:

عن أبى موسى الأشعرى أن العلاء بن الحضرمى رضى الله عنهما، بعث إلى رسول الله ﷺ من البحرين ثمانين ألفًا، فما أتى رسول الله ﷺ مال أكثر منه لا قبلها ولا بعدها، فأمر بها فنثرت على حصير، ونودى بالصلاة، فجاء رسول الله ﷺ يميل على المال قائمًا، وجاء الناس، فجعل يعطيهم وما كان يومئذ عدد ولا وزن، وما كان إلا قبضًا، فجاء العباس رضى الله عنه، فقال: يا رسول الله، إنى أعطيت فدائى، وفداء عقيل، يوم بدر، ولم يكن لعقيل مال أعطنى من هذا المال، فقال رسول الله ﷺ «خذ»، فحثى فى عباءة كانت عليه، ثم ذهب ينصرف فلم يستطع، فرفع رأسه إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ارفع علىَّ، فتبسم رسول الله حتى خرج ضاحكه أو نابه، قال: «لا أرفع عليك، ولكن أعد فى المال طائفة، وقم بما تطيق»، ففعل، فانطلق بذلك المال وهو يقول: أما أحد ما وعد الله فقد أنجز لى، ولا أدرى الأخرى ﴿ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [الأنفال: ٧٠] هذا خير مما أخذ منى، ولا أدرى ما يصنع بالمغفرة.

قسم أبى بكر الصديق وتسويته فى القسم:

ماذا صنع أبو بكر فى هذا الأمر؟ وكيف كان بيت المال فى عهده؟

أخرج ابن سعد، عن سهل بن أبى حثمة وغيره، أن أبا بكر الصديق

رضى الله عنه كان له بيت مال فى السنح معروف ليس يحرسه أحد، فقيل له: يا خليفة رسول الله ﷺ، ألا تجعل على بيت المال من يحرسه؟ فقال: لا يخاف عليه، فقلت: ولما؟ قال: عليه قفل، وكان يعطى ما فيه حتى لا يبقى ما فيه شىء، فلما تحول أبو بكر إلى المدينة حوله، فجعل بيت المال فى الدار التى كان فيها، وكان قدم عليه مال من ناحية ساحل البحر بينها وبين المدينة مسيرة خمسة أيام، ومن جهينة، ومن بنى سليم، فكان يوضع ذلك فى بيت المال، فكان أبو بكر يقسمها على الناس قطعةً قطعة، فيصيب كل مائة إنسان كذا وكذا، وكان يسوى بين الناس فى القسم الحر والعبد، والذكر والأنثى، والصغير والكبير فيه سواء.

وكان يشترى الإبل والخيل والسلاح، فيحمل عليها المسلمين فى سبيل الله، واشترى عاما أكسية من القطائف - القطيفة - فوزعها على أرامل أهل المدينة فى الشتاء، فلما توفى أبو بكر ودفن فى المدينة، دعى عمر بن الخطاب الأمناء ودخل بهم بيت مال أبى بكر، ومعه عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، ففتحوا بيت المال، فلم يجدوا فيه دينارا ولا درهما، ووجدوا فيه خيشة للمال فنفضت، فوجدوا فيها درهما فترحموا على أبى بكر، وكان المال الوارد مائتى ألفا.

خلافه مع الصديق فى توزيع الفئ:

كان الصديق رضى الله عنه يسوى بين الناس فى الفئ - الغنيمة - فقال له عمر رضى الله عنه: يا خليفة رسول الله، تسوى بين أصحاب بدر وسواهم من الناس؟ قال أبو بكر رضى الله عنه: إنما الدنيا بلاغ، وخير البلاغ أوسطه، وإنما فضلهم فى أجورهم.

وقال: وقد سئل مرة أخرى على تفضيل البعض على بعض، فقال: فضائلهم عند الله، وأما هذا المعاش، فالسوية فيه خيرا من الآثرة، أأشترى منهم سابقتهم.

جاءه مال من البحرين ، فقال أبو بكر رضى الله عنه: من كان له على

رسول الله ﷺ شيء أو وعد فليقم فليأخذ، فقام جابر رضى الله عنه، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن جاءه مال من البحرين لأعطينك هكذا، وهكذا، ثلاث مرات حتى بيده»، فقال له أبو بكر: قم فخذ بيدك، فأخذ فإذا هى خمسمائة درهم. فقال أبو بكر: عدوا له ألفًا، وقسم بين الناس عشرة دراهم، عشرة دراهم، وقال: إنما هذه مواعيد وعدها رسول الله ﷺ الناس، حتى إذا كان عامل مُقْبِل جاءه مال أكثر فقسم بين الناس، عشرين درهمًا، عشرين درهمًا. وفضلت فضلة فقسم للخدم خمسة دراهم، خمسة دراهم.

وقال: إن لكم خدامًا يخدمون لكم ويعالجون لكم، فأعطينهم قليلاً، فقالوا له: لو فَضَّلتَ المهاجرين والأنصار لسابقتهم، فقال: أجر أولئك على الله، إن هذا المعاش المساواة فيه خير من الآثرة. فعمل هذا طول مدة ولايته..

لَمَّا مات أبو بكر رضى الله عنه، وأُسْتُخلِفَ عمر ففتح الله عليه الفتوح، فجاءه أكثر مما كان على عهد الصديق.

قال عمر: قد كان لأبى بكر فى هذا المال رأى ولى رأى آخر، لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ كمن قاتل معه، ففضل المهاجرين والأنصار:

فرض لمن شهد بدرًا منهم خمسة آلاف، خمسة آلاف، وفرض لمن كان إسلامه قبل إسلام أهل بدر أربعة آلاف، أربعة آلاف. وفرض لأزواج رسول الله ﷺ اثنى عشر ألفًا لكل امرأة إلا صفية وجويرية، فرض لكل واحدة منهما ستة آلاف فأبين أن يأخذنها واعترضن على هذه التفرقة، فقال: إنما فرض لهن بالهجرة، فقلن: ما فرضت لهن بالهجرة، وإنما فرضت لهن لمكانتهن من رسول الله ﷺ، ولنا مثل مكانتهن، فرجع عمر على قراره وجعلهن سواء.

وفرض للعباس بن عبد المطلب رضى الله عنه اثنى عشر ألفًا. وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف أربعة آلاف. وفرض للحسن والحسين رضى

الله عنهما خمسة آلاف، خمسة آلاف، فألحقهما بأبيهما لقرابتهما من رسول الله ﷺ. وفرض لابنه عبد الله بن عمر رضى الله عنه ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف، واعترض عبد الله فقال: يا أبت، فرضت لأسامة بن زيد أربعة آلاف، وفرضت لى ثلاثة آلاف، فما كان لأبيه من الفضل ما لم يكن لك، وما كان له من الفضل ما لم يكن لى، قال عمر: إن أباه كان أحب إلى رسول الله من أبيك، وهو كان أحب إلى رسول الله ﷺ منك.

وفرض لأبناء المهاجرين ممن شهد بدرًا ألفين، ألفين، فمر به عمر بن أبى سلمة فقال: زده ألفًا يا غلام، فقال محمد بن عبد الله بن جحش - أبوه شهيد أحد -: لأي شيء تزيده علينا؟ قال: فرضت له بأبى سلمة ألفين، وزدته بأم سلمة ألفًا، فإن كانت لك أم مثل أم سلمة زدتك ألفًا مثله.

وفرض لعثمان بن عبيد الله بن عثمان ثمانمائة، ثمانمائة. وفرض للنضر بن أنس ألفين، ألفين اعترض طلحة عم عثمان بن عبيد الله على هذه التفرقة، فقال عمر: إنى لقيت أبا هذا يوم أحد، فسألنى عن رسول الله ﷺ، فقلت: ما أراه إلا قد قتل، فَسَّلَ سيفه، وقال: إن كان رسول الله ﷺ قُتِل، فإن الله حى لا يموت، فقاتل حتى قُتِل، وهذا يرعى الغنم، فتريدون أجعلهما سواء؟.

وعمل عمر بأسلوبه هذا فى التوزيع.

التأمل فى توزيع الفىء:

رأينا أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان يوزع الفىء بالتساوى على مستحقيه. وكان عمر رضى الله عنه يعترض على المساواة فى التوزيع فى عهد أبى بكر رضى الله عنه، وكان اعتراضه مبنى على قناعة أفصح عنها بقوله: لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ كمن قاتل معه، ولا أسوى بين أصحاب بدر وسواهم من الناس. وكان لا يسوى بين قرابة الرسول وغيرهم، ولا يسوى كذلك بين المهاجرين والأنصار وغيرهم.

ولا شك أن عمر رضى الله عنه كان يستهلك مرضاة الله تعالى، ثم

مرضاة رسوله ﷺ، وأنه كاشف وصارح برأيه أبا بكر رضى الله عنه، ودافع عن هذا الرأى بما ينطوى عليه قلبه من صدق وإيمان خالص لله تعالى لا تشوبه شائبة، وحينما قضى أبو بكر رضى الله عنه أجله، وصار عمر أميرًا للمؤمنين، نفذ ما سبق أن صارح به أبا بكر، فوزع الفىء طبقًا لما ارتآه، وطبقًا للدرجات التى صنف المسلمين عليها، والتى عرضنا صورة منها فى مقدار المستحق الذى يعطى لكل منهم أو منهن.

ولكنا نرى أن طريقته فى التوزيع صادفت اعتراض عليها من الكثيرين الذين كانوا يقفون فى الصف الأول من التوزيع، فقد كان الإمام على يرى المساواة فى التوزيع، وطبق رأيه حين أصبح أيضًا أميرًا للمؤمنين.

وقد اعترض كل من صفية وجويرية رضى الله عنهما على ما فرض لهن؛ لأنه كان أقل مما فرض لأمهات المؤمنين الأخريات، ووافقتهما أم المؤمنين عائشة على ذلك، و لم يقتنعنا بحجة عمر رضى الله عنه بأن هذه التفرقة كانت بسبب هجرة أمهات المؤمنين، والتى لم تتح لكل من جويرية وصفية رضى الله عنهما، لأن جميع أمهات المؤمنين كن سواءً فى الطعام والشراب والكساء، فكان الرسول ﷺ يعدل بينهن جميعًا حتى فى المبيت، اللهم إلا ما كان من أمر الشعور القلبى، فكان ﷺ يقول: «اللهم إن هذا قسمى فيما أملك، فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك».

واعترض كذلك عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن التفرقة بينه وبين أسامة بن زيد فى العطاء، وكان عمر كتب المهاجرين على خمسة آلاف والأنصار على أربعة آلاف، ومن لم يشهد بدرًا من أبناء المهاجرين على أربعة آلاف، فكان منهم: عمر بن أبى سلمة بن عبد الأسد المخزومى، وأسامة بن زيد، ومحمد بن عبد الله بن جحش الأسدى، وعبد الله بن عمر.

فقال عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه مدافعًا عن ابن عمر: إن ابن عمر ليس من هؤلاء إنه وإنه. أى له سابقة فى الإسلام أعلى من سابقته.

وقال ابن عمر لأبيه: إن كان لى حق فأعطينيه وإلا فلا تعطنى، فقال

عمر لابن عوف رضى الله عنهما: أكتبه على خمسة آلاف، وأكتبنى على أربعة آلاف. فقال عبد الله: لا أريد هذا، قال عمر: والله لا أجتمع أنا وأنت على خمسة آلاف.

كذلك اعترض طلحة بن عبيد الله لتفضيل عبد الله بن حنظلة على ابن أخيه - ابن أخى طلحة - فى العطاء.

وهكذا نرى أن التفضيل فى العطاء على أساس السابقة فى الإسلام، وما وضع لهذا التفضيل من معايير أوجد نوعًا أو شيئًا من الاعتراضات التى ظهرت على ألسنة البعض، وربما أحدثت مثله لدى البعض الآخر، وإن كان لم يصرح به، مما يجعلنا نميل لما كان عليه الصديق فى التوزيع من مساواة الناس فى القسم الحر والعبد، والذكر والأنثى، والصغير والكبير فيه سواء. وكانت له فى ذلك حجته القوية، وهى: إنما الدنيا بلاغ، وخير البلاغ أوسطه، وما يعطى لهم من الفىء فهو لمعاشهم، والسوية فيه خير من الأثرة، وإنما فضلهم وفضائلهم فهو عند الله تعالى فيما أدخره الله لهم من أجور.

ويجمع كل ذلك فى قوله رضى الله عنه: أأشترى منهم سابقتهم؟.

أى أن هذه السابقات فى الإسلام لا تشترى؛ لأنها فوق كل ثمن مادى يعطى لهم فى الحياة الدنيا.

ديوان العطايا:

استشار عمر المسلمين فى تدوين الديوان، فقال له على: تقسم كل سنة ما أجتمع إليك من مال، ولا تمسك منه شيئًا. وقال عثمان: أرى مالاً كثيرًا يسع الناس، وإن لم يحصوا حتى تعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشية أن ينتشر الأمر، فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة: يا أمير المؤمنين، قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانًا، وجندوا جنودًا، فدون ديوانًا، وجند جنودًا، فأخذ عمر رضى الله عنه بقوله، فدعا عقيل بن أبى طالب، ومخرمة ابن نوفل، وجبير بن مطعم رضى الله عنهم، وكانوا من نسابى قريش، فقال لهم: اكتبوا الناس على منازلهم، فكتبوا، فبدءوا ببنى هاشم، ثم أتبعوهم أبا

بكر وقومه، ثم عمر وقومه على الخلافة، فلما نظر عمر فيه، قال: وددت والله أنه هكذا، ولكن ابدءوا بقرابة النبى ﷺ الأقرب فالأقرب، حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله. [الكنز ٣١٦/٢].

ولكن بنى عدى أهل عمر لم يعجبهم ما عزم عليه، وأحبوا أن يكون لهم السبق فى العطاء، وقالوا له: أنت خليفة رسول الله ﷺ، قال عمر مستدركًا ومصوبًا لهم: أو خليفة أبى بكر، وأبو بكر خليفة رسول الله، قالوا: وذاك، فلو جعلت نفسك حيث جعلك هؤلاء القوم، قال عمر: بخ، بخٍ بنى عدى، أردتم الأكل على ظهرى، وأن أذهب حسناتى لكم؟ لا والله حتى تأتيكم الدعوة أى حتى يأتى دوركم وإن أطبق عليكم الدفتر يعنى ولو أن تكتبوا آخر الناس إن لى صاحبين سلكا طريقًا، فإن خالفتهما خولفا بى، والله ما أدركنا الفضل فى الدنيا، ولا نرجو ما نرجو من ثواب الله فى الآخرة إلا بمحمد ﷺ، فهو شرفنا، وقومه أشرف العرب، ثم الأقرب فالأقرب، إن العرب شرفت برسول الله ﷺ، ولعل بعضها يلقاه إلى أباء كثيرة، وما بيننا وبين أن نلقاه إلى نسبه، ثم لا نفارقه إلى أدم إلا أباء يسيرة، ومع ذلك والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال، وجئنا بغير عمل، فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة، فلا ينظرن رجل إلى قرابة وليعمل لما عند الله، فإن من قصر به عمله لم يسرع به نسبه.

توزيع جميع الفىء:

كان عمر رضى الله عنه لا يعجبه إبقاء شىء من المال مؤخرًا فى بيت مال المسلمين لأى سبب قد يطرأ فى المستقبل، إن رجلاً وثيق الصلة بالله كعمر لا يخاف الغد، ولا ما يجئ به المستقبل، فكان يبادر بتوزيع جميع الفىء على مستحقيه حتى يطمئن إلى وصول كل الحقوق إلى أصحابها.

قدم عليه مال من العراق، فأقبل يقسمه، فقام إليه رجل، فقال: يا أمير المؤمنين، لو أبقيت من هذا المال لعدو إن حضر، أو نائبة إن نزلت، قال عمر: ما لك قاتلك الله، نطق بها على لسانك شيطان، لقنى الله حجتها،

والله لا أعصين الله اليوم لغد – أى لما يأتى به الغد – ولكن أعد لهم ما أعد لهم رسول الله ﷺ.

ورد على عبد الرحمن بن عوف، فقال: كلمة ما عرض بها إلا شيطان لقانى الله حجتها، ووقانى فتنتها أعصى الله فى العام الذى أنا فيه مخافة قابل أعدوا لهم – أى للعدو أو للنائبات – تقوى الله. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وبهذه الصفة التى قابل بها عمر كل من يشير عليه باستبقاء بعض المال للطوارئ، سار على خطته فى توزيع كل المال على مستحقيه، بل إنه كان يرى الفتنة فى إبقاء هذا المال.

لذلك أرسل إلى أبى موسى الأشعرى: أريد أن أعلم يومًا من السنة لا يبقى فى بيت المال درهم حتى يكتسح اكتساحًا، حتى يعلم الله أنى قد أديت إلى كل ذى حق حقه.

وكتب إلى حذيفة رضى الله عنهما، يقول: أعط الناس أعطيتهم وأرزاقهم، فكتب إليه حذيفة: إنا قد فعلنا وبقى شىء كثير، فكتب إليه عمر: إنه فيئهم الذى أفاء الله عليهم، ليس هو لعمر ولا لآل عمر، اقسمه بينهم.

حق المسلمين فى المال:

فما هو رأى عمر فى هذا؟

عن أسلم، قال: سمعت عمر رضى الله عنه يقول: اجتمعوا لهذا المال فانظروا لمن ترونه، ثم قال لهم: إنى أمرتكم أن تجتمعوا لهذا المال، فتنظروا لمن ترونه، وإنى قد قرأت آيات من كتاب الله، سمعت الله يقول: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

ويستمر الفاروق فى التـلاوة: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، ويقول عمر: والله ما هو لهؤلاء وحدهم، ويستمر فى التلاوة: ﴿**والذين جاءوا من بعدهم**﴾ [الحشر: ١٠].

فيقول: والله ما من أحد من المسلمين إلا وله حق فـى هـذا المـال أُعْطِىَ منه أو مُنِعْ، حتى راعٍ بعدن. ثـم تلى عمر رضـى الله عنـه: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

فقال: فهذه استوعبت الناس، و لم يبق أحد من المسلمين إلا وله فى هـذا المال حق، إلا ما تملكوْن من رقيقكـم، فـإن أعـش - إن شـاء الله - لم يبـق أحد من المسلمين إلا سيأتيه حقه، وإن لم يعرق فيه جبينه.

وحرص عمر رضى الله عنه على مال المسـلمين، والمحافظـة عليـه وعـدم التفريط فى أقل القليـل منـه لأهـل بيتـه أو لأقاربـه، سـيبقى دائمًـا مضـرب الأمثال على مر التاريخ.

اشترى ابنه عبد الله إبلاً، ودفعها ترعى فـى مراعـى إبـل المسـلمين حتـى سمنت، ثم قدم بها إلى السوق لبيعها، وكان رضى الله عنه لا يفوته السـؤال عن أحوال المسلمين فى بيوتهم وفى الأسواق، فعرف أن هذه الإبـل لابنـه، وأنه استرعاها مع إبل الصدقة، فجعل يؤنبه تأنيبًا شـديدًا ثـم قـال لـه: خـذ منها رأس مالك واجعل الفضل فى بيت مال المسلمين، أى أنه لم يحسب له مكسبًا فيها.

استقرضته امرأة عمر دينارًا، فاشترت به عطرًا، وبعثت به مع البريد إلى امرأة ملك الروم التى أفرغت العطر، وملأت القوارير جواهر، وأرسلتها إلى امرأة عمر رضى الله عنها، فـأخذ عمـر الجواهـر، وباعـها ودفـع إلى امرأتـه دينارها الذى اشترت به العطر والقوارير، وجعل ما بقى من ذلك فـى بيـت مال المسلمين.

قدم صهر لعمر رضى الله عنه، فعرض له أن يعطيه من بيت المال، فانتهره عمر، وقال له: أردت أن ألقى الله ملكًا خائنًا.

وقدم عليه مسك وعنبر من البحرين، فأبى على زوجته أن تزنه رغم مهارتها فى الوزن لئلا تمسح رقبتها بشىء من فضله، فتكون قد أصابت فضلاً من مال المسلمين.

وهكذا كانت حساسيته الشديدة، وحرصه البالغ على المال العام الذى اعتبر أن لكل مسلم فيه حقًا.

قال لحفصة: غششت أباك..

جئ إليه بمال، فبلغ ذلك حفصة ابنة عمر رضى الله عنها، فجاءت فقالت: يا أمير المؤمنين، حق أقربائك من هذا المال، قد أوصى الله عز وجل بالأقربين. فقال لها: يا بنية، حق أقربائى فى مالى، فأما هذا ففىء المسلمين، غششت أباك، قُومِى، فقامت تجر ذيلها. [منتخب الكنز ٤/٤١٢].

وجاء عبد الله بن الأرقم إلى عمر رضى الله عنهما، فقال: يا أمير المؤمنين، عندنا حِلْيَةٌ من حلية جلولاء – أنية فضية – قال: أبسط لى نطعًا – بساطًا من الجلد – فأمر بذلك المال فأفيض عليه، ثم جاء حتى وقف عليه فقال: اللهم إنك ذكرت هذا المال، فقلت: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقلت: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣] وإنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينت لنا، اللهم فاجعلنا ننفقه فى حق، وأعوذ بك من شره.

فأُتى بابن له يُحْمَل، فقال: يا أبت، هب لى خاتمًا، قال عمر: اذهب إلى أمك تسقيك سويقًا، فما أعطاه شيئًا.

نظرة الفاروق إلى مال المسلمين:

كان شديد الحيطة فى الإنفاق على نفسه من مال المسلمين، وكان

يتشدد على ذوى قرباه، وكما يحافظ على المال كما لو كان مال يتيم، وكل أمره إليه، فكان يقول: إنى أنزلت مال الله منى بمنزلة مال اليتيم، فإن استغنيت عففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف.

وكان إذا احتاج شيئًا من المال لضرورة تقتضيه، أتى صاحب بيت المال فاستقرضه، فربما أعسر، فيأتيه صاحب بيت المال، فيطالبه بالسداد، فلا يتضايق منه، ولكنه يسعى فى تدبيره، وإذا لم يتيسر وجاء عطاؤه سدد منه ما عليه.

بعث مرة لعبد الرحمن بن عوف يستقرضه أربعة آلاف درهم، فقال عبد الرحمن للرسول: قل له يأخذها من بيت المال، ثم ليردها، وشَقَّ ذلك على عمر، فلما لقى عبد الرحمن بن عوف عاتبه قائلاً: أنت القائل: ليأخذها من بيت المال؟ فإن مت قبل أن تجئ، قلتم: أخذها أمير المؤمنين، دعوها له، وأوخذ بها يوم القيامة لا، ولكنى أردت أن أخذها من رجل حريص شحيح مثلك، فإن مت أخذها من مالى و لم يتركها.

أما عن زهده:

فقد كان رضى الله عنه النموذج المتفرد فيه بعد صاحبيه، وكان شديد الخوف من الله عز وجل، وكان شعاره: «ما نستبقى من دنيانا نجده فى أخرتنا».

قدم عليه ناس من العراق، فآتاهم بجفنته المعهودة وطعامه المعهود له صُنعت بخبز وزيت، ولا حظ أنهم يأكلون متضررين بلا شهية، فقال لهم مؤنبًا: قد أرى ما تفعلون، ماذا تريدون؟ وأى شىء تريدون؟ أحلوًا، وحامضًا، وحارًا، وباردًا، ثم قذفًا فى البطون؟.

وقدم عليه أبو موسى الأشعرى مع وفد البصرة، قال: كنا ندخل عليه وله كل يوم خبز يُلَت – أى يُفَت – وربما وافيناه مأدومًا بسمن أحيانًا، وأحيانًا بزيت، وأحيانًا بلبن، وربما وافقنا القدائد اليابسة – اللحوم المجففة – قد دقت ثم أغلى بماء، وفى أحيان قليلة نوافق اللحم الطرى، أى غير

المقدد، وظهر على أبى موسى ومن معه الامتعاض من هذه التغذية، فقال لهم عمر: إني والله لو شئت لكنت أطيبكم طعامًا، وأرقكم عيشًا، ولكني سمعت الله عيَّرَ قومًا بأمر فعلوه، فقال عز وجل: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

قال لهم أبو موسى: لو كلمتم أمير المؤمنين ففرض لكم من بيت الله طعامًا تأكلونه، فكلموه، فقال: يا معشر الأمراء، أما ترضون لأنفسكم ما أرضى لنفسي.

والعجيب أن عمر رضى الله عنه، كان يلقى بهذه التساؤلات العفوية وكأنه يرى أن كل الناس قادرون على أن يعيشوا حياته، وأن يأكلوا كل يوم أو فى أكثر الأيام خبزه غير المنخول والملتوت بالزيت فى معظم الأحيان، وبالسمن فى أقلها، إنه يرى قدراته هو، وكأنها فيهم أو أنهم قادرون على أن يطيقوا ما يطيقه هو، لو أرادوا بالعزيمة الحقة والإصرار القوى.

هل يوافق الأمراء على ما يعرضه عليهم؟ ويقولون: نعم نرتضى لأنفسنا ما ترضاه لنفسك يا نموذج الطهارة، ويا أعظم الناس حكمة، ويا أشجعهم فى الحروب، ويا فاتح البلدان.

إنهم لو قالوا له ذلك لخفقهم بدرته؛ لأنه كان يبغض أن يمدح الإنسان فى وجهه، ناهيك عن الدرة والخفق - الضرب - هل يمكن لولاة عمر أن يوافقوه مجاملة، أو نفاق، ثم يعود كل منهم إلى ولايته فيفعل ما يشاء؟ كلا، ليس هذا فى مقدورهم؛ لأن عمر رضى الله عنه لا يبتلع النفاق، ولا يزدرد المجاملات، ولو قبلوا بما عرضه عليهم لحاسبهم على ذلك حسابًا عسيرًا، فهو يعرف كم ينفق على طعامه؟ وكم تكلفه جفنة الخبز الملتوت بالزيت؟.

إذن فلابد لهم من المصارحة، فقالوا: يا أمير المؤمنين، إن المدينة أرضٌ العيشُ بها شديد، ولا نرى طعامك يُغشى ويُؤكل، وإنا بأرض ذات ريف

وإن أميرنا يُغشى، وإن طعامه يؤكل، فنكس عمر ساعة، ثم رفع رأسه، فقال: قد فرضت لكم من بيت المال شاتين وجريبين[١]، فإذا كان الغداء فضع إحدى الشاتين على إحدى الجريبين فكل أنت وأصحابك، ثم أدعُ بشراب[٢] فاشرب، ثم اسق الذى عن يمينك، ثم الذى يليه، ثم قم لحاجتك، فإذا كان بالعشى فضع الشاة الأخرى على الجريب الباقى، فكل أنت وأصحابك، ألا وأشبعوا الناس فى بيوتهم، وأطعموا عيالهم، فإن إعطاءهم القليل حفنة حفنة لا يحسن أخلاقهم، ولا يشبع جائعهم، فوالله مع ذلك لا أظن عدة قرى يؤخذ منها كل يوم شاتان وجريبان إلا يسرع ذلك فى خرابها.

شاتان وجوالان صغيران من دقيق للوالى وضيوفه كل يوم يؤديان فى نظر عمر رضى الله عنه إلى خراب الولاية لا مجال إذن للمقارنة بين ذلك وبين عهود جاءت بعد عهد عمر.

رفضه زيادة ما فرض له:

أشفق بعض المهاجرين على عمر رضى الله عنه، وحالة الزهد والتقشف التى يعيشها، فقالوا: لو ذهبنا إليه، وقلنا له فى زيادة نزيدها إليه فى رزقه – المقرر له – وقال علىٌّ رضى الله عنه: وددنا لو قبل ذلك، وقال عثمان: نأتى حفصة، ونسألها لتعرف رده على هذا الطلب ونستكتمها، فلا تسمى له أحدًا إلا إذا قبل العرض.

وعرضت عليه حفصة الأمر، فعرفت الغضب فى وجهه، وقال: من هؤلاء، قالت حفصة: لا سبيل إلى علمهم حتى أعرف رأيك، فقال: لو علمت مَنْ هم لسؤتُ وجوههم، أنتِ بينى وبينهم، أنشدكِ بالله ما أفضل ما أقتنى رسول الله ﷺ فى بيتكِ من الملبس؟ قالت: ثوبين مصبوغين كانا يلبسهما للوفد، ويخطب فيهما للجمع، قال: فأى الطعام ناله عندك أرفع؟

---

(١) جريبين: مكيالين من دقيق.

(٢) مفهوم الشراب عند عمر الشراب الحلال الذى لا يخالطه خمر.

قالت: خبزنا خبزة شعير، فصببنا عليها، وهى حارة بقايا سمن لنا، فجعلناها هشة دسمة، فأكل منها، وتطعم منها استطابة لها، قال: فأى فراش كان يبسطه عندك كان ألين؟ قالت: كساء لنا ثخين، كنا نربعه فى الصيف فنجعله تحتنا، فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه، قال: يا حفصة، فأبلغيهم عنى، أن رسول الله قدر فوضع الفضول مواضعها، وتبلغ بالكفاف، وإنى قدرت فوالله لأضعن الفضول مواضعها، ولأتبلغن بالكفاف، وإنما مثلى ومثل صاحبيَّ كثلاثة سلكوا طريقًا، فمضى الأول وقد تزود زاد فبلغ، ثم أتبعه الآخر فسلك طريقه فأفضى إليه، ثم أتبعه الثالث، فإن لزم طريقهما ورضى بزادهما لحق بهما وكان معهما، وإن سلك غير طريقهما لم يجتمع بهما.

كان رضى الله عنه مرهف الإحساس لا يرضى لنفسه أن يعيش إلا حياة أفقر واحد من المسلمين، وكان يدفعه إلى هذا ويسهل عليه هذا الأمر قلب دقيق الإحساس يشعر شعورًا صادقًا بآلام الآخرين مع إحساس بالمسئولية العظمى عن كل ما استرعاه الله فيه من البشر، والحيوان، والنبات، والجماد، مع قدرة على تطويع نفسه على تحمل المصاعب والآلام، مع فكر سامٍ، وعقل واعٍ متدبر، يستطيع أن يوازن ويفاضل بين ما هو عاجل، وما هو أجل، ويختار بينهما عن قناعة ورضى، مع عزيمة جبارة قادرة على المضى فى الطريق الصحيح الذى رسمه لنفسه، وصمم على ألا يحيد عنه تحت أى ضغط أو نقم.

يأخذ نفسه بأشد مما يأخذ به رعيته أو ولاته، ولا يشعر بالمهانة، بل لعله فى الحقيقة يشعر بالعزة والكرامة وهو يأكل ما يأكل من طعام خشن، أو وهو يرتدى ثيابه المرقعة فى أى مكان وأمام أى أحد.

لما قدم «أيلة» ومعه المهاجرون والأنصار دفع قميصًا له من قطن قد قطع مؤخره من طول السير، دفع القميص إلى الأسقف، وقال له: اغسل هذا وارقعه، فأنطلق الأسقف بالقميص ورقعه، وخاط له آخر مثله، ظنًا منه أن عمر لا يجد ثمن قميصًا جديد، أو سَيُسَرُّ بما فعل، قال عمر للأسقف: ما

هذا؟ قال الأسقف: أما هذا فقميصك قد غسلته ورقعته، وأما هذه فكسوة لك منى، فنظر إليه عمر ومسحه، ثم لبس قميصه ورد عليه ذلك القميص، وقال: هذا أنشفهما للعرق، ولم يشأ أن يجرح إحساس الأسقف بكلمة يستشف منها شيء من الزهو أو التعالى بزيه المتواضع، وهو أمير المؤمنين.

وكان وهو خليفة يطوف بالأسواق بجبة من صوف مرُقَّعَة، وعلى عاتقه الدرة يؤدب الناس، ويمر بالخيوط القديمة من الصوف، أو الشعر، أو الوبر والنوى فيلقطه، ويلقيه فى منازل الناس لينتفعوا به.

وكان عمر يقوت نفسه وأهله، ويكتسى الحلة فى الصيف، وربما قدم الإزار حتى يرقعه فما يستبدله بغيره حتى يمر العام، وما من عام يكثر فيه المال إلا كانت كسوته فيه أدنى من العام السابق له، وكلمته ابنته حفصة فى ذلك فكان رده عليها: إنما أكتسى من مال المسلمين، وهذا يكفينى. وكان يستنفق كل يوم درهمين له ولعياله.

دخل عمر رضى الله عنه، على رجل فاستسقاه وهو عطشان، فأتاه بماء مزج بعسل، فقال: ما هذا؟ فقال الرجل: عسل، قال عمر: إنه لطيب، لكن والله لا يكون فيما أحاسب عليه يوم القيامة، إنى أسمع الله عز وجل نعى على قوم شهواتهم فقال تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾، فأخاف أن تكون حسناتنا عجلت لنا، فلم يشربه.

ودخل على حفصة ابنته رضى الله عنها، فقدمت إليه مرقًا باردًا، وخبزًا، وصبت فى المرق زيتًا، فقال: أدمان فى إناء واحد، لا أذوقه حتى ألقى الله.

لقد أخذ درس الزهد والتقشف والرفق بالناس وضرورة المعاملة الطيبة عن رسول الله ﷺ، وما كان له هو وصاحبه أبو بكر الصديق نسيان مثل هذه الدروس تحت أى ظرف من الظروف.

عن أنس بن مالك رضى الله عنه، قال: كانت العرب تخدم بعضها بعضًا فى الأسفار، وكان مع أبى بكر وعمر رضى الله عنهما رجلٌ يخدمهما،

فناما فاستيقظا و لم يُعِدْ لهما، فقالا: إن هذا لنؤوم فأيقظاه، فقالا له: ائتِ رسول الله ﷺ، فقل له: إن أبا بكر وعمر يقرئانك السلام ويطلبان الإدام، فقال ﷺ: «إنهما قد ائتدما» - طعما - فجاء أبو بكر وعمر، فقالا: يا رسول الله، بأى شيء ائتدمنا، فقال ﷺ: «بلحم أخيكما، والذى نفسى بيده إنى لأرى لحمه بين ثناياكما»، فقالا رضى الله عنهما: استغفر لنا يا رسول الله، فقال ﷺ: «مُرَاه فليستغفر لكما».

التستر على الأعراض:

عن الشعبى، أن رجلاً أتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقال: إن لىَ ابنة كنت وأدتها فى الجاهلية، فاستخرجناها قبل أن تموت، فأدركتْ معنا الإسلام فأسلمتْ، فلما أسلمت أصابها حد من حدود الله تعالى، فأخذت الشفرة لتذبح نفسها، فأدركناها، وقد قطعت بعض عروقها. فداويناها حتى برئت، ثم أقبلت بَعْدُ بتوبة حسنة، وهى تُخطب إلى قوم، فأخبرتهم من شأنها بالذى كان، فقال عمر: أتعمد إلى ما ستر الله فتبديه، والله لئن أخبرت بشأنها أحدًا من الناس لأجعلنك نكالاً لأهل الأمصار، بل أنكحها نكاح العفيفة المسلمة. [الكنز ٨/٢٩٦].

وجاءت امرأة إلى عمر رضى الله عنه، فقالت: يا أمير المؤمنين، إنى وجدت صبيًا، ووجدت قُبطية - ثوب مصرى رقيق أبيض - فيها مائة دينار، فأخذته واستأجرت له ظئرًا - مرضعة - وإن أربع نسوة يأتينه ويقبلْنَه، لا أدرى أيتهن أمَّه، قال لها: إذا هن أتينك فأعلمينى، ففعلت، فقال لامرأة منهن: أيتكن أمُّ هذا الصبى؟ فقالت: والله ما أحْسَنْتَ ولا أجْمَلْت يا عمر، تعمدُ إلى امرأة ستر الله عليها، فتريد أن تهتك سترها، قال: صدقتِ، ثم قال للمرأة: إذا أتينك فلا تسأليهُن عن شىء، واحْسِنِى إلى صبيهن، ثم انْصَرف.

فضائله:

الغيرة إحدى فضائله:

عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ قال:

«بينا أنا نائم رأيتنى فى الجنة، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر، فقلت: لمن هذا القصر؟ قالت: لعمر، فذكرت غيرته، فوليت مدبرًا»، فبكى عمر، وقال: أعليك أغار يا رسول الله؟.

الدين:

عن أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول الله ﷺ : «بينما أنا نائم، رأيت الناس يُعْرَضُون علىّ وعليهم قمصٌ منها ما يبلغ الشدى، ومنها ما دون ذلك، وعُرض علىّ عمر بن الخطاب وعليه قميص يجره»، قالوا: فما أوَّلْتَ ذلك يا رسول الله؟ - بم تفسر ذلك يا رسول الله - قال: «الدِّين».

الدرجات العلى:

عن أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول الله ﷺ : «إن أهل الدرجات العلى ليراهم مَنْ تحتهم كما يُرَى الكوكب الدُرْىُ فى الأفق من آفاق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما». أى زادا وفضلا.

شهيد:

عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما انتفض أحد، قال: «اسْكُنْ أحد، فما عليك إلا نبى وصديق وشهيد». وكان عليه النبى ﷺ وأبو بكر وعمر.

الوزير الثانى للرسول:

وعن ابن عباس رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ : «وزيراىَ من أهل السماء جبريل وميكائيل، ووزيراىَ من أهل الأرض أبو بكر وعمر».

وعن على بن أبى طالب، قال: كنت مع النبى ﷺ ، فأقبل أبو بكر وعمر، فقال لى النبى ﷺ : «يا على، هذان سيدا كهولِ أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين»، ثم قال لى: «يا علىَ، لا تخبرهما».

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه».

وقال ابن عمر: ما نزل بالناس أمر قط فقالوا فيه، وقال فيه عمر إلا نزل فيه القرآن على نحو ما قال عمر. وذلك نحو ما قال في أسارى بدر، فإنه أشار بقتلهم، وأشار غيره بمفاداتهم، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨].

وقوله في الحجاب: عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كنت آكل مع النبي ﷺ فمر عمر، فدعاه فأكل فأصابت أصبعه أصبعي، فقال: «حسن أو أوه، لو أطاع فيكن ما رأتكن عليه، فنزل الحجاب: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وقوله في الخمر: قال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي ميسرة، عن عمر أنه قال: لما نزل تحريم الخمر، قال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا، فنزلت هذه الآية التي في البقرة: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩]. فدُعِي عمر فقرأت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا، فنزلت الآية التي في النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣]. فكان منادي رسول الله ﷺ إذا قامت الصلاة ينادي: أن لا يقربن الصلاة سكران.

وتعددت الروايات عن أسباب نزولها، وكلها تدور حول التخليط في تلاوة القرآن أثناء الصلاة، بسبب السكر، فبدلاً من أن تقرأ سورة الكافرون، كما أنزلها الله على رسوله، اختلطت الألفاظ على من سكر فقال ما لا يليق قوله عن غير وعي.

فقال عمر رضي الله عنه: اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا، فنزلت الآية التي في سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]. فدُعِيَ عمر فقرأت عليه فلما بلغ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]. قال عمر: انتهينا يا رب، انتهينا.

عن جابر بن عبد الله، قال: قال عمر لأبى بكر: يا خير الناس بعد رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: أما وقد قلت ذلك، فلقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما طلعت الشمس على رجل خير من عمر».

عن عقبة بن عامر، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كان بعدى نبى لكان عمر بن الخطاب».

له قصر من ذهب:

عن أنس أن النبى ﷺ قال: «دخلت الجنة فإذا أنا بقصر من ذهب، فقلت: لمن هذا؟ فقالوا: لشاب من قريش، فظننت أننى أنا هو، فقلت: ومن هو؟ قالوا: عمر بن الخطاب».

الشيطان يخاف من عمر:

قال بريدة: خرج رسول الله ﷺ فى بعض مغازيه، فلما انصرف، جاءت جارية سوداء، فقالت: يا رسول الله، إنى كنت نذرت إن ردَّك الله سالمًا أن أضرب بين يدك بالدف وأتغنى، قال رسول الله ﷺ: «إن كنتِ نذرت فأضربى، وإلا فلا». فجعلت تضرب، فدخل أبو بكر وهى تضرب، ثم دخل على وهى تضرب، ثم دخل عمر فألقت الدف تحتها وقعدت عليه، فقال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان ليخاف منك يا عمر، إنى كنت جالسًا وهى تضرب فدخل أبو بكر وهى تضرب، ثم دخل على وهى تضرب، ثم دخل عثمان وهى تضرب، ثم دخلت أنت يا عمر فألقت الدف».

يرى بنور الله:

عن عائشة رضى الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «قد كان يكون فى الأمم مُحَدِثُون، فإن يكن فى أمتى أحد فعمر بن الخطاب».

ما فى الأرض رجل خير منه:

عن الحسن، قال: إن عمر بن الخطاب خطب إلى قوم من قريش بالمدينة فردوه، وخطب إليهم المغيرة بن شعبة فزوجوه، فقال رسول الله ﷺ: «لقد ردوا رجلاً ما فى الأرض رجل خيرًا منه».

عدله:

عن ابن عباس أنه قال: أكثروا ذكر عمر، فإنكم إذا ذكرتموه ذكرتم العدل، وإذ ذكرتم العدل ذكرتم الله تبارك وتعالى.

الإخبار عن بعد:

عن ابن عمر، عن أبيه رضى الله عنهما، أنه كان يخطب يوم الجمعة على منبر رسول الله ﷺ، فعرض له فى خطبته أن قال: يا سارية بن حصن، الجبل، الجبل، من استرعى الذئب ظلم، فتلفت الناس بعضهم إلى بعض، فقال على: صدق، والله ليخرجن مما قال. فلما فرغ من صلاته قال له على: ما شيء سنح لك فى خطبتك؟ قال: وما هو؟ قال: قولك يا سارية الجبل.. الجبل من استرعى الذئب ظلم، قال: وهل كان ذلك منى؟ قال: نعم، وجميع أهل المسجد سمعوه، قال: إنه وقع فى خلدى، أن المشركين هزموا إخواننا، فركبوا أكتافهم وأنهم يمرون بجبل، فإن عدلوا إليه قاتلوا من وجدوا وقد ظفروا، وإن جاوزوا الجبل هلكوا، فخرج منى ما تزعم أنك سمعته، قال: فجاء البشير بالفتح بعد شهر، فذكر أنه سُمِعَ فى ذلك اليوم فى تلك الساعة حين جاوزوا الجبل صوتٌ يشبه صوت عمر يقول: يا سارية بن حصن، الجبل، الجبل، قال: فعدلنا إليه ففتح الله علينا.

حفصة بنته أم المؤمنين:

عن على، قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله أبا بكر زوجنى ابنته، وحملنى إلى دار الهجرة، وأعتق بلالاً من ماله، ورحم الله عمر زوجنى ابنته، يقول الحق وإن كان مرًا، تركه الحق وما له من صديق».

وعن أبى هريرة، قال: إن نبى الله ﷺ، قال: «ركب رجل بقرة، فقالت: إنا والله ما لهذا خلقنا، ما خلقنا إلا للحراثة»، فقال القوم: سبحان الله، فقال النبى ﷺ: «أنا أشهد وأبو بكر وعمر يشهدان، وليسا ثمَّ»، أى لم يكونا معه.

مباهاة الله بعمر:

عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يباهى بالناس يوم عرفة، ويباهى بعمر بن الخطاب خاصةً».

وقال عبد الله بن مسعود: فَضَلَ الناسَ عمرُ بن الخطاب بأربع: بذكر الأسرى يوم بدر أمر بقتلهم، فأنزل الله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨]، وبذكر الحجاب، أمر نساء النبى أن يحتجبن فقالت زينب: إنك علينا يا ابن الخطاب والوحى ينزل فى بيوتنا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وبدعوة النبى ﷺ: «اللهم أيد الإسلام بعمر»، وبرأيه فى أبى بكر.

عن سويد بن غفلة، قال: مررت بقوم من الشيعة يشتمون أبا بكر وعمر، وينتقصونهما، فأتيت على بن أبى طالب، فقلت: يا أمير المؤمنين، إنى مررت بقوم من الشيعة يشتمون أبا بكر وعمر وينتقصونهما، ولولا أنهم يعلمون أنك تُضمِر لهما على ذلك لما اجترءوا عليه، فقال على: معاذ الله أن أضمر لهما إلا على الجميل، ألا لعنة الله على من يُضمر لهما إلا الحَسَنَ، ثم نهض دامع العين يبكى، فنادى: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، وإنه لعلى المنبر جالس، وإن دموعه لتتحادر على لحيته، وهى بيضاء، ثم قام فخطب خطبة بليغة موجزة، ثم قال: ما بال أقوام يذكرون سيِّدَىْ قريش وأَبَوَىْ المسلمين بما أنا عنه متنزه، ومما يقولون برئ، وعلى ما يقولون معاقب، فوالذى فلق الحبة وبرأ النسمة لا يحبهما إلا كل مؤمن تقى، ولا يبغضهما إلا كل فاجر غَوِىْ، أخوا رسول الله وصاحباه.

وقف أعرابى على عمر بن الخطاب، فقال: (يا عمر، الخير جزيت الجنة، جهز بُنَيَاتى واكْسُهُن، أقسم بالله لتفعلن)، قال عمر: فإن لم أفعل يكون ماذا يا أعرابى؟ قال: (أقسم بالله لأمضينه)، قال عمر: فإن مضيت يكون ماذا يا أعرابى؟ قال: (والله عن حالى لتسألنه، ثم تكون المسألات عنّه،

والواقف المسئول بينهن، إما إلى نار وإما جنَّة)، قال: فبكى عمر حتى اخضلَّت لحيته بدموعه، ثم قال: يا غلام، أعطه قميصى هذا لذلك اليوم، لا لشعره، والله ما أملك قميصًا غيره.

وروى زيد بن أسلم، عن أبيه، أن عمر بن الخطاب طاف ليلة، فإذا هو بامرأة فى جوف دارٍ لها، وحولها صبيان يبكون، وإذا قِدرٌ على النار قد ملأتها ماء، فدنا عمر من الباب، فقال: يا أمة الله، لماذا بكاء هؤلاء الصبيان؟ فقالت: بكاؤهم من الجوع، قال: فما هذه القدر التى على النار؟ فقالت: قد جعلت فيها ماء أعللهم بها حتى يناموا، أوهمهم أن فيها شيئًا من دقيق وسمن، فجلس عمر يبكى، ثم جاء إلى دار الصدقة، فأخذ غرارة - جوال - وجعل فيها شيئًا من دقيق وسمن وشحم وتمر وثياب ودراهم حتى ملأ الغرارة، ثم قال: يا أسلم: إحمل علىَّ، فقلت: يا أمير المؤمنين، أنا أحمله عنك، فقال لى: لا أمَّ لك يا أسلم، أنا أحمله لأنى أنا المسئول عنهم فى الآخرة، قال: فحمله على عنقه حتى أتى به منزل المرأة، قال: وأخذ القدر، فجعل فيها شيئًا من دقيق وشيئًا من شحم وتمر، وجعل يحركه بيده وينفخ تحت القدر، قال أسلم: وكانت لحيته عظيمة، فرأيت الدخان يخرج من خلل لحيته، طبخ لهم، ثم جعل يغرف بيده ويطعمهم حتى شبعوا، ثم خرج وربض بحذائهم كأنه سبع، وخفت منه أن أكلمه، فلم يزل كذلك حتى لعبوا وضحكوا، ثم قال: يا أسلم، أتدرى لم ربضت بحذائهم؟ قلت: لا يا أمير المؤمنين، قال: رأيتهم يبكون، فكرهت أن أذهب وأدعهم حتى أراهم يضحكون، فلما ضحكوا طابت نفسى.

جلده وقدرته:

كان لعمر رضى الله عنه قدرة عظيمة، وصبرًا على التحمل فى سبيل الله، وتفقد أحوال المسلمين.

وعن أبى بكر العبسى، قال: دخلت حين الصدقة مع عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب، فجلس عثمان فى الظل، وقام علىّ

على رأسه يملى عليه ما يقول عمر، وعمر قائم فى الشمس فى يوم شديد الحر عليه بردتان سوداوان متزر بواحد، وقد وضع الأخرى على رأسه، وهو يتفقد إبل الصدقة، فيكتب ألوانها وأسنانها، فقال عليّ لعثمان: أما سمعت قول ابنة شعيب فى كتاب الله عز وجل: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وأشار عليٌّ بيده إلى عمر، فقال: هذا هو القوى الأمين.

اهتمامه بإضاءة المساجد:

مرَّ عليٌّ بن أبى طالب على المساجد فى شهر رمضان، وفيها القناديل فقال: نوَّر الله على عمر قبره كما نوَّر علينا مساجدنا.

شدته على نفسه وقوة تحمله للمشقة:

روى أنه كان إذا خرج إلى مكة، فما يضرب فسطاطًا ولا خباءً حتى يرجع، وكان إذا نزل يُلقى له كساء أو نِطع على الشجر فيستظل به.

القوى الأمين:

عن مولى لعثمان بن عفان، قال: بينا أنا مع عثمان بن عفان فى مال له بالعالية [١] فى يوم صائف إذ رأى رجلاً يسوق بكرين[٢]، وعلى الأرض مثل الفراش من الحر، فقال: ما على هذا لو أقام بالمدينة حتى يبرد، ثم يروح ثم دنا الرجل، فقال: انظر من هذا؟ فنظرت، فقلت: أرى رجلاً مُعْتَمًّا بردائه يسوق بكرين، فقال: انظر من هذا؟ فنظرت، فإذا عمر بن الخطاب، فقلت: هذا أمير المؤمنين، فقام عثمان فأخرج رأسه من الباب، فإذا نَفْحُ السَمُوم - ريح ملتهبة - فأعاد رأسه حتى حاذاه، فقال: ما أخرجك هذه الساعة؟ فقال عمر: بكران من إبل الصدقة تخلفا، وقد مُضِىَ بإبل الصدقة، فأردت أن ألحقهما بالحمى، وخشيت أن يضيعا، فيسألنى الله

---

(١) العالية: كل ما كان من جهة نجد من المدينة من قراها وعمائرها إلى تهامة العالية وما كان دون ذلك السافلة.

(٢) البكر: الفتى من الإبل.

عنهما، فقال عثمان: يا أمير المؤمنين، هلم إلى الماء والظل ونكفيك، فقال: عد إلى ظلك، فقلت: عندنا مَنْ يكفيك، فقال: عد إلى ظلك، فمضى، فقال عثمان: من أحب أن ينظر إلى القوى الأمين، فلينظر إلى هذا، فعاد إلينا فألقى نفسه، شدة حرصه على مال الله.

ومحاسبته نفسه:

عن مجاهد، قال: أنفق عمر بن الخطاب فى حجة حجها ثمانين درهمًا من المدينة إلى مكة، ومن مكة إلى المدينة.

ثم جعل يتأسف، ويضرب بيده على الأخرى ويقول: ما أخلَقَنا أن نكون قد أسرفنا فى مال الله تعالى.

ومن أقوال عمر رضى الله عنه فى محاسبة النفس: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، فإنه أهون وزنوا أنفسكم قبل أن تُوزَنُوا وتجهزوا للعرض الأكبر، ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨].

النهاية والبداية:

عن يحيى بن سعيد بن المسيب، قال: إن عمر بن الخطاب لما نفر من «مِنَى» أناخ بالأبطح، ثم كَوَّم كومة من البطحاء - الأرض - فألقى عليها طرف ردائه، ثم استلقى ورفع يديه إلى السماء، ثم قال: اللهم كَبُرَت سنى، وضَعُفَت قُوَتِى، وانتشرت رعيتى، فاقبضنى إليك غير مُضَيع، ولا مُفَرط. فما انسلخ ذو الحجة حتى طُعِنَ فمات.

وعن جبير بن مطعم، قال: حججت مع عمر آخر حجة حجها، فبينا نحن واقفون على جبل عرفة صرخ رجل، فقال: يا خليفة، فقال رجل من «لِهْب» - وهو حى من أزد شنوءة يُنَجِمُون -: مَا لك؟ قطع الله لسانك والله لا يقف عمر على هذا الجبل بعد هذا العام أبدًا، قال جبير: فوقعت فى الرجل اللهبى، فشتمته حتى إذا كان الغد، وقف عمر وهو يرمى الجمار، فجاءت عمر حصاة عائرة - لا يدرى من رماها - من الحصى الذى يرمى به الناس، فوقعت فى رأسه ففصدت عرق من رأسه، فقال رجل: أُشْعِر أمير

المؤمنين - أى أعْلِم للقتل - ورب الكعبة لا يقف عمر على هذا الموقف أبدًا بعد هذا العام.

قال جبير: فذهبت ألتفت إلى الرجل الذى قال ذلك، فإذا هو اللهبى الذى قال لعمر على جبل عرفة ما قال.

استشعر قرب أجله:

خطب عمر الناس، فقال: رأيت كأن ديكًا نقرنى نقرة، أو نقرتين، ولا أدرى ذلك إلا لحضور أجلى، فإن عجل بى أمر، فإن الخلافة شورى فى هؤلاء الرهط الستة الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ.

حديثه عن أرامل أهل العراق قبل أربعة أيام من مقتله:

عن عمرو بن ميمون، قال: رأيت عمر بن الخطاب قبل أن يصاب بأيام بالمدينة، وقف مع حذيفة بن اليمان، وعثمان بن حنيف، قال: كيف فعلتما؟ أتخافان أن تكونا حمَّلْتُمَا الأرض ما لا تطيق؟ قالا: حمَّلنَاها أمرًا هى له مطيقة، ما فيها كبير فضل، قال: انظرا أن تكونا حملتما الأرض ما لا تطيق؟ قالا: لا، فقال عمر: لئن سلمنى الله لأدعنَّ أرامل أهل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدى أبدًا، قال: فما أتت عليه إلا رابعة حتى أصيب، قال: إنى لقائم ما بينى وبينه إلا عبد الله بن عباس غداة أصيب، وكان إذا مرَّ بين الصفين قال: استووا حتى إذا لم يرَ فيهن خللاً تَقَدَم فكبَّر، وربما قرأ بسورة «يوسف»، أو «النحل» أو نحو ذلك فى الركعة الأولى، حتى يجتمع الناس، فما هو إلا أن كبر فسمعته يقول: قتلنى أو أكلنى الكلب، حين طعنه، فطار العِلْجُ بسكين ذات طرفين لا يمر على أحد يمينًا وشمالاً إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً مات منهم سبعة، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين، طرح عليه بُرْنُسًا - رداء - فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه.

ولنتوقف هنا لحظة لنتأمل حرص عمر رضى الله عنه على إتمام الصلاة رغم الطعنات القاتلة التى أصابته.

وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف، فمن يلى عمر، فقد رأى الذى أرى، وأما نواحى المسجد فإنهم لا يدرون غير أنهم قد فقدوا صوت عمر.

هم يقولون: سبحان الله، سبحان الله، فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة، فلما انصرفوا قال: يا ابن عباس، انظر من قتلنى، فجال ساعة، ثم جاء المسجد، فقال: غلام المغيرة بنِ شعبة، قال عمر: الصَّنِع؟ قال: نعم، قال: قاتله الله، لقد أمرت به معروفًا، الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل يدَّعِى الإسلام قد كنت أنت وأبوك يا ابن عباس تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة، وكان العباس أكثرهم رقيقًا، فقال ابن عباس: إن شئت فعلت؟ أى إن شئت قتلناهم، فقال عمر: كذبت، بعدما تكلموا بلسانكم، وصلوا قبلتكم وحجوا حجكم، واُحْتُمِلَ إلى بيته فانطلقنا معه، وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ.

فقائل يقول: لا بأس، وقائل يقول: أخاف عليه، فأُتى بنبيذ فشربه، فخرج من جوفه، ثم أُتِى بلبن فشربه، فخرج من جوفه فعرفوا أنه ميت، فدخلنا عليه، وجاء الناس يثنون عليه، وجاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك من صحبة رسول الله ﷺ، وقدم فى الإسلام ما قد علمت، ثم وُلِّيتَ فعَدَلْت، ثم شهادة. قال عمر: وددتُ أن ذلك كَفَافًا لا علىَّ ولا لى، فلما أدبر إذا إزاره يمسى الأرض، قال عمر: ردوا على الشاب، وقال له: يا ابن أخى، ارفع ثوبك، فإنه أنقى لثوبك وأتقى لربك.

أرأيت إلى عمر فى لحظاته الأخيرة، واهتمامه بأمر الدين والناس.

يا عبد الله بن عمر: أنظر ما علىَّ من الدَّيْن، فحسبوه فوجدوه ستة وثمانون ألف درهم أو نحوه. قال: إن وفى له مال آل عمر، فأده من أموالهم وإلا فسلْ فى بنى عدَى، فإن لم تفِ أموالهم فسلْ فى قريش، ولا تَعْدُهُمْ إلى غيرهم، فأدِّ عنى هذا المال، وانطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقُل لها: يقرأ عليك عمر السلام، ولا تقل أمير المؤمنين، فإنى لست اليوم للمؤمنين أميرًا، وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يُدفن مع صاحبيه، فسلم واستأذن، ثم

دخل عليها فوجدها قاعدة تبكى، فقال: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام، ويستأذن أن يُدفَن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسى، ولأوثرنه به اليوم على نفسى، فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء، قال: ارفعونى، فأسنده رجل إليه، فقال: ما لديك؟ قال: الذى تحب، قد أذنت، قال: الحمد لله، ما كان شىء أهم إلىَّ من ذلك، فإذا أنا قُبِضت فاحْمِلونى، ثم سلم فقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت فأدخلونى، وإن ردتنى ردونى إلى مقابر المسلمين.

وجاءت أم المؤمنين حفصة، والنساء تسير معها، فلما رأيناها قمنا، فولجت عليه فبكت عنده ساعة، واستأذن الرجال فوَلَجْتُ داخلاً لهم، فسمعنا بكاءها من الداخل، فقالوا: أوصى يا أمير المؤمنين - استخلف - قال: ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، فسمى: عليا، وعثمان، والزبير وطلحة، وسعدا، وعبد الرحمن بن عوف، وقال: يَشهدكم عبد الله بن عمر، وليس له من الأمر شىء - كهيئة التعزية له - فإذا أصابت الإمرة سعدًا فهوا ذاك، وإلا فليستعن به أيكم ما أُمِّرَ، فإنى لم أعزله من عجز ولا خيانة.

صانع الأرحاء:

كان أبو لؤلؤة عبدًا للمغيرة بن شعبة، وكان يصنع الأرحاء، وكان المغيرة يستغله كل يوم أربعة دراهم.

لقى أبو لؤلؤة عمر، فقال له: يا أمير المؤمنين، إن المغيرة قد أثقل علىَّ غلتى فكلمه يخفف عنى، فقال له عمر: اتق الله وأحسن إلى مولاك، ومن نية عمر أن يلقى المغيرة فيكلمه يخفف عنه، فغضب العبد، وقال: وسع الناس كلهم عدلُه غيرى، وقيل: إن عمر قال له: ألا تصنع لى رحا؟ قال: بلى، أصنع لك رحا يتحدث بها أهل الأمصار، ففزع عمر من كلمته، وعَلِىٌّ معه، فقال: إن العبد يتوعدنى.

وفى البيت صرخت أم كلثوم ومعها نسوة، وارتج البيت بالبكاء، وهى

تقول: واعمراه، فقال عمر: والله لو أن لى من على الأرض من شىء لافتديت به هول المَطْلَع، فقال ابن عباس: والله إنى لأرجو أن لا تراها إلا مقدار ما قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١].

إن كنت ما علمنا لأمير المؤمنين، وأمين المؤمنين، وسيد المؤمنين، تقضى بكتاب الله، وتقسم بالسوية، فأعجبه قولى، فاستوى جالسًا، فقال: أتشهد لى بهذا يا ابن عباس؟ وضرب على كتفى، وقال: اشهد، قال ابن عباس: نعم أشهد، فسرَّ بذلك عمر.

ضع رأسى على التراب:

قال عمر لابنه عبد الله: خذ رأسى عن الوسادة وضع خدى على التراب لعل الله ينظر لى فيرحمنى، وويل لى، وويل لأمى إن لم يرحمنى الله عز وجل، فإذا أنا مت فاغمض عينى، واقصدوا فى كفنى، فإنه إن كان لى عند الله خير أبدلنى ما هو خير منه، وإن كنت على غير ذلك سلبنى فأسرع سلبى، وأنشد:

ظلوم لنفسى غير أنى مسلم أصلى الصلاة كلها وأصوم

البداية، إلى رضوان الله تعالى:

لما قضى عمر رضى الله عنه، صلى عليه صهيب، وكبَّر عليه أربعًا، ووُضِع عمر على سريره، فاجتمع حوله الناس يدعون له، ويصلون قبل أن يُرْفَع، وقال على رضى الله عنه: ما خَلَفْتُ أحدًا أحب أن ألقى الله بمثل عمله منك، وأيم الله إن كنت لأظن ليجعلنك الله مع صاحبيك، وذلك أنى كنت أُكْثِر أن أسمع رسول الله ﷺ يقول: «ذهبت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر، وإن كنت لأظن ليجعلنك الله معهما».

ولما توفى عمر صُلِّى عليه فى المسجد، وحُمِلَ على سرير رسول الله ﷺ، وغسله ابنه عبد الله، ونزل فى قبره هو وعثمان بن عفان، وسعيد بن زيد، وعبد الرحمن بن عوف.

طعن عمر يوم الأربعاء لأربع ليال بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين، وبقى ثلاثًا، وتُوفِى.

ودفن صباح الأحد هلال المحرم سنة أربع وعشرين، وكانت خلافته عشر سنين وخمسة أشهر وأحد وعشرين يومًا.

وقال ابن قتيبة: ضربه أبو لؤلؤة الاثنين لأربع بقين من ذى الحجة، ومكث ثلاثًا وتوفى، فصلى عليه صهيب، وقبر مع رسول الله ﷺ وأبى بكر. وقيل: توفى وهو ابن ثلاث وستين سنة.

وهكذا قضى عمر انتهت حياته على الأرض، ولكن بقيت سيرته تتردد على مدى الأجيال، فقد كانت خلافته بشارة النبى ﷺ بخلافته أبى بكر، ومن بعده عمر.

وتستفاد هذه البشارة من حديث النبى ﷺ، عن عبد الله بن عمر: أن النبى ﷺ قال: «رأيت فى المنام أنى أنزع بدَلو بكرة على قليب - بئر - فجاء أبو بكر فنزع ذنوبًا أو ذنوبين - دلوا أو دلوين عظيمين - نزعًا ضعيفًا، والله يغفر له، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غَرْبًا - دلوا عظيمًا تتخذ من جلد ثور - فلم أر عبقريًا يفرى فَريه، حتى روى الناس وضربوا بعطن». وهذا يعنى أن عمر لما أخذ الدلو ليستقى عظمت فى يده لأن الفتوح فى زمنه كانت أكثر منها فى زمن أبى بكر؛ ولأن أبا بكر رضى الله عنه شُغِل بالمرتدين، وظل يقاتلهم حتى عادوا إلى حظيرة الإسلام، وجاء عمر رضى الله عنه والساحة الإسلامية موحدة.

وقال على بن أبى طالب فى فضل الخليفتين: إن الله جعل أبا بكر وعمر حجة على من بعدهما من الولاة إلى يوم القيامة، فسبقا والله سبقًا بعيدًا، وأتْعَبا والله مَنْ بعدهما إتعابًا شديدًا. فذكرهما حزن للأمة وطعن على الأئمة.

* * *

ذو النورين
عثمان بن عفان

«خذوا الحق، وأعطوا الحق، الأمانة الأمانة،. والوفاء الوفاء، لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد، فإن الله تعالى خصم لمن ظلمهم».

هو: القرشى الأموى، يجتمع مع رسول الله ﷺ فى «عبد مناف»، فهو: عثمان بن عفان بن أبى العاص بن عبد شمس بن عبد مناف، يكنى: أبا عبدالله فى الإسلام، إذ أم عبدالله هى «رقية» بنت رسول الله ﷺ.

أمه: أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، وأم أروى: البيضاء بنت عبدالمطلب عمة رسول الله عليه السلام.

أسلم قبل دخول رسول الله دار الأرقم بن أبى الأرقم. كان يقول: إنى لرابع أربعة فى الإسلام.

دعاه أبو بكر إلى الإسلام، فأسلم، هاجر إلى الحبشة الهجرتين، وهاجرت معه زوجه رقية بنت رسول الله ﷺ. عاد إلى مكة، وهاجر إلى المدينة، نزل فى المدينة على أوس بن ثابت، آخى حسان بن ثابت شاعر الرسول، ولهذا كان حسان يحب عثمان، ويبكيه بعد قتله.

ومن أهم مناقب أمير المؤمنين عثمان بن عفان، كتابته للمصاحف، فقد قدم حذيفة بن اليمان على عثمان بن عفان رضى الله عنهما، وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة، قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأفزع ذلك عثمان كما أفزع حذيفة، فأرسل إلى حفصة أم المؤمنين أن ترسل إليه بالصحف التى عندها مما جمعه الشيخان ليكتب ذلك فى مصحف واحد، وينفذه – يرسله – إلى الآفاق، وجمع الناس على القراءة به وترك ما سوه.

ففعلت حفصة، وأمر عثمان هؤلاء الأربعة وهم: زيد بن ثابت الأنصارى، وعبدالله بن الزبير بن العوام، وسعيد بن العاص بن أمية، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام.

فجلس هؤلاء الأربعة، أولهم زيد أحد كتاب الوحى لرسول الله ﷺ. وعبدالله بن الزبير بن العوام، قرشى أسدى وأحد فقهاء الصحابة ونجبائهم علمًا وعملاً، وأصلاً وفضلاً. وسعيد بن العاص بن أمية القرشى الأموى،

وكان كريما جوادا ممدحا، وكان أشبه الناس لهجة برسول الله .
وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم القرشى المخزومى.

جلس هؤلاء الأربعة يكتبون القرآن نسخا، وإذا اختلفوا فى موضع الكتابة على أى لغة، رجعوا إلى عثمان، كما اختلفوا فى التابوت، أيكتبونه بالتاء أو الهاء؟ فقال زيد بن ثابت: إنما هو التابوه، وقال الثلاثة القرشيون إنما هو التابوت، فتراجعوا إلى عثمان، فقال: اكتبوه بلغة قريش، فإن القرآن نزل بلغتهم، وكأن عثمان رضى الله عنه، رتب السور فى المصحف وقدم السبع الطوال وثنى بالمئين – بالمئات – وقيل: إنما كان الترتيب توقيفيا على العرضة الأخيرة.

وعن ابن عباس، قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال، وهى من المثانى، وإلى براءة وهى من المئين، فقرنتم بينهما، و لم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموها فى السبع الطوال، ما حملكم على ذلك؟ قال: كان رسول الله ينزل عليه السور، ذوات العدد فكان إذا نزل عليه الشىء دعا من كان يكتب، يقول: ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا، كانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا وكانت قصتها شبيهة بقصتها، فظننت أنها منها، فقبض رسول الله و لم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما، و لم اكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتها فى السبع الطوال.

والتحقيق أن وضعهما توقيفى شأن جميع السور، وإن فات عثمان ذلك أو نسيه، وإلا لعارضه الجمهور، أو ناقشوه فيه عند كتابة القرآن.

رعاية المريض تعدل الجهاد فى سبيل الله:

لما خرج الرسول إلى بدر كانت ابنته رقية رضى الله عنها مريضة، فأبقى الرسول عثمان بالمدينة لرعاية زوجته رقية، واعتبر الرسول رعاية

المريض كالجهاد فى سبيل الله، وضرب لعثمان بسهمه فى الجهاد وأجره، فكان كمن شهد بدرا.

مدى حب الرسول لعثمان:

بعد وفاة رقية رضى الله عنها زوجه الرسول بابنته الثانية: أم كلثوم، وبعد وفاة أم كلثوم، قال الرسول : «لو كان عندى ثالثة لزوجتها عثمان». مما يدل على حب الرسول له.

سر كنيته بذى النورين:

سمى «ذا النورين» لجمعه بين بنتى الرسول عليه السلام.

وصف ملامحه:

كان عثمان رضى الله عنه أبيضا مشربا بصفرة كأنها فضة وذهب حسن القامة، حسن الساعدين، سبط[1] الشعر، عظيم اللحية يضفرها، من أجمل الناس إذا اعتم، مشرف الأنف، كثير شعر الساقين والذراعين، ضخم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين، شد أسنانه بالذهب لما أسن، ولى الخلافة آخر ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين، وقتل بداره صائما محتسبا ظمآنا مظلوما يوم الجمعة صبيحة عيد الأضحى سنة خمس وثلاثين.

الشورى:

نرى أن الفتنة بدأت ترفع رأسها بمقتل الفاروق عمر بن الخطاب بخنجر له رأسان نصابه فى وسطه، طعنه به أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبه ست طعنات إحداهن تحت سرته، ويقال: هى التى قتلته، وقتل معه كليب بن أبى البكير الليثى، وكان خلفه، فلما وجد عمر حر السلاح سقط، وقال: أفى الناس عبدالرحمن بن عوف؟ قالوا: نعم يا أمير المؤمنين، هو ذا، قال عمر: تقدم فصل بالناس فصلى عبدالرحمن بن عوف بالناس، وعمر طريح، ثم احتمل فأدخل داره، فدعا عبدالرحمن بن عوف، فقال: إنى أريد أن

---

(١) سبط:غزير الشعر.

أعهد إليك، فقال عبدالرحمن: يا أمير المؤمنين نعم، إن أشرت على قبلت منك، قال عمر: وما تريد؟ قال: أنشدك الله، أتشير على بذلك؟ قال: اللهم لا، قال: والله لا أدخل فيه أبدًا.

قال عمر: فهب لى صمتا حتى أعهد إلى النفر الذين توفى رسول الله وهو عنهم راضٍ وصية الفاروق لمن يخلفه، ادع لى عليا وعثمان والزبير وسعدًا، وانتظروا أخاكم طلحة ثلاثًا فافضوا أمركم، أنشدك الله يا على، إن وليت من أمور المسلمين شيئًا، أن تحمل بنى هاشم على رقاب الناس أنشدك الله يا عثمان، إن وليت من أمور الناس شيئًا، أن تحمل بنى أبى معيط على رقاب الناس، أنشدك الله يا سعد، إن وليت من أمور الناس شيئًا، أن تحمل أقاربك على رقاب الناس، قوموا فتشاوروا، ثم اقضوا أمركم، وليصلِ بالناس صهيب، ثم دعا أبا طلحة الأنصارى، فقال له: قم على بابهم، فلا تدع أحد يدخل إليهم، وأوصى الخليفة من بعدى بالعرب، فإنهم مادة الإسلام أن يؤخذ من صدقاتهم حقها، فيوضع فى فقرائهم وأوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله أن يوفى لهم بعهدهم، اللهم هل بلغت، تركت الخليفة من بعدى على أنقى من الراحة.

يا عبدالله بن عمر أخرج، فانظر من قتلنى؟ فقال: يا أمير المؤمنين، قتلك أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، قال عمر: الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل سجد لله سجدة واحدة، يا عبد الله بن عمر، اذهب إلى عائشة فسلها أن تأذن لى أن أدفن مع النبى وأبى بكر الصديق، رضى الله عنه.

يا عبد الله بن عمر، إن اختلف القوم فكن مع الأكثر، وإن كانوا ثلاثة وثلاثة، فاتبع الحزب الذى فيه عبد الرحمن، يا عبد الله، ائذن للناس، فجعل يدخل عليه المهاجرون والأنصار، فيسلمون عليه، ويقول لهم: أعن ملأ منكم كان هذا؟ – أى عن معرفة مسبقة ومؤامرة سابقة – فيقولون: معاذ الله.

هذه صورة للحالة، أو للجو الذى كان عند مقتل عمر رضى الله عنه.

ومنها نعرف أنه كان يرغب فى استخلاف عبد الرحمن بن عوف، وأنه أقسم أنه لا يدخل فى هذا الأمر أبدًا، ولنا أن نسأل لماذا رفضها عبد الرحمن بن عوف، بعض الأسباب تلوح من خلال حديث عمر رضى الله عنه النبوة لا اختيار فيها لأحد ولا شورى؛ لأنها من الله تعالى باختياره هو دون استشارة أى مخلوق من مخلوقاته تعالى، ورغم هذا وجد المعارضون لها حرصًا على مجدهم وشرفهم، وقد صرحوا بذلك فيم بينهم وبين أنفسهم، بل وصرحوا به لرسول الله .

أما الخلافة فهى تتيح الفرصة لاستعادة الأمجاد القبلية، وإن كان الخليفة محكومًا بالشريعة الإسلامية إلا أنها شريعة مرنة قابلة للتأويل والتطوير إلا فى المحكمات، والأمر فى النهاية يعود إلى حقيقة ما يضمره الخليفة فى نفسه.

فشده عمر على نفسه، وعلى أهله ليست فرضًا فى الإسلام، إنها سلوك ارتضاه عمر لنفسه حرصًا على أن يلحق بصاحبيه **السابقين**: رسول الله ، وأبى بكر، كما أن سخاء عثمان الشديد على أهله ورحمه لا تحرم أحدًا حقه فى الإسلام، طالما أنها لا تحرم أحدًا حقه فى نطاق العدل، وليس فى نطاق الفضل، ولكن الناس كل الناس تقريبًا يحبون شدة الخليفة على نفسه، وعلى أهله، إذا كان الخليفة عمر أو من هو على شاكلته، لأنهم يرون مع هذه الشدة أنهم يعيشون حياة أرغد من حياته، ومن حياة أسرته، ولا يرحبون بالوجه الآخر من الصورة؛ لأنهم يرون الخليفة، أو على الأقل أهله وذوى رحمه يعيشون حياة أكثر سعة وبسطة من حياتهم فتضيق نفوسهم حتى لو كان ما يفعله الخليفة فى نطاق ما أحل الله له، ومن يكون مثل عمر؟.

هذا ما أشار إليه عمر رضى الله عنه فى حديثه مع كلا من على وعثمان وسعد رضى الله عنهم أجمعين، فى قوله: يا على، لا تحمل بنى هاشم على رقاب الناس، يا عثمان، لا تحمل بنى أبى معيط على رقاب الناس، يا سعد، لا تحمل أقاربك على رقاب الناس، وناشد الثلاثة بهذا الطلب، و لم يناشد

عبد الرحمن بن عوف مما يدل مسبقا على أن عبد الرحمن بن عوف سيكون خارج هذا الموضوع مما يؤكد صدق العرض الذى عرضه عليه فيما بينه وبينه بأن يكون هو الخليفة، واقسم له عبد الرحمن بالله أنه لا يقبله أبدا باختياره أى إلا إذا فرض عليه.

ونستكمل الصورة بما حدث بعد وفاة الخليفة عمر رضى الله عنه، تقدم صهيب فصلى عليه، وتقدم قبل ذلك - أى قبل صهيب - رجلان من أصحاب رسول الله همـا: على وعثمان، فتقدم واحد من عند رأسه، والآخر من عند رجليه، فقال عبدالرحمن بن عوف: لا إله إلا الله، ما أحرصكما على الإمارة، أما علمتما أن أمير المؤمنين قال: ليصل بالناس صهيب، فتقدم صهيب فصلى.

هذه الصورة توضح أن كلا من الإمامين على وعثمان كان يرغب فى أن يؤم المصلين توطئة أو بدء إعلان عن إمامته لجميع المسلمين.

هل يعنى هذا أن الحرص على الخلافة من كل منهما يفيد حرصه على متاع الدنيا وزخرفها وما تضفيه من جاه على صاحبها؟.

أقولها بيقين وصدق: لا، وألف لا، إلا إذ فهمنا الدنيا على أنها معبر للآخرة، وفضل الإمام العادل على غيره من الناس ودعوته المستجابة عند الله كل ذلك بينه رسول الله وحبب فيه، ومعروف ولا داعى للإطالة فيه، وأنه كان الباعث الأساسى لرغبة كل من الإمامين فى الوصول إليها، لينال حسن الثواب من الله.

ونستكمل الصورة بسؤال، لماذا رفضها عبدالرحمن بن عوف، ونتلمس الإجابة منه هو نفسه.

قال سعد بن أبى وقاص بعد حوار مع عبدالرحمن بن عوف: أيها الرجل بايع لنفسك وارحنا وارفع رءوسنا - تبدو النزعة القبلية التى رفض عبدالرحمن بن عوف التضحية من أجلها - قال عبدالرحمن: يا أبا إسحاق، إنى قد خلعت نفسى منها على أن أختار، ولو جعل الخيار لى لم أردها! إنى

رأيت كروضة خضراء كثيرة العشب، فدخل فحل فلم أر فحلا قط أكرم منه، فمر كأنه سهم لا يلتفت إلى شىء مما فى الروضة، حتى قطعها لم يعرج، ودخل بعير يتلوه فاتبع أثره، حتى خرج من الروضة، ثم دخل فحل عبقرى يجر خطامه يلتفت يمينا وشمالا، ويمضى قصد الأولين، حتى خرج، ثم دخل بعير رابع، فرتع فى الروضة، ولا والله لا أكون الرابع، ولا يقوم مقام أبى بكر وعمر بعدهما أحد فيرضى الناس عنه. قال سعد: فإنى أخاف أن يكون الضعف قد أدركك، فأمض لرأيك، فقد عرفت عهد عمر.

إذًا فالأمر واضح فى ذهن عبدالرحمن بن عوف، أن الذى يأتى بعد أبى بكر وعمر لن يرضى الناس عنه! كما أنه يخشى على نفسه من إغراءات روضة الحياة الدنيا، هذه هى الظروف التى كانت عند وفاة عمر مقتولا، وتمت الاجراءات اللازمة لأخذ البيعة، وجلس عبد الرحمن بن عوف، ودعا عليا، فقال: عليك عهد الله وميثاقه، لتعملن بكتاب الله وسنة نبيه، وسيرة الخليفتين من بعده. قال على: أعمل بمبلغ علمى وطاقتى، ثم دعا عثمان: فطرح عليه نفس العهد، قال عثمان: نعم، فبايعه.

وهكذا نفذ القضاء، وهنا ينبغى أن نعالج موضوعًا يبدو أنه فى غاية الرهافة والحساسية مع ما نقربه من توقيرنا واحترامنا الجم لصحابة رسول الله إن سؤالا ألح على خاطرى، لماذا اشترط الصحابى الجليل عبدالرحمن بن عوف فى العهد والميثاق المطروح عل المرشحين للخلافة أن يعمل بسيرة الخليفتين السابقين؟ أما كان يكفى التعهد بالعمل بكتاب الله وسنة رسوله؟ وهل سبق لأبى بكر أن أخذ العهد على عمر بن الخطاب بالعمل بسيرته هو مع العمل بكتاب الله وسنة رسوله؟ وإن كان هذا لم يحدث من أبى بكر، فلماذا أضافه عبدالرحمن بن عوف؟ ولماذ أجاب على بقول: أعمل بمبلغ علمى وطاقتى. علم بماذا؟ وطاقته بماذا؟ علمه بكتاب الله معروف للصحابة جميعًا، ومنهم عبدالرحمن بن عوف، وطاقته معروفة ولا أحد يستطيع أن يجيب بأكثر مما أجاب، ونفس هذه الإجابة لاتتناقض مع العمل بسيرة الخليفتين السابقين، ولا تعنى رفض العمل بسيرتهما، ولكنها إجابة دقيقة

تضع النقاط على الحروف.

وإن كانت لا تعنى بأية حال أن تكون شخصيته صورة طبق الأصل لخليفتين سابقين كما لا يتصور أحد أن عمر بن الخطاب نفسه كان نسخة مطابقة لأبى بكر، وكثيرًا ما نسمع حتى فى أزماننا من يقول فى بداية عهده أنه سيسير على خطا من كان قبله، وسرعان ما تختلف الخطوات لتعبر عن شىء آخر هو الشخصية الحقيقية لصاحبها.

ونتأمل إجابة ذى النورين إنها كلمة واحدة، قال: نعم. فبايعه عبدالرحمن بن عوف، كلمة واحدة حددت من هو خليفة المسلمين، فماذا كانت تعنى هذه الكلمة التى حسمت الموقف لصالح ذى النورين، هل كانت تعنى قدرة قائلها على تقمص الشخصيتين السابقتين خاصة شخصية عمر، والعمل بطريقته والسير على منواله فى كل ما يعرض من قضايا وأحكام؟.

وهل هذا المعنى هو الذى كان يسعى إلى تحقيقه آخذ العهد، وهل كانت كلمة «نعم» تعنى الموافقة على هذا؟ وهل كان ذو النورين يقصد فعلا الالتزام بهذا المفهوم؟!.

لقد مضت سنوات على انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى وأخلاق الصحابة وسلوكهم، ومعالجتهم للأمور ومواقفهم، ومعاملتهم مع عامة المسلمين ومع أقاربهم وكل شئونهم لم تكن شيئًا سريًا موضوعًا فى خزانة مغلقة بعيدًا عن أعين الناس هل كان آخذ العهد يؤمن أن صاحب كلمة «نعم». هو أقدر الطرفين على اتباع طريق عمر؟ أم أن كلمة «نعم» رفعت عنه حرج الاختيار بين الاثنين وبصدورها انتهت مسئوليته وتعلقت برقبة قائلها؟.

والشىء الذى لا يجوز الشك فيه.. أن عثمان بن عفان، قال: «نعم» صادقًا كل الصدق فيها، ولكنه قالها بالمعنى الذى أفصح عنه على بن أبى طالب، والذى لم يقبل منه: «اعمل بمبلغ علمى وطاقتى»؛ لأن أحد لا

يستطيع أن يعمل بأكثر من هذا.

قلنا: بدأت الفتنة بطعن الفاروق غـدرًا وقتلـه، وهـاهى تشـحذ أسيافها وخناجرها وتشهرها فى وجه من يأتى بعده.

واجه عثمان رضى الله عنه الفصل فى قضية الهرمزان، انتحـر أبـو لؤلـؤة دون استجواب، ذكر البعض أنـه رأى الخنجـر الـذى طعـن بـه عمـر قبـل الحادثة مع الهرمزان الذى كان قد أسلم وجفينه النصرانى، ويبـدو أن عبيـد الله بن عمر، وقد تملكه الغضب لمقتل أبيه فقد السيطرة علـى نفسـه، فشـهر سيفه، وقتل الهرمزان، وقتل جفينة، كما قتل بنت أبى لؤلؤة، وقام إليه سعد ابن أبى وقاص، فنزع السيف من يده، وجذب شعره حتى أضجعـه علـى الأرض، وحبسه فى داره حتى أخرجه عثمان إليه.

قال عثمان لجماعة من المهاجرين والأنصار: أشيروا على فـى هـذا الـذى فتق فى الإسلام ما فتق، فقال على: أرى أن تقتله، فقال بعـض المـهاجرين: قتل عمر أمس، ويقتل ابنه اليوم؟ قال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين، إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسـلمين سـلطان إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك، قال عثمـان مصـدرا أول حكـم لـه بعـد تولية الإمارة: أنا وليهم، وقد جعلتها دية، واحتملتها فى مالى.

وكان هذا الحكم يتفق مع ما جبل عليه عثمان رضى الله من لين عادل، وفق بين مشاعر المسلمين الحزينة والثائرة لمقتل الفاروق، وهو لا يخـرج عـن اختصاصات الوالى فى العفو دون أن يهدر دم الهرمزان، وصاحبيه.

وفى رواية: إنه قدم عبيد الله بن عمر لابن الهرمزان ليتقص منـه، ولكنـه عفى عنه بعد حوار مع جمع من المسلمين وعاد إلى بيته، أى ابـن الهرمـزان، محمولا على الأعناق.

بل لقد ذكر الطبرى عن أبى منصور، قال: سمعت القماذبان يحـدث عـن قتل أبيه، قال: كانت العجم بالمدينة يستروح بعضها إلى بعض، فمـر فـيروز بأبى، ومعه خنجر له رأسان، فتناوله منه، وقال: مـا تصنـع بـهذا فـى هـذه

البلاد؟ قال: آنس به، فرآه رجل، فلما أصيب عمر، قال: رأيت هذا مع الهرمزان دفعه إلى فيروز، فأقبل عبيد الله فقتله، فلما ولى عثمان دعانى فأمكننى منه، ثم قال: يا بنى، هذا قاتل أبيك، وأنت أولى به منا، فاذهب فاقتله، فخرجت به، وما فى الأرض أحد إلا معى إلا أنهم يطلبون إلى فيه، فقلت لهم: إلى قتله؟ قالوا: نعم، وسبوا عبيد الله، فقلت: ألكم أن تمنعوه؟ قالوا: لا، فتركته لله ولهم، فاحتملونى فوالله ما بلغت المنزل إلا على رءوس الرجال وأكفهم.

هذه الرواية مقبولة على أنهم سبوا عبيد الله وقالوا لابن الهرمزان ما قالوا ترضية له للعفو عن عبيد الله وترغيبا له فيه، بدليل أنهم حملوه على أكتافهم وأكفهم بعد عفوه عنه.

كتب لعماله على الخراج: «خذوا الحق، وأعطوا الحق، الأمانة الأمانة، والوفاء الوفاء، لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد، فإن الله تعالى خصم لمن ظلمهم».

تعليمات لا تخرج عما ينادى به عمر رضى الله عنه، وهى تسجيل أمين لما جاء به القرآن الكريم.

وكتب إلى أمراء الحرب فى الثغور: إنكم حماة المسلمين وذادتهم، وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا فلا يبلغنى عن أحد منكم تغيير، فيغير الله ما بكم، ويستبدل بكم غيركم، فانظروا كيف تكونون، فإنى انظر فيما الزمنى الله النظر فيه والقيام عليه.

خطاب تبدو فيه اللهجة العمرية الشديدة يعزوها البعض إلى أنها كانت موجهة إلى هؤلاء العمال الذين كانوا معينين من قبل عمر وأوصى بالإبقاء عليهم فى مناصبهم لمدة عام من بعده.

ولكن السؤال هو: هل مما يضير عثمان فى شىء أن يسير عماله على مضمون هذه الرسالة؟ وهل تغيير هؤلاء العمال بعد ذلك يعنى تنازله عنه مضمون ومحتوى هذه التوجيهات الصادرة عنه والغائها؟.

كلا إن عثمان رضى الله عنه لم يكن يستهدف مخالفة ما جاء فى القرآن الكريم، ولا فى السنة النبوية المطهرة، ولا ما ترجم عمر رضى الله عنه من سياسة لعماله، ولكن الذى قد يكون محل اختلاف هو القدرة على المتابعة والتنفيذ، وهذه تختلف فيها بصمات الولاة والحكام.

استهل خلافته بالتوسعة على الناس أكثر مما كان عليه الناس أيام عمر، فزاد فى أعطياتهم خلال أسبوع أو أقل، من ولايته، فجعلها مائة، وكانت درهمًا فى كل يوم لكل نفس مولودة من أهل الفئ فى رمضان، وفى التوسعة.. لا يعترض أى أحد، أو يطالب بالعودة إلى أعطيات الخليفة السابق، أو يأخذ عليه إنه خرج على ما التزم به من السير على سيرة عمر رضى الله عنه.

أول ما تكلم الناس فى عثمان

عن ابن عباس، قال: إن أول ما تكلم الناس به ظاهرًا فى عثمان، أنه صلى بالناس بمنى فى ولايته ركعتين، حتى إذا كانت السنة السادسة أتمها أى صلاها أربعًا، فعاب ذلك غير واحد من الصحابة، وتكلم فى ذلك من يريد أن يكثر عليه، حتى جاءه على فيمن جاءه، فقال: والله ماحدث أمر ولا قدُم عهدٌ، ولقد عهدت نبيك يصلى ركعتين، ثم أبا بكر، ثم عمر، وأنت فعلت ذلك صدرًا من ولايتك، فما أدرى إلى أى شيء ترجع، فقال: رأىٌ رأيته.

وأتى آتٍ لعبد الرحمن بن عوف، فقال: هل لك فى أخيك قد صلى بالناس أربعًا؟ فصلى عبدالرحمن بأصحابه ركعتين، ثم خرج حتى دخل على عثمان، فقال: ألم تصل فى هذا المكان مع رسول الله ركعتين؟ قال: بلى، قال: ألم تصل مع أبى بكر ركعتين؟ قال: بلى، قال: ألم تصل مع عمر ركعتين؟ قال: بلى، قال: ألم تصل صدرًا من خلافتك ركعتين؟ قال: بلى، فاسمع منى يا أبا محمد - يعنى عبدالرحمن - إنى أخبرت أن بعض من حج من أهل اليمن، وجفاة الناس قد قالوا فى عامنا الماضى أن الصلاة للمقيم

ركعتان، وهذا إمامكم عثمان يصلى ركعتين، وقد اتخذت بمكة أهلاً، فرأيت أن أصلى أربعًا لخوف ما أخاف على الناس، وأخرى قد اتخذت بها زوجة، ولى بالطائف مال، فربما اطلعت فأقمت فيه بعض الصدر.

قال عبد الرحمن بن عوف: ما من هذا شيء لك فيه عذر، أما قولك: اتخذت أهلاً، فزوجتك بالمدينة تخرج بها إذا شئت، وتقدم بها إذا شئت، إنما هى تسكن بسكناك. وأما قولك: ولى مال بالطائف، فإن بينك وبين الطائف مسيرة ثلاث ليال، وأنت لست من أهل الطائف. وأما قولك: يرجع من حج من أهل اليمن وغيرهم، فيقولون: هذا إمامكم عثمان يصلى ركعتين وهو مقيم، فقد كان رسول الله ينزل عليه الوحى والناس يومئذ الإسلام فيه قليل، ثم أبو بكر مثل ذلك، ثم عمر فضرب الإسلام بجيرانه، فصلى بهم عمر حتى مات ركعتين.

قال عثمان: هذا رأى رأيته، فخرج عبد الرحمن فلقى ابن مسعود، فقال: يا أبا محمد هل حدث غير ما تعلم؟ قال: لا، قال: فما أصنع؟ قال: فاعمل أنت بما تعلم. فقال ابن مسعود: الخلاف شر، وقد بلغنى أنه صلى أربعًا، فصليت بأصحابى أربعًا، فقال عبد الرحمن: قد بلغنى أنه صلى أربعًا، فصليت بأصحابى ركعتين، وأما الآن فسوف يكون الذى تقول أى نصلى معه أربعًا.

إذن فإتمامه الصلاة بمنى كان اجتهادًا منه فيما لا وزر فيه، وإلا لما وافقه عليه ابن مسعود وصلى مثله، وكذلك تابعه عبد الرحمن بن عوف، وعاد الصلاة أربعًا مع أصحابه، لأن الخلاف مع الإمام فى هذه المسألة نبه إليه الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود.

* * *

ضياع خاتم الرسول

عمل لرسول الله ﷺ خاتم من فضة جعله فى أصبعه يوقع به على مكاتباته إلى ملوك ورءوساء العالم يدعوهم إلى الإسلام: نقش عليه كلمات

ثلاث «محمد رسول الله» أعلاها لفظ الجلاله «الله» وتحتها كلمة «رسول» تليها كلمة «محمد» انتقل خاتم الرسول من بعده إلى أبى بكر، ثم إلى عمر ثم إلى عثمان رضى الله عنهم، أجمعين.

واستمر معه الخاتم ست سنين حتى حفر بئر أريس على بعد ميلين من المدينة، وبينما هو قاعد على رأسها سقط الخاتم فى البئر، وعبثًا حاولوا استرجاعه رغم قلة مائها، ورغم المكافأة المالية العظيمة التى جعلها لمن يعثر عليه، فلما يئس من العثور عليه حزن واغتم، وصنع آخر على مثاله ضاع كذلك بعد قتله.

تشاءم المسلمون لفقد الخاتم: وعلل البعض ذلك بأنه أول ابتلاء نزل به لميله عن سيرة سابقين.

تغيير الولاة:

لا أحد ينكر حق الوالى العام فى تعيين أو استبدال أو إحداث التغيير المطلوب فى ولاة الأمصار، وسبق لعمر بن الخطاب رضى الله عنه أن عزل سعد بن أبى وقاص عن الكوفة، وولى مكانة المغيرة بن شعبة، ومعروف من هو سعد فى التاريخ الإسلامى كان ثالثًا فى الإسلام، وهو أول من رمى بسهم فى سبيل الله، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وهو أحد أصحاب الشورى، وعزله عمر بناء على شائعات لم تثبت، ولا يتصور صدورها عنه، فقد أتهم بأنه لا يحسن الصلاة، وأن الصيد يلهيه، وأنه لا يقسم بالسوية ولا يعدل فى القضية. وهذا فى حد ذاته يبين مدى حق أمير المؤمنين فى التغيير دون مساءلة من أحد.

ولكن ما لا يسأل عنه عمر، يسأل عنه سواه ويبقى فى النهاية أن نقول: ومن مثل عمر، وقد استمع الخليفه الجديد عثمان إلى نصيحة الخليفة السابق الذى قال: إنى لم أعزل سعد بن أبى وقاص عن سوء أو خيانة، فكان أول عامل بعث به عثمان على الكوفه هو سعد، وعزل المغيرة الذى كان يومئذٍ بالمدينة بعد أن استعمله سنة كاملة كوصية عمر، ثم استعمل حقه فى

التعيين والعزل فعزل سعدًا، وولى مكانه الوليد بن عقبة لماذا عزل سعدًا؟.

قيل: إنه استقرض من عبد الله بن مسعود من بيت المال مالا فأقرضه، فلما تقاضاه لم يتيسر عليه السداد، فارتفع بينهما الكلام حتى استعان عبد الله بأناس على استخراج المال، واستعان سعد بأناس على استنظاره، فاقتربوا وبعضهم يلوم بعضًا، يلوم هؤلاء سعدًا، ويلوم هؤلاء عبد الله. وقيل: إن عبد الله بن مسعود أتى سعدًا، وعنده ابن أخيه هاشم بن عتبة، فقال له: أد المال الذى قبلك، قال سعد: ما أراك إلا ستلقى شرًا، هل أنت إلا ابن مسعود عبد من هذيل؟ فقال: أجل والله إنى لابن مسعود، وإنك لابن حمينة، قال هاشم: إنكما لصاحبا رسول الله ينظر إليكما.

فطرح سعد عودًا كان فى يده - وكان رجلاً فيه حدة - ورفع يديه وقال: اللهم رب السموات والأرض، فقال عبد الله: ويلك قل خيرًا ولا تلعن، فقال سعد عند ذلك: أما والله لولا اتقاء الله، لدعوت عليك دعوة لا تخطئك، فولى عبد الله سريعًا حتى خرج.

وبالتأمل فى هذه القصة نلحظ الآتى: إنها قد تصلح من وجهة نظر أمير المؤمنين عثمان سببًا للعزل، فقد حدث ما حدث من مشادة من أجل مسألة ما كان يجب أن تتطور وأن تصل إلى ما وصلت إليه، الربا محرم تحريمًا مغلظا: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ [البقرة: ٢٧٥] وبيت مال المسلمين هو أولى الجهات بأن يقرض المحتاج للقرض؟ وسعد بن أبى وقاص ليس بالرجل الذى يقترض ولا ينوى السداد، فكان الأولى بأخيه الصحابى الجليل أن يطالبه بالحسنى، أما أن يصل الأمر إلى الصورة التى لم يستسغها هاشم ابن أخ سعد، ويلفت نظرهما إلى موقعهما كصاحبى رسول الله، والناس تنظر لهما وتراقب ما يصدر عنهما، فقد يكون هذا مبرر للعزل. وقد سبق للفاروق أن عزله لسبب كان فيه مظلوما من بعض حساده.

يلفتنا أيضا فى هذه القصة أن سعد بن أبى وقاص ما كاد يرفع يديه

ويقول: اللهم رب السموات والأرض حتى فزع ابن مسعود وارتجف وقلبه وجف ونسى كل ما حدث إلا قول الرسول عن سعد: «إنه مستجاب الدعوة». وما هو متيقن بما حدث به الرسول ﷺ تيقنا شديدًا، فأسرع إلى التصالح والرجاء بقوله: قل خيرًا ولا تلعن.

وقيل: سعد الذى كان على يقين أيضًا من صدق الرسول فيما بلغهم به وقال: أما والله لولا اتقاء الله، وكأن الله تعالى جعل هؤلاء الصحابة حتى فى حالات غضبهم ينقلون لنا مدى إيمانهم ويقينهم بنبيهم، وأنه لا ينطق عن الهوى.

* * *

الوليد بن عقبة

ذكر كثير من المفسرين أن الآية السادسة من سورة الحجرات نزلت فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦] وذلك حين بعثة رسول الله ﷺ على صدقات بنى المصطلق.

روى الإمام أحمد فى مسنده من رواية ملك بنى المصطلق، وهو الحارث ابن أبى ضرار، والد جويرية بنت الحارث أم المؤمنين، قال: قدمت على رسول الله ﷺ، فدعانى إلى الإسلام فدخلت فيه وأقررت به، ودعانى إلى الزكاة فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله، أرجع إليهم فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة، فمن استجاب لى جمعت زكاته وترسل إلى يا رسول الله رسولا وقت كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة، و لم يأت الرسول فى الميعاد، وظن الحارث أنه قد حدث فيه سخط من الله تعالى ورسوله، فدعا بسروات قومه، فقال لهم: إن رسول الله كان قد وقت لى وقت يرسل إلى رسوله ليقبض ما كان عندى من الزكاة، وليس من رسول الله الخلف، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطه، فانطلقوا بنا نأتى رسول الله وبعث رسول الله الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق أى - خاف - فرجع حتى أتى رسول الله، فقال: إن الحارث قد منعنى الزكاة وأراد قتلى، فغضب رسول الله ، وبعث البعث إلى الحارث رضى الله عنه، وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث، وفصل عن المدينة لقيهم الحارث، فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم، قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك، قال: و لم؟ قالوا: إن رسول الله بعث إليك الوليد بن عقبة، فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله.

قال الحارث: لا والذى بعث محمد ﷺ بالحق ما رأيته بتة، ولا أتانى، فلما دخل الحارث على رسول الله قال الرسول للحارث: «منعت الزكاة وأردت قتل رسولى؟» قال: لا والذى بعثك بالحق، ما رأيته ولا أتانى وما أقبلت إلا حين تأخر على رسولك خشيت أن يكون سخطه من الله تعالى ورسوله، قال: فنزلت الحجرات، وكان رسول الله يقول: «التثبت من الله تعالى والعجلة من الشيطان».

ولا نظن أن السبب الرئيسى لتذمر أهل الكوفة من الوليد هو هذا الماضى الذى ارتبط به، وإن ظل يلاحقه، فقد قال له سعد حينما قدم الوليد عليه: والله ما أدرى هل كست بعدنا، أى هل تعقلت بعدنا أم حمقنا بعدك؟ فقال: لا تجز عن أبا إسحاق، فإنما هو الملك يتغداه قوم ويتعشاه آخرون، قال سعد: أراكم والله ستجعلونه ملكا.

لو كان ماضيه هو السبب الرئيسى فى السخط عليه، فلماذا بقى بعد سعد بن أبى وقاص خمس سنوات؟ كان فيها محبوبا وقام بغزوات عدة كشفت عن شجاعته وقد بقى خمس سنين وليس لداره باب؟.

تعنى أنه كان كريما لا يغلق بابه فى وجه أحد بل باب داره مفتوح دائما للإضياف، وقد قيل عنه: أنه كان من رجال قريش ظرفا وحلما وشجاعة وأدبا وكان شاعرا كريما.

لا ندافع عن الوليد، ولكن نود أن نقول: أن الكوفة كانت تعج بأناس خواضين فى الفتنه لا يرضون عن أحد و لم يقصر عثمان لما شهدوا على الوليد بشرب الخمر فقد أمر به فجلد، وعزل عن الكوفة، وولى سعيد بن العاص.

وسعيد بن العاص هذا هو الذى قال له عمر بن الخطاب: لم أقتل أباك، وإنما قتلت خالى العاص بن هاشم، وما أعتذر عن قتل مشرك، فقال له سعيد: ولو قتلته لكنت على الحق، وكان على الباطل، فتعجب عمر من قوله.

وسعيد هذا كان من أشراف قريش وأجودهم وفصحائهم وهو أحد الذين كتبوا المصحف لعثمان بن عفان، وغزا طبرستان فافتتحها، وغزا جرجان فافتتحها، وانتقضت أذربيجان فغزاها، فافتتحها في قول، وكان كثير الجود والسخاء إذا سأله سائل وليس عنده ما يعطيه، كتب به دينا إلى وقت ميسرته، ولما قتل عثمان رضى الله عنه، التزم بيته واعتزل الفتنة، فلم يشهد الجمل ولا صفين، وعاتبه معاوية بن أبى سفيان فاعتذر، فقبل معاوية عذره وتكاثر المؤلبون بالكوفة.

قدم سعيد بن العاص الكوفة، فجعل يختار وجوه الناس يدخلون عليه، ويسمرون عنده، وسمر عنده ليلة وجوه أهل الكوفة منهم: مالك بن كعب الأرحبى، والأسود بن يزيد، وعلقمة بن قيس النخعيان، وفيهم مالك الأشتر، ومعه رجال، قال سعيد: إنما هذا السواد بستان لقريش، فقال الأشتر: أتزعم أن السواد الذى أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك؟ والله ما يزيد أوفاكم فيه نصيبا إلا أن يكون كأحدنا، وتكلم معه القوم، قال عبد الرحمن الأسدى - وكان على شرطة سعيد -: أتردون على الأمير مقالته؟ وأغلظ لهم، قال الأشتر: من هاهنا لا يفوتنكم الرجل، فوثب رجال الأشتر على عامل الشرطة فوطئوه وطا شديدا حتى غشى عليه، ثم جر برجله فألقى فنضح بماء فأفاق، فقال له سعيد: أبك حياة؟ فقال: قتلنى من أنتخبت - زعمت - للإسلام، فقال: والله لا يسمر منهم عندى أحد أبدا.

فجعلوا يجلسون فى مجالسهم وبيوتهم يشتمون عثمان وسعيد، واجتمع الناس إليهم حتى كثر من يختلف إليهم، فكتب سعيد إلى عثمان يخبره بذلك، ويقول: إن رهطا من أهل الكوفة - سماهم له عشرة - يؤلبون ويجتمعون على عيبك وعيبى، والطعن فى ديننا، وخشيت إن ثبت أمرهم أن يكثروا، فكتب عثمان إلى سعيد: سيرهم إلى معاوية، ومعاوية يؤمئذ على الشام، فسيرهم - وهم تسعة نفر - إلى الشام لمعاوية، وفيهم مالك الأشتر، وثابت بن قيس بن منقع، وكميل بن زياد النخعى، وصعصعة بن صوحان، فقال صعصعة لمعاوية: فإن احترقت الجنة - يقصد بالجنة قريش

التى يحتمون بها - أفليس يخلص إلينا؟ قال معاوية: إن الجنة لا تخترق، فضع أمر قريش على أحسن ما يحضرك.

وعاد إليهم معاوية فى الليلة القابلة، وجعل يذكرهم فقال فيما يقول: إنى والله ما آمركم بشىء إلا قد بدأت فيه بنفسى، وأهل بيتى وخاصتى، وقد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها إلا ما جعل الله لنبيه نبى الرحمة ﷺ، فإن الله أنتخبه وأكرمه، فلم يخلق فى أحد من الأخلاق الصالحة شيئا إلا اصطفاه الله بأكرمها وأحسنها، ولم يخلق من الأخلاق السيئة فى أحد إلا أكرمه والله عنها ونزهه، وإنى لأظن أن أبا سفيان لو ولد الناس لم يلد إلا حازما، قال صعصعة: كذبت، قد ولدهم من هو خير من أبى سفيان من خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه وأمر الملائكة فسجدوا له، فكان فيهم البر والفاجر، والأحمق والكيس.

فخرج معاوية تلك الليلة من عندهم، ثم أتاهم الليلة القابلة، فتحدث عندهم طويلا، ثم قال: أيها القوم، ردوا على خيرا، أو اسكتوا، وتفكروا، وانظروا فيما ينفعكم، وينفع أهليكم، وينفع عشائركم، وينفع جماعة المسلمين فاطلبوه تعيشوا ونعش بكم، فقال صعصعة: لست بأهل ذلك، ولا كرامة لك أن تطاع فى معصية الله! فقال معاوية: أو ليس ما ابتدأتكم به أن أمرتكم بتقوى الله وطاعته، وطاعة نبيه ﷺ، وأن تعتصموا بحبله جميعا ولا تفرقوا.

قالوا: بل أمرت بالفرقة وخلاف ما جاء به النبى ﷺ، قال معاوية: فإنى آمركم الآن، إن كنت فعلت فأتوب إلى الله، وآمركم بتقواه وطاعته، وطاعة نبيه ﷺ، ولزوم الجماعة، وكراهة الفرقة، وأن توقروا أئمتكم، وتدلوهم على كل حسن ما قدرتم، وتغطوهم فى لين ولطف فى شىء أن كان منهم، فقال صعصعة: فإنا نأمرك أن تعتزل عملك! فإن فى المسلمين من هو أحق به منك! قال معاوية: من هو؟ قال صعصعة: من كان أبوه أحسن قدما من أبيك، وهو بنفسه أحسن قدما منك فى الإسلام، قال معاوية: والله إن لى فى الإسلام قدما، وكان غيرى أحسن قدما منى، ولكنه

ليس فى زمانى أحد أقوى على ما أنا فيه منى! ولقد رأى ذلك عمر بن الخطاب، فلو كان غيرى أقوى منى، ولم يكن لى عند عمر هوادة لى ولا لغيرى، ولم أحدث من الحدث ما ينبغى لى أن أعتزل عملى، ولو رأى ذلك أمير المؤمنين، وجماعة المسلمين لكتب إلى بخط يده فاعتزلت عمله، ولو قضى الله أن يفعل ذلك لرجوت ألا يعزم له على ذلك إلا وهو خير، فمهلا، فإن فى ذلك وأشباهه، ما يتمنى الشيطان ويأمر، ولعمرى لو كانت الأمور تقضى على رأيكم وأمانيكم، ما استقامت الأمور لأهل الإسلام يوما ولا ليلة، ولكن الله يقضيها ويدبرها، وهو بالغ أمره، فعاودوا الخير، وقولوه!.

فقالوا: لست لذلك أهلا! فقال معاوية: أما والله إن لله لسطوات ونقمات، وإنى لخائف عليكم أن تسيروا فى مطاوعة الشيطان حتى تحلكم مطاوعة الشيطان ومعصية الرحمن دار الهوان، من انتقام الله فى عاجل الأمر، والخزى الدائم فى الآجل، فوثبوا عليه، فأخذو برأسه ولحيته، فقال معاوية: مه، إن هذه ليست بأرض الكوفة، والله لو رأى أهل الشام ما صنعتم بى وأنا إمامهم ما ملكت أن أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم، فلعمرى إن صنيعكم ليشبه بعضه بعضا.

ثم قام من عندهم، فقال: والله لا أدخل عليكم مدخلا ما بقيت، ثم كتب إلى عثمان:

بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من معاوية بن أبى سفيان، أما بعد يا أمير المؤمنين، فإنك بعثت إلى أقواما يتكلمون بألسنة الشياطين، وما يلمون عليهم، ويأتون الناس - زعموا - من قبل القرآن، فيشبهون على الناس، وليس كل الناس يعلم ما يريدون، وإنما يريدون فرقة، ويقربون فتنة، قد أثقلهم الإسلام وأضجرهم، وتمكنت رقى الشيطان من قلوبهم، فقد أفسدوا كثيرا من الناس ممن كانوا بين ظهرانيهم من أهل الكوفة، ولست آمن إن أقاموا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحرهم وفجورهم، فارددهم إلى مصرهم، فلتكن دارهم فى مصرهم الذى نجم فيه

نفاقهم والسلام.

فكتب إليه عثمان يأمره: أن يردهم إلى سعيد بن العاص بالكوفة، فردهم إليه، فلم يكونوا إلا أطلق ألسنة منهم حين رجعوا.

أرأيت إلى هذا الحوار الممتع بين معاوية وبين هؤلاء المتمردين على السلطة القرشية رغم ما يتخلل هذا الحوار من شراسة وضراوة من طرف، وما يقابلة من حلم وصبر ورفق وحزم وشدة من معاوية.

أرأيت كيف أن معاوية لم يستطع، وهو من هو دهاء وحيلة وسعة صدر وحلم وحزم وعزم وقوة لم يحتمل هؤلاء الناس فى ولايته، وهو أقرب للبصرة من عثمان بالمدينة، ومعاوية هو الوالى القوى الفتى الذى لو كان بينه وبين الناس شعرة ما انقطعت على حد تعبيره هو.

نقول هذا وهو حق.. لنتعرف على الظروف والمناخ السياسى المتفجر الذى كان يواجهه عثمان رضى الله عنه، وهو الشيخ السخى الودود الحيى الذى لا يميل للعنف، ولم يقتل بيده طوال حياته أحدا من المشركين، وبالتأمل فى اللوحة السابقة نضع أيدينا على بعض الأشياء البارزة فيه:

حرية الرأى إلى المدى الذى يتجاوز هذه الحرية إلى حد الوثوب على الوالى وشد لحيته، فى عقر داره.

سعة صدر معاوية الذى يبدو وكأنه لا يغضب، ويناقش ويرد على كل اتهاماتهم له بطريقه تثير العجب والإعجاب.

يلمح معاوية بقدرته على تولى الخلافة العامة على المسلمين، فليس فى زمانه أقوى منه على ما بيده حتى على بن أبى طالب رضى الله عنه.

يقر بأفضلية على فى السبق إلى الإسلام فقط.

لا يرفع أحدا على أبى سفيان إلا رسول الله ﷺ بل يبالغ، فيقول: إن أبا سفيان لو ولد الناس ما ولد إلا حازما.

يشرح انطباعاته عن هؤلاء المتمردين، ويختم خطابه بصيغة الأمر للخليفة

قائلا: فأرددهم إلى مصرهم، وما كان يقدر أن يخاطب عمر بهذه اللهجة.

قال عبد الله بن عباس: ماشيت عمر بن الخطاب يوما فقال له: يا ابن عباس، ما يمنع قومكم منكم، وأنتم أهل البيت خاصة؟ قال ابن عباس: لا أدرى، قال عمر: لكننى أدرى إنكم فضلتموهم بالنبوة، فقالوا: إن فضلوا بالخلافة مع النبوة، لم يبقوا لنا شيئا، وإن أفضل النصيبين - أى النبوة - بأيديكم بل ما أخالها إلا مجتمعة لكم، وإن نزلت على رغم أنف قريش.

فلما أحدث عثمان ما أحدث.. من تأمير الأحداث - صغار السن - من أهل بيته على الجلة من أصحاب محمد.

قيل لعبد الرحمن: هذا عملك، قال: ما ظننت هذا، ثم مضى ودخل على عثمان وعاتبه، وقال له: إنما قدمتك على أن تسير فينا بسيرة أبى بكر وعمر فخالفتهما، وحابيت أهل بيتك، وأوطأتهم رقاب المسلمين، قال عثمان: إن عمر كان يقطع قرابته فى الله، وأنا أصل قرابتى فى الله، قال عبد الرحمن: لله على ألا أكلمك أبدا، فلم يكلمه أبدا حتى مات، ودخل له عثمان عائدا له فى مرضه، فتحول عنه إلى الحائط و لم يكلمه.

ومما نقم الناس على عثمان:

قيل أنه: آوى طريد رسول الله ﷺ، وهو الحكم بن أبى العاص و لم يؤوه أبو بكر ولا عمر، وأعطاه مائة ألف.

سير أبا ذر إلى الربذة.

سير عامر بن عبد قيس من البصرة إلى الشام.

طلب منه عبيد الله بن خالد بن أسيد صلة، فأعطاه أربعمائة ألف.

تصدق رسول ﷺ بمهزون - موضع سوق المدينة- على المسلمين، فأقطعها الحارث بن الحكم أخا مروان.

أقطع فدك، مروان بن الحكم، وهى صدقة لرسول الله ﷺ.

افتتح إفريقية وأخذ خمسه فوهبه لمروان. فقال عبد الرحمن بن جعل الجمحى فيه:

فأحلف بالله رب الأنام ما ترك الله شيئا سدى
ولكن خلقت لنا فتنة لكى نبتلى بك أو تبتلى
فإن الأمينين قد بينا منارا الحق عليه الهدى
فما أخذا درهما غيلة وما تركا درهما فى هوى
وأعطيت مروان خمس العباد هبات ثناؤك ممن تشا

يتكشف لنا صدق إحساس عبد الرحمن بن عوف بأن من يأتى بعد عمر ابن الخطاب لا يرضى عنه أحد.

ما قال أصحاب الرسول:

عن عبد الله بن حكيم، قال: لا أعين على دم خليفة أبدا بعد عثمان، قال فيقال له: يا أبا معبد، أو أعنت على دمه؟ فقال: إنى لأعد ذكر مساويه عونا على دمه.

وعن ابن عباس، قال: لو أجمع الناس على قتل عثمان لرموا بالحجارة كما رمى قوم لوط.

عن ميمون بن مهران، قال: لما قتل عثمان، قال حذيفة: فتق فى الإسلام فتق لا يرتقه جبل.

لما بلغ ثمامة بن عدى قتل عثمان، وكان أميرا على صنعاء، وكانت له صحبة، بكى فطال بكاؤه، ثم قال: هذا حين أنزعت خلافة النبوة من أمة محمد وصار ملكا وجبرية، من غلب على شيء أكله.

وقال حسان بن ثابت:

من سره الموت صرفا لامزاج له فليأت مأدبة فى دار عثمانا
ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحا وقرآنا
صبرا فدى لكم أمى وما ولدت قد ينفع الصبر فى المكروه أحيانا

لتسمعن وشيكا فى ديارهم   الله أكبر يا ثارات عثمانا

بعض مناقبه: الحياء..

عن عائشة أم المؤمنين، أن رسول الله كان جالسا كاشفا عن فخذه، فاستأذن أبو بكر فأذن له، وهو على حاله، ثم استأذنه عمر، وهو على حاله، ثم استأذن عثمان فأرخى عليه ثيابه، فلما قاموا قلت: يا رسول الله، استأذن عليك أبو بكر وعمر، فأذنت لهما وأنت على حالك، فلما استأذن عليك عثمان أرخيت عليك ثيابك، فقال: «يا عائشة، ألا أستحى من رجل والله إن الملائكة لتستحيى منه». مسلم.

عن أبى سعيد الخدرى، قال: رأيت رسول الله من أول الليل إلى أن طلع الفجر رافعا يديه يدعو لعثمان: «اللهم عثمان، رضيت عنه فارض عنه».

عن أبى موسى، أنه كان مع النبى فى حائط - بستان - من حيطان المدينة - بساتين المدينة - فجاء رجل يستفتح، فقال النبى: «افتح له وبشره بالجنة»، فإذا هو أبو بكر ففتحت له وبشرته بالجنة، ثم استفتح رجل آخر فقال: «افتح له وبشره بالجنة»، فإذا عمر ففتحت له وبشرته بالجنة، ثم استفتح رجل آخر، وكان متكئا فجلس، فقال: «افتح له وبشرة بالجنة على بلوى تصيبه أو تكون»، فإذا عثمان، ففتحت له وبشرته بالجنة، فأخبرته بالذى قال، فقال: الله المستعان.

وهناك من كان يسيئ الظن بعثمان رضى الله عنه.

عن عثمان بن وهب، قال: جاء رجل من أهل مصر حجج البيت، فرأى قوما جلوسا، فقال: من هؤلاء؟ قالوا: قريش، قال: فمن الشيخ فيهم؟ قالوا: عبد الله بن عمر، قال: يا ابن عمر، إنى سائلك عن شيء فحدثنى، هل تعلم أن عثمان فر يوم أحد؟ قلت: نعم، قال: هل تعلم أنه تغيب عن بدر و لم يشهدها؟ قلت: نعم، قال: هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان و لم يشهدها؟ قلت: نعم، قال الرجل: الله أكبر، قال ابن عمر: تعال أبين

لك، أما فراره يوم أحد، فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له، وأما تغيبه عن بدر، فإنه كانت تحته ابنة رسول الله، وكانت مريضة، فقال له الرسول: «لك أجر رجل ممن شهد بدرا»، وضرب له سهما، وأما تغيبه عن بيعة الرضوان، فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، فبعث رسول الله عثمان، وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله بيده اليمنى: «هذه يد عثمان»، فضرب بها على يده، فقال: «هذه لعثمان»، فلم تكن يد بايعت أفضل من يد رسول الله.

موقفه من إعداد جيش العسرة:

خطب النبى فحث على جيش العسرة، فقال عثمان: على مائة بعير بأحلاسها وأقتابها، ثم نزل الرسول مرقاه من المنبر، ثم حث على التطوع، فقال عثمان: على مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها، ثم نزل الرسول مرقاة أخرى من المنبر، ثم حث فقال عثمان: على مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها، قال عبد الرحمن بن خباب السلمي: فرأيت النبى ﷺ يقول بيده يحركها: «ما على عثمان ما عمل بعد هذا». رواه عبد الله ابن الأمام أحمد.

وعن الزبير بن عبد الله، عن جدة له يقال لها: رهيمة، قالت: كان عثمان يصوم الدهر، ويقوم الليل إلا هجعة من أوله.

وقالت امرأة عثمان حين قتل: قتلتموه، وإنه ليحيى الليل كله بالقرآن، وقالت امرأته حين أطافوا يريدون قتله: إن تقتلوه أو تتركوه، فإنه كان يحيى الليل كله فى ركعة يجمع فيها القرآن.

التواضع رغم الثراء:

سؤل الحسن عن القائلين «المقيمين بالمسجد وقت القيلولة» فى المسجد، فقال: رأيت عثمان بن عفان يقيل فى المسجد، وهو يومئذ خليفة، ويقوم وأثر الحصى بجنبه، فنقول: هذا أمير المؤمنين.

وعنه قال: رأيت عثمان نائما فى المسجد، ورداؤه تحت رأسه، فيجئ

الرجل فيجلس إليه، ثم يجيئ الرجل فيجلس إليه، كأنه أحدهم.

وعن سليمان بن موسى: أن عثمان بن عفان دعى إلى قوم كانوا على أمر قبيح، فخرج إليهم فوجدهم قد تفرقوا، ورأى أمر قبيحا، فحمد الله إذ لم يصادفهم، وأعتق رقبة.

وعن شرحبيل بن مسلم أن عثمان كان يطعم الناس طعام الإمارة، ويدخل بيته فيأكل الخل والزيت.

وعن الحسن، وذكر عثمان وشدة حيائه، فقال: إن كان ليكون فى البيت والباب عليه مغلق فما يضع الثوب - لا يخلع الثوب - ليفيض عليه الماء يمنعه الحياء أن يقيم صلبه.

عن الزبير بن عبد الله، قال: حدثتنى جدتى أن عثمان بن عفان كان لا يوقظ أحدا من أهله من الليل إلا أن يجده يقظانا فيدعوه، فيناوله وضوءه، وكان يصوم الدهر.

عن أبى عمر رضى الله عنهما: أن جهجاه الغفارى قام إلى عثمان رضى الله عنه وهو على المنبر يخطب، فأخذ العصا من يده وضرب بها ركبته، وشق ركبة عثمان، وانكسرت العصا، فما حال الحول على جهجاه حتى أرسل الله فى يده الآكلة - داء فى العضو يتآكل منه - فمات منها.

أخرج ابن أبى الدنيا عن عبد الله بن سلام، قال: أتيت عثمان رضى الله عنه، لأسلم عليه وهو محصور - محاصر فى بيته - فدخلت عليه، فقال: مرحبا بأخى، رأيت رسول الله ﷺ الليلة فى هذه الخوخة باب صغير كالنافذة الكبيرة وتكون بين بيتين ينصب عليها باب - فقال الرسول: يا عثمان، حصروك؟ قلت: نعم، قال: عطشوك؟ قلت: نعم، فأدلى دلوا فيه ماء، فشربت حتى رويت، حتى أنى لأجد برده بين ثديى وبين كتفى، وقال لى: إن شئت نصرت عليهم، وإن شئت أفطرت عندنا، فاخترت أن أفطر عنده، فقتل ذلك اليوم.

عن ابن عباس، في هذه الآية: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

قال: نزلت في عشرة: أبي بكر، عمر، عثمان، علي، طلحة، الزبير، سعد بن أبي وقاص، عبد الرحمن بن عوف، سعيد بن زيد، عبد الله بن مسعود.

ويلاحظ أن هذه الآية تتعلق بالآخرة، وجاء فيها أن عمران بن طلحة دخل على علي واستأذن الأشتر على علي فحبسه - أي لم يسمح له - ثم أذن له، فلما دخل قال: إني لا أراك إنما حبستني لهذا؟ قال علي: أجل، قال الأشتر: إني لأراه لو كان عندك ابن لعثمان لحبستني، قال علي: أجل، إني لا أرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾.

وقيل أيضا: إنه كان رجلان جالسين إلى ناحية البساط، فقالا: الله أعدل من ذلك تقتلهم بالأمس وتكونون إخوانا، فقال علي: قوما أبعد أرض وأسحقها، فمن هم إذن إن لم أكن أنا وطلحة، أو أنا وعثمان؟.

وعن مطرف قال: لقيت عليا، عليه السلام، فقال لي: يا أبا عبد الله، ما بطأ بك عنا؟ أحب عثمان؟ أما لئن قلت ذاك، لقد كان أوصلنا للرحم، وأتقانا للرب تعالى.

وعن الحسن، قال: لقد رأيت الذين قتلوا عثمان تحاصبوا في المسجد حتى ما أبصر أديم السماء، وإن إنسانا رفع مصحفا من حجرات النبي ﷺ، ثم نادى: ألم تعلموا أن محمدا ﷺ قد برئ ممن فرق دينه وكان شيعا؟.

وصية عثمان:

عن العلاء بن الفضل، عن أمه، قال: لما قتل عثمان فتشوا خزائنه، فوجدوا فيها صندوقا مقفلا ففتحوه، فوجدوا فيه ورقه مكتوبا فيها: هذه وصية عثمان: بسم الله الرحمن الرحيم، عثمان بن عفان يشهد أن لا إله إلا

الله وأن محمدا عبده ورسوله، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن الله يبعث من فى القبور ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد، عليها يحيى وعليها يموت، وعليها يبعث إن شاء الله.

آخر خطبة:

ذكر الطبرى آخر خطبة لعثمان فى جماعة: إن الله عز وجل إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة، ولم يعطكموها لتركنوا إليها إن الدنيا تفنى والآخرة تبقى، فلا تبطرنكم الفانية، ولا تشغلنكم عن الباقية، فآثروا ما يبقى على ما يفنى، فإن الدنيا منقطعة، وأن المصير إلى الله، اتقوا الله عز وجل، فإن تقواه جنة من بأسه ووسيلة عنده، واحذروا من الله الغير، والزموا جماعتكم ولا تصيروا أحزابا ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

كيف قتل:

عن محمد بن شهاب الزهرى، قال: قلت لسعيد بن شهاب الزهرى، قال: قلت لسعيد بن المسيب: هل أنت مخبرى كيف قتل عثمان؟ ما كان شأن الناس وشأنه؟ لم خذله أصحاب محمد ﷺ؟ قال سعيد: قتل عثمان مظلوما، ومن قتلة كان ظالما، ومن خذله كان معذورا، قلت: وكيف ذاك؟ قال: إن عثمان لما ولى كره ولايته نفر من أصحاب رسول الله ﷺ، لأن عثمان كان يحب قومه، فولى الناس اثنتى عشرة سنة، وكان كثيرا ما يولى بنى أمية ممن لم يكن له من رسول الله ﷺ صحبة، وكان يجئ من أمرائه ما يكرهه أصحاب محمد، فكان يستعتب فيهم فلا يعزلهم، فلما كان فى الحج الآخرة استأثر بنى عمه فخرجوا فولاهم، وأمرهم بتقوى الله.

تولية عبد الله بن أبى السرح مصر، فمكث عليها سنين، فجاء أهل مصر يشكونه ويتظلمون منه، ومن قبل ذلك كانت من عثمان هنات – أشياء تؤخذ عليه – إلى عبد الله بن مسعود وأبى ذر وعمار بن ياسر، فكانت هزيل وبنو زهرة فى قلوبهم ما فيها لابن مسعود، وكانت بنو غفار

وأحلافها ومن غضب لأبى ذر فى قلوبهم ما فيها، وكانت بنو مخزوم قد حنقت - غضبت - على عثمان بحال عمار بن ياسر، وجاء أهل مصر يشكون من ابن أبى السرح.

فكتب إليه عثمان كتابا يتهدده، فأبى ابن أبى السرح أن يقبل ما نهاه عثمان، وضرب رجلا ممن أتى عثمان فقتله، فخرج من أهل مصر سبعمائة رجل إلى المدينة، فنزلوا المسجد وشكوا إلى أصحاب رسول الله ﷺ فى مواقيت الصلاة ما صنع ابن أبى سرح، فقام طلحة بن عبيد الله فكلم عثمان بكلام شديد، وأرسلت إليه عائشة: قد تقدمت إليك أصحاب رسول الله ﷺ وسألوك عزل هذا الرجل، فأبيت أن تعزله، فهذا قد قتل منهم رجلا، فانصفهم من عاملك، ودخل عليه على، وكان متكلم القوم، فقال: إنما سألوك رجلا مكان رجل، وقد ادعوا قبله دما، فاعزله عنهم، واقض بينهم، وإن وجب عليه حق فانصفهم منه، فقال لهم: اختاروا رجلا أوله عليكم مكانه، فأشار الناس عليه بمحمد بن أبى بكر، فقالوا: استعمل علينا محمد بن أبى بكر، فكتب عهد وولاه، وأخرج معهم عدة من المهاجرين والأنصار ينظرون فيما بين أهل مصر، وابن أبى سرح فخرج محمد ومن معه.

الغلام الأسود: لما كان على ثلاثة أيام من المدينة إذا هم بغلام أسود على بعير يخبط الأرض خبطا، كأنه رجل يطلب أو يطلب، فقال له أصحاب محمد: ما قصتك وما شأنك؟ كأنك هارب أو طالب؟ فقال: أنا غلام أمير المؤمنين، وجهنى إلى عامل مصر، فقالوا: وهذا عامل مصر معنا، قال: ليس هذا أريد، وأخبر بأمر هذا الغلام محمد بن أبى بكر، فبعث فى طلبه فأتى به، قال له: غلام من أنت؟ تلجلج الغلام مرة يقول غلام أمير المؤمنين، ومرة غلام مروان، حتى عرفه رجل منهم إنه لعثمان، قال له محمد: إلى من أرسلت؟ قال الغلام: إلى عامل مصر، قال: بماذا؟ قال: برسالة، قال: معك كتاب؟ قال: لا، ففتشوه فلم يوجد معه شىء إلا إداوة قد يبست فيها شىء يتلقلق، فحركوه ليخرج فلم يخرج فشقوا الإداوة، فإذا

فيها كتاب من عثمان إلى ابن أبى سرح كتاب إلى ابن سرح؟.

جمع محمد بن أبى بكر من كان معه من المهاجرين والأنصار وغيرهم. ثم فك الكتاب بمحضر منهم، فإذا فيه: إذا جاءك محمد وفلان وفلان، فاحتل لقتلهم، وأبطل كتابهم، وقر على عملك حتى يأتيك رأيى واحتبس من جاء يتظلم منك ليأتيك فى ذلك رأيى إن شاء الله.

فلما قرءوا الكتب فزعوا وعزموا على الرجوع إلى المدينة، وختم محمد الكتاب بخواتم القوم الذين أرسلوا معه، ودفعوا الكتاب إلى رجل منهم.

الحصار:

قدموا المدينة، فجمعوا عليا وطلحة والزبير وسعدا، ومن كان من أصحاب رسول الله ﷺ وأخبروهم بقصة الكتاب والغلام، فلم يبق أحد فى المدينة إلا حنق على عثمان، وازداد من كان منهم غاضبا لابن مسعود، وأبى ذر، وعمار بن ياسر غضبا وحنقا، وحاصر الناس عثمان، وأجلب عليه محمد بن أبى بكر تميم وغيرهم، وأعانه طلحة بن عبيد الله على ذلك، وكانت عائشة تقرضه كثيرا.

مواجهة الخليفة المحاصر:

بعث على إلى طلحة والزبير وسعد وعمار ونفر من الصحابة كلهم بدرى - حضروا بدرا - ثم دخل على عثمان ومعه الكتاب والغلام والبعير، قال على: هذا الغلام غلامك؟ والبعير بعيرك؟ والخاتم خاتمك؟ قال عثمان: نعم، قال على: فأنت كتبت الكتاب، قال: لا، وحلف بالله ما كتبت ولا أمرت به ولا وجهت الغلام إلى مصر قط، وأما الخط فعرفوا أنه خط مروان؟ وشكوا فى أمر عثمان، وسألوه أن يدفع إليهم مروان، فأبى، وكان مروان عنده فى الدار فخرج أصحاب محمد من عنده غضابا، وشكوا فى أمر عثمان وعلموا أنه لا يحلف باطلا.

المطالبة بمروان بن الحكم:

قال المحاصرون للدار: لا نبرئ عثمان إلا أن يدفع إلينا مروان، حتى نمتحنه ونعرف أمر هذا الكتاب، وكيف يأمر بقتل رجال من أصحاب محمد ﷺ بغير حق؟ فإن يك عثمان كتبه عزلناه، وإن يك مروان كتبه على لسانه نظرنا فى أمره ولزموا بيوتهم، وأبى عثمان أن يخرج إليهم مروان، وخشى عليه القتل، وحاصر الناس عثمان، ومنعوه الماء.

ما قيل فى الخلع:

عن عبد الله بن عمر، قال: قال لى عثمان وهو محصور فى الدار: ما ترى فيما أشار به على المغيرة بن الأخنس؟ قلت: ما أشار به عليك، قال: إن هؤلاء القوم يريدون خلعك، فإن خلعت تركوك، وإن لم تخلع قتلوك.

قال عبد الله بن عمر: أرأيت إن خلعت تترك مخلدا فى الدنيا؟ قال عثمان: لا، قال ابن عمر: هل يملكون الجنة والنار؟ قال: لا، قال ابن عمر: أرأيت إن لم تخلع يزيدون على قتلك؟ قال: لا، قال ابن عمر: فلا أرى أن تسن هذه السنة فى الإسلام كلما سخط قوم على أميرهم خلعوه، لا تخلع قميصا قمصكه الله.

عثمان يسأل عما يقول الناس:

بعث عثمان رجلا، فقال له: سل وانظر ما يقول الناس، قال: سمعت بعضهم يقول: قد حل دمه، قال: ما يحل دم امرئ إلا فى ثلاث لست منهم.

رفض الاستعانة بالأنصار:

جاء زيد بن ثابت إلى عثمان، فقال: هذه الأنصار بالباب يقولون: إن شئت كنا أنصار الله مرتين، قال عثمان: أما القتال فلا، إن أعظمكم عنى غناء رجل كف يده وسلاحه، وقال عثمان لأبى هريرة: يا أبا هريرة، أيسرك أن تقتل الناس جميعا وإياى، قال أبو هريرة: لا، قال: فإنك والله إن

قتلت رجلا واحدا فكأنما قتلت الناس جميعا، قال أبو هريرة: فرحت، ولم أقاتل.

عثمان لم يستحل دماء قاتليه:

عن عبد الله بن الزبير، وكان عثمان أمره على الدار، قال عبد الله بن الزبير لعثمان: قاتلهم، فوالله لقد أحل الله لك قتالهم، قال عثمان: لا والله لا أقاتلهم أبدا، فدخلوا عليه وهو صائم، قال ابن الزبير: إن معك يا أمير المؤمنين عصابة فى الدار مستنصرة بنصر الله، بألف منهم لعثمان فأذن لى فلأقاتل، قال عثمان: أنشدك الله رجلا أهراق فى دمه، وكان مع عثمان فى الدار يومئذ سبعمائة لو يدعهم لضربوهم إن شاء الله حتى يخرجوهم من أقطارها، فيهم ابن عمر، والحسن بن على، والحسين، وعبد الله بن الزبير.

وأشرف عثمان من القصر وهو محصور، فقال: أنشد بالله من شهد رسول الله ﷺ يوم حراء إذ اهتز الجبل فركضه بقدمه، ثم قال: «اسكن حراء ليس عليك إلا نبى، أو صديق، أو شهيد»، وأنا معه فانتشد له رجال قالوا: نعم حدث هذا. قال: أنشد بالله من سمع رسول الله ﷺ قال: «من يوسع لنا بهذا البيت فى المسجد له بيت فى الجنة؟» فابتعته من مالى، فوسعت به المسجد؟ فانتشد له رجال - فصدقه رجال - قال: أنشد بالله، من شهد رسول الله ﷺ يوم بيعه الرضوان، إذ بعثنى إلى المشركين من أهل مكة، قال: «هذه يدى وهذه يد عثمان»، فبايع، فانتشد له رجال، قال: وأنشد بالله، من شهد رسول الله ﷺ يوم جيش العسرة، قال: «من ينفق نفقه متقبلة؟» فجهزت نصف الجيش من مالى، فانتشد له رجال، قال: وأنشد بالله، من شهد بئر رومة يباع ماؤها لابن السبيل، فابتعتها من مالى، فأبحتها ابن السبيل، فانتشد له رجال، ونظر عثمان إلى محاصريه، وقال: إنهم يتوعدوننى بالقتل ولم يقتلونى؟ وقد سمعت رسول الله يقول: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا فى إحدى ثلاث: رجل كفر بعد إيمانه، أو زنى بعد

إحصانه، أو قتل نفسا بغير نفس»، فو الله ما زنيت فى جاهلية ولا إسلام قط، ولا تمنيت أن لى بدينى بدلا منذ هدانى الله، ولا قتلت نفسا، ففيم يقتلونى؟.

يا قوم لا تقتلونى، فإنى وال وأخ مسلم، فوالله إن أردت إلا الإصلاح ما استطعت، أصبت أم أخطأت، وإنكم إن تقتلونى، لا تصلوا جميعا أبدا، ولا تغزو جميعا أبدا، ولا يقسم فيؤكم بينكم، أنشدكم الله، هل دعوتم عند وفاة أمير المؤمنين بما دعوتم به، وأمركم جميعا لم يتفرق،. وأنتم أهل دينه وحقه، فتقولون: إن الله لم يجب دعوتكم، أم تقولون هان الدين على الله، أم تقولون إنى أخذت هذا الأمر بالسيف والغلبة، ولم آخذه عن مشورة المسلمين، أم تقولون إن الله لم يعلم من أول أمرى شيئا لم يعلمه من آخره؟ فلما أبوا، قال: اللهم أحصهم عددا، وأقتلهم بددا، ولا تبق منهم أحدا.

قال مجاهد: فقتل الله منهم من قتل فى الفتنة، وبعث يزيد إلى المدينة عشرين ألف فأباحوا المدينة ثلاثا يصنعون بها ما شاءوا لمداهنتهم.

عن أبى سعيد، مولى عثمان بن عفان، قال: إن عثمان أعتق عشرين مملوكا وهو محصور، ودعا بسراويل فشدها عليه ولم يلبسها فى جاهلية، ولا إسلام، وقال: إنى رأيت رسول الله البارحة فى المنام، ورأيت أبا بكر وعمر، وقالوا لى أصبر: فإنك تفطر عندنا القابلة.

وعن عائشة أن النبى ﷺ، قال: «يا عثمان، إنه لعل الله يقمصك قميصا، فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه لهم».

وعن ابن عباس، أن النبى ﷺ قال لعثمان: «تقتل وأنت مظلوم وتقطر قطرة من دمك على ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ ».

وقال رسول الله فى مرضه: «وددت أن عندى بعض أصحابى»، قالت عائشة: يا رسول الله، أدعو لك أبا بكر؟ فسكت، قلت: أدعو لك عمر؟ فسكت، فعرفت أنه لا يريده، فقلت: أدعو لك ابن عفان؟ قال: «نعم»، فلما جاء، أشار إلى رسول الله أن تباعدى، فجاء عثمان فجلس إلى النبى

فجعل رسول الله يقول له، ولون عثمان يتغير، فلما كان يوم الدار قيل لعثمان: ألا تقاتل؟ فقال: إن رسول الله عهد إلى عهدا، وإنى صابر عليه، فيرون أنه ذلك اليوم.

موقف على يوم الدار:

يعرض استعداده للقتال، وعثمان يرفض،

عن شداد بن أوس، قال: لما اشتد الحصار بعثمان يوم الدار أشرف على الناس، فقال: يا عباد الله، فرأيت على بن أبى طالب خارجا من منزله، معتما بعمامة رسول الله ﷺ، فتقلدوا سيفه أمامه الحسن، وعبد الله بن عمر فى نفر من المهاجرين والأنصار، حتى حملوا على الناس وفرقوهم، ثم دخلوا على عثمان، فقال على: السلام عليك يا أمير المؤمنين، إن رسول الله ﷺ لم يلحق هذا الأمر حتى ضرب بالمقبل المدبر، وإنى لا أرى القوم إلا قاتليك، فمرنا فلنقاتل، فقال عثمان: أنشد الله رجلا رأى لله حقا، وأقر أن لى عليه حقا أن يهريق فى سببى ملء محجمة من دم، أو يهريق دمه فى، فأعاد عليه على القول، فأجابه بمثل ما أجابه، ثم دخل المسجد وحضرت الصلاة، فقالوا: يا أبا الحسن، تقدم فصل بالناس، فقال: لا أصلى بكم والإمام محصور، ولكن أصلى وحدى، فصلى وحده، وانصرف إلى منزله؟.

وفى البحث عن قتلته:

سأل على امرأة عثمان، فقالت: لا أدرى إلا أن دخل عليه محمد بن أبى بكر ومعه رجلان لا أعرفهما فدعا على محمدا، وسأله فقال: والله لم تكذب، دخلت عليه وأنا أريد قتله، فذكر لى أبى فقمت عنه، وأنا تائب إلى الله.

وخرج سعد بن أبى وقاص حتى دخل على عثمان رحمة الله عليه وهو محصور، ثم خرج من عنده فرأى عبد الرحمن بن عديس، ورأى مالكا بن الأشتر، وحكيم بن جبلة، فصفق بيديه إحداهما على الأخرى، ثم استرجع، ثم أظهر الكلام، فقال: والله إن أمرا هؤلاء رءوساءه لأمر سوء، ولما منعوه

الماء أشرف عليهم، فقال: أفيكم على؟ قالوا: لا، قال: فيكم سعد؟ قالوا: لا، فسكت، ثم قال: ألا أحد يبلغ عليا، فيسقينا ماء، فبعث إليه ثلاث قرب مملوءة ماء، فما كادت تصل إليه.

وجرح من سببها عدة من موالى بنى هاشم، وبنى أمية حتى وصل إليه الماء، فبلغ عليا أن عثمان يراد قتله، فقال للحسن والحسين: اذهبا بسيفكما حتى تقوما على باب عثمان، فلا تدعا أحدا يصل إليه بمكروه، وبعث الزبير ولده، وبعث طلحة ولده على كره منه، وبعث عدة من أصحاب رسول الله ﷺ أبناءهم ليمنعوا الناس أن يدخلوا على عثمان، وسألوه إخراج مروان، ورمى الناس عثمان بالسهام حتى خضب الحسن بن على بالدماء على بابه، وأصاب مروان سهم فى الدار، وخضب محمد بن طلحة، وشج قنبر مولى على، وخشى محمد بن أبى بكر أن تغضب بنو هاشم لحال الحسن والحسين.

تسلق الجدران إلى عثمان:

أخذ محمد بن أبى بكر بيدى رجلين، فقال لهما: إذا جاءت بنو هاشم فرأوا الدماء على وجه الحسن والحسين كشف الناس عن عثمان – دافع الناس عن عثمان – وبطل ما نريد، ولكن مروا بنا حتى نتسور عليه الدار، فنقتله من غير أن يعلم أحد، فتسور محمد بن أبى بكر وصاحباه من دار رجل من الأنصار، ويقال: من دار محمد بن حزم الأنصارى، قال فيه الأخوص:

لا ترثين لحزمى ظفرت به ... طرا ولو طرح الحزمى فى النار
الناخشين لمروان بذى خشب ... والمدخلين على عثمان فى الدار

فدخلوا عليه، وليس معه إلا امرأته نائلة بنت الفرافصة، والمصحف فى حجره، ولا يعلم أحد ممن كان معه؛ لأنهم كانوا على البيوت، فتقدم إليه محمد وأخذ بلحيته، قال عثمان: أرسل لحيتى يا ابن أخى، لقد قعدت منى مقعدا ما كان أبوك ليقعده، ولو رآك أبوك لساءه مكانك، فاسترخت يده،

وخرج محمد، فدخل عليه رجل، والمصحف فى حجره فقال له: بينى وبينك كتاب الله، فخرج وتركه، ثم دخل عليه آخر، فقال: بينى وبينك كتاب الله، فأهوى إليه بالسيف فألقاه بيده، فقطعها، فقال: أما إنها أول يد خطت المفصل - أجزاء من القرآن.

عن جدة الزبير بن عبد الله، قالت: لما ضرب عثمان بالمشاقص - النصال العريضة - قال: بسم الله توكلت على الله. وإذا الدم يسيل على اللحية يقطر، والمصحف بين يديه فاتكأ على شقه الأيسر وهو يقول: سبحان الله العظيم. وهو فى ذلك يقرأ المصحف، والدم يسيل حتى وقف الدم عند قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]. وأطبق المصحف وضربوه جميعا ضربة واحدة، فضربوه والله - بأبى - وهو يحيى الليل فى ركعة ويصل الرحم، ويطعم الملهوف، ويحمل الكل، فرحمه الله.

لصوص ورب الكعبة:

عن الزهرى، قال: قتل عثمان عند صلاة العصر، وشد عبد لعثمان أسود على كنانه بن بشر فقتله، وشد سودان على العبد فقتله، ودخلت الغوغاء دار عثمان، فصاح إنسان منهم: أيحل دم عثمان ولا يحل ماله، فانتهبوا متاعه، فقامت نائلة - زوجة عثمان - فقالت: لصوص ورب الكعبة، يا أعداء الله، ما ركبتم من دم عثمان أعظم، أما والله لقد قتلتموه صواما قواما يقرأ القرآن فى ركعة، ثم خرج الناس من دار عثمان، فأغلق بابه على ثلاثه قتلى: عثمان، عبد عثمان الأسود، كنانه بن بشر.

واختلف الرواة فى موقف محمد بن أبى بكر:

ذكر بعضهم أنه طعن جبينه بمشقص - نصل أو سهم فى فصل - كان فى يده، وقيل: أنه تركه حين استنصر الله عليه واستعان بالله عليه، وذكره بموقف أبيه منه.

دفاع نائلة عنه:

أرادوا قطع رأس عثمان فوقعت زوجه «نائلة» عليه وأم البنين، وصحن وضربن الوجوه، فقال ابن عديس: اتركوه، وأقبل عمير بن ضابئ فوثب عليه وكسر ضلعا من أضلاعه، وقال: سجنت أبى حتى مات فى السجن.

وبلغ الخبر عليا وطلحة والزبير وسعد، فخرجوا وقد ذهبت عقولهم للخبر حتى دخلوا على عثمان، فقال على لابنيه غاضبا: كيف يقتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب، ورفع يده فلطم الحسن، وضرب الحسين على صدره، وشتم محمد بن طلحة، وعبد الله بن الزبير، وخرج وهو غضبان حتى أتى منزله، فجاء الناس يهرعون إليه يريدون مبايعته، فقال: والله إنى لأستحى من الله تعالى أنا أبايع وعثمان لم يدفن، فافترقوا.

وهكذا نخلص إلى التساؤل.. هل ما حدث من حصار أمير المؤمنين عثمان بن عفان فى داره، وتسلق الجدران للوصول إليه، تسلق الجدران... تسلق الجدران الذى لم يصلح سندا لعمر بن الخطاب لإقامة الدليل على شراب خمر، فيوقع عليهم العقوبة هل يصلح سندا لقتل رجل من عامة المسلمين يتلو كتاب الله؟.

فما بالنا إذا كان الرجل هو عثمان بن عفان ذا النورين الذى تجاوز الثمانين، الذى بشره الرسول بالجنة، الذى والذى والذى..، إلى آخر أوصاف عثمان كما عرفها الرسول، وكما عرفها الصحابة جميعا من بعده، وكما عرفناها نحن عن طرق كل هؤلاء.

ليس الأمر أمر دفاع عن عمال عثمان وولاته، ولكن هل يؤخذ المرء بماضيه إذا تاب وأصلح؟ وهل يظل هذا الماضى سيفا مصلطا على الرقبة لا يهوى على الرقبة إلا وقت الأهواء والفتن؟.

إن عبد الله بن سعد بن أبى سرح فعل ما فعل قبل الفتح، وكان من الذين أمر رسول الله بقتلهم، ولو وجدوا تحت أستار الكعبة لكنه فر إلى عثمان المعروف برقة قلبه وصلة رحمه فغيبه عثمان حتى أتى به إلى رسول

الله ﷺ بعدما اطمأن أهل مكة، وطلب له الأمان فصمت الرسـول طويـلا، ثم أجاب عثمان إلى طلبه، وقال: نعم، فلما انصرف عثمان، قال رسول الله لمن حوله: «ما صمت إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه»، فقال رجل من الأنصار: فهلا أومأت إلى يا رسول الله؟ فقال: «إن النبى لا ينبغى أن يكون له خائنة الأعين».

ونحن معشر المسلمين وغـير المسـلمين، مـن يحـب أن يتـأمل فـى التـاريخ الإسلامى، نستفيد من هذه الصور التى تكشف عن بعض أخـلاق رسـول الله، وأخـلاق الصحابـة التـى وإن بـدت مختلفـة فـى بعـض المواقـف، فإنـها تتجمع فى النهاية لتصب فى أنهار الخير.

وقد رأينا صورا كثيرة لهذه المواقف التى تبدو مختلفة، فقد رأينا عمـر بـن الخطاب يسرع إلى رسول الله ليضرب عنق أبى سـفيان يـوم الفتـح، ورأينـا العباس بن عبد المطلب يطلب الأمان من رسـول الله لأبـى سـفيان، ويوافـق الرسول ويمنحه له، ولا يقاس ما عمله أبو سفيان زعيم قريش بما كـان مـن أمر عبد الله بن أبى سرح.

والحقيقة هى أن الله تعالى استبقى من استبقى، واقتص ممن اقتص، وكـل هذا يدور فى نطاق مشـيئته وحكمتـه: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]

يقول ابن الأثير عن عبد الله بن سعد بن أبى سرح: إنه أسلم ذلك اليوم، فحسن إسلامه، و لم يظهر منه بعد ذلك ما ينكر عليـه، وهـو أحـد العقـلاء الكرماء من قريش، ثم ولاه عثمان بعد ذلـك مصـر سـنة خمـس وعشـرين، ففتح الله على يديه إفريقية، وكـان فتحـا عظيمـا بلـغ سـهم الفـارس ثلاثـة آلاف مثقال، وسهم الراجل ألف مثقال، وشهد معه هذا الفتح عبد الله بـن عمر، وعبد الله بن الزبير.

ويقول ابن الأثير: فلما استعمله عثمان على مصـر، وعـزل عنـها عمـرا، جعل عمرو يطعن على عثمان، ويؤلب عليه ويسعى فى إفساد أمره.

ونرى – والله تعالى أعلم –: أن ما أخذ على عمال عثمان وولاته يعتبر أخف بكثير مما يؤخذ على هؤلاء الثائرين التاركين لأنصارهم المحيطين بالدار، وخاصة المتسلقين، فهذا الذى كان يريد ويراد له أن يكون واليا على مصر، هو الذى حشد الحشود، وفتح أبواب الفتنة على مصاريعها، واصطحب القتلة وقادهم، وتسلق الجدار بهم. وقيل: أنه كان أول طاعن لعثمان، وقيل: أنه استحيا من قول عثمان له: لقد قعدت منى مقعدا ما كان أبوك ليقعده، ولو رآك أبوك لساءه مكانك. أطلق لحيتى يا ابن أخى. وليس مع عثمان إلا امرأته، والمصحف فى حجره.

أما ما قيل عن ضعفه أمام ولاته، وأن معاوية كان يقطع الأمور دونه، ويعلم هو بهذه الأمور فلا يغيرها.

فإنى أقول: إن معاوية بن أبى سفيان لم يغير عليه أحد حتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا لأن معاوية أقوى من عمر، ولا لأن عمر يسهل خداعه، ولكن فى المباحات قدم عمر إلى الشام راكبا على حمار فتلقاه عامله معاوية بن أبى سفيان، فى موكب عظيم! فلما رآه معاوية نزل، وسلم عليه بالخلافة، فمضى عمر فى سبيله، و لم يرد عليه سلامه، فقال له عبد الرحمن بن عوف: أتعبت الرجل يا أمير المؤمنين، فلو كلمته، فالتفت إذ ذاك إلى معاوية وسأله: إنك لصاحب الموكب الذى أرى؟ قال معاوية: نعم، قال: مع شدة احتجابك؟ ووقوف ذوى الحاجات ببابك؟ قال: نعم، قال: و لم ويحك؟ قال معاوية: لأننا ببلاد كثر فيها جواسيس العدو، فإن لم نتخذ العدة والعدد استخف بنا، وهجم علينا، وأما الحجاب، فإننا نخاف من البذلة جرأة الرعية، وأنا بعد عاملك، فإن استنقصتنى نقصت، وإن استزدتنى زدت، وإن استوقفتنى وقفت، قال عمر: ما سألتك عن شىء وإلا خرجت منه.

ونضيف نحن: خروج الشعرة من العجين.

وأضاف عمر: إن كنت صادقا، فإنه رأى لبيب، وإن كنت كاذبا، فإنها

خدعة أديب، لا آمرك، ولا أنهاك.

والذى نستخلص مما قاله عمر لمعاوية، ويثير تساؤلنا هو هل ما رآه عمر على معاوية واستنكره عليه إلى حد الذى جعله لا يرد عليه السلام، وتركه يسير خلفه بزينته التى يراها الجميع وعمر راكبا حماره، هل هذا الذى رآه عمر شيئا حرمه الإسلام؟.

لو كان محرما فى الإسلام ما سكت عليه عمر، وما قال له: لا آمرك ولا أنهاك؛ لأنه يدخل حينئذ على الأقل فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فقوله: لا آمرك، ولا أنهاك، يعنى - والله تعالى أعلم - أن ما رآه عمر من موكب عظيم، ومن اتخاذ الحاجب والحجاب، وغير ذلك إنما يدخل فى نطاق المباحات، ولا يدخل فى دائرة المحرمات، وكلام عمر يشير إلى هذا المعنى حتى لو كان معاوية كاذبا، فإن كان ما قاله خدعة، فإن عمر لم يستنكرها، وإنما وصفها بأنها خدعة أريب أى ذكى، فهذا مدح أيضا لمعاوية، ولا تظن أن عمر رضوان الله عليه كان يسكت على محرم، ولو كان صاحبه أديبا أو أريبا.

بهذه الكلمات أخذ معاوية تصريحا من عمر - على الأقل - بإبقاء الحال على ما هو عليه، وكلمات عمر لابد لها أن تشيع وتذيع، وتتناقلها الألسنة إلى جميع أطراف الدولة الإسلامية، ولا يجد معاوية حرجا فى نقلها بطريقته التى لا تشكل عليه غضب عمر.

بل لعله يجد فيما حدث له سابقة تفرد بها بين عمال عمر، يفخر بها فيما بينه وبين نفسه، فيرضى نزعة فيه موروثة عن أبيه، ولعل الفخر فى المباحات شىء لا يحرمه الإسلام، فقد قال العباس لرسول الله ﷺ بعد إسلام أبى سفيان يوم الفتح: يا رسول الله، إن أبا سفيان يحب الفخر، فامنحه شيئا، فقال الرسول مستجيبا لطلب عمه: «من دخل البيت الحرام فهو آمن، ومن أغلق عليه داره فهو آمن، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن».

إن عمر لم يغير من سلوكه الشخصى شيئا، فهو هو عمر بملابسه المعروفة، وبلا حجاب، إلخ..، أما معاوية وهذا موضع الاستشهاد، فقد خالف جانبا من السلوك العمرى، وفى حياة عمر، فكيف يطلب من عثمان رضى الله عنه أن يقسم أن يسير سيرة عمر؟.

وقد أقسم عثمان، وكان صادقا، وهو يعنى أنه سيجتهد اجتهاد عمر فيما يحتمل الاجتهاد، ويسير سيرة عمر فى البعد عن المحرمات، ومهما قيل فى السياسة المالية لعثمان رضى الله عنه، وفى تعيين أقربائه والاستعانة بهم فى الولايات، فإن الرجل كان صريحا، و لم يفعل شيئا فى الخفاء، وهاهو الإمام على رضى الله عنه يقول: كان عثمان أوصلنا للرحم، وأتقانا للرب.

فهل كان الإمام على يعدها صلة رحم، ومن تقوى الله لو دخلها مال حرام أو مال غله، ونستغفر الله، عثمان من مال المسلمين! إنه اجتهاد إمام عالم تقى ورع سخى وصول للرحم، له سوابق فى العطاء الإسلامى، وفى التبرع لتجهيز الجيش الإسلامى فى غزواته، وهو إلى ذلك حيى تستحى منه الملائكة، ومبشر بالجنة، على بلوى تصيبه، وقد تتعدد صور القتل فى سبيل الله.

فمنهم من يطعن عذرا من الخلف، ومنهم من يقاتل وهو يقاتل بالسيف، ومنهم من يبكى على فراشه؛ لأنه جاهد حتى لم يبق فى جسده مكان إلا وفيه طعنة رمح أو ضربه سيف، ولكنه يموت على فراشه كما يموت البعير على حد قوله: أما أن يحاصر إمام المسلمين فى داره، وفى مقدوره أن يحول دون ذلك، لو أذن برفع السلاح فى وجه المحاصرين، أما أن يمنع عنه الماء وقد تجاوز الثمانين، وهو صائم فلا يأذن بالدفاع عن نفسه بالقوة، ويقول: إن رسول الله عهد إلى عهدا، وإنى صابر عليه، أما أن تتسلق عليه الجدران، ويدخل عليه القتلة، وهو يقرأ القرآن، ويشد لحيته، فيخاطبه باللفظ الرقيق الحبيب يا ابن أخى، أرسل لحيتى لقد قعدت منى مقعدا ما كان أبوك ليقعده، ولو رآك أبوك لساءه مكانك.

أما أن يناشد كل من يرغب فى التصدى للقتلة بالقوة وكل من كان له طاعة عليهم ألا يشهروا سيفًا وألا يريقوا بسببه دماء ويطعنه أحد القتلة على جنبه، فيقول: باسم الله، وتقطع يده، فيشهد الله أن يده يا طالما كتبت من قرآن، وتتوالى الطعنات على الشيخ الصائم الذى كان يتلو القرآن فى ركعته، والذى كان يتلوه حتى سقط شهيدًا، وجرى خيط الدماء على المصحف الذى كان فى حجرة حتى وقف وتجمد عند ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ ليسجل دليلين ثابتين فى وقت واحد:

دليل شجاعة وإصرار على الشهادة، ودليل خسة واحتقار وإدانة لمن أصروا على قتله، وإحداث الفرقة والفتنة بين المسلمين، هذا هو النموذج العثمانى الذى تفرد به عثمان ذو النورين من بين الصحابة أجمعين وربما على مستوى الناس أجمعين لم يسبقه على المستوى الفردى إلا أحد ولدى آدم الذى قال لأخيه: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨].

أما على الصورة التى استشهد عليها، فهذا هو النموذج العثمانى الذى تفرض به راضيا من بين الصحابة أجمعين ذو النورين، ولعله تفرد به على مستوى العالم أجمع، وفى جميع العصور؛ لأنه هو الوحيد الذى يطيقه.

* * *

الإمام على
كرم الله وجهه

«الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار نجـاة لمن فهم عنها، ودار غنـى لمـن تـزود منـها، وهـى مهبط وحى الله، ومصلى ملائكتـه، ومسـجد أنبيائـه ومتجـر أوليائـه، ربحـوا منـها الرحمـة، واحتسبوا فيها الجنة».

علی بن أبی طالب

هو: علی بن أبی طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشی الهاشمی، ابن عم رسول الله ﷺ، واسمه أبی طالب: عبد مناف، وقیل: اسمه کنیته، واسم هاشم: عمرو.

أم علی: فاطمة بنت أسد بن هاشم، کنیة علی: أبو الحسن أخو رسول الله ﷺ، وصهره علی ابنته فاطمة سیدة النساء، وأبو السبطین: الحسن والحسین.

أول هاشمی ولد بین هاشمیین، أول خلیفة من بنی هاشم، أصغر من جعفر وعقیل وطالب، وهو أول الناس إسلاما، فی قول کثیر من العلماء، هاجر إلی المدینة، شهد جمیع المشاهد مع رسول الله ﷺ إلا تبوك، فشهد بدرًا وأحدًا والخندق وبیعة الرضوان، واستبقاه الرسول علی أهله فی غزوة تبوك، له بلاؤه المشهود فی جمیع المواقف.

أعطاه النبی اللواء بیده فی مواطن کثیرة، منها یوم بدر أکثر الغزوات شهرة، علی خلاف.

دفع الرسول ﷺ إلیه اللواء یوم أحد بعد مقتل مصعب بن عمیر، آخاه الرسول ﷺ مرتین حین آخی بین المهاجرین مرة، ثم آخی بین المهاجرین والأنصار بعد الهجرة، وقال له فی کل واحدة منهما: «أنت أخی فی الدنیا والآخرة».

إسلامه:

روی أنه جاء بعد إسلام خدیجة بیوم، فرآها تصلی مع رسول الله ﷺ، فقال: یا محمد، ماهذا؟ قال: «دین الله الذی اصطفی لنفسه، وبعث به رسله، فأدعوك إلی الله وإلی عبادته، وأن تکفر باللات والعزی». قال علی:

هذا أمر لم أسمع به من قبل، فلست بقاض أمرًا حتى أحدث أبا طالب، وكره الرسول ﷺ أن يفشى عليه سره قبل أن يستعلن أمره، فقال له: «يا على، إن لم تُسلِم فاكتم». فمكث علىّ تلك الليلة، فأوقع الله فى قلبه الإسلام، فأصبح غاديًا إلى رسول الله ﷺ حتى جاءه، فقال: ماذا عرضت علىَّ يا محمد؟ فقال له رسول الله ﷺ: «تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وتكفر باللات والعزى، وتبرأ من الأنداد».

ففعل على وأسلم، وكتم إسلامه، ومكث يأتيه سرًا خوفًا من أبى طالب، وكان مما أنعم الله به على علىّ أنه ربى فى حجر رسول الله ﷺ قبل الإسلام.

وعن مجاهد قال: أسلم علىّ، وهو ابن عشر سنين. وعن ابن عباس، قال: أول من أسلم علىّ. وقال علىّ - كرم الله وجهه -: لم أعلم أحدًا من هذه الأمة عَبَدَ الله قبلى، لقد عبدته قبل أن يعبده أحد منهم خمس سنين أو سبع سنين.

وذكر ابراهيم النخعى: أن أول من أسلم أبو بكر. وعن حبة العرنى، قال: سمعت عليًا يقول: أنا أول من صلى مع النبى ﷺ. وجاء عن سلمان الفارسى قال: أول هذه الأمة ورودا على نبيها - أولها إسلاما - على بن أبى طالب.

وعن أبى أيوب الأنصارى، قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد صلت الملائكة علىَّ وعلى علىّ سبع سنين، وذاك أنه لم يصل رجل غيره». وجاء أيضًا: أن خديجة أول من أسلم مع النبى ﷺ، ثم علىّ.

وسئل محمد بن كعب القرظى عن أول من أسلم: علىّ أو أبو بكر؟ قال: سبحان الله علىّ أولهما إسلامًا، وإنما اشتبه على الناس؛ لأن عليًا أخفى إسلامه عن أبى طالب، وأسلم أبو بكر وأظهر إسلامه.

إذًا فقد قال جماعة: إن عليًا أول من أسلم، وقيل: أبو بكر، والله أعلم.

ذكرنا ما قيل عن إسلامه لنقف فقط عند مدى سبقه فى هذا الصدد، وليس لتفضيله على أحد، فقد زعم قومٌ أن لهم الحق فى تفضيل الخلفاء الراشدين بعضهم على بعض، وترتيبهم طبقًا لأوليات نفثها الشيطان فى روعهم.

فزعم البعض أن الإمام على! رضى الله عنه كان أولى بالخلافة بعد رسول الله ﷺ وأن من جاء بعده اغتصب منه هذا الحق ظالمًا له، وليت الأمر اقتصر على من عاصر هذه الأحداث، واكتفى بمجرد ابداء الرأى فيها حرصًا على وحدة المسلمين لكنهم حملوا أحقادهم وورثوها لأجيال عبرت بها مئات السنين حتى عصرنا هذا يناصبون العداوة والبغضاء كلا من أبى بكر وعمر، ويقعون فيهما وفى سلامة إيمانهما، وكأنهم يريدون لهذه القضية التى افتعلوها أن تظل مثارة عبر العصور تَفُتُ فى عضد المسلمين وتفرق وحدتهم وتشتت جمعهم، وتجعلهم يقفون فرادى ضعفاء أمام أعدائهم، أعداء الإسلام.

ما الذى يعود على الإسلام والمسلمين من رفع هذه الشعارات المدمرة وإعادة مناقشتها وإثارتها، وإذا استمر التشكيك فى قيادات المسلمين الأوائل خاصة فى أبى بكر وعمر، فماذا بقى من الإسلام بعد ذلك؟ وأية قدوة إذن يمكن أن تقوم للأجيال لدراستها والاقتداء بها؟.

هؤلاء المحرضين المفتتين لوحدة الإسلام فاتهم أن عليًا - كرم الله وجهه - مهما كان رأيه فى نفسه لم يتفوه بكلمة واحدة تسئ إلى أى منهما، بل لقد كان المدافع عنهما فى حياتهما، وبعد موتهما طالما كان هو حيا.

فعنه أنه قال: قيل يا رسول الله، من يؤَمَّرُ بعدك؟ قال: «إن تؤمروا أبا بكر تجدوه أمينًا زاهدًا فى الدنيا راغبًا فى الآخرة، وإن تؤمروا عمرًا تجدوه قويًا أمينًا لا يخاف فى الله لومة لائم، وإن تؤمروا عليًا، ولا أراكم فاعلين، تجدوه هاديًا مهديًا، يأخذ بكم إلى الصراط المستقيم». [مسند الإمام أحمد ١/١٠٨، ١٠٩].

هذا ما قاله رسول الله ﷺ وحَدَّثَ به عليّ نفسه أنه لا يحتاج إلى شرح أو بيان، لقد بدأ الرسول بترشيح أبى بكر، وثنى بعمر، ثم ذكر عليًا واستدرك بما يعلم أو بما أراه الله من حقيقة، وذكر فضل الأئمة الثلاثة، ولا أحد ينكر من قول رسول الله شيئًا، فلماذا حَمْلُ الأحقاد عبر الأجيال؟.

بل جاء عن على أيضًا: أن رسول الله ﷺ قال له ناصحًا: «أنت بمنزلة الكعبة، تؤتى ولا تأتى، فإن أتاك هؤلاء القوم فسلموها إليك - أى الخلافة - فأقبل منهم، وإن لم يأتوك فلا تأتهم حتى يأتوك».

حوار فى البيت الهاشمى: فى اليوم الذى قبض فيه رسول الله ﷺ

عن ابن عباس، قال: خرج على بن أبى طالب يومئذ على الناس من عند رسول الله ﷺ، فقال له الناس: يا أبا الحسن، كيف أصبح رسول الله ﷺ قال: أصبح بحمد الله بارئًا، قال: فأخذ العباس بيده، ثم قال: يا على، أنت والله عبد العصا بعد ثلاث أحلف بالله لقد عرفت الموت فى وجه رسول الله ﷺ كما كنت أعرفه فى وجوه بنى عبد المطلب، فانطلق بنا إلى رسول الله ﷺ، فإن كان هذا الأمر فينا عرفناه، وإن كان فى غيرنا أمرناه فأوصى بنا الناس، قال له على: إنى والله لا أفعل، والله لئن منعناه لايُؤْتِينَاهُ أحد بعده، فتوفى رسول الله حين اشتد الضحاء من هذا اليوم.

هذا الحوار يفيد أنه لو كانت هناك وصية من الرسول لعليّ بالخلافة لعلمها ولذهب بعمه العباس ليكون شاهدًا عليها، بل لو وُجِدَت مثل هذه الوصية لأعلنها رسول الله ﷺ على الناس، فهو الذى لم يُخْفِ شيئًا عن أمته حتى ما نزل من عتب شديد، أو ما نزل من أحكام جاءت موافقة لما رآه عمر فى أسرى بدر، أو فى غير ذلك، فكيف يخفى أمر الخلافة لو كان يريد أن يستخلف عليًا بعده؟.

إن الإمام عليّ كان من الذكاء الثاقب الذى لا يكتفى بمجرد السؤال والاستفسار عن الخلافة ستؤول لمن بعد الرسول، ولكنه كان يقدر ما سيترتب على إجابة الرسول ﷺ من تأثير على المستقبل، فماذا لو وافق عمه

العباس وانطلق إلى الرسول ﷺ وسأله هـذا السؤال: إلى من سيكون أمر الخلافة؟ أيكون فينا أم فى غيرنا؟ فماذا لو أجاب الرسول ﷺ وقال: إن الخلافة ليست لكم، ولكن لغيركم إن أحدًا لا يستطيع أن يكتم مايتفوه به الرسول، ويكون قوله فى تلك الحالة حجة عليهم، فلا تصل إليهم الخلافة بعد ذلك أبدًا.

ولذلك نجد الإمام لم ينطلق مع عمه العباس ليسأل الرسول ﷺ عن أمر الخلافة حتى يظل الباب مفتوحًا، إن لم يكن اليوم ففى المستقبل خاصة وأن جميع الملابسات والظروف تشير إلى أن الخلافة لأبى بكر رضى الله عنه.

لاسيما وأن الرسول صلوات الله وسلامه عليه، قد أصر على أن يؤم الناس أبا بكر، ولا أحد سواه حتى عمر مما كاد يقطع بأن الأمر لم يكن لمجرد الأمانة فى الصلاة، فقد صلى الرسول خلف أبى بكر، فأى حرج فى أن يصلى أبا بكر خلف عمر، ولكن يبدوا أن الرسول كان يستهدف توثيق وتأكيد أمر معين.

عن عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، قال: لما استعز برسول الله ﷺ، وأنا عنده فى نفر من المسلمين، قال: دعاه بلال إلى الصلاة، فقال: «مروا من يصلى بالناس»، قال بلال: فخرجت فإذا عمر فى الناس، وكان أبو بكر غائبا، فقلت: قم يا عمر فصل بالناس، فقام عمر، فلما كبر سمع رسول الله ﷺ صوته، وكان عمر رجلا مجهرا، فقال رسول الله ﷺ: «فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون، يأبى الله ذلك والمسلمون»، فبعث إلى أبى بكر، فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة، فصلى بالناس، قال عمر: حسبت أن رسول الله ﷺ أمرك بهذا ولولا ذلك ما صليت بالناس، قال عبد الله بن زمعة: والله ما أمرنى رسول الله ﷺ بذلك، ولكنى حين لم أر أبا بكر رأيتك أحق من حضر بالصلاة بالناس.

وهكذا نرى أن رسول الله ﷺ بعد أن قال: «مروا من يصلى بالناس» وهذا أمر عام لم يحدد فيه أحدا بعينه، إلا أنه حين سمع صوت عمر يؤم

الناس لم يكتف بأن يسأل عن أبى بكر، ولكن أضاف قوله: «يأبى الله ذلك والمسلمون» وكررها مرتين، بل وأرسل إلى أبى بكر فحضر، وأعاد الصلاة التى صلاها عمر مما يعتبر تصريحا باسم الشخص الذى يجب أن يكون خلفا للرسول، فعل الرسول ذلك رغم ما فيه من حرج على عمر، لكن يبدو أن الأمر لم يكن مجرد الموافقة على صلاة واحدة يؤديها عمر فى غيبة أبى بكر، وإلا فالصلاة صحيحة.

ولعل معنى الاستخلاف بعد رسول الله ﷺ هو الذى فهمته السيدة عائشة رضى الله عنها حين قالت: لما استعز برسول الله ﷺ قال: «مروا أبا بكر، فليصل بالناس».

نلاحظ هنا التحديد بالاسم.

قالت: يا نبى الله، إن أبا بكر رجل رقيق، ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن.

ونلاحظ هنا أيضا أن الرسول لم يقتنع بهذا التعليل.

فقال مرة أخرى: «مروه فليصل بالناس»، قالت عائشة: فعدت بمثل قولى،

قال الرسول فى حزم غير قابل للتراجع:

«إنكن صواحب يوسف، فمروه فليصل بالناس»، قالت عائشة:

ونرى فى قولها أنها كشفت عن نيتها الحقيقية، ومدى مافهمته من وراء صلاة أبى بكر بالناس.

فوالله ما أقول ذلك إلا أنى كنت أحب أن يصرف ذلك عن أبى بكر.

وعرفت أن الناس لا يحبون رجلا قام مقام الرسول ﷺ أبدا.

وإن الناس سيتشاءمون به فى كل حدث كان.

فكنت أحب أن يصرف ذلك عن أبى بكر.

هل كانت كل هذه الملابسات تغيب عن فطنة على رضى الله عنه؟

كلا لقد اكتملت البيعة لأبى بكر بعد رسول الله وبايعه الجميع، وكان سندهم القوى فى اختياره هو ماجهروا به جميعا: ارتضاه الرسول لديننا، فكيف لا نرضاه لدنيانا؟.

إذا فإن إصرار الرسول على ألا يصلى بالناس أحد غير أبى بكر فى أيامه الأخيرة حدد للمسلمين طريق الاختيار، أمر آخر يشير إلى رغبة الرسول ﷺ فى استخلاف أبى بكر حين بعث أبا بكر أميرا على الحج من سنة تسع ليقيم للمسلمين حجهم، والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم. فخرج أبو بكر ومن معه من المسلمين.

قال ابن إسحاق: لما نزلت براءة - سورة براءة - على رسول الله ﷺ قيل له: يا رسول الله لو بعثت بها إلى أبى بكر، فقال: «لا يؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتى».

وهنا نلمح الفرق بين الأداء الخاص عن رسول الله ﷺ، والذى لا يكون إلا برجل من أهل بيت النبى ﷺ، ويين الأداء العام عن المسلمين جميعا كالصلاة والحج.

ثم دعا الرسول على بن أبى طالب رضوان الله عليه، فقال: «اخرج بهذه القصة من صدر براءة، وأذن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان له عند رسول الله عهد، فهو له إلى مدته».

فخرج على بن أبى طالب، رضوان الله عليه، على ناقة رسول الله ﷺ العضباء، حتى أدرك أبا بكر فى الطريق.

ولنتأمل فى دقة أبى بكر رضى الله عنه، واستعداده لطاعة الرسول على أى وجه قال أبو بكر: أأمير.. أم مأمور؟.

ولنتأمل أيضا حرص على رضى الله عنه على نقل رسالة الرسول كما

هى، وتسليمه بقيادة أبى بكر لجميع المسلمين فى الحج.

قال على: بل مأمور، ثم مضيا، فأقام أبو بكر للناس الحج، والعرب إذ ذاك فى تلك السنة على منازلهم من الحج التى كانوا عليها فى الجاهلية، حتى إذا كان يوم النحر، قام على بن أبى طالب رضى الله عنه، فأذن فى الناس بالذى أمره به رسول الله ﷺ، فقال: أيها الناس، إنه لايدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد إلى مدة فهو إلى مدته. فلم يحج بعد ذلك العام مشرك، و لم يطف بالبيت عريان، ثم قدما على رسول الله ﷺ.

هذه إشارة أخرى لرغبة الرسول ﷺ فى استخلاف أبى بكر لا تغيب عن فطنة على رضى الله عنه.

أما ما جاء على لسان على رضى الله عنه، وحدث به يحيى بن عروة المرادى، قال: سمعت عليا رضى الله عنه، يقول: قبض النبى ﷺ وأنا أرى أنى أحق بهذا الأمر، فاجتمع المسلمون على أبى بكر، فسمعت وأطعت، ثم إن عمر أصيب، فظننت أنه لا يعدلها عنى، فجعلها فى ستة أنا أحدهم، فولوها عثمان، فسمعت وأطعت، ثم إن عثمان قتل فجاءوا فبايعونى طائعين غير مكرهين، ثم خلعوا بيعتى، فوالله ما وجدت إلا السيف أو الكفر بما أنزل الله عز وجل على محمد.

فكل مايفيده هذا القول أن الإمام على كان يرى أنه أحق بالخلافة من سواه، وهذا لاعيب فيه ولا إثم عليه، إذ أنه يدور فى نطاق المباحات والمشروعات، فمن من الناس مهما كانت تقواه من لم تحدثه نفسه بالسعى لتحقيق أقصى طموحاته طالما أن هذه الطموحات لا تخرج عن دائرة رضوان الله تعالى لا ترفع سيفا على إمام ارتضاه المسلمون، ولا تشق عصا الطاعة عليه، بل إن هذه هى النفس البشرية فى أعلى درجات طهرها ونقائها، النفس القادرة على التفرقة بين الهوى المذموم وبين الطموح الحميد، الذى يستهدف التنافس فى الخير، وهذا ماعبر عنه الإمام على بأنه:

سمع وأطاع لأبى بكر، وسمع وأطاع لعمر، وسمع وأطاع لعثمان.

فهو الإمام العالم المدقق الحريص على وحدة المسلمين، رغم مايراه فى نفسه أنه أحق بالإمامة، أو جدير بأن يقوم بأعبائها ليحصل من الله عز وجل على ثوابها، فهو يعلم فضل الإمام العادل على غيره، ويعلم أيضا ما عد له من أجر وثواب فى الآخرة.

زهده وعدله:

إن ما كان من زهد الإمام على وعدله فهو كثير، وكثير.

قال يصف الدنيا: الدنيا جيفة، فمن أراد منها شيئا، فليصبر على مخالطة الكلاب.

وقال عمار بن ياسر: سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلى بن أبى طالب: «يا على، إن الله عز وجل قد زينك بزينة لم يتزين العباد بزينة أحب إليه منها: الزهد فى الدنيا، فجعلك لا تنال من الدنيا شيئا، ولا تنال الدنيا منك شيئا، ووهب لك حب المساكين، ورضوا بك إماما ورضيت بهم اتباعا، فطوبى لمن أحبك وصدق فيك، وويل لمن أبغضك وكذب عليك، فأما الذين أحبوك وصدقوا فيك فهم جيرانك فى دارك ورفقاؤك فى قصرك، وأما الذين أبغضوك وكذبوا عليك، فحق على الله أن يوقفهم موقف الكذابين يوم القيامة».

وعن محمد كعب القرظى، قال: سمعت على بن أبى طالب، يقول: لقد رأيتنى وإنى لأربط الحجر على بطنى من الجوع، وإن صدقتى لتبلغ اليوم أربعة آلاف دينار.

و لم يرد بقوله: «أربعين ألفا» زكاة ماله، وإنما أراد الوقوف التى جعلها صدقة، كان الحاصل من دخلها صدقة هذا العدد، فإن أمير المؤمنين عليا لم يدخر مالا، فقد قال ابنه الحسن فى مقتله: إنه لم يترك إلا ستمائة درهم اشترى بها خادما.

وقيل فى زهده:

إنه ما بنى لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة، وإن كان ليؤتى بجبوته - من الجباية وهى الخراج - من المدينة فى جراب.

وحدث عنه أبو النوار بياع الكرابيس - الثياب القطنية - قال: أتانى على بن أبى طالب ومعه غلام له، فاشترى منى قميص كرابيس - قطن - فقال لغلامه: اختر أيهما شئت، فأخذ الغلام أحدهما، وأخذ على الآخر فلبسه، ثم مد يده فقال لبائع الثياب: إقطع الذى يفضل من قدر يدى، فقطعه وكفه - خاط حواشيه - ولبسه وذهب.

وحدث رجل من ثقيف، قال: استعملنى على بن أبى طالب، على مدرج سابور، فقال: لا تضربن رجلا سوطا فى جباية درهم، ولا تتبعن لهم رزقا، ولا كسوة شتاء ولا صيفا ولا دابة يعتملون عليها، ولا تقيمن رجلا قائما فى طلب درهم، قلت: يا أمير المؤمنين، إذن أرجع إليك كما ذهبت من عندك، قال: وإن رجعت ويحك، إنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو يعنى الفضل.

وذم رجل الدنيا عند على رضى الله عنه، فقال: الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار نجاة لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها، وهى مهبط وحى الله، ومصلى ملائكته، ومسجد أنبيائه ومتجر أوليائه، ربحوا منها الرحمة، واحتسبوا فيها الجنة.

أرأيت كيف أنه يبرز أجمل ما فى الدنيا، وهو الذى وصفها بأنها جيفة، فمن أراد منها شيئا فليصبر على مخالطة الكلاب.

وهو صادق فى الحالتين لأن الدنيا ذات وجهين، وهو البليغ الذى لا يجارى فى استكناه حقائق الأشياء، ومن ذا الذى يبلغ شأوه بين البلغاء!

فليس كل من يذم الدنيا بزاهد فيها، البعض يذمها؛ لأنه عجز عن تحقيق

أغراضه المادية فيها، يجرى وراءها، فما يجنى غير الشكاية والقلق والتبرم، فيكون ذمه لها ليس من الزهد فى شىء.

إنه فقط يشارك الزاهدين الحقيقيين بالقول فقط دون العمل، لمثل هؤلاء يكشف الإمام حقيقة الزهد، وإنه لا يورث فى نفوسهم الضيق ولا القلق؛ لأن لها جانبا آخر مشرقا فى نفوسهم، فهى دار الصدق، ودار نجاة، ودار غنى، إلى آخر ما جاء فى وصفه الرائع الجميل.

ولأنها تعمل فى النهاية طبقا لما أمرها الله عز وجل به: «يا دنيا، من خدمنى فاخدميه، ومن خدمك فاستخدميه».

فمناط الأمر كله، هو حسن الصلة والتوجه إلى الله تعالى، وخلوص العمل له.

اعتمر الإمام فرأى رجلا متعلقا بأستار الكعبة، يقول: يا من لا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل، ولا يبرمه إلحاح الملحين، أذقنى برد عفوك، وحلاوة مغفرتك. قال على: والذى نفسى بيده لو قلتها وعليك ملء السموات والأراضين ذنوبا يغفر لك.

شجاعته:

إسلامه فى العاشرة من عمره دون استشارة أبيه نموذج لشجاعته منذ الصغر، صيحته فى وجه شيوخ قريش حينما سألهم رسول الله ﷺ عن النصير، ولا يجد إجابة من أحد، فيقف وهو فى العاشرة ليقول دون خشية أو خوف: أنا نصيرك.

نومه فى فراش النبى ﷺ ليلة الهجرة، وشباب البغى القرشى يحيطون بدار الرسول إحاطة السور بالمعصم، ألم يكن واردا أن يقتحموا عليه الدار ويقتلوه نائما دون أن يكشفوا عنه الغطاء، أو حتى بعد أن يعرفوه؛ لأنه خدعهم، ألا يعتبر هذا قمة الإيمان والتصديق، وأعلى درجة من درجات التضحية والفداء.

قال ابن إسحاق: وتتابع الناس فی الهجرة، وكان آخر من قوم المدينة من الناس، و لم يفتن فی دينه علی بن أبی طالب، وذلك أن رسول الله ﷺ أخره بمكة، وأمره أن ينام علی فراشه وأجله ثلاثا، وأمره أن يؤدی إلی كل ذی حق حقه، ففعل.

قال له الرسول: «إن قريشا لم يفقدونی ما رأوك»، فاضطجع علی فراشه، وكانت قريش تنظر إلی فراش النبی ﷺ فيرون عليه عليا، فقالوا: لو خرج محمد لخرج بعلی معه، فحبسهم الله بذلك عن طلب النبی حين رأوا عليا، وأمر النبی ﷺ عليا أن يلحقه بالمدينة، فخرج علی فی طلبه بعدما أخرج أهل الرسول إليه، وكان يمشی الليل، ويكمن النهار حتی قدم المدينة، فلما بلغ النبی ﷺ قدومه قال: «ادعو لی عليا»، قيل: يا رسول الله، لا يقدر أن يمشی، فأتاه النبی ﷺ، فلما رآه اعتنقه وبكی، رحمة لما بقدميه من الورم، وكانتا تقطران دما، فتفل النبی ﷺ فی يديه، ومسح بهما رجليه، ودعا له بالعافية، فلم يشتكهما حتی استشهد رضی الله تعالی عنه.

عن أبی إسحاق، قال: سأل رجل البراء وأنا أسمع، أشهد علی بدرا؟ قال: بارز ونصر وأعان.

وحدث مصعب بن سعد، عن أبيه سعد، قال: لقد رأيت عليا يخطر بالسيف – يضرب بالسيف – هام المشركين ويقول: «سنمنح الليل كأنی جنی»، أی لا أنام الليل فأنا متيقظ أبدا.

وحينما خرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد بن عتبة، ودعا إلی المبارزة خرج إليه أولا فتية من أبناء المدينة، فلما عرفهم قال لهم: ما لنا بكم من حاجة إنما نريد قومنا، ونادی مناديهم: يا محمد أخرج لنا أكفاءنا من قومنا، وخرج إليهم حمزة بن عبد المطلب، وعلی بن أبی طالب، وعبيدة ابن الحارث، و لم يمهل حمزة شيبة، ولا أمهل علی الوليد أن قتلاهما، ثم أعانا عبيدة – وقد ثبت له عتبة – علی قتله.

وعن يوم أحد قال علی: لما انجلی الناس عن رسول الله ﷺ يوم أحد

نظرت فى القتلى، فلم أر رسول الله ﷺ فقلت: والله ماكان ليفر، وما أراه فى القتلى، ولكن أرى الله غضب علينا بما صنعنا، فرفع نبيه، فما لى خير من أن أقاتل حتى أقتل، فكسرت جفن[1] سيفى، ثم حملت على القوم، فأفرجوا لى، فإذا أنا برسول الله ﷺ بينهم.

ودخل على على فاطمة رضى الله عنها يوم أحد فقال:

أفاطم هاك السيف غير ذميم فلست برعديد.. ولا بلئيم
لعمرى لقد أبليت فى نصر أحمد ومرضاة رب بالعباد عليم

فقال رسول الله ﷺ: «إن كنت أحسنت القتال، فقد أحسنه سهل بن حنيف، وأبو دجانة سماك بن خرشة، فقال جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ: يا محمد هذا لعمرك المواساة، فقال رسول الله ﷺ: ياجبريل إنه منى، فقال جبريل عليه السلام: وأنا منكما».

وعن سعيد بن المسيب، قال: لقد أصابت عليا يوم أحد ست عشرة ضربه كل ضربة تلزم الأرض، فما كان يرفعه إلا جبريل عليه السلام.

وعن ثعلبة بن مالك، قال: كان سعد بن عبادة صاحب راية رسول الله ﷺ فى المواطن كلها، فإذا كان وقت القتال أخذها: على بن أبى طالب.

ولفرط شجاعة الإمام على، واستبساله فى القتال، وشدة يقظته عند لقاء الأعداء، كانت درعه صدرا لا ظهر لها، وقيل له: يا إمام، لماذا تجعل درعك كذلك؟ فقال: إذا استمكن عدوى من ظهرى فلا يبق.

أى أن ظهر المقاتل بالسيف لا ينكشف إلا فى حالة الفرار فقط، وهذا ليس من شيمته، فهو يتمنى الموت ولا الفرار، وهو على شجاعته لم يكن يسمح للغرور أن يتسرب إلى نفسه قط، فكان لا يبارز إلا من يتحداه، أو يتحدى المسلمين عامة فى القتال.

ولذا نرى نصيحته لابنه الحسن رضوان الله عليهما التى تعتبر درسا فى

(١) جفن السيف: بيته.

الشجاعة والقتال: يابنی، لا تدعون أحدا إلى البراز، ولا يدعونك أحد إليه إلا أجبته، فإنه بغی، والباغی مصروع.

يوم الخندق:

عظم البلاد بالمسلمين لغدر اليهود وتطويق المدينة بقبائل العرب والمشركين، واشتد الخوف، وأتاهم العدو من فوقهم ومن أسفل منهم، حتى ظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق من بعض المنافقين، وحتى قال رجل من أهل بدر - معتب بن قشير -: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، وحتى قال آخر - أوس بن قيظى - على ملأ من رجال قوم: يا رسول الله، إن بيوتنا عورة من العدو، فأذن لنا أن نخرج فنرجع إلى دارنا، فإنها خارج من المدينة، وأقام رسول الله ﷺ والمسلمون بلا قتال إلا أن فوارس من قريش منهم: عمرو بن عبدود، وعكرمة بن أبی جهل، وهبيرة بن أبی وهب المخزوميان، وضرار بن الخطاب الشاعر بن مرداس، تأهبوا للقتال، وخرجوا على خيلهم حتى مروا بمنازل بنی كنانة، فقالوا:

تهيئوا يا بنی كنانة للحرب، فستعلمون من الفرسان اليوم؟ ثم أقبلوا تسرع بهم خيلهم حتى وقفوا على الخندق، فلما رأوه قالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها.

عبور الخندق:

ثم تيمم هؤلاء الفرسان مكانا ضيقا من الخندق فضربوا خيلهم، فاقتحمت منه، فجالت بهم فی السبخة بين الخندق وسلع - الجبل - فخرج لهم فارس الإسلام الذی قال له الرسول ﷺ: «أنت منی، وأنا منك». فارس الإسلام الذی يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، فارس الإسلام الذی ثبت كالجبل الأشم مع رسول الله فی جميع مواقفه إنه علی ابن أبی طالب، خرج فی نفر معه من المسلمين، حتى أخذوا عليهم الثغرة التی أقحموا منها خيلهم، وأقبلت فرسان المشركين تسرع نحوهم، وكان

عمرو بن ود قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراح فلم يشهد يوم أحد؛ لأن أجله لم يكن قد حان بعد، فلما كان يوم الخندق خرج وله علامة يعرف بها - معلمًا - لِيُرىَ مكانه، فلما وقف هو وخيله، قال: وهو مُقَنع ومستتر بالحديد من يبارز؟.

فقام على بن أبى طالب رضى الله عنه، فقال: أنا لها يا نبى الله، فقال النبى ﷺ: «إنه عمرو. اجلس». ثم نادى عمرو: ألا رجل يبرز؟ أين جنتكم التى تزعمون أن من قُتِلَ منكم دخلها؟ أفلا تبرزون إلىَّ رجلاً؟ فقام على رضى الله عنه، فقال: أنا يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «اجلس»، ثم نادى الثالثة، فقال: شعرًا يزهو فيه بقوته، فقام على رضى الله عنه، فقال: يا رسول الله أنا له، فقال: «إنه عمرو»، قال على: وإن كان عمرًا، فأذن له الرسول ﷺ ودعا له، فمشى إليه حتى أتى وهو يقول:

لا تعجلن فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز
فى نية وبصيرة والصدق منجى كل فائز
إنى لأرجو أن أقيم عليك نائحة الجنائز
من ضربة نجلاء يبقى ذكرها عند الهزاهز[1]

فقال له عمرو: من أنت؟ قال: أنا على، قال: ابن عبد[2] مناف؟ قال: أنا على بن أبى طالب، فقال: يا ابن أخى، من أعمامك من هو أسن منك، فإنى أكره أن أهريق دمك، قال على - وكان لا يحب أن يقاتل قبل أن يعرض الإسلام على خصمه -: يا عمرو، إنك قد كنت عاهدت إلا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه، قال له: أجل، قال على: فإنى أدعوك إلى الله، وإلى رسوله، وإلى الإسلام، قال عمرو: لا حاجة لى بذلك، قال على رضى الله عنه: إذن، فإنى أدعوك إلى النزال، قال عمرو: لم يا ابن أخى، فوالله ما أحب أن أقتلك؟ قال على: لكنى والله أحب أن أقتلك، فحَمِىَ عمرو عند ذلك، فاقتحم عن فرسه فعقره، وضرب

(١) الهزاهز: الحروب والشدائد.
(٢) عبد مناف: هو اسم أبى طالب.

وجهه، ثم أقبل على علي، فتنازلا وتجاولا، وثار العجاج، وسمع رسول الله ﷺ التكبير، فعرف المسلمون أن عليا قتله، وقال علي رضي الله عنه في ذلك:

أعلي تقتحم الفوارس هكذا ... عني وعنهم أخروا أصحابي

عبد الحجارة من سفاهة رأيه ... وعبدت رب محمد بصوابي

فصددت حين تركته متجدلا ... كالجذع بين دكادك[1] وروابي[2]

وعففت عن أثوابه ولو أنني ... كنت المقنطر بزني أثوابي

لا تحسبن الله خاذل دينه ... ونبيه يا معشر الأحزاب

ثم أقبل علي رضي الله عنه نحو رسول الله ﷺ ووجهه يتهلل، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: هلا استلبته درعه؟ قال: ضربته فانكفأ على وجهه فاستحييت، قال عمر: أنه ليس للعرب درع خير منها، قال علي: استحييت أن أسلبه درعه وهو منكفئ على وجهه، كأنه يتقيني بسوءته.

وذاع ذكر علي بن أبي طالب رضي الله عنه أكثر، وأكثر بعد قتله عمرو ابن ود، أو عمرو بن عبد ود، حتى على لسان الأعداء.

فقال ابن مسافع: في بكائه شعرا يبكي فيه عمرو بن ود، ويذكر فيه علي بن أبي طالب ويعيب على الفرسان الذين كانوا مع ابن ود وتركوه وولوا عنه:

عمرو بن عبد كان أول فارس ... جزع[3] المذاد[4] وكان فارس يليل[5]

سمح الخلائق ماجد ذو مرة[6] ... يبغي القتال بشكة لم ينكل[7]

---

(١) الدكادك: الرمال اللينة.

(٢) الروابي: الكدية المرتفعة.

(٣) جزع: قطع.

(٤) المذاد: موضع بالمدينة ويقصد الخندق.

(٥) يليل: اسم قرية قرب وادي الصفراء بالمدينة.

(٦) مرة: قوة.

(٧) نكل: تراجع.

ولقد علمتم حين ولوا عنكم أن ابن عبد فيهم لم يعجل
حتى تكنفه الكماة وكلهم يبغى مقاتلة وليس بمؤتلى[1]
ولقد تكنفت الأسنة فارسا بجنوب سلع غير نكس أميل
نسل النزال على فارس غالب بجنوب سلع ليته لم ينزل
فاذهب على فما ظفرت بمثله فخرا ولا لاقيت مثل المعضل
نفسى الفداء لفارس من غالب لاقى حمام الموت لم يتحلحل
أعنى الذى جزع المذاد بمهره طلبا لثأر معاشر لم يخذل

أراد الشاعر ابن مسافع أن يقول: إن عمرو بن ود كان أول فارس عبر الخندق، وإنه كان ذا قوة إذا عزم على القتال، لا يلجأ إلى الفرار خوفا من الأخطار، لقد تركه رفاقه وولوا عنه، لكنه لم يهرب أو يسرع فى الهرب مثلهم، وهو لم يقصر حين أحاط به المقاتلون الكماة وكلهم يرجون قتله، لقد قتلت طعنات على فارسا غير هياب ولا فرار، فعلى ابن الحرب والطعان فياليته لم يكن فى هذا المكان، أو ياليت بن عبد ود لم ينزل فى هذا المكان الذى قتل فيه، فعد يا على بما ظفرت فإنك لم تظفر أبدا بمقاتل تفخر بأنك صارعته وصرعته مثل هذا البطل المعضل.

ثم يقول فى النهاية: إنه كان يود أن يفدى ابن ود الشجاع الذى لم يتزحزح عن مكانه فى القتال، ابن ود هذا الفارس الذى قطع الخندق واجتازه طلبا للثأر، ولكنه طلبه ممن لم ينهزم و لم يخزل.

والذى يهمنا فى هذا الشعر ما جاء فيه من الاقرار ببطولة فارس الإسلام على بن أبى طالب، خاصة وأن هذا الاقرار جاء رغم أنوف الأعداء إذ لا مهرب من الاعتراف به لأنه حقيقة واقعة مفجعة لهم ومفرحة لجميع المسلمين.

إن الشاعر عاد باللوم على من كانوا مع عمرو بن ود لإسراعهم فى الهرب، ولكن ماذا كان فى مقدورهم أن يفعلوه؟ وقد رأوا فارسهم الذى

---

(١) مؤتلى: مقصر.

كان يقوم على أقل التقديرات بأنه كان يعدل أربعين فارسا لقد فزعت الخيول، وملأ الخوف والهلع قلوب الرجال المرافقين لابن عبد ود، والذين عبروا معه الخندق، ولاذ الجميع بالفرار إلى حيث كانوا خزايا أذلة، فكانوا بداية انكشاف غمة الحصار المضروب على المدينة، وعودة الجموع التى احتشدت لاستئصال الإسلام وجنوده.

وفي خيبر:

بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضى الله عنه، برايته إلى حصن من حصون خيبر «حصن ناعم» الذى توجد به ذخائر اليهود كى يفتحه، فقاتل ورجع دون أن يفتح الحصن، وقد جهد، ثم بعث عمر بن الخطاب فى الغداة، فقاتل، فرجع ولم يكن فتح، وقد جهد، فقال رسول الله ﷺ: «لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه ليس بفرار».

فدعا رسول الله ﷺ عليا رضوان الله عليه، وهو أرمد - أى أن بعينيه مرض الرمد - فتفل فى عينه، ثم قال: «خذ هذه الراية، فامض بها حتى يفتح الله عليك»، فخرج بها يهرول هرولة وخلفه المسلمون يتبعون أثره حتى ركز رايته فى رضم من حجارة تحت الحصن. فاطلع إليه يهودى من رأس الحصن فقال: من أنت؟ قال: أنا على بن أبى طالب، قال اليهودى: علوتم، وما أنزل على موسى، فخرج إليه أهل الحصن فقاتلهم، فضربه رجل منهم من يهود، فطرح ترسه من يده فتناول على عليه السلام بابا كان عند الحصن فترس به عن نفسه، فلم يزل فى يده، وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده حين فرغ.

يقول أبو رافع مولى رسول الله ﷺ: فلقد رأيتنى فى نفر سبعة معى أن ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه.

البيعة:

قال ابن سعد: لما قتل عثمان رحمه الله يوم الجمعة لثمانى عشرة ليلة مضت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين، وبويع لعلى بن أبى طالب رحمه

الله، بالمدينة الغد من يوم قتل عثمان، بالخلافة بايعه طلحة، والزبير، وسعد ابن أبى وقاص، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وعمار بن ياسر، وأسامة بن زيد، وسهل بن حنيف، وأبو أيوب الأنصارى، ومحمد بن مسلمة، وزيد بن ثابت، وخزيمة بن ثابت، وجميع من كان بالمدينة من أصحاب رسول الله ﷺ.

ثم ذكر طلحة والزبير أنهما بايعا كارهين غير طائعين، وخرجا إلى مكة وبها عائشة، ثم خرجا من مكة ومعهما عائشة إلى البصرة يطالبون بدم عثمان، ثم كان ما كان من أمر القتال فى موقعة الجمل، وما كان بعد ذلك من قتال بين الإمام على، وبين معاوية بن أبى سفيان، وبعد أن كان المسلمون يقاتلون الأعداء المشركين أصبح يقاتل بعضهم بعضا، مما جعل أحد أحبار اليهود يتهكم، فيسأل الإمام عليا: ما بالكم لم يمض على وفاة نبيكم أكثر من خمسة عشر عاما حتى تقاتلتم؟ قال له على: وما بالكم لم تجف أقدامكم من رهو البحر حتى قلتم اجعل لنا إلها كما لهم آلهة؟.

الفتنة:

لم يكد الرسول ﷺ ينتقل إلى الرفيق الأعلى حتى ظهرت بوادر التنافس القبلى:

أولا: في سقيفة بنى ساعدة.

أراد الأنصار أن يخلفوا رسول الله ﷺ فى قيادة جموع المسلمين، أو يقتسموها بينهم وبين المهاجرين، فخرج صوت يقول: منا أمير ومنكم أمير. وكان رد عمر حاسما: لا يجتمع سفيان فى غمد واحد. ودعم قول عمر ما ساقه أبو بكر بأسلوبه الحازم الحكيم، والله ماننكر فضلكم، ولا.. ولا.. ولكنكم عرفتم أن هذا الحى من قريش بمنزلة من العرب، فليس بها غيرهم، وأن العرب لن تجتمع إلا على رجل منهم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء. وخمدت الفتنة إلى حين.

وكان قد انفتح باب آخر للتنافس القبلى على النبوة نفسها فى أواخر

عهد الرسول ﷺ بخروج مدعى النبوة الكاذبة تحت شعار «كـذاب اليمامـة أفضل لديهم من صادق مضر». وبديهى أن هذا الشعار لا يرفعه إلا مشرك، ولا يسير تحت رايته إلا مشركون.

وما كاد المسلمون يجمعون على خلافة أبى بكر رضى الله عنه حتى أكل التنافس القبلى رافعا رأسه فى صورة أخرى قوم لا يخرجـون علـى الإسـلام فى ظاهر الأمر لكنهم يمتنعون علانية عن دفع الزكاة، يتأولون القرآن تأويلا خاطئا يؤدى فى النهاية إلى التحلل من أركان الإسلام.. ركنا ركنا..

قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، فاعتقد بعض مانعى الزكاة من العرب أن دفع الزكـاة إلى الامـام لا يكـون، وإنما كان هذا خاصا بالرسـول ﷺ، وقـد رد عليـهم هـذا التـأويل والفـهم الفاسد أبو بكر الصديق وسائر الصحابـة، وقـاتلوهم حتـى أدوا الزكـاة إلى الخليفة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ حتى قـال الصديـق: والله لـو منعونى عقالا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعه.

وقد عبر عن هذا الشعار – منع الزكاة – أحد الشعراء، فقال:

أطعنا رسول الله ما كان بيننـا فيالعبـاد الله مـا لأبـى بكـر
أيورثها بكرا إذا مـات بعـده وتلك لعمر الله قاصمة الظهـر

بل إن أبا سفيان حاول أن يعيد التنافس القبلى بعـد أن فاتـه السـبق فـى الإسلام، واستحالة السبق على النبـوة؛ لأنـها مـن اختيـار الله تعـالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]

أما التنافس على الخلافة فيخضع لاختيار الناس، دخل أبو سـفيان علـى على، والعباس رضى الله عنهما، فقال: يا على، وأنت يا عباس، ما بال هذا الأمر – الخلافة – فى أذل قبيلة من قريش وأقلها، والله لئن شئت لأملأنهما عليه خيلا ورجالا، فقال لـه علـى: لا والله مـا أريـد أن تملأهـا عليـه خيـلا ورجالا، ولولا أنا رأينا أبا بكر لذلك أهلا ماخليناه وإياها، يا أبا سفيان إن المؤمنين قوم نصحة بعضهم لبعض متوادون، وإن بعدت ديـارهم وأبدانـهم،

وإن المنافقين قوم غششة بعضهم لبعض، وإن قربت ديارهم وأبدانهم، وإنا قد بايعنا أبا بكر وكان لذلك أهلا.

وكان هذا التنافس القبلى على الخلافة يدور فى ذهن أبى سفيان، وزوجه هند حتى فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وكانا ينصحان ابنهما معاوية بالإعداد لهذا اليوم الذى يمكن أن يكون فيه خليفة للمسلمين.

قدم معاوية مرة من الشام، وكان عمر قد استعمله عليها، فدخل على أمه هند، فقالت له: يا بنى، إنه قلما ولدت حرة مثلك، وقد استعملك هذا الرجل - أو كأنها لا تعرف اسمه - فاعمل بما وافقه، أحببت ذلك أم كرهت، ثم دخل على أبيه أبى سفيان، فقال له: إن هذا الرهط من المهاجرين، سبقونا، وتخلفنا عنهم، فدفعهم سبقهم، وقصر بنا تخلفنا، فصرنا تبعا، وصاروا قادة، وقد قلدوك جسيما من أمرهم، فإنك تجرى إلى أمد لم تبلغه، ولو قد بلغته لتنفست فيه.

ويتتابع النقل عن معاوية فعجبت من اتفاقهما فى المعنى على اختلافهما فى اللفظ، والذى يتابع سيرة معاوية مع عمر بن الخطاب يعرف تماما أن معاوية قد استوعب الدرس الذى تلقاه عن أبيه أبى سفيان، وأمه هند بنت عتبة، والتى كان يفخر بها دائما، ويقول فى أعز المواقف لديه: أنا ابن هند.

كما كان يفخر كذلك بأبيه أبى سفيان، كما حدث عندما اجتمع برهط من أهل الكوفة ممن يسمون بالمؤلبين على عثمان رضى الله عنه، فقال لهم فيما قال: وقد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها، وابن أكرمها، وإنى لأظن أن أبا سفيان لو ولد الناس لم يلد إلا حازما، فانبرى له أحدهم، وقال له: كذبت، قد ولدتم من هو خير من أبى سفيان.

فهل يا ترى.. فكر الإمام على رضى الله عنه أن معاوية بن أبى سفيان سينصاع له، ولقرار عزله، ويترك موقعه بعد كل هذه السنوات التى أمضاها فى الاعداد والتمكين لمثل هذا اليوم؟.

دخل عليه المغيرة بن شعبة، فقال: إن لك حق الطاعة والنصيحة، وإن

الرأى اليوم تحرز به ما فى غد، وإن الضياع اليوم تضيع به ما فى غد، أقرر معاوية على عمله، وأقرر ابن عامر على عمله، وأقرر العمال على أعمالهم حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعة الجنود استبدلت، أو تركت، قال على: حتى أنظر، وخرج المغيرة من عنده، وعاد إليه من الغد فقال: إنى أشرت عليك بالأمس برأى، وإن الرأى أن تعاجلهم بالنزوع - غير رأيه - فيعرف السامع من غيره - أى يعرف المطيع من العاصى - ثم خرج وتلقاه ابن عباس خارجا، وهو داخل، فلما انتهى إلى على قال: رأيت المغيرة خرج من عندك ففيم جاءك؟ قال: جاءنى أمس بذية وذية، أى بكذا، وكذا وجاءنى اليوم بذية وذية.

قال ابن عباس: أما أمس فقد نصحك، وأما اليوم فقد غشك، قال: فما الرأى؟ قال: كان الرأى أن تخرج حين قتل الرجل عثمان أو قبل ذلك، فتأتى مكة فتدخل دارك، وتغلق عليك بابك، فإن كانت العرب جائلة مضطربة فى أثرك لا تجد غيرك فأما اليوم، فإن فى بنى أمية من يستحسنون الطلب بأن يلزموك شعبة من هذا الأمر، ويشبهون على الناس، ويطلبون مثل ما طلب أهل المدينة، ولا تقدر على ما يريدون، ولا يقدرون عليه، ولو صارت الأمور إليهم، وقال المغيرة: نصحته والله، فلما لم يقبل غششته، وخرج المغيرة حتى لحق بمكة.

وقال الإمام على: والله لو كان ساعة من نهار لاجتهدت فيها رأيى، ولا وليت هؤلاء ولا مثلهم يولى انصرف من عندى المغيرة، وأنا أعرف فيه أنه يرى أنى مخطئ، فقال: إنى أشرت عليك أول مرة بالذى أشرت عليك أن أرسل إلى عبد الله بن عامر، وإلى معاوية، وإلى عمال عثمان بعهودهم تقرهم على أعمالهم، ويبايعون لك الناس، فإنهم يهدئون البلاد ويسكنون الناس، ثم رأيت بعد ذلك رأيا، وأنا أرى أن تصنع الذى رأيت فتنزعهم وتستعين بمن تثق به، فقد كفى الله وهم أهون شوكة مما كانوا، قال ابن عباس: أما المرة الأولى فقد نصحك، وأما المرة الآخرة فقد غشك، قال على: ولم نصحنى؟.

قال ابن عباس: لأنك تعلم أن معاوية وأصحابه أهل دنيا، فمتى تثبتهم لا يبالوا بمن ولى هذا الأمر، ومتى تعزلهم يقولوا: أخذ هذا الأمر بغير شورى، وهو قتل صاحبنا، ويؤلبون عليك فينتقض عليك أهل الشام وأهل العراق، مع أنى لا آمن عليك أن يكر طلحة والزبير.

قال على: أما ما ذكرت من إقرارهم فوالله ما أشك أن ذلك خير فى عاجل الدنيا لاصلاحها، وأما الذى يلزمنى من الحق والمعرفة بعمال عثمان، فوالله لا أولى منهم أحدا أبدا، فإن أقبلوا فذلك خير لهم، وإن أدبروا بذلت لهم السيف، قال ابن عباس: فأطعنى وادخل دارك، والحق بمالك بينبع، وأغلق بابك عليك، فإن العرب تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك، فإنك والله لئن نهضت مع هؤلاء ليحملنك الناس دم عثمان غدا.

فأبى على، وقال لابن عباس: سر إلى الشام فقد وليتكها، فقال ابن عباس: ما هذا برأى معاوية رجل من بنى أمية، وهو ابن عم عثمان وعامله على الشام، ولست آمن أن يضرب عنقى أو أدنى ما هو صانع: أن يحبسنى فيتحكم على، قال على: و لم؟ قال ابن عباس: لقرابة ما بينى وبينك، وإن كل ما حمل عليك حمل على، ولكن أكتب إلى معاوية فعده ومنه، فأبى على، وقال: والله لا يكون هذا أبدا، وعاود المغيرة النصح، فقال: أشير عليك برد عمال عثمان عامك هذا، فاكتب إليهم بإثباتهم على أعمالهم، فإذا بايعوا لك، وأطمأن الأمر لك عزلت من أحببت، وأقررت من أحببت.

قال على: والله لا أداهن فى دينى، ولا أعطى الدنى فى أمرى، قال المغيرة: فإن كنت قد أبيت على، فانزع من شئت، واترك معاوية، فإن لمعاوية جرأة، وهو فى أهل الشام يسمع منه، ولك حجة فى إثباته، كان عمر بن الخطاب ولاه الشام كلها، قال: والله لا أستعمل معاوية يومين أبدا.

ثم عاد المغيرة: فقال: أنت مصيب، لا ينبغى أن تأخذ أمرك بخدعة، ولا يكون فى أمرك دلسة. قال ابن عباس: لقد نصحك أولا وغشك آخر، وأنا أشير عليك بأن تثبت معاوية، فإن بايع لك فعلى أن أقلعه من منزله، قال

علي: لا والله، لا أعطيه إلا السيف، ثم تمثل بهذا البيت:

ما ميتة إن متها غير عاجز بعار إذا ما غالت النفس غولها

فقلت: يا أمير المؤمنين، أنت رجل شجاع لست بأرب - فطن - بالحرب، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحرب خدعة»، قال: بلى، فقال ابن عباس: أما والله لئن أطعتنى لأصدرن بهم بعد ورد، ولأتركنهم ينظرون فى دبر الأمر لا يعرفون ما كان وجهها فى غير نقصان عليك، ولا إثم لك.

قال: يا ابن عباس، لست من هنياتك وهنيات معاوية فى شىء تشير على وأرى، فإذا عصيتك فأطعنى، قال ابن عباس: فقلت له: أفعل، إن أيسر ما لك عندى الطاعة.

وعلى أية حال، فقد حدثت الفتنة وتكشفت أنيابها.

رفض معاوية أن يبايع عليا، وكان رسول على إلى معاوية سبرة الجهنى، قدم عليه، فلم يكتب معاوية بشىء، ولم يجبه، ورد رسوله، وجعل كلما استحثه على الجواب لم يزد على قوله:

أدم إدامة حصن أو خذا بيدى حربا ضروسا تشب الجزل والضرما
فى جاركم وابنكم إذ كان مقتله شنعاء شيبت الصداغ واللمما
أعيا المسؤدبها والسيدون فلم يوجد لها غيرنا مولا ولا حكما

وفى التمثل بهذه الأبيات أشارة إلى الحرب الضروس، وإلى مقتل عثمان رضى الله عنه، وأنه أى معاوية هو ولى الدم الوحيد له، رد معاوية على على فى الشهر الثالث من مقتل عثمان رضى الله عنه فى صفر.

دعا معاوية برجل من بنى عبس، ثم أحد بنى رواحة يدعى قبيصة، فدفع إليه طومارا - كتاب - مختوما عنوانه: من معاوية إلى على، فقال: إذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار، ثم أوصاه بما يقول: وسرح رسول على، وخرج الرجلان فدخلا المدينة فى غرة ربيع الأول، فلما دخلا المدينة رفع العبسى الطومار كما أمره معاوية، وخرج الناس ينظرون إليه،

فتفرقوا إلى منازلهم، وقد علموا أن معاوية معترض، ومضى حتى يدخل على على، فدفع إليه الطومار، ففض على خاتمه، فلم يجد فى جوفه كتابة، فقال للرسول: ما وراءك؟ قال: أأمن أنا؟ قال: نعم، إن الرسل آمنة لا تقتل.

قال: ورائى أنى تركت قوما لا يرضون إلا بالقود، قال على: ممن؟ قال: من خيط نفسك من رقبتك، وتركت ستين ألف شيخ يبكى تحت قميص عثمان، وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق، قال على: أمنى يطلبون دم عثمان؟ ألست موتورا كترة عثمان؟ - ألست مصابا بما حدث لعثمان؟ - اللهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان، نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله، فإنه إذا أراد أمر أصابه. اخرج.

قال: وأنا آمن؟ قال: وأنت آمن، فخرج العبسى، وصاحت السبئية المتشددين، قالوا: هذا الكلب، هذا وافد الكلاب، اقتلوه، فنادى: يا آل مضر، يا آل قيس الخيل والنبل إنى أحلف بالله جل اسمه ليردنها عليكم أربعة آلاف خصى، فانظروا كم الفحولة والركاب، وتعاووا عليه، ومنعته مضر، وجعلوا يقولون له: اسكت، فيقول: لا والله، لا يفلح هؤلاء أبدا، فلقد أتاهم ما يوعدون، فيقولون له: اسكت، فيقول: لقد حل بهم ما يحذرون، انتهت والله أعمالهم، وذهبت ريحهم، فوالله ما أمسوا حتى عرف الذل فيهم.

ولنتأمل ما فعل معاوية فى الشهر الثالث لمقتل عثمان رضى الله عنه:

أرسل رده على مكاتبة على بعد أن عبأ الناس، وشحنهم بما يريد أن يعبئهم به، جعل من قميص عثمان ثوبا يرتديه المنبر، أى أكثر الأشياء تأثيرا على المسلمين ليخاطب مشاعر جميع المسلمين الداخلين للصلاة، والخارجين منها، وكأن المنبر هو شخص عثمان بقميصه المطعون فيه، وهو طوال هذه المدة لا يركز على القتلة الحقيقيين بل إن التعبئة تتم على أن القاتل الذى يستحق أن يقاد منه هو على بن أبى طالب.

أى أن معاوية جعل هدفه الخاص وهو مغالبة على هدفا لأتباعه، ولجميع

المسلمين فى الشام، بحيث لا يتيح لأحد أن يقول: إن هدف معاوية هو الخلافة، وليس القصاص من قتلة عثمان.

ويتضح هذا التخطيط من الطومار – أى الصحيفة – التى حملت رده إلى على رضى الله عنه، إنها صحيفة بيضاء ليس بها كتابة تدينه فى شىء، وعنوانها: «من معاوية إلى على». أى من رجل إلى رجل، ومن ند إلى ند، وهى تفيد أنه لا يقر لعلى بالخلافة، ولم يحن الوقت بعد لينسبها إلى نفسه، ثم إنه حمل ما يريد أن يقوله فى الصحيفة، وحفظه كرسالة شفهية للرجل الذى أرسله إلى على، ثم نلاحظ هذه الحركة الإعلامية التى صاحبت دخول رسولى معاوية إلى المدينة، ورفعهما الصحيفة إلى أعلى مما فهم الناس منه أن معاوية يعترض على على، وما توحى به من قوة فهم الناس مضمونها دون فضها، وانصرفوا إلى بيوتهم!.

ثم انظر إلى مضمون الرسالة الشفهية التى حملها الرجل، وطلبه للأمان قبل أن يبوح بها، وحصوله عليه: القوم يطلبون رقبة الإمام على، لا غيره ستون ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان، لم يرد معاوية أن يوجه أهل الشام إلى هدف لا يستطيع هو تحقيقه، إنه لا يستطيع القبض أو الحكم أو التنفيذ على جميع قتلة عثمان، والمشاركين معهم.

التاريخ يقول: أن عمرو بن العاص كان من المحرضين، أو المرددين لما كان يؤخذ على عثمان، وعمرو فى حضن معاوية، ومعاوية فى حضن عمرو، فاختار معاوية الهدف، إنه خيط نفس على لا غيره، هذا جانب معاوية.

فلننظر إلى الجانب الآخر إلى رسول على رضى الله عنه إلى معاوية سبرة الجهنى، وماذا قال؟ وماذا فعل؟.

مكث الثلاثة أشهر فى انتظار الرد، وكلما ذهب يستنجز معاوية الرد لم يزد معاوية على ذكر الأبيات الشعرية التى ذكرناها، وهذه الأبيات تحمل الرد على الرسالة، ولكن هناك فرق بين رسول ورسول، وإعداد وإعداد،

ودهاء ودهاء، وصراحة الإمام على رضى الله عنه، ما فى قلبه علــى لسـانه، ومعاوية ما فى قلبه على لسان اتباعه، الإمــام علـى تربـى فـى بيـت النبـوة، ومعاوية تربى فى بيت أبى سفيان.

الإمام على، قيل: أنه أول من أسلم، وقيل: أنه الثـالث، ومعاويـة أسـلم متأخرا، ومعاوية يقر له بكل سوابقه مع رسـول الله ﷺ، فليـس الأمـر أمـر انتقاص من أحد، ونعوذ بالله من ذلك، دعـوة معاويـة إلى الجماعـة: أرسـل على إلى معاوية بشير بن عمـرو بـن محصـن الأنصـارى، وشبث بـن ربعـى التميمى، وسعيد بن قيس الهمدانى يدعونه إلى الطاعة والجماعة.

قال بشير بن عمرو: يا معاويـة، إن الدنيـا عنـك زائلـة، أنشـدك الله عـز وجل ألا تفرق جماعة هذه الأمة، ولا تسفك دماءهـا بينـها، فقطـع معاويـة عليه الكلام، فقال: هلا أوصيت بذلك صاحبك؟.

قال أبو عمرة - بشير -: إن صاحبى ليس مثلك، صـاحبى أحـق البريـة كلها بهذا الأمر فـى الفضـل، والديـن والسـابقة فـى الإسـلام والقرابـة مـن الرسول ﷺ. قال معاوية: فيقول مـاذا؟ قـال بشـير: يـأمرك بتقـوى الله عـز وجل، وأجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحـق، فإنـه أسـلم لـك فـى دنياك، وخيرٌ لك فى عاقبة أمرك، قال معاوية: ونطـل دم عثمـان رضـى الله عنه، لا والله لا أفعل ذلك أبدا.

ونتوقف هنا نتأمل لحظة، فربما كان معاويـة يرغـب فـى التصـالح حـول هذه المسألة التى عرضها بما يرفع عنه حرج الانغماس فى الحرب، وما تجـره من سفك الدماء.

لكن نتأمل ما حدث بعد هـذا الحـوار الهـادئ، فذهـب سـعيد بـن قيـس يتكلم، فبادره شبث بن ربعى فتكلم - وليته سكت - قال: يا معاوية، إنى قد فهمت ما رددت على ابن محصن، إنه والله لا يخفى علينا ما تغـزو، ومـا تطلبـه، إنـك لم تجـد شيئا تستغوى بـه النـاس، وتسـتميل بـه أهواءهـم وتستخلص به طاعتهم، إلا قولك: قتل إمامكم مظلوما، فنحن نطلب بدمه.

فاستجاب له سفهاء طغام، وقد علمنا أن قد أبطأت عنه بالنصر، وأحببت له القتل لهذه المنزلة التى أصبحت تطلب، ورب متمنى أمر وطالبه، الله عز وجل يحول دونه بقدرته، وربما أوتى المتمنى أمنيته، وفوق أمنيته، والله ما لك فى واحدة منهما خير، لئن أخطأت ما ترجو إنك لشر العرب حالا فى ذلك، ولئن أصبت ما تتمنى لا تصيبه حتى تستحق من ربك صلى النار. فاتق الله يا معاوية، ودع ما أنت عليه، ولا تنازع الأمر أهله.

هل هذا أسلوب دعوة إلى الله تعالى؟ أم أنه أسلوب سباب على أعلى المستويات أو فى الحقيقة على أدنى المستويات؟ وللنظر إلى مدى ما حققه هذا الأسلوب من استجابة لدى معاوية.

قال: أما بعد، فإن أول ما عرفت فيه سفهك وخفة حلمك قطعك على هذا الحسيب الشريف سيد قومه منطقه، ثم عنيت فيما لا علم لك به، فقد كذبت ولؤمت أيها الأعرابى الجلف الجافى فى كل ما ذكرت ووصفت، انصرفوا من عندى، فإنه ليس بينى وبينكم إلا السيف وغضب، وخرج القوم وشبث يقول: أفعلينا تهول بالسيف، أقسم بالله ليعجلن بها إليك.

أسلوب مستفز يقطع الحوار ولا يوصل بينه، ورحم الله مصعب بن عمير الذى كان يدعو المشركين بأسلوبه الجاذب الرفيق الذى يدعو إلى التأمل والتواصل مع صاحبه.

حقا إن سيرة الإمام على رضى الله عنه، تدعو بل تثير الأعجاب، وتأخذ بالألباب؛ لأن الله عز وجل منحه من فيض فضله كثيرا من الصفات الإنسانية السامية، فحيثما طرق الراغب بابا من أبواب البطولة البشرية الحميدة، وجده هناك فى العلم، فى العدل، فى الشجاعة، فى الصدق، فى المروءة، فى العطاء، فى الإيثار، فى الزهد، فى الفقه، فى التفسير، فى التصوف، إلخ.

جاء عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البقرة: ٢٧٤] أنها نزلت فى على بن طالب،

كان عنده أربعة دراهم، فأنفق بالليل واحدا، وبالنهار واحدا، وفى السر واحدا، وفى العلانية واحدا.

وجاء عن عامر بن سعد بن أبى وقاص، عن أبيه، قال: أمر معاوية سعدا، فقال: ما يمنعك أن تسب أبا تراب - يعنى عليا ؟ قال: أما ماذكرت ثلاثا قالهن رسول الله ﷺ فلن أسبه: لأن يكون لى واحدة منهن أحب إلى من حمر النعم سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلى وقد خلفه فى بعض مغازيه، فقال له على: يا رسول الله تخلفنى مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله ﷺ: «أما ترضى أن تكون منى بمنزله هارون من موسى، إلا أنه لا نبوة بعدى». وسمعته يقول يوم خبير: «لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله». فتطاولنا لها، فقال: ادعو لى عليا، فأتاه وبه رمد، فتفل فى عينيه، ودفع الراية إليه ففتح الله عليه، وأنزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]، فدعا رسول الله ﷺ عليا وفاطمة وحسنا وحسينا فقال: «اللهم هؤلاء أهلى».

وعن ربعى بن حراش، عن على بن أبى طالب، قال: لما كان يوم الحديبية خرج إلينا ناس من المشركين فيهم: سهيل بن عمرو، وأناس من رؤساء المشركين، فقالوا: خرج إليك ناس من أبنائنا وإخواننا وأرقائنا وليس بهم فقه فى الدين، وإنما خرجوا فرارا من أموالنا وضياعنا، فارددهم إلينا، فقال النبى ﷺ: «يا معشر قريش، لتنتهن أو ليبعثن الله عليكم من يضرب رقابكم بالسيف على الدين، قد امتحن قلبه على الإيمان». قالوا: من هو يا رسول الله؟ فقال أبوبكر: من هو يا رسول الله؟ وقال عمر: من هو يا رسول الله؟ قال: «خاصف النعل»، وكان قد أعطى عليا نعلا يخصفها، قال: ثم التفت إلينا على، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار».

قال - أى سعد بن وقاص - عن زر بن حبيش، عن على قال: لقد عهد إلى النبى ﷺ: «إنه لا يحبك إلا مؤمن ولا يغضبك إلا منافق».

وعن أم عطية قالت: بعث رسول الله ﷺ جيشا فيهم على، فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم لا تمتنى حتى ترينى عليا».

وعن جابر، قال: لما كان يوم الطائف دعا رسول الله ﷺ عليا، فناجاه طويلا، فقال بعض أصحابه: لقد أطال النجوى لابن عمه، قال رسول الله ﷺ : «ما أنا أنتجيته، ولكن الله انتجاه».

وعن عمران بن حصين، قال: بعث رسول الله ﷺ جيشا واستعمل عليهم على بن أبى طالب فمضى فى السرية، فأصاب جارية، فأنكروا عليه، فتعاقد أربعة من أصحاب النبى ﷺ فقالوا: إذا لقينا رسول الله ﷺ أخبرناه بما صنع على، وكان المسلمون إذا رجعوا من سفر بدأوا برسول الله ﷺ ، فقام أحد الأربعة فقال: يا رسول الله، ألم تر إلى على بن أبى طالب صنع كذا وكذا؟ فأعرض عنه رسول الله، ثم قام الثانى فقال مثل مقالته، فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، ثم قام الثالث فقال مثل مقالته، فأعرض عنه، ثم قام الرابع فقال مثل ما قالوا، فأقبل إليهم رسول الله ﷺ والغضب يعرف فى وجهه فقال: «ما تريدون من على؟ ما تريدون من على؟ ما تريدون من على؟ إن عليا منى وأنا من على، وهو مولى كل مؤمن من بعدى».

ومن قواعد الإسلام التى أكد عليها رسول الله ﷺ ضرورة الدعوة إلى الإسلام قبل بدأ القتال، حينما أعطى الرسول الراية لعلى يوم خيبر، قال على: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: «لتغد على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم أدعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله، فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم».

وعن عبد الرحمن بن أبى ليلى، قال: شهدت عليا فى الرحبة[1] يناشد الناس: أنشد الله من سمع رسول الله ﷺ يقول يوم غدير خم: «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجى أمهاتهم؟ قلنا: بلى يا رسول الله، فقال أى الرسول: من كنت مولاه، فعلى مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من

(١) هى رحبة الكوفة ، وهى فضاء وفسحة بالكوفة كان الإمام على يعقد فيها لفصل الخصومات.

عاداه».

وجاء رجل إلى سعيد بن زيد - يعنى ابن عمرو بن نفيل - فقال: إنى أحببت عليا حبا لم أحبه أحدا، قال: أحببت رجلا من أهل الجنة.

وعن ابن عمر، قال: آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه فجاء على تدمع عيناه، فقال: يا رسول الله آخيت بين أصحابك، ولم تؤخ بينى وبين أحد، فقال رسول الله ﷺ: «أنت أخى فى الدنيا والآخرة».

التعرف على المنافقين:

قال أبو سعيد الخدرى: كنا نعرف المنافقين - نحن معاشر الأنصار - ببغضهم على بن أبى طالب، ولم يخف أنس رضى الله عنه أنه سمع الرسول ﷺ - وقد أهدى إليه طير - يدعو بدعوة صالحة هى: «اللهم أتنى برجل يحبه الله ويحبه رسوله»، وأراد أنس أن ينال هذه الدعوة رجل من الأنصار ولكن جاء على، فقرع الباب، ويقول أنس: فقلت: إن رسول الله مشغول، ورجع على، ثم عاد للمرة الثانية، واعتذر أنس كما فعل فى المرة الأولى، ورجع على رضى الله عنه، وجاء للمرة الثالثة، فقال رسول الله ﷺ وكأنه يعاتب أنس: «يا أنس أدخله فقد عنيته». فلما أقبل قال الرسول: «اللهم وال، اللهم وال».

هذا قليل من كثير فى فضائل الإمام على كرم الله وجهه ذكر على عند عائشة فقالت: ما رأيت رجلا أحب إلى رسول الله ﷺ منه، وما رأيت امرأة كانت أحب إليه من امرأته.

وقال على: أنا أخو رسول الله ﷺ وابن عمه، لا يقولها بعدى إلا كذاب.

كان لشخصيته بريق خاص يجذب إليه أضداد الناس، المسرفين فى حبه، والمسرفين فى بغضه على السواء، ولذا قيل فيه: إنه فى هذه الأمة مثل المسيح ابن مريم فى بنى إسرائيل أحبه قوم فكفروا فى حبه، وأبغضه قوم

فكفروا فى بغضه.

دخل رجل على الحسن البصرى، فقال: يا أبا سعيد، إنهم يزعمون أنك تبغض عليا، فبكى الحسن حتى اخضلت لحيته، ثم قال: كان على بن أبى طالب سهما صائبا من مرامى الله على عدوه، وكان ربانى هذه الأمة، وذا فضلها وسابقتها، وذا قرابة قريبة من رسول الله ﷺ، لم يكن بالنومة[١] عن رسول الله ﷺ ولا اللومة[٢] فى ذات الله ولا السروقة[٣] لمال الله، أعطى القرآن عزائمه، ففاز منه برياض مونقة ذلك على بن أبى طالب، يا لكع، بائع الجمل، وماء الحوءب، ونباح كلابها.

حدث العرنى صاحب الجمل، فقال: بينما أنا أسير على جمل إذ عرض لى راكب، فقال: يا صاحب الجمل، تبيع جملك؟ قلت: نعم، قال: بكم؟ قلت: بألف درهم، قال: مجنون أنت، جمل يباع بألف درهم، قلت: نعم جملى هذا، قال: ومم ذلك؟ قلت: ما طلبت عليه أحدا قط إلا أدركته، ولا طلبنى وأنا عليه أحد إلا فته، قال: لو تعلم لمن نريده لأحسنت بيعنا، قلت: ولمن تريده؟ قال: لأمك، قلت: لقد تركت أمى فى بيتها قاعدة ما تريد براحا، قال: إنما أريده لأم المؤمنين عائشة، قلت: فهو لك، فخذه بغير ثمن، قال: لا، ولكن ارجع معنا إلى الرحل، فلنعطك ناقة مهرية ونزيدك دراهم، فرجعت فأعطونى ناقة مهرية وزادونى أربعمائة أو ستمائة درهم، فقال لى: يا أخا عرينة هل لك دلالة بالطريق؟ قلت: نعم، أنا من أدرك الناس، قال: فسر معنا فسرت معهم، فلا أمر على واد ولا ماء إلا سألونى عنه حتى طرقنا ماء الحوءب، فنبحتنا كلابها، قالوا: أى ماء هذا؟ قلت: ماء الحوءب، فصرخت عائشة بأعلى صوتها، ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته.

ثم قالت: أنا والله صاحبة كلاب الحوءب طروقا ردونى، ردونى، ردونى، فأناخت وأناخوا حولها وهم على ذلك، وهى تأبى حتى كانت

---

(١) النومة: الذى ينام.

(٢) اللومة: الذى يلام.

(٣) السروقة: الذى يسرق

الساعة التی أناخوا فیها من الغد، فجاءها ابن الزبیر، فقال: النجاء النجاء، فقد أدرککم والله علی بن أبی طالب فارتحلوا، وشتمونی وانصرفت، فما سرت إلا قلیلا، وإذا أنا بعلی ورکب معه نحو من ثلثمائة، فقال لی علی: یا أیها الراکب، فأتیته فقال: أین أتیت الظعینة؟ قلت: فی مکان کذا وکذا، وهذه ناقتها، وبعتهم جملی.

قال: وقد رکبته؟ قلت: نعم، وسرت معهم حتی أتینا ماء الحوءب، فنبحت علیها کلابها، فقالت کذا وکذا، فلما رأیت اختلاط أمرهم انفتلت وارتحلوا، قال علی: هل لك دلالة بذی قار؟ قلت: لعلی أدل الناس، قال: فسر معنا، فسرنا حتی نزلنا ذا قار، فأمر علی بن أبی طالب بجوالقین[1] فضم أحدهم إلی صاحبه، ثم جئ برحل فوضع علیهما، ثم جاء یمشی حتی صعد علیه وسدل رجلیه من جانب واحد، ثم حمد الله وأثنی علیه وصلی علی محمد ﷺ، ثم قال: قد رأیتم ما صنع هؤلاء القوم، وهذه المرأة، فقام إلیه الحسن فبکی، فقال له علی: قد جئت تخن خنین الجاریة، فقال: أجل، أمرتك فعصیتنی، فأنت الیوم تقتل بمضیعة[2] لا ناصر لك.

قال علی: حدث القوم بما أمرتنی به، قال: أمرتك یوم أحیط بعثمان رضی الله عنه أن تخرج من المدینة فیقتل ولست بها، ثم أمرتك یوم قتل ألا تبایع حتی یأتیك وفود أهل الأمصار والعرب وبیعة کل مصر، ثم أمرتك حین فعل هذان الرجلان ما فعلا أن تجلس فی بیتك حتی یصطلحوا، فإن کان الفساد کان علی یدی غیرك، وأمرتك حین سارت هذه المرأة وصنع هؤلاء القوم ما صنعوا أن تلزم المدینة، وترسل إلی من استجاب لك من شیعتك.

قال علی: صدق والله، ولکن یا بنی قولك لو خرجت من المدینة حین أحیط بعثمان، فوالله لقد أحیط بنا کما أحیط به، وأما قولك: لا تبایع حتی تأتی بیعة الأمصار، فإن الأمر أمر أهل المدینة، وکرهنا أن یضیع هذا

(١) الجوالق: العدل من صوف أو شعر.

(٢) مضیعة: دار ضیاع.

الأمر، وأما قولك حين خرج طلحة والزبير، فإن ذلك كان وهنا على أهل الإسلام، يا بنى ما كنت أكون كالضبع التى يحاط بها، ويقال: دباب دباب، ليست هاهنا حتى يحل عرقوباها، ثم تخرج إن النبى ﷺ قبض، وما أرى أحدا أحق بهذا الأمر منى فبايع الناس أبا بكر، فبايعت كما بايعوا، ثم إن أبا بكر رضى الله عنه هلك، وما أرى أحدا أحق بهذا الأمر منى فبايع الناس عمر بن الخطاب، فبايعت كما بايعوا، ثم إن عمر رضى الله عنه هلك وما أرى أحدا أحق بهذا الأمر منى، فجعلنى سهما من ستة أسهم، فبايع الناس عثمان رضى الله عنه فقتلوه، ثم أتونى فبايعونى طائعين غير مكرهين، فأنا مقاتل من خالفنى بمن اتبعنى حتى يحكم الله بينى وبينهم وهو خير الحاكمين.

أرأيت إلى هذا الحوار الذى دار، وما زال يدور على صفحات التاريخ حتى الآن بين الأب وابنه، الأب أمير المؤمنين المقاتل المغوار الذى لا يعبأ بالأخطار على بن أبى طالب، والابن هو الحسن الذى يكنى به أبوه الأب ينعى على ابنه أن يبكى بكاء الجارية الصغيرة، والابن ينعى أباه الذى يراه وكأنما كشف عنه الغطاء مقتولا بدار ضياع بلا ناصر.

الأب يرى أنه صاحب حق، ولكن الناس بايعوا سواه فى كل مرة، وهو يقبل بما قبله الناس إلى أن بايعوه بمحض اختيارهم دون قهر أو إجبار، فلماذا النكول عن البيعة؟.

إنه متمسك بها وسيحارب من أجلها، إنه مصر على قتال من خالفه بمن اتبعه، مهما كانت نبوءة ابنه.

أتذكر يا زبير؟ سار على من «الزاوية» يريد طلحة والزبير وعائشة، وساروا من «الغرضة» يريدون عليا، وكان اللقاء عند موضع قصر عبيد الله بن زياد، فلما تراءى الجمعان خرج الزبير على فرس عليه سلاح قالوا لعلى: هذا الزبير، قال: أما أنه أحرى الرجلين إن ذكر بالله أن يذكره وخرج طلحة، فخرج إليهما على، فدنا منهما حتى اختلفت أعناق

دوابهما، فقال على: لعمرى لقد أعددتما سلاحا وخيلا ورجالا إن كنتما أعددتما عند الله عذرا فاتقيا الله سبحانه، ولا تكونا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا، ألم أكن أخاكما فى دينكما تحرمان دمى وأحرم دماءكما؟ فهل من حدث أحل لكم دمى؟ قال طلحة: ألبت الناس على عثمان رضى الله عنه.

قال على: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥] يا طلحة، تطلب بدم عثمان رضى الله عنه، فلعن قتلة عثمان، يا زبير أتذكر يوم مررت مع رسول الله ﷺ فى بنى غنم، فنظر إلى الرسول فضحك وضحكت إليه، فقلت أنت: لا يدع ابن أبى طالب زهوة، فقال لك رسول الله ﷺ: «صه، إنه ليس به زهو، ولتقاتلنه وأنت له ظالم»؟ فقال الزبير: اللهم نعم، ولو ذكرت ما سرت مسيرى هذا، والله لا أقاتلك أبدا، فانصرف على إلى أصحابه، فقال: أما الزبير فقد أعطى الله عهدا ألا يقاتلكم، ونادى على طلحة، وقال له: يا طلحة: جئت بعرس - زوجته السيدة عائشة - رسول الله ﷺ تقاتل بها، وخبأت عرسك فى البيت، أما بايعتنى؟ قال: بايعتك وعلى عنقى اللج.

فقال على لأصحابه: أيكم يعرض عليهم هذا المصحف وما فيه، فإن قطعت يده أخذه بيده الأخرى، وإن قطعت أخذه بأسنانه؟ قال فتى شاب: أنا، فطاف على على أصحابه يعرض ذلك عليهم، فلم يقبله إلا ذلك الفتى، فقال على: أعرض عليهم هذا، وقل: هو بيننا وبينكم، من أوله إلى أخره، والله فى دماءنا ودمائكم، فحمل على الفتى، وهو فى يده المصحف، فقطعت يداه، فأخذه بأسنانه حتى قتل، فقال على: قد طاب لكم الضراب - أى القتال - فقاتلوهم، فقتل يومئذ سبعون رجلا كلهم يأخذ بخطام الجمل، فقالت أم الفتى بعد ذلك فى رثاء ابنها:

اللهم إن مسلما دعاهم يتلو كتاب الله لا يخشاهم
وأمهم قائمة تراهم يأتمرون الغى لا تنهاهم
قد خضبت من علق لحاهم

وهكذا لم يبدأ الإمام على القتال إلا بعد حوارهم، وإثبات أنهم بايعوه بالخلافة، واستحلفهم بالمصحف فقتلوا حامله.

ورجع الزبير إلى عائشة، فقال لها: ما كنت فى موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف فيه أمرى غير موطنى هذا، قالت: فما تريد أن تصنع؟ قال: أريد أن أدعهم وأذهب، قال له ابنه عبد الله: جمعت بين هذين الجيشين حتى إذا حدد بعضهم لبعض أردت أن تتركهم وتذهب، أحسست رايات ابن أبى طالب، وعلمت أنها تحملها فتية أنجاد، قال: إنى قد حلفت ألا أقاتله - أحفظه ما قاله ابنه له - فقال ابنه وكأنه يأتى له بأفضل الحلول: كفر عن يمينك وقاتله، وانتصر شيطان الفرقة، فدعا بغلام له يقال له: مكحول، فأعتقه.

فقال عبد الرحمن بن سليمان التيمى:

لم أرى كاليوم أخا إخوانى أعجب من مكفر الإيمان
بالعتق فى معصية الرحمن

وقال آخر:

يعتق مكحولا لصون دينه كفارة لله عن يمينه
والنكث قد لاح على جبينه

لقاء إخوة الإسلام:

انهزم الناس فى صدر النهار فنادى الزبير فيهم: أيها الناس هلم إلى، أنا الزبير، ومعه مولى له ينادى: أعن حوارى رسول الله تنهزمون، وأقبل عمار، والتقى به وجها لوجه، وجعل يحوزه بالرمح، ونظر له الزبير وفى لحظة أسرع من سرعة الضوء عاد إلى عمار ماضيهما كله، يرفرف بجناحيه الجليلين سبقهما إلى الإسلام، صحبتهما للرسول عليه الصلاة والسلام، قتالهما المتوحد ضد المشركين، ما أبعد المواقف بين الأمس واليوم.

قال الزبير: وقد حازه عمار بالرمح: أتريد أن تقتلنى يا أبا اليقظان، قال عمار والدموع تملأ عينيه: لا يا أبا عبد الله.

قال محمد بن الحنفيه بن على بن أبى طالب دفع إلى أبى الراية يوم الجمل وقال: تقدم فتقدمت حتى لم أجد متقدما إلا على رمح، قال: تقدم لا أم لك، فتكأكأت، وقلت: لا أجد متقدما إلا على سنان رمح، فتناول الراية من يدى متناول لا أدرى من هو، فنظرت فإذا أبى بين يدى، وهو يقول:

أنت الذى غرك منى الحسنى
يا عيش إن القوم قوم أعدا
الخفض خير من قتال الأبنا

سيف الزبير:

لما انهزم الناس يوم الجمل عن طلحة والزبير، مر الزبير بعسكر الأحنف، فلما رأه وأخبر به، قال: والله ما هذا باختيار لهم، من يأتينا بخبره؟ قال عمرو بن جرموز لأصحابه: أنا، فلما لحقه نظر إليه الزبير، وكان شديد الغضب، قال: ما ورائك؟ قال: إنما أردت أن أسألك فقال غلام للزبير كان معه: إنه معد – عدو – قال الزبير: ما يخيفك من رجل؟ وحضرت الصلاة، قال ابن جرموز: الصلاة، فقال الزبير: الصلاة، فنزلا واستدبره ابن جرموز فطعنه من خلفه فى جيب درعه فقتله، وأخذ فرسه وخاتمه وسلاحه وخلى عن الغلام، فدفنه بوادى السباع، ورجع للناس بالخبر.

فأما الأحنف، فقال: والله ما أدرى أحسنت أم أسأت، ثم انحدر إلى على، وابن جرموز معه فدخل عليه، فأخبره فدعا بالسيف، فقال: سيف طالما جلى الكرب عن وجه رسول الله ﷺ، وأقبل على الأحنف، فقال: تربصت، قال الأحنف: ما كنت أرانى إلا أحسنت، وبأمرك كان ما كان يا أمير المؤمنين، فأرفق فإن طريقك الذى سلكت بعيد، وأنت إلى غدا أحوج منك أمس، فاعرف إحسانى واستصف مودتى لغد، ولا تقولن مثل هذا، فإنى لم أزل لك ناصحا.

الخطام:

قال عبد الله بن الزبير: مشيت يوم الجمل، وبى سبع وثلاثون جراحة من

ضربة وطعنة، وما رأيت مثل يوم الجمل قط، ما ينهزم منا أحد، وما نحن إلا كالجبل الأسود، وما يأخذ بخطام الجمل أحد إلا قتل، فأخذه عبد الرحمن بن عتاب فقتل، فأخذه الأسود بن أبى البخترى فصرع، وجئت فأخذت بالخطام، فقالت عائشة: من أنت؟ قلت: عبد الله بن الزبير، قالت: واثكل أسماء، ومر بى الأشتر، فعرفته فعانقته فسقطنا جميعا، وناديت: اقتلونى ومالكا، فجاء ناس منا، ومنهم فقاتلوا عنا حتى تحاجزنا، وضاع الخطام، ونادى على: أعقروا الجمل، فإنه إن عقر تفرقوا، فضربه رجل فسقط، فما سمعت صوتا قط أشد من عجيج الجمل، وأمر على محمد بن أبى بكر فضرب عليها قبة، وقال: انظر هل وصل إليها شىء؟ فأدخل رأسه، فقالت: من أنت ويلك؟ فقال: أبغض أهلك إليك، قالت: ابن الخثعمية؟ قال: نعم، قالت: بأبى أنت وأمى، الحمد لله الذى عافاك.

ولما أمسى الناس وتقدم على، وأحيط بالجمل ومن حوله وعقره بجير بن دلجة، وقال: إنكم آمنون، كف بعض الناس عن بعض، قال على:

إليك أشكو عجرى وبجرى ومعشرا غشوا على بصرى
قتلت منهم مضرا بمضرى شفيت نفسى وقتلت معشرى

وسئل بجير لم عقرت الجمل؟ فقال: رأيت قومى يقتلون فخفت أن يفنوا، ورجوت إن عقرته أن يبقى لهم بقية.

ثأر عثمان ممن يطالب بدمه:

يبدو أن طلحة رضى الله عنه راجع نفسه، واستعاد ما كان منه لعثمان رضى الله عنهما، واتته لحظة صفاء النفس، وهو يقاتل فى وقعة الجمل، فاتجه إلى الله تعالى طالبا منه أن يطهره مما فعل، فقال: اللهم اعط عثمان منى حتى يرضى، وكأنما استجاب الله دعوته، فجاءه سهم لا يدرى من أين جاء، وهو واقف بفرسه فسال دمه، فلما شعر بالتعب والثقل وقرب النهاية، قال لمولاه: أردفنى وابغنى مكانا لا أعرف فيه، فلم أر كاليوم شيخا أضيع دما منى، فركب مولاه وامسكه وجعل يقول: قد لحقنا القوم حتى

انتهى به إلى دار من دور البصرة خربة، وأنزله فى ساحتها فمات فى تلك الخربة، ودفن رضى الله عنه فى بنى سعد.

لقاء عمار وعائشة رضى الله عنهما:

قال عمار بعدما عقر الجمل: كيف رأيت ضرب بنيك اليوم يأمة؟ قالت: من أنت؟ قال: أنا ابنك البار عمار، قالت: لست لك بأم، قال: بلى وإن كرهت، قالت: فخرتم أن ظفرتم، وأتيتم مثل ما نقمتم، هيهات والله لن يظفر من كان هذا دأبه.

وأبرزوها بهودجها من القتلى، ووضعوها ليس قربها أحد، وكان هودجها كأنه قنفذ مما رمى فيه من النبل.

وجاء أعين بن ضبيعة المجاشعى حتى نظر فى الهودج، فقالت: إليك لعنك الله، فقال: والله ما أرى إلا حميراء، قالت: هتك الله سترك، وقطع يدك وأبدى عورتك، فقتل بالبصرة وسلب وقطعت يده ورمى به عريانا فى خربة من خربات الأزد.

حلم.. عفو.. تكريم:

دخل على وتوجه للقاء عائشة رضى الله عنها بدار عبد الله بن خلف، أعظم دار بالبصرة، فوجد النساء يبكين على عبد الله وعثمان ابنى خلف مع عائشة، وصيفة ابنة الحارث مختمرة تبكى، فلما رأته قالت: يا على، يا قاتل الأحبة، يا مفرق الجمع، أيتم الله بنيك منك كما أيتمت ولد عبد الله منه، فلم يرد عليها بشىء، ولم يزل على حاله حتى دخل على عائشة، فسلم عليها، وقعد عندها، وقال لها: جبهتنا صفية - أى واجهتنا بكلام لا يليق - أما إنى لم أرها منذ كانت جارية صغيرة حتى اليوم، فلما خرج أقبلت عليه فأعادت عليه الكلام، فكفُ بغلته، وقال: إنى هممت - وأشار إلى أبواب من الدار - أن افتح هذا الباب وأقتل من فيه، ثم هذا فأقتل من فيه، ثم هذا فأقتل من فيه، وكان أناس من الجرحى قد لجئوا إلى عائشة، فأخبر على بمكانهم عندها، فتغافل عنهم، فسكتت.

فخرج علي، فقال رجل من الأزد: والله لا تفلتن هذه المرأة، فغضب علي، وقال: صه، لا تهتكن سترا، ولا تدخلن دارا، ولا تهيجن امرأة بأذى، وإن شتمن أعراضكم، وسفهن أمراءكم وصلحاءكم، فإنهن ضعاف، ولقد كنا نؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات، وإن الرجل ليكافئ المرأة ويتناولها بالضرب فيعير بها عقبة من بعده، فلا يبلغني عن أحد عرض لامرأة، فأنكل به شرار الناس.

ومضى علي، فلحق به رجل، فقال: يا أمير المؤمنين، قام رجلان ممن لقيت على الباب فتناولا من هو أشد لك شتيمة من صفية، قال: ويحك، لعلها عائشة، قال: نعم، قام رجلان منهم على باب الدار، فقال أحدهما: جزيت عنا أمنا عقوقا. وقال الآخر: يا أمنا، توبي فقد خطيت. فبعث القعقاع بن عمرو إلى الباب، فأقبل بمن كان عليه فأحالوا على رجلين فقال: اضرب أعناقهما، ثم قال: لأنهكنهما عقوبة، فضربهما مائة مائة، وأخرجهما من ثيابهما، وهما رجلان من أزد الكوفة يقال لهما: عجل وسعد ابنا عبد الله.

كان من سيرته فيمن قاتل يوم الجمل:

ألا يقتل مدبرا، وألا يذفف - يجهز - على جريح، ولا يكشف سترا، ولا يأخذ مالا.

فقال قوم يومئذ ينتقدونه:

يحل لنا دماءهم .... ويحرم علينا أموالهم

فقال: القوم أمثالكم.......... من صفح عنا فهو منا ونحن منه

ومن لج حتى يصاب فقتاله مني على الصدر والنحر

وإن لكم في خمسه لغنى .... فيومئذ تكلمت الخوارج.

كان قتلى الجمل حول الجمل عشرة آلاف، نصفهم من أصحاب علي، ونصفهم من أصحاب عائشة من الأزد ألفان، من اليمن خمسمائة، من مضر

ألفـان مـن قيـس خمسـمائة، ومـن تميـم خمسـمائة، وألـف مـن بنـى ضبـة، وخمسمائة من بكر بن وائـل، وقيـل: قتـل عشـرة ألاف مـن أهـل البصـرة، وخمسة آلاف من الكوفة، وقتل من بنى عدى سبعون شيخا كلهم قـد قـرأ القرآن سوى الشباب، ومن لم يقرأ القرآن.

تكريم عائشة رضى الله عنها:

جهز على رضى الله عنه عائشة أم المؤمنين بكل ما ينبغى لها مـن زاد أو متاع، وأخرج معها كل من نجا ممن خرج معها إلا من أحب المقام، واختار لها أربعين امرأة من نسـاء أهـل البصـرة المعروفـات، وقـال: تجـهز يـا محمـد فبلغها، فلما كان اليوم الـذى ترتحـل فيـه جاءهـا حتـى وقـف لهـا، وحضـر الناس، فخرجت عليهم وودعوها وودعتهم، وقالت: يا بنى، تعتـب بعضنـا على بعض استبطاء واستزاده، فلا يعتدن أحد منكم على أحـد بشـىء بلغـه من ذلك، إنه والله ما كان بينى وبين علـى فـى القديـم، إلا مـا يكـون بـين المرأة وأحمائها، وإنه عندى – على معتبتى – من الأخيار.

وقال على: أيها الناس، صدقت والله وبرت، ومـا كـان بينـها وبينـى إلا ذلك، وإنها لزوجة نبيكم ﷺ فى الدنيا والآخرة.

قال لها عمار بن ياسر حين فرغ القوم: يا أم المؤمنين، ما أبعد هذا المسير من العهد الذى عهد إليك، قالت: أبو اليقظان، قال: نعم، قالت: والله إنك ما علمت قوال بالحق، قال: الحمد لله الذى قضى لى على لسانك.

وقفة أمام وقعة الجمل:

كان صراع الثلاثة الكبار من الصحابة علـى والزبـير وطلحـة ومعـهم أم المؤمنين عائشة رضى الله عنهم أجمعين فرصة يفيد منها معاويـة فـى صراعـه مع الإمام على، فقد أسفر الصراع عن مقتل اثنين من كبار الصحابة، ومـن أهل الشورى الستة الذيـن توفـى الرسـول ﷺ وهـو عنـهم راض، ولم يبـق منهم سوى اثنين أحدهما المطالب بالخلافة، والآخر سعد بـن أبـى وقـاص الذى لم يشارك فى هذا الصراع قائلا كلماته المشهوره التى يرد بـها علـى

كل من يسأله: ما يمنعك من القتال؟ يقول: لا أقاتل حتى تأتوني بسيف ذي عينين ولسان وشفتين، فيقول: هذا مؤمن وهذا كافر، أو بسيف يعرف المؤمن من الكافر، هذا الصحابي رأى ما يحدث فتنة فاعتزلها، ورفض أن يشارك فيها.

فمعاويه آمن من جهة هذا الصحابي الجليل، ولم يعد أحد ينازعه سوى علي الذي خاض معركة الجمل، فكانت الخسائر فيها ما يقرب من عشرين ألف قتيل نصفهم من أتباعه، والنصف الآخر من أتباع الزبير وطلحة، وهي خسارة فادحة حتى مع الانتصار في ميدان القتال.

ولا يشك أحد في أنه قتال بين مسلمين ومسلمين أهل ملة واحدة، وليس قتالا بين مؤمنين ومشركين أيام كانوا تحت قيادة خاتم المرسلين.

ألا يعتبر هذا تحولا خطيرا في التاريخ الإسلامي حزن له علي بن أبي طالب رغم انتصاره، وصلى على جميع القتلى من أهل البصرة، أو أهل الكوفة، وصلى على قريش من هؤلاء وهؤلاء، فكانوا مدنيين ومكيين، وجعل كلما مر برجل فيه خير قال: زعم من زعم أنه لم يخرج إلينا إلا الغوغاء.

إنه لا تنافس على رسالة الرسل ونبوة الأنبياء؛ لأنها من اختيار الله عز وجل، فالتنافس عليها كفر، أما التنافس على الخلافة فهو من اختيار الناس، والتنافس عليها يدور في نطاق المشروع طالما أنه لا تتخذ وسائل غير مشروعة في التنافس.

وقد اختلفت صورة الاختيار خلال عهدين قصيرين من عهود الإسلام، فالطريقة التي تم اختيار أبي بكر بها تختلف عن الطريقة التي أتخذت في اختيار عمر تختلف عن الطريقة التي وضعها عمر لاختيار الخليفة من بعده، فاختيار أبي بكر رضي الله عنه تم بعد أخذ ورد بين المهاجرين والأنصار، وبعد طرح أسماء المرشحين لها، ثم بايعه المسلمون، ووجد من تأخر عن بيعة، وقتا طال أو قصر.

واختيار عمر تم باختيار أبى بكر رضى الله عنهما، ولم يعلم به عامة المسلمين إلا بعد وفاة أبى بكر، وتلاوة كتاب ترشيحه أو تعيينه، ثم تمت البيعة العامة له.

وأما عمر فقد اتخذ أسلوبا آخر لاختيار خليفة المسلمين، وقال: إن تركت تحديد الخليفة فقد تركه من هو خير منى، يعنى بذلك رسول الله ﷺ، وإن اخترت واحدا للمسلمين فقد فعل ذلك أبو بكر، فجعل اختيار الخليفة يكون من بين ستة حددهم، وهم الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض.

فاختيار خليفة للمسلمين أمر مرن غير جامد، ولا متجمد تشارك فيه الظروف والملابسات المحيطة بالمجتمع الإسلامى، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا يدخل فى حلبة التنافس جيل آخر، خاصة وأن الجيل الذى حدده عمر لم يبق ممن يصلح للترشيح إلا اثنان بعد مقتل اثنين فى نزاع مسلح.

ولماذا لا يدور بذهن معاوية أنه مرشح عمر بن الخطاب الذى اختاره واليا على الشام، ولم يعزله عنه طوال حياته، واستمر بعده طوال حياة الخليفة الثانى، حافظا موقعه باذلا جهده فى الجهاد عابرا البحار لأول مرة فى التاريخ الإسلامى.

لا أقول بذلك تفضيلا لمعاوية على على، وإلا اختلت موازين كثيرة، ولكنا نقوله بمنطق ما طرأ على الأمة الإسلامية من أحداث وتطورات حفرت طريقها فى المجتمع الإسلامى، ساعدت على أبراز معاوية وظهوره على الساحة فى الوقت الذى تم فيه اختيار الإمام على كرم الله وجهه خليفة، أو أميرا للمؤمنين.

بل لقد رأينا شيئا من هذا الاحتجاج على لسان معاوية مع بعض المتمردين حين طالبه بالاعتزال لوجود من هو أحق منه بالخلافة، ولم يجبن معاوية عن الإجابة رغم أنه يعرف إلى من يشير الرجل، وأنه يشير إلى على رضى الله عنه، قال معاوية: من هو؟ قال صعصعة: من كان أبوه أحسن

قدما من أبيك، وهو بنفسه أحسن قدما منك فى الإسلام.

قال معاوية: والله إن لى فى الإسلام قدما، ولغيرى كان أحسن قدما منى، ولكنه ليس فى زمانى أحد أقوى على ما أنا فيه منى، ولقد رأى ذلك عمر بن الخطاب، فلو كان غيرى أقوى منى لم يكن لى عند عمر هوادة ولا لغيرى، و لم أحدث من الحدث ما ينبغى لى أن أعتزل عملى.

ظروف جديدة فتحت الطريق أمام معاوية ووضعت ما يقابله من الصعاب والعقبات أمام على رضى الله عنه:

إن تصارع الكبار يطمع فيهم من هم أقل منهم، ويقلل الهيبة فى النفوس، ويفتح الباب والنوافذ لرياح الجراءة إلى حد السباب على المنابر، ولعن من يحرم الإسلام لعنه لقد نهى رسول الله ﷺ عن لعن شارب الخمر الذى يقام عليه الحد بقوله: «لا تعينوا الشيطان على أخيكم»، فكيف بمن يستبيح لنفسه، ولغيره لعن رجل من آل بيت النبى، وله فى التاريخ الإسلامى وأمجاده ما تضيق عنه الصفحات الطوال.

لكنه العصر الذى تخلخلت فيه القيم، وهبط فيه مؤشر الوازع الدينى.

كان على بن أبى طالب يمثل عصر الطهارة، عصر العفة فى كل شىء عفة اليد وعفة اللسان حتى مع مقاتليه، كان يعيش فى العصر النبوى؛ لأنه تربى فيه، رضع الإيمان صغيرا، ونمت عضلاته عليه كبيرا، ولكنه عصر النبوة لم يعد هو نفس العصر فى عهد معاوية، فقد جرت مياة كثيرة فى النهر حملت معها كثيرا من رواسب ما قبل الإسلام فضلا عن رواسب ما استجد بعد ذلك.

كان الإمام منصفا لمقاتليه:

سئل أهم من الكافرين حتى تقاتلهم؟ فقال: بل من الكفر فروا، قيل: فلم تقاتلهم إن كانوا مؤمنين؟ قال: لأنهم نكثوا البيعة وفرقوا جماعة المسلمين، قالوا: من هم إذن؟ قال: إخواننا بغوا علينا.

بل إنه عاقب من أساءوا إلى أم المؤمنين عائشة بالقول، كاد يقتلـهـم، ثـم عاقبهم بجلد الواحد منهم مائة جلدة.

وبعد عقر الجمل الذى قتل مـن حولـه مـن قتـل، وانفضـاض النـاس مـن حولها دنا على رضى الله عنه من هودجها، وحادثها فقالت له: يا ابـن أبـى طالب ملكت فاسجح، والسجيحة كانت خلقه والعفـو كـان مـن شيمته، فجهزها بأحسن الجهاز، وبعث معها أربعين امرأة، قيل: إنهم كانوا يرتدون ملابس الرجال، وودعها عند رحيلها، وقال لمن حضر: إنـهـا زوجـة نبيكـم فى الدنيا والآخرة.

قيل: أن القعقاع بن عمر دخل على عائشة فى أول مـن دخـل دار عبـد الله بن خلف، فسلم عليها فقالت: إنى رأيت بالأمس رجلين، واجتلدا بـين يدى، وارتجزا بكذا فهل تعرف كوفيك منهما؟ قال: نعم، ذاك الذى قـال: «أعق أم نعلم»، وكذب والله إنك لأبر أم نعلم، ولكن لم تطـاعى، فقـالت: والله لوددت أنى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة، وخرج فأتى عليا فأخبره أن عائشة سألته، فقال له على: ويحك من الرجـلان؟ قـال: ذلـك أبـو هالـة الذى يقول: «كيما أرى صاحبه عليا». فقال: والله لـوددت أنـى مـت قبـل هذا اليوم بعشرين سنة، فكان قولهما واحد.

عن أبى وائل، قال: قلت لعبد الرحمن بـن عـوف: كيـف بـايعتم عثمـان وتركتم عليا؟ فقال: ما ذنبى؟ قد بدأت بعلى، فقلت: أبايعك علـى كتـاب الله وسنة نبيه وسيرة أبى بكر وعمر ،فقـال: فيمـا استطعت، ثـم عرضتـها على عثمان فقبلها.

ولما بايعه الناس تخلف عن بيعتـه جماعـة مـن الصحابـة منـهـم ابـن عمـر، وسعد، وأسامة وغيرهم، فلم يلزمهم بالبيعة وسئل علـى، عمـن تخلـف عـن بيعته، فقال: أولئك قعدوا عن الحق، و لم ينصروا الباطل.

سئل أبو أيوب الأنصارى: قاتلت بسيفك هذا المشركين مـع رسـول الله ﷺ، ثم جئت تقاتل المسلمين، قال: أمرنـى رسـول الله ﷺ بقتـل النـاكثين

والقاسطين والمارقين، إذا فقتال الناكثين كان واردا عن رسول الله ﷺ.

عن على بن ربيعة، قال: سمعت عليا على منبركم هذا يقول: عهد إلى رسول الله ﷺ أن أقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين.

وروى أن ابن عمر، قال حين حضره الموت: ما أجد فى نفسى من الدنيا إلا أنى لم أقاتل الفئة الباغية.

وقال ابن عمر فى رواية أخرى: ما آسى على شىء إلا أنى لم أقاتل مع على بن أبى طالب الفئة الباغية.

وقال الشعبى: ما مات مسروق حتى تاب إلى الله تعالى من تخلفه عن القتال مع على.

القتال على تأويله:

عن أبى سعيد قال: كنا مع رسول الله ﷺ فانقطع شسعه[1]، فأخذها على يصلحها، فمضى رسول الله ﷺ فقال: «إن منكم رجلا يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله»، فاستشرف لها القوم فقال رسول الله ﷺ: «لكنه خاصف النعل»، فجاء فبشرناه بذلك، فلم يرفع به رأسا، كأنه شىء قد سمعه من النبى ﷺ.

وثبت فى صحيح البخارى من حديث الحسن، عن أبى بكرة رضى الله عنه، قال: إن رسول الله ﷺ خطب يوما، ومعه على المنبر الحسن بن على رضى الله عنهما، فجعل ينظر إليه مرة وإلى الناس أخرى، ويقول: «إن ابنى هذا سيد، ولعل الله تعالى أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين».

فكان الحسن كما قال ﷺ أصلح الله تعالى به بين أهل الشام، وأهل العراق بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا

(١) الشسع: زمام الفعل بين الأصبع الوسطى والتى تليها.

﴿بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الحجـــرات: ٩]، ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

هكذا يأمر الله عز وجل بـالإصلاح بـين الفئتـين البـاغيتين بعضـهم علـى بعض، فسماهم مؤمنين مع الاقتتال، وبهذا استدل البخارى وغيره علـى أن المعصية وإن عظمت لا تخرج المؤمن عن الإيمان، وهذا يخالف ما يقـول بـه الخوارج، ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم.

﴿بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ [الحجرات: ٩] فقاتلوا: الفئة الباغية حتـى ترجع إلى أمر الله ورسوله، وتسمع للحق وتطيعه، كما ثبـت فـى الصحيـح عـن أنـس رضـى الله عنـه أن رسـول الله ﷺ قـال: «انصـر أخـاك ظالمـا أو مظلوما». قال أنـس: يـا رسـول الله، هـذا نصرتـه مظلومـا، فكيـف انصـره ظلما؟ قال ﷺ: «تمنعه من الظلم، فذاك نصرك إياه».

وجاء عن أنس أنه قال فى أسباب نزول هذه الآيات: قيل للنبى ﷺ: لو أتيـت عبـد الله بـن أبـى - كـان رأس المنـافقين فـى المدينـة - لدعوتـــه إلى الإسلام، وكان رسول الله لا يكف عن جهد يبذله فى سـبيل نشـر الدعـوة إلى الله تعالى، فانطلق النبى ﷺ إلى ابن أبى، راكبا حمارا، وانطلق المسلمون يمشون وكانت الأرض سبخة، فلما جاءه الرسول وألقى عليه السلام، قـال له عبد الله بن أبى رأس المنافقين فى المدينة: إليـك عنـى، فـوالله لقـد آذانـى ريح حمارك. فقال رجل مـن الأنصـار: والله لحمـار رسـول الله ﷺ أطيـب ريحا منك. فغضب لعبد الله رجال من قومـه، وغضـب لكـل واحـد منـهما أصحابه، فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدى والنعـال، فقيـل: إنـها أنزلـت فيهم: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

ولكن الحكم الـوارد فـى هـذه الآيـات حكـم عـام يشـمل جميـع أنـواع الاقتتال وبكل أنواع الأسلحة، ولا يتصور أنه قاصر على الاقتتـال بالنعـال، أو بالأيدى أو بالجريد، فكل هـذه أدوات بدائيـة لا تشـكل خطـرا يذكـر، وميزة القرآن أنه كلام الله تعالى الصالح لكل زمان ومكـان، ولعـل المؤمنـين يصبحون قـادرين ذات يـوم علـى تشـكيل قـوة إسـلامية قويـة قـادرة علـى

التدخل إذا ما نشب قتال بين طرفين مؤمنين دون حاجة إلى الالتجاء إلى التدخلات الأجنبية التى لها أهدافها الخاصة المدمرة لقدرات العالم الإسلامى سواء الحربية، أو المدينة كما نلاحظ فى العصر الذى نعيشه، أو بالأحرى فى العصر الذى يعيشنا طبقا لمطامعه وأهوائه، وليس طبقا لمصالحنا الحيوية وأهدافنا القومية.

وقد ذكر المفسرون عدة صور لهذه الاشتباكات القديمة التى يمكن أن تطبق عليها هذه الآيات اكتفينا بذكر إحداها لنعلم أنها ليست قاصرة على تلك الصور البدائية التى نشبت فى الماضى وقت نزولها، والنص القرآنى الكريم يحدد من يجب عليه التدخل لفض النزاع بين المؤمنين بأنه منهم وليس طرفا أجنبيا ﴿فَأَصْلِحُوا﴾ أى أنتم، و﴿فَقَاتِلُوا﴾ أى أنتم، وليس أحد سواكم.

قدم على بجيشه على معاوية، وأهل الشام بصفين، وكان معاوية قد سبقهم إلى مكان منبسط واسع نزل فيه برجاله بحيث يتحكمون منه فى مورد الماء، وصفوا الخيل والرجال، وقدموا الرماة أمامهم، واجمعوا على منع الماء عن على ورجاله.

دعا على صعصعة، فقال له: امض إلى معاوية فقل له: إنا سرنا سيرنا هذا إليكم، ونحن نكره قتالكم قبل الاعذار إليكم، وإنك قدمت إلينا خيلك ورجالك، فقاتلنا قبل أن نقاتلك، وبدأتنا بالقتال، ونحن من رأينا الكف عنك حتى ندعوك ونحتج عليك، وهذه أخرى قد فعلتموها، قد حلتم بين الناس والماء، والناس غير منتهين أو يشربوا، فابعث إلى أصحابك، فليخلوا بين الناس وبين الماء، ويكفوا حتى ننظر فيما بيننا وبينكم، وفيما قدمنا له وقدمتم له، وإن كان أعجب إليك أن نترك ما جئنا له، ونترك الناس يقتتلون على الماء حتى يكون الغالب هو الشارب فعلنا.

فقال معاوية لأصحابه: ما ترون؟ فقال الوليد بن عقبة: امنعهم الماء كما منعوه عثمان بن عفان رضى الله عنه، حصروه أربعين صباحا يمنعون برد

الماء، ولين الطعام اقتلهم عطشا قتلهم الله عطشـا، قـال عمـرو بـن العـاص: خل بينهم وبين الماء، فإن القوم لن يعطشوا وأنت ريان، ولكـن بغـير المـاء، فانظر ما بينك وبينهم، قال عبد الله بن أبى السرح: امنعهم المـاء إلى الليـل، فإنهم إن لم يقدروا عليه رجعوا ورجوعهم يعتبر فلا - هزيمة - أمنعهم الماء منعهم الله يوم القيامة.

فقال صعصعة: إنما يمنعه الله عز وجل يوم القيامة الكفرة الفسقة، وشربة الخمر ضربك وضرب هذا الفاسق - يعنى الوليد بـن عقبـة - فتواثبـوا إليـه يشتمونه ويتهددونـه، فقـال معاويـة: كفـوا عـن الرجـل فإنـه رسـول، قـال صعصعة لمعاوية: فما ردك على ما قلنا؟ قال معاويـة: سـيأتيكم رأيـى، قـال صعصعة: فوالله ما راعنا إلا تسريته الخيل إلى القائد أبى الأعور ليكفهم عـن الماء، فأبرزنا على إليهم، فارتمينا ثم اطعنا، ثـم اضطربنـا بالسـيوف فنصرنـا عليهم، فصار الماء فى أيدينا، فقلنا: لا والله لا نسقيهموه.

فأرسل إلينا على: أن خذوا من الماء حـاجتكم وارجعـوا إلى عسـكركم، وخلوا عنهم، فإن الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم.

وهكذا يبدو الفارق واضحا جليا بين الليل والنهار فريق لا يبـدأ بالقتـال إلا بعد أن يقدم ما لديه من حجج وبراهـين علـى سـلامة موقفـه، ويعـرف رأى غريمه، ثم إنه يمنع من الماء، فيجد نفسه مضطرا للقتـال عليـه حتـى لا يموت ظمأ فهو قتال حتمى يرتفع إلى الله تعالى ومعه العذر فى الاقدام عليه، وحينما ينتصر ويحوز الماء ويصبح فى موقف يجيز له منعه عن غريمه معاملة له بالمثل، لا يستغل هذا الموقف ليحقق منه انتصارات أخرى تبـدو فروسـية الإمام وشهامته وشجاعته، فيأمر أتباعه الشـجعان بالسـماح لهـم بالشـرب، وأخذ ما يحتاجون إليه من الماء الذى جعل الله منه كل شىء حى.

وهذه هى أخلاق الإمام الملازمة له فى جميع المواقف.

مقياس الحق (الترمومتر البشرى) عمار بن ياسر:

التفرق والتشرذم القبلى صهره محمد فى بوتقة الإيمان على مـدى ثـلاث

وعشرين سنة وجعل منه وحدة إسلامية، وأخوة إيمانية تقتحم الكفر وتقف متراصة كالبنيان المرصوص فى وجه المشركين ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [آخر سورة الفتح].

حتى إذا جاء هذا العهد الذى أمتشقت فيه السيوف والرماح بين أهل الملة الواحدة، اختلفت نوعية المواجهة بعدما كانت المعارك تجرى بين مؤمنين وكافرين صارت تدور رحاها بين فريق واحد من المؤمنين يقاتل بعضهم بعضا، وكانوا فيما مضى يقاتلون جنبا إلى جنب، واختلفت الآراء حتى فيما بين كبار الصحابة، وإن اتفق الجميع على أن هذه الحروب كانت ابتلاء من الله تعالى، وفتنة كبرى ما تزال آثارها تعمل حتى الآن، فنجد من كبار الصحابة من اعتزلها ورأى السلامة فى هذا الاعتزال؛ لأنه ليس لديه السيف الذى يفرق بين المسلم والكافر على حد قول سعد بن أبى وقاص، كما أن منهم من اعتزلها ثم ندم على ما فعل فى نهاية العمر، كما أن فريقا آخر كان يقاتل وهو يعلم أنه على الحق المبين.

انطلق أبو مسعود وحبة بن جوين العرنى إلى حذيفة بالمدائن، فقال مرحبا بهما: ما خلفتما من قبائل العرب أحدا أحب إلى منكما، فقالا له: يا أبا عبد الله، حدثنا فإنا نخاف الفتن، فقال: عليكما بالفئة التى فيها ابن سمية إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقتله الفئة الباغية الناكبة عن الطريق، وإن آخر رزقه ضياح[1] من لبن».

قال حبة بن جوين: فشهدته يوم صفين وهو يقول: ائتونى بآخر رزق لى من الدنيا، فأتى بضياح من لبن فى قدح فيه سعة - أروح - له حلقة حمراء، فما أخطأ حذيفة مقياس شعرة.

فقال عمار: اليوم ألقى الأحبة محمدا وصحبه، والله لو ضربونا حتى يبلغوا منا سعفات هجر لعلمنا أنا على الحق، وأنهم على الباطل، وجعل

---

(١) الضياح: اللبن الرقيق الكثير الماء.

يقول: الموت تحت الأسل[١]، والجنة تحت البارقة[٢].

وقال عمار يومئذ: أين من يبتغى رضوان الله عليه، ولا يثوب إلى مال ولا ولد، فأتته عصابة من الناس، فقال: أيها الناس، اقصدوا بنا نحو هؤلاء الذين يبغون دم ابن عفان، ويزعمون أنه قتل مظلوما، والله ما طلبتهم بدمه، ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحبوها واستمرءوها، وعلموا أن الحق إذا لزمهم حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه من دنياهم، و لم يكن للقوم سابقة فى الإسلام يستحقون بها طاعة الناس والولاية عليهم، فخدعوا أتباعهم أن قالوا: إما منا قتل مظلوما، ليكونوا بذلك جبابرة ملوكا، وتلك مكيدة بلغوا بها ما ترون، ولولا هى ما تبعهم من الناس رجلان اللهم إن تنصرنا فطالما نصرت، وإن تجعل لهم الأمر فادخر لهم بما أحدثوا فى عبادك العذاب الأليم، ثم مضى ومضت تلك العصابة حتى دنا من عمرو.

مخاطبته عمرو بن العاص:

قال: يا عمرو، بعت دينك بمصر، تبا لك تبا طالما بغيت فى الإسلام عوجا، وخاطب عبيد الله بن عمر بن الخطاب، فقال: صرعك الله، بعت دينك من عدو الإسلام، وابن عدوه، قال عبيد الله بن عمر: لا ولكن أطلب بدم عثمان بن عفان رضى الله عنه، قال عمار: أشهد على علمى فيك أنك لا تطلب بشيء من فعلك وجه الله عز وجل، وإنك إن لم تقتل اليوم تمت غدا، فانظر إذا أعطى الناس على قدر نياتهم ما نيتك..

وكما كان عمار يقاتل وهو على يقين من أنه على الحق، كذلك كان الإمام على رضى الله عنه مع قوة وشجاعة لا تبارى.

قال أبو عبد الرحمن السلمى: كنا مع على بصفين، فكنا قد وكلنا بفرسه رجلين يحفظانه ويمنعانه من أن يحمل – يقاتل بنفسه – فكانت إذا حانت منهما غفلة يحمل، فلا يرجع حتى يخضب سيفه، وإنه حمل ذات يوم فلم

(١) الأسل: الرماح.
(٢) البارقة: السيوف.

يرجع حتى انثنى سيفه، فألقاه إليهم، وقال: لولا أنه انثنى ما رجعت، فقال الأعمش: هذا والله ضرب غير مرتاب، فقال أبو عبد الرحمن: سمع القوم شيئا، فأدوه وما كانوا بكاذبين، وكان عمار لا يأخذ واديا من أودية صفين إلا تبعه من كان هناك من أصحاب محمد ﷺ، جاء عمار إلى المرقال هاشم ابن عتبة، وهو صاحب راية علي - وكان أعورا - فقال له: يا هاشم، أعورا وجبنا، لا خير في أعور لا يغشى البأس، فإذا رجل بين الصفين قال: هذا والله ليخلفن إمامه، وليخذلن جنده، وليصبرن جهده اركب يا هاشم، فركب هاشم ومضى يقول:

أعور يبغي أهله محلا، قد عالج الحياة حتى ملا، لابد أن يفل أو يفلا. وعمار يقول: تقدم يا هاشم، الجنة تحت ظلال السيوف، والموت في أطراف الأسل، وقد فتحت أبواب السماء وتزينت الحور العين، اليوم ألقى الأحبة، محمدا وصحبه فلم يرجعا، وقتلا.

أثر مقتل عمار على معسكر معاوية:

أراد أبو عبد الرحمن السلمي أن يعرف صدى مقتل عمار في معسكر معاوية وهل بلغ منهم ما بلغ بمعسكر علي، وكان الفريقان إذا أنهو القتال تحادث بعضهم إلى بعض، قال: فركبت فرسي وقد هدأت الرجل، ثم دخلت فإذا أنا بأربعة يتسايرون معاوية، وأبو الأعور السلمي، وعمرو بن العاص، وعبد الله بن عمرو، وهو خير الأربعة، فأدخلت فرسي بينهم مخافة أن يفوتني ما يقوله أحدهم، فقال عبد الله لأبيه: يا أبت، قتلتم هذا الرجل في يومكم هذا، وقد قال فيه رسول الله ﷺ ما قال، قال عمرو: وماذا قال؟ قال عبد الله: ألم تكن معنا ونحن نبني المسجد والناس ينقلون حجرا حجرا، ولبنة لبنة، وعمار ينقل حجرين حجرين، ولبنتين لبنتين، فغشي عليه، فأتاه رسول الله ﷺ فجعل يمسح التراب عن وجهه ويقول: «ويحك يا ابن سمية، والناس ينقلون حجرا حجرا، ولبنة لبنة، وأنت تنقل حجرين حجرين، ولبنتين لبنتين، رغبة منك في الأجر، وأنت ويحك مع ذلك تقتلك الفئة الباغية». فدفع عمرو صدر فرسه، ثم جذب معاوية إليه، فقال: يا

معاوية، أما تسمع ما يقول عبد الله؟ قال: وما يقول؟ فأخبره الخبر، فقال معاوية: إنك شيخ أخرق، ولا تزال تحدث بالحديث، وأن تدحض في بولك، أو نحن قتلنا عمارا؟ إنما قتل عمارا من جاء به، فخرج الناس من فساطيطهم وأخبيتهم يقولون: إنما قتل عمارا من جاء به، فلا أدرى من كان أعجب؟ هو أو هم.

معاوية لا يستجيب للمبارزة الثنائية:

لما قتل عمار بن ياسر غضب على غضبا شديدا لمقتله، وازداد يقينا أن قتلته هم البغاة كما أنبأ منذ سنوات رسول الله ﷺ، وقال لربيعة وهمدان: أنتم درعى ورمحى، فانتدب له نحو من اثنى عشر ألف وتقدمهم على على بغلته، فحمل وحملوا معه حملة رجل واحد، فلم يبق لأهل الشام صف إلا انتقض، وقتلوا كل من انتهوا إليه حتى بلغوا معاوية، وعلى يقول:

أضربهم ولا أرى معاوية   الجاحظ العين العظيم الحاوية

ثم نادى معاوية، فقال على: علام يقتل الناس بيننا، هلم أحاكمك إلى الله، فأينا قتل صاحبه استقامت له الأمور.

فقال له عمرو: أنصفك الرجل، فقال معاوية: ما أنصف، وإنك لتعلم أنه لم يبارزه رجل قط إلا قتله، قال له عمرو: وما يجمل بك إلا مبارزته، قال معاوية: طمعت فيها بعدى.

هل كان عمرو يستطيع أن يخدع معاوية على نفسه فيجعله يندب في مبارزة قاتلة محسومة مسبقا، أغلب الظن أنه حرضه على البراز من باب المفاكهة، أو من باب إحصاء المواقف المهينة عليه يختزنها لوقت الحاجة، إنه داهية، ويتعامل مع داهية مثله، ولذا فإنه حين أصر على التمادى في التحريض قال له معاوية: طمعت فيها بعدى.

أى أنه يحرضه طمعا في أن يقتله على، ويتولى عمرو الخلافة، أو الإمارة العامة من بعده.

خدعة رفع المصاحف:

اشتد القتال فی صفین إلی الحد الذی نادی فیه الأشتر أصحابه فقال: شدوا شدة - فدا لکم عمی وخالی - ترضون بها الرب وتعزون بها الدین، إذا شددت فشدوا، ثم نزل فضرب وجه دابته، ثم قال لصاحب رایته: قدم بها، ثم شد علی القوم، وشد معه أصحابه، فضرب أهل الشام حتی انتهی بهم إلی عسکرهم، ثم إنهم قاتلوه عند العسکر قتالا شدیدا، فقتل صاحب رایته وأخذ علی یمده بالرجال لما رأی من الظفر من قبله.

فلما رأی عمرو بن العاص أن أمر أهل العراق قد اشتد، وخاف فی ذلك الهلاك، قال لمعاویة: هل لك فی أمر أعرضه علیك لا یزیدنا إلا اجتماعا ولا یزیدهم إلا فرقة؟ قال: نعم، قال عمرو: نرفع المصاحف، ثم نقول: ما فیها حکم بیننا وبینکم، فإن أبی بعضهم أن یقبلها وجدت فیهم من یقول: بلی ینبغی أن نقبل، فتکون فرقة تقع بینهم، وإن قالوا: بلی، نقبل ما فیها، رفعنا هذا القتال عنا، أو هذه الحرب إلی أجل أو إلی حین، فرفعوا المصاحف بالرماح، وقالوا: هذا کتاب الله عز وجل بیننا وبینکم، من لثغور أهل الشام بعد أهل الشام؟ ومن لثغور أهل العراق بعد أهل العراق؟ فلما رأی الناس المصاحف قد رفعت، قالوا: نجیب إلی کتاب الله عز وجل وننیب إلیه.

وبدأت خدعة عمرو تعمل عملها بأسرع مما کان یتخیل صاحبها، ففی الوقت الذی کان فیه النصر فی متناول ید الإمام الفارس، وکان الأشتر یطرق باب معسکر معاویة بسیوفه البتارة رفض الإمام وقف القتال، نهضت عصابة ممن صاروا خوارج بعد ذلك فقالوا: یا علی، أجب إلی کتاب الله عز وجل إذ دعیت إلیه، وإلا ندفعك برمتك إلی القوم أو نفعل کما فعلنا بابن عفان. وقال لهم: أن تطیعونی فقاتلوا، قالوا: لا، ابعث إلی الأشتر فلیأتك.

وبدأت تنازلات الإمام الفارس أمام هذا التیار غیر المتعقل أرسل للأشتر

بالحضور فرد عليه بقوله: قل له ليس هذه الساعة التى ينبغى لك أن تزيلنى فيها عن موقفى، إنى قد رجوت أن يفتح لى فلا تعجلنى، فاتهموه بأنه أمر الأشتر بالقتال، وقالوا: ابعث إليه فليأتك، وإلا والله اعتزلناك. قال على: اذهب يا يزيد - ابن هانئ السبيعى - للأشتر، وقل له أقبل، فإن الفتنة قد وقعت.

وتوالت المراسلات مع تهديداتهم، فجاء الأشتر غاضبا يصرخ فيهم، بقوله: يا أهل العراق، يا أهل الذل والوهن، أحين علوتم القوم ظهرا، وظنوا أنكم لهم قاهرون، رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها؟ لا تجيبوهم، أمهلونى عدو الفرس، فإنى قد طمعت فى النصر، قالوا: إذن ندخل معك فى خطيئتك، قال: فحدثونى عنكم، متى كنتم محقين؟ أحين كنتم تقاتلون وخياركم يقتلون؟ أم الآن أنتم محقون، وخياركم الذين كانوا خيرا منكم فى النار إذا؟.

ولكن عبثا حاول معهم فما عادت حججه المنطقية القوية تقنع مثل هذه العقول.

فقالوا له: دعنا منك يا أشتر، قاتلناهم فى الله عز وجل، وندع قتالهم لله سبحانه إنا لسنا مطيعيك ولا صاحبك فاجتنبنا، فانفجر فيهم قائلا: خدعتم والله فانخدعتم، ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم يا أصحاب الجباه السود، كنا نظن صلواتكم زهادة فى الدنيا، وشوقا إلى لقاء الله عز وجل، فلا أرى فراركم إلا إلى الدنيا من الموت، ألا قبحا يا أشباه النيب الجلالة، وما أنتم برائين بعدها عزا أبدا، فابعدوا كما بعد القوم الظالمون، فسبوه فسبهم، فضربوا وجه دابته بسياطهم، وأقبل يضرب بسوطه وجوه دوابهم، وصاح بهم على فكفوا.

وقال للناس: قد قبلنا أن نجعل القرآن بيننا وبينهم حكما.

ونكتفى بعرض هذه الصورة التى يستطيع أى عاقل من خلالها أن يعرف مصير مثل هذه المعارك.

تنازل الفارس الإسلامى الكبير الذى كان فتنة لمن اشتطوا فى حبه، ومن غالوا فى كرهه، وأصبح كالأسد الحبيس فى قفصه يأمر بالصواب فيفرض عليه غيره، فيذعن لما لا يرضى عنه.

اعترض على أبى موسى الأشعرى حكما له فى مقابل عمرو بن العاص، فرفضوا على الفارس ورفضوا ابن عباس، وقالوا: وما أعجب ما قالوا: ما نبالى أنت كنت أم ابن عباس؟ لا نريد إلا رجلا هو منك ومن معاوية سواء. وماذا يريد معاوية أكثر من ذلك؟ رفضوا ابن عباس ورفضوا الأشتر، ورفضوا الإمام نفسه، رفضوا أى إنسان يكون على شىء من الدهاء يقابل دهاء عمرو بن العاص، وكأنهم من أتباع معاوية المخلصين.

أيمكن أن يتخيل عاقل أن مثل هؤلاء بسلوكهم هذا وتفكيرهم هذا ولددهم وترددهم فى الأمر الواحد يقبلونه آنا ويرفضونه فى وقت آخر وهو هو، ويفرضون آراءهم تلك على قائدهم على فارس الفرسان العربية، قاتل بن ود، والذى خافه معاوية، والذى نجا منه عمرو بن العاص، وقد تمكن منه بأن كشف له سوءته، والتى كانت مثار سخرية حادة حتى من معاوية حينما جرى بينهما هذا الحديث فيما بعد، أى بعد أن سكنت العواصف وهدأت الزوابع وحلت النسمات العليلة الرقيقة، فهبت عليهما فى إحدى جلساتهما الصافية.

رأى عمرو معاوية يوما يضحك، ولا يدرى لضحكه سببا، فقال له: مم تضحك يا أمير المؤمنين، أضحك الله سنك؟ قال: أضحك من حضور ذهنك عند إبداء سوءتك يوم ابن أبى طالب، أما والله لقد وافقته منانا كريما ولو شاء أن يقتلك لقتلك، قال عمرو: يا أمير المؤمنين، أما والله إنى عن يمينك حين دعاك إلى البراز فاحولت عيناك وربا[1] سحرك، وبدا منك ما أكره ذكره لك، فمن نفسك فاضحك، أو دع.

وهكذا اختار أهل العراق أبا موسى الأشعرى، واختار أهل الشام عمرو

---

(١) ربا سحرك: امتلأ قلبك أو كبدك خوفا ورعبا.

ابن العاص، فتفرق أهل صفين حين حكم الحكمان، وأنهما يجتمعان بدومة الجندل، فإن لم يجتمعا لذلك اجتمعا من العام المقبل بأذرح فى شهر رمضان، وفى طريق العودة من صفين إلى الكوفة انتظارا لموعد التحكيم اعترض على التحكيم اثنا عشر ألفا لم يدخلوا معه الكوفة، ونزلوا بحروراء.

إتمام المكيدة بدومة الجندل:

والتقى عمرو وأبو موسى بدومة الجندل، وأخذ عمرو يقدم أبا موسى فى الكلام يقول: إنك صاحب رسول الله ﷺ، وأنت أسن منى فتكلم وأتكلم، عرض عمرو على أبى موسى أن يقبل بمعاوية، فأبى، عرض عليه ابنه عبد الله بن عمرو، فقال له: إن ابنك رجل صدق، ولكنك غمسته فى هذه الفتنة.

أراد أبو موسى أن يجعلا الأمر على عبد الله بن عمر، فأبى عمرو، قال له عمرو: خبرنى ما رأيك؟ قال أبو موسى: رأيى أن نخلع هذين الرجلين، ونجعل الأمر شورى بين المسلمين، فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا، قال له عمرو: إن الرأى ما رأيت، أى وافقه على ذلك فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون، فقال: يا أبا موسى، اعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق.

فتكلم أبو موسى، فقال: إن رأيى ورأى عمرو قد أتفق على أمر نرجو أن يصلح الله عز وجل به أمر هذه الأمة، فقال عمرو: صدق وبر، يا أبا موسى تقدم فتكلم، فتقدم أبو موسى ليتكلم، فقال له ابن عباس: ويحك والله إنى لأظنه قد خدعك، إن كنتما قد اتفقتما على أمر، فقدمه يتكلم قبلك، ثم تكلم أنت بعده، فإن عمرا رجل غادر، ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه، فإذا قمت فى الناس خالفك.

قال له أبو موسى: يقول الراوى وكان أبو موسى - مغفلا -: إنا قد اتفقنا، فتقدم أبو موسى فحمد الله عز وجل واثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة، فلم نر أصلح لأمراها، ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع عليه رأيى ورأى عمرو عليه، وهو أن نخلع عليا

ومعاوية، وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبو عليهم، وإنـى قد خلعت عليا ومعاويا، فاستقبلوا أمركم، وولوا عليكم مـن رأيتمـوه لهـذا الأمر أهلا، ثم تنحى وأقبل عمرو بن العاص، فقام مقامه فحمـد الله وأثنـى عليه، وقال: إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه، وأثبت صاحبى معاوية، فإنه ولى عثمـان بـن عفـان والطـالب بدمـه وأحق الناس بمقامه.

فقال أبو موسى: ما لك لا وفقك الله، غدرت وفجرت إنما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، قال عمرو: إنمـا مثلـك كمثـل الحمار يحمل أسفارا، وحمل شريح بـن هـانئ على عمـرو فقنعـه بالسـوط، وحمل على شريح ابن لعمرو فضربه بالسوط، وقام النـاس فحجـزوا بينـهم، وكان شريح بعد ذلك يقول: مـا ندمـت علـى شـىء ندامتـى علـى ضـرب عمرو بالسوط ألا أكون ضربته بالسيف آتيا به الدهر ما أتى، والتمس أهل الشام أبا موسى، فركب راحلته ولحق بمكة.

قال ابن عباس: قبـح الله رأى أبـى موسـى، حذرتـه وأمرتـه بـالرأى فمـا عقل.

وكان أبـو موسـى يقـول: حذرنـى ابـن عبـاس غـدرة الفاسـق، ولكنـى اطمأننت إليه، وظننت أنه لن يؤثر شيئا على نصيحة الأمة.

ثم انصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية، وسلموا عليه بالخلافة ورجـع ابن عباس وشريح ابن هانئ إلى على، وكان إذا صلى الغداة يقنـت فيقـول: اللهم العن معاوية، وعمرا، وأبا الأعور السلمى، وحبيبا، وعبد الرحمـن بـن خالد، والضحاك بن قيس، والوليد، فبلغ ذلك معاوية، فكان إذا قنـت لعـن عليا، وابن عباس، والأشتر، وحسنا، وحسينا.

هذه حكاية دومة الجندل – ألا تصلح بعد استبدال أسمـاء أبطالهـا بأسمـاء أخرى أن تكون تمثيلية يحـار الإنسـان فـى تصنيفـها؛ لأنـها لا تقتصـر علـى الإضحاك فقط، ولا على الحزن فقط، ولكنها تجمع بـين كـل ذلـك وأكـثر منه، وشر البلية ما يضحك!.

الخوارج:

تتابعت الأحداث على فارس الفرسان من كل جانب:

دافع عن عثمان رضى الله عنه بنفسه وبأولاده حسن وحسين، ثم أتهم بالتحريض على قتله، بويع بالخلافة بالمدينة دون أن يطلبها، ثم خرج عليه من بايعوه ونقضوا بيعتهم وقاتلوه، وهو يمد لهم يد التصالح، وبدءوه بالقتال وبكى على قتلاهم، أبتلى بخروج أم المؤمنين عائشة عليه، وحافظ على كرامتها وردها إلى مكة معززة مكرمة، وعاقب بالجلد من قال كلمة سوء فى حقها.

منع عنه وعن أصحابه الماء بصفين، وقاتلهم عليه حتى أزاحهم عنه، فلم يعاملهم بالمثل وتركهم يشربون، عفى عن عمرو بن العاص فلم يقتله بعد أن تمكن منه فألف وأخرج ومثل ملهاة ومأساة دومة الجندل.

أبتلى بمعارضين لا يستقرون على رأى أبدا، يعارضون ثم يعودون لما سبق أن عارضوه، ويتهمون باطلا بالكفر، ويطلبون منه التوبة عما حدث منه، تحاك ضده المكائد ويكذب عليه، وتزيف المكاتبات على لسان أتباعه المخلصين له لإبعادهم عنه، وهو يرفض أن يتعامل معهم بمثل أساليبهم.

كل هذه الإبتلاءات وهو صامد يحاول أن يعيد ما بعثره التفرق إلى حظيرة الوحدة.

كتب إلى الخوارج بالنهر يطلب منهم العودة إليه ليسيروا لعدوهم المشترك. وكتبوا له أن يشهد على نفسه بالكفر، ويتوب لينظروا فيما بينهم وبينه.

وناظرهم فقال: ألا تعلمون أن هؤلاء القوم لما رفعوا المصاحف قلت لكم: أن هذه المكيدة والوهن، وأنهم لو قصدوا إلى حكم المصاحف لم يأتونى ثم سألونى التحكيم، أفعلمتم أنه كان منكم أحد أكره لذلك منى؟ قالوا: اللهم نعم، قال: فهل علمتم أنكم استكرهتمونى على ذلك حتى

أجبتكم إليه فاشترطت أن حكمهما نافذ ما حكما بحكم الله عز وجل، فإن خالفا فأنا وأنتم من ذلك براء، فقالوا: حكمت فـى ديـن الله برأينـا، ونحـن مقرون بأنا قد كفرنا، ونحن تائبون فأقر بمثل ما أقررنا، وتب ننـهض معـك إلى الشام.

فقال: أما تعلمون أن الله جل ثناؤه قد أمر بالتحكيم فى شقاق بين رجل وامرأة، فقال تبـارك وتعـالى: ﴿فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [النساء: ٣٥]، وقال فى صيد أصيب فى الحرم كأرنب يساوى ربع دينـار، فقال عز وجل: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥]، فقالوا: إن عمرا لما أبى عليك أن تقول فى كتابك: هذا ما كتبه عبد الله علـى أمـير المؤمنـين محوت اسمك من الخلافة وكتبت على بن أبى طـالب، فقـال لهـم رضـى الله عنه: لى برسول الله ﷺ أسوة حيث أبى عليه سهيل بـن عمـرو أن يكتـب: هذا كتاب كتبه محمد رسول الله ﷺ وسهيل بن عمرو، فقـالوا: لـو أقررنـا بأنك رسول الله ما خالفناك، ولكنى أقدمك لفضلك ثم قال: اكتـب محمـد ابن عبد الله، فقال لى: «يا على أمح رسول الله». فقلـت يـا رسـول الله، لا تسخو نفسى بمحو اسمـك مـن النبـوة، فقـال عليـه السـلام: «قفنـى عليـه»، فمحاه بيده ﷺ. ثم قال: «اكتب محمد بن عبد الله»، ثـم تبسـم إلى، فقـال عليـه السـلام: «يـا علـى أمـا إنـك ستسـام مثلـها فتعطـى»، بينـوا لنـا بمـاذا تستحلون قتالنا والخروج عن جماعتنا وتضعوا أسيافكم على عواتقكـم، ثـم تستعرضوا الناس تضربون رقابهم وتسفكون دماؤهم.

قالوا: إن أقررت على نفسك بالكفر وتبت كما تبنا فنحن منك ومعك، قال: أبعد إيمانى وهجرتى وجهادى فى سبيل الله أشهد على نفسى بالكفر، لقد ضللت إذن وما أنا مـن المـهتدين، فتنـادوا: لا تخـاطبوه ولا تكلموهـم، وتهيئوا للقاء الرب، الـرواح الـرواح إلى الجنـة، فخـرج علـى، فعبـأ النـاس، وعبأت الخوارج وكانت وقعة النهر.

مقتله رضى الله عنه:

عن على، قال: أتانى عبد الله بن سلام، فقال لى: لا تقدم العـراق، فـإنى

أخشى أن يصيبك فيها ذباب السيف، قال على: وأيم الله لقد أخبرنى بها رسول الله ﷺ، فقال أبو الأسود: فما رأيت كاليوم قط محارب يخبر بهذا عن نفسه.

وعن عبد الله بن سبع، قال: خطبنا على بن أبى طالب، فقال: والذى فلق الحبة، وبرأ النسمة لتخضبن هذه من هذه - يعنى لحيته من دم رأسه - فقال رجل: والله لا يقول ذلك أحد إلا أهلكنا - أبرنا - عترته، فقال: اذكر الله، وأنشد أن يقتل منى إلا قاتلى.

وعن ابن عباس قال: قال على للنبى ﷺ: يا رسول الله، إنك قلت لى يوم أحد، حين أخرت عنى الشهادة، واستشهد من استشهد: «إن الشهادة وراءك، فكيف صبرك إذا خضبت هذه من هذه بدم، وأهوى بيده إلى لحيته ورأسه». فقال على: يا رسول الله، أما أن تثبت لى ما أثبت؟ فليس ذلك من مواطن الصبر، ولكن من مواطن البشرى والكرامة.

وعن أبى الطفيل أن عليا جمع الناس للبيعة، فجاء عبد الرحمن بن ملجم المرادى، فرده مرتين، ثم قال: علام يحبس أشقاها، فوالله ليخضبن هذه من هذه ثم تمثل:

أشدد حيازيمك للموت فإن الموت لاقيكا
ولا تجزع من القتل إذا حل بواديكا

وعن عثمان بن المغيرة قال: لما دخل شهر رمضان جعل على يتعشى ليلة عند الحسن، وليلة عند الحسين، وليلة عند عبد الله بن جعفر، لا يزيد على ثلاث لقم، ويقول: يأتى أمر الله وأنا خميص - جائع - وإنما هى ليلة، أو ليلتان.

عن الحسين قال: قال لى على: سنح لى الليلة رسول الله ﷺ فى منامى، فقلت: يا رسول الله، ما لقيت من أمتك من الأود واللدد، قال: ادع عليهم، قلت: اللهم أبدلنى بهم من هو خير لى منهم، وأبدلهم بى من هو شر منى، فخرج فضربه الرجل.

وعن محمد بن سعد، قال: انتدب ثلاثة نفر من الخوارج: عبد الرحمن بن ملجم المرادى، وهو من حمير، وعداده فى بنى مراد، وهو حليف بنى جبلة من كنده، والبرك بن عبد الله التميمى، وعمر بن بكر التميمى، فاجتمعوا بمكة، وتعاهدوا وتعاقدوا ليقتلن هؤلاء الثلاثة: على بن أبى طالب، ومعاوية وعمرو بن العاص، ويريحوا العباد منهم.

فقال ابن ملجم: أنا لكم لعلى، وقال البرك: أنا لكم بمعاوية، وقال عمرو ابن بكر: أنا كافيكم عمرو بن العاص، فتعاهدوا على ذلك وتعاقدوا عليه، وتوثقوا أن لا ينكص منهم رجل عن صاحبه الذى سمى له ويتوجه له حتى يقتله أو يموت دونه.

فتواعدوا بينهم ليله سبع عشرة من رمضان، ثم توجه كل رجل منهم إلى المصر الذى فيه صاحبه، فقدم عبد الرحمن بن ملجم الكوفة، فلقى أصحابه من الخوارج فكاتمهم ما يريد.

وكان يزورهم ويزورونه، فزار يوما نفرا من بنى تيم الرباب فرأى امرأة منهم يقال لها: قطام بنت شجنة بن تيم الرباب، وكان على قتل أباها وأخاها بالنهروان، فأعجبته فخطبها، فقالت: لا أتزوجك حتى تشتفى لى، فقال: لا تسألينى شيئا إلا أعطيتك، فقالت: ثلاثة آلاف، وقتل على بن أبى طالب، فقال: والله ما جاء بى إلى هذا المصر إلا قتل على، وقد أعطيتك ما سألت، ولقى ابن ملجم شبيب بن بجرة الأشجعى فأعلمه ما يريد، ودعاه إلى أن يكون معه فأجابه إلى ذلك.

وظل ابن ملجم تلك الليلة التى عزم فيها أن يقتل عليا فى صبيحتها يناجى الأشعث بن قيس الكندى فى مسجده حتى يطلع الفجر، فقال له الأشعث: فضحك الصبح - كشفك الصبح - فقام ابن ملجم وشبيب بن بجرة فأخذا أسيافهما، ثم جاءا حتى جلسا مقابل السدة التى يخرج منها على، قال الحسن بن على: فأتيته سحيرا، فجلست إليه، فقال: إنى بت الليلة أوقظ أهلى، فملكتنى عيناى وأنا جالس، فسنح لى رسول الله ﷺ

فقلت: يا رسول الله، ما لقيت من أمتك من الأود واللدد، فقال لى: ادع عليهم الله، فقلت: اللهم أبدلنى بهم خيرا منهم، وأبدلهم بى شرا لهم منى.

ودخل ابن التياح المؤذن على ذلك فقال: الصلاة، فقام يمشى ابن التياح بين يديه، وأنا خلفه، فلما خرج من الباب نادى: أيها الناس، الصلاة الصلاة، كذلك كان يصنع كل يوم يخرج ومعه درته يوقظ الناس، فاعترضه الرجلان، فقال بعض من حضر: ذلك بريق السيف، وسمعت قائلا: يقول لله الحكم يا على لا لك، ثم رأيت سيفا ثانيا فضربه جميعا، فأما سيف ابن ملجم فأصاب جبهته إلى قرنه ووصل إلى دماغه، وأما سيف شبيب فوقع فى الطاق، فسمع على يقول: لا يفوتنكم الرجل، وشد الناس عليهما من كل جانب، فأما شبيب فأفلت، وأخذ ابن ملجم، فأدخل على على، فقال: أطيبوا طعامه، وألينوا فراشه، فإن أعش، فأنا ولى دمى عفو أو قصاص، وإن مت فألحقوه بى أخاصمه عند رب العالمين.

فقالت أم كلثوم بنت على: يا عدو الله، قتلت أمير المؤمنين، قال: ما قتلت إلا أباك، قالت: والله إنى لأرجو أن لا يكون على أمير المؤمنين بأس، قال: فلم تبكين إذن؟ ثم قال: والله لقد سممته شهرا - يعنى سيفه - فإن اخلفنى أبعده الله وأسحقه، وبعث الأشعث بن قيس ابنه قيس بن الأشعث صبيحة ضرب على، فقال: أى بنى انظر كيف أصبح أمير المؤمنين؟ فذهب فنظر إليه، ثم رجع فقال: رأيت عينيه داخلتين فى رأسه، فقال الأشعث: عينى دميغ[1] ورب الكعبة، ومكث على يوم الجمعة ويوم السبت، وبقى ليلة الأحد لإحدى عشرة بقيت من شهر رمضان من سنة أربعين، وتوفى رضوان الله عليه وغسله الحسن والحسين، وعبد الله بن جعفر، وكفن فى ثلاثة أثواب ليس فيها قميص.

قالوا: وكان عبد الرحمن بن ملجم فى السجن، فلما مات على، ودفن بعث الحسن بن على إلى ابن ملجم، فأخرجه من السجن ليقتله فاجتمع

(١) يقال رجل دميغ ومدموغ إذا خرج دماغه.

الناس وجاءوا بالنفط والبوارى[(١)] والنار، وقالوا: نحرقه، فقال عبد الله بن جعفر، وحسين بن على، ومحمد بن الحنفية: دعونا حتى نشفى أنفسنا منه، فقطع عبد الله بن جعفر يديه ورجليه، فلم يجزع ولم يتكلم، فكحل عينيه بمسمار محمى، فلم يجزع وجعل يقول: إنك لتكحل عينى عمك بمملول[(٢)] ممض، وجعل يقرأ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١] حتى أتى على آخر السورة، وإن عينيه لتسيلان، ثم أمر به فعولج عن لسانه ليقطعه فجزع، فقيل له: قطعنا يديك ورجليك وسملنا عينيك يا عدو الله فلم تجزع، فلما صرنا إلى لسانك جزعت، قال: ماذاك من جزع، إلا أنى أكره أن أكون فى الدنيا فواقا[(٣)] لا أذكر الله، فقطعوا لسانه، ثم جعلوه فى قوصرة(٥) فأحرقوه بالنار، والعباس بن على يومئذ صغير، فلم يستأن به بلوغه. وكان ابن ملجم أسمر أبلج، فى جبهته أثر السجود.

وعن شيخ من قريش أن عليا لما ضربه ابن ملجم، قال: فزت ورب الكعبة.

وعن عمرو ذى مر قال: لما أصيب على بالضربة، دخلت عليه وقد عصب رأسه، قلت: يا أمير المؤمنين، أرنى ضربتك فحلها، فقلت: خدش وليس بشىء، قال: إنى مفارقكم، فبكيت أم كلثوم من وراء حجاب، فقال لها: اسكتى فلو ترين ما أرى لما بكيت، قلت: يا أمير المؤمنين، ماذا ترى؟ قال: هذه الملائكة وفود، والنبيون، وهذا محمد يقول: يا على أبشر، فما تصير إليه خير مما أنت فيه.

لما فرغ على من وصيته، قال: أقرأ عليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ثم لم يتكلم إلا بـ«لا إله إلا الله»، حتى قبضه الله، رحمة الله ورضوانه عليه وغسله ابناه، وعبد الله بن جعفر، وصلى عليه الحسن ابنه، وكبر عليه أربعا،

---

(١) البوارى: جمع بورى وبورية وهو حصير يعمل من قصب.

(٢) المملول: المحمى بالملة وهى الرماد الحاد.

(٣) الفواق: الوقت بين الحلبتين.

(٥) القوصرة: وعاء من قصب يرفع فيه التمر من البوارى.

وكفن فى ثلاث أثواب ليس فيها قميص، ودفن فى السحر.

قيل: إن عليا كان عنده مسك فضل - بقى - من حنوط رسول الله ﷺ أوصى أن يحنط به، وكان سنه يوم قتل ثلاثا وستين سنة.

قال الواقدى: وهذا أثبت، وكانت خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر. وقيل: أربع سنين وتسعة أشهر وستة أيام، وقيل: ثلاثة أيام.

صفته: كان على آدم مقبل العينين عظيمهما ذا بطن، أصلع ربعة، لا يخضب، كبير اللحية قد ملأت صدره.

ورثاه الناس فأكثروا، من ذلك ما قاله أبو الأسود الدؤلى:

ألا يا عين ويحك أسعدينا	ألا تبكى أمير المؤمنينا
تبكى أم كلثوم عليه	بعبرتها وقد رأت اليقينا
ألا قل للخوارج حيث كانوا	فلا قرت عيون الشامتينا
أفى الشهر الحرام فجعتمونا	بخير الناس طرا أجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا	فذللها ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها	ومن قرأ المثانى والمبينا
وكل مناقب الخيرات فيه	وحب رسول رب العالمينا
لقد علمت قريش حيث كانت	بأنك خيرها حسبا ودينا
إذا استقبلت وجه أبى حسين	رأيت البدر راق الناظرينا
وكنا قبل مقتله بخير	نرى مولى رسول الله فينا
يقيم الحق لا يرتاب فيه	ويعدل فى العداء الأقربينا
وليس بكاتم علما لديه	ولم يخلق من المتجبرينا
كأن الناس إذ فقدوا عليا	نعام حار فى بلد سنينا
فلا تشمت معاوية بن حرب	فإن بقية الخلفاء فينا

وقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب:

ما كنت أحسب أن الأمر منصرف	عن هاشم ثم منها عن أبى حسن
أليس أول من صلى لقبلته	وأعلم الناس بالقرآن والسنن

وآخر الناس عهدا بالنبي ومن جبريل عون له في الغسل والكفن
من فيه ما فيهمو لا تمترون به وليس في القوم مما فيه من حسن

* * *

بلال بن رباح

كنيته: أبو عبد الكريم، وقيل: أبو عبد الله، وقيل: أبو عمرو.

أمه: حمامة، من مولدى مكة لبنى جمح، وقيل: من مولدى السراة.

وهو مولى أبى بكر الصديق، كان آدم شديد الأدمة نحيفا طولا أجنأ، أجنى - يميل أعلى ظهره على صدره - ضعيف العارضين، له شعر كثير شمط - يخالط بياض رأسه سواد - له أخ اسمه خالد، له أخت اسمها غُفيرة، وهى مولاة عمر بن عبد الله، مات ولم يعقب، حضر جميع المشاهد مع رسول الله ﷺ ومنها بدر.

بلال بن رباح

ذلك العبد الرقيق الأسمر الشديد السمرة النحيف الطوال الذى يميل أعلى ظهره على صدره - الأجنأ - والذى لم تكن له قبيلة، أو أحد يدفع عنه أذى الطغاة وقسوة جبروتهم.

يبدو أنه كان له من اسمه الذى اختاره الله تعالى له على لسان أبويه النصيب الموفور.

إن كلمة بلال فى اللغة تعنى: الندوة والماء الذى جعل الله منه كل شىء حى، كما تعنى كل ما يبل به الحلق، كما تعنى الخير والرزق وجريان اللسان وفصاحته، كما أنها تعنى الشفاء والعافية، والمباح، فيقال: حل وبل، واسم أبيه رباح، وربح رباحا فى تجارته، أى كسب فتجارته رابحة وكأن الله سبحانه وتعالى ميزه بهذا الاسم ليخفف عنه الظمأ الذى تعرض له من قسوة التعذيب، ولكى يتاجر مع الله بالجهاد والصبر وقوة العزيمة فتكون تجارته رابحة.

نعم بلال بن رباح الذى ضرب أروع الأمثلة فى الصمود والتحدى، الرجل الذى عاش مجاهدا، ومات ولم يعقب، ربما ليجعله الله مثلا فريدا يكون قدوة عامة لكل المؤمنين على مدى الأزمنة، فلا يخبو له ذكر، ولا تنقطع له سيرة فى سجل الشهداء.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠].

كان أمية بن خلف يتفنن فى تعذيبه، بل لعله كان يستعذب تعذيبه، ويجد فيه حلاوة، ولكن بلالا لم يكن ليركع أمام هذا التعذيب الذى خلا

من كل رحمة.

عن مجاهد، قال: إن أول من أظهر الإسلام سبعة: رسـول الله ﷺ، وأبـو بكر، وبلال، وصهيب، وخباب، وعمار، وسمية أم عمـار، فأمـا رسـول الله ﷺ فمنعه عمه، وأما أبو بكر فمنعه قومه، وأخذ الآخرون فألبسوهـم أدراع الحديد، ثم صهروهم فى الشمس حتى بلغ الجهد منهم مـا بلـغ، فـأعطوهـم ما سألوا، فجاء إلى كل رجل منهم قومه بأنطـاع الأدم فيـها المـاء فـألقوهـم فيه، وحملوا بجوانبه إلا بـلالا، فإنـه هـانت عليـه نفسـه فـى الله حتـى ملـوه وجعلوا فى عنقه حبلا، ثم أمروا صبيانهم أن يشتدوا به بين أخشبى مكة – أى بين جبلى مكة وفى شعابها – فجعل بلال يقول: أحد، أحد.

يا إلهى لقد كان بلال وزارة أعلام حية، تطوف على الطبيعة بأنحاء مكة، لتعلن عن هذا الديـن الجديـد الـذى جعـل هـذا العبـد المستضعف يتحـدى أسياده الطغاة، ولا يوافقهم حتى على مجرد الطعن بكلمة سـوء علـى محمـد ﷺ.

وعن عروة بن الزبير، عن أبيه، قال: كان ورقة بن نوفل يمر ببـلال وهـو يعذب، وهو يقول: أحد، أحد، فيقول: أحد، أحد، الله يا بـلال، فيقـول: أحلف بالله عز وجل أن قتلتموه على هذا لأتخذنـه حنانـا، أو لأجعلـن قـبره موضع حنان أى موضع بركة وخير.

وقال سعيد بـن المسيب رضـى الله عنـه – وذكـر بـلالا –: كـان بـلال شحيحا على دينه، وكـان يعـذب، فـإذا أراد المشـركون أن يقاربـهم – أى يسايرهم وأن يستميلوه إليـهم – قـال: الله، الله، فلقـى النبـى ﷺ أبـا بكـر رضى الله عنه، فقال: «لو كان عندنا شيء لاشترينا بلالا».

وكان هذا تلميحا من النبى بشراء بلال لإنقاذه من التعذيب، فلقـى أبـو بكر العباس بن عبد المطلب فقال له: اشتر لى بلالا، فـانطلق العبـاس، فقـال لسيدته: هل لك أن تبيعينى عبدك هذا قبـل أن يفوتـك خـيره؟ أى قبـل أن يموت من التعذيب الذى ترينـه منصبـا عليـه – قـالت: ومـا تصنـع بـه؟ إنـه

خبيث، وإنه، وإنه، ثم لقاها، فقال لها مثل مقالته، فاشتراه منها وبعث به إلى أبي بكر رضي الله عنه.

وقيل: أن أبا بكر اشتراه وهو مدفون بالحجارة يعذب تحتها، قيل: بخمس أواقي، وقيل: بسبع، وقيل: بتسع، وأعتقه لله عز وجل.

وقيل: إن أبا بكر مر به يوما، وهم يعذبونه، فقال لأمية: ألا تتقي الله عز وجل في هذا المسكين؟ حتى متى؟ قال له أمية: أنت أفسدته، فأنقذه عما ترى، قال أبو بكر: أفعل، عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى على دينك أعطيه لك به، قال: قد قبلت، قال أبو بكر: هو لك، فأعطاه أبو بكر غلامه ذلك، فأخذ أبو بكر بلالا، فأعتقه، ثم أعتق معه على الإسلام ست رقاب بلال سابعهم.

وأنس قال: قال رسول الله ﷺ: «بلال سابق الحبشة».

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا بلالا رضي الله عنه.

لقد كان الصدق في العقيدة، والصدق مع الله تعالى والإخلاص في الجهاد في سبيله، والصدق حتى في الأمور التي تجرى في الحياة العادية، هو طبيعة خالصة في بلال رضي الله عنه.

خطب بلال على أخيه امرأة من بني حسل، وقيل: من بني ليث، من قريش، فقال لأهل الخطيبة: نحن من قد عرفتم، كنا عبدين فأعتقنا الله، وكنا ضالين فهدانا الله، وكنا فقيرين فأغنانا الله، وأنا أخطب على أخي خالد فلانة، فإن تنكحوه فالحمد لله، وإن تردوه فالله أكبر.

فأقبل بعضهم على بعض، فقالوا: هو بلال، وليس مثله يدفع، فزوجوا أخاه، فلما انصرفا، قال خالد لبلال: يغفر الله لك، ألا ذكرت سوابقنا ومشاهدنا مع رسول الله ﷺ؟ قال بلال: مه، صدقت فأنكحك الصدق.

أليس لنا أن نقارن بين هذه الصورة، وبين ما يحدث في أيامنا هذا رجل

صادق لم يعد بحاجة إلى أن يذكر بعبوديته التى كانت للناس فى وقت ما فقد أعتقه الله منها.

ونلحظ فى قوله: أنه لم يرجع الفضل فى الاعتاق إلى اليد الظاهرة أمام الناس التى اشترته وأعتقته، وليس هذا جحودا منه لأبى بكر، فليس هذا من صفة بلال، ولكنه أرجع الفضل فى إعتاقه إلى صاحب الفضل الحقيقى، وهو الله سبحانه وتعالى، وهذه الحقيقة هى حقيقة الإيمان فى قلوب هؤلاء الرجال، فما يغضب أبا بكر إرجاع هذا الفضل فى كل أمر من الأمور إلى الله تعالى؛ لأنه هو صاحب الفضل العظيم على الرسل والأنبياء وعلى أبى بكر، وعلى الناس جميعا، على المؤمن والكافر على سواء، لو تأملت القلوب وتدبرت فى هذه الحقيقة.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: من ٧٨ - ٨٢].

لماذا فعل بلال ذلك؟

لأنه امتلأ بالإيمان حتى النخاع، وأصبح داعية إلى لله تعالى يطابق قوله فعله، ويطابق فعله قوله، أو بالأحرى: يطابق علمه عمله، ويطابق عمله علمه، فهو ليس من الذين يقولون ما لا يفعلون، فلماذا يخفى عبوديته التى كانت للناس ما دام الله قد أعتقه؟ ولماذا يتحجب على فقره الذى كان مادام الله قد أغناه؟ ولماذا يتستر على ضلاله السابق ما دام الله قد هداه؟ أليس فى إخفاء هذه النعم إخفاء لفضل الله تعالى عليه، هذا ما لم يصل إلى أعماق قلب أخيه، فأبدى ما أبدى من اعتراض وكان يرغب لو تغاضى بلال عن هذا الجانب، وذكر ما صاروا عليه الآن من سوابق ومشاهد مع رسول الله ﷺ، فهو لم يرتفع إلى ما ارتفع إليه قلب بلال من صدق وإقرار بنعم الله عليه، وإظهارها للناس حتى يزداد المؤمن إيمانا، وربما تنقشع الظلمة عن قلب حائر فيهتدى إلى الله تعالى؛ «ولأن يهدى الله بك رجلا واحدا

خير لك من حمر النعم». كما جاء عن رسول الله ﷺ.

فإذا ما نظرنا إلى ما يصدر عن شبابنا، وعن الكثير منا في هذه الأيام، نرى كثيرا من الصور التى يندى لها الجبين من هواية التمثيل القائمة على الغش والخداع، وما نراه من الإعجاب بمن يغش ومن يخدع، وبمدى قدرته على ذلك الفقير يمثل دور الغنى، والفاسق يمثل دور التقى، وهكذا مما نعرفه ولا نود الخوض فيه، فالساحة مليئة ورحبه، والعيون تبصر، والآذان تسمع، والصحافة تكتب كل يوم عن نماذج جديدة تساير تطور العصر.

ولو صدقنا كبلال لعادت السكينة إلى القلوب، والطمأنينة إلى النفوس، والإستقرار إلى البيوت، والإيمان إلى القلوب، والأخلاق إلى السلوك، ولطابق الظاهر الباطن.

الحق أقول: إن صدق بلال فى إيمانه، فى قوله، فى فعله، فى تحمله، فى صبره، فى تحديه لأعداء الله الذين حاولوا إخضاعه بشتى أنواع التعذيب، وفشلهم فى كل ذلك، فشلهم حتى فى إخضاع لسانه، فلم تفلت منه كلمة واحدة تسئ إلى شيء مما اعتنقه وآمن به، كل ذلك دفعنى إلى أن يسيل قلبى على لسانى بهذه الأبيات:

أودعت سرك فى صحب تعايشهم ... فقدموا نفسهم لله باعوها
هذا بلال الذى أسودت ملامحه ... تلألأ النور فى أعماقه تيها
تجمع الشرك جذلانا لمنظره ... ظنوه عبدا ضعيف النفس واهيها
ألقوه فى الرمل والأحجار تثقله ... والقيظ نار على الأحجار يشويها
قالوا له اذكر إذا ما رمت منجية ... محمدا بقبيح القول تشويها
لكنه كان والإيمان يغمره ... أقوى من الشرك والدنيا وما فيها
وقال رغم صليل القيد قولته ... تلك التى ظل ثغر الدهر يرويها
الله أكبر فرد واحد أحد ... يا أمة الشرك فارتجت نواصيها
هذا بلال أسير تحت أرجلهم ... تشامخت رأسه لا رأس تعلوها
هذا بلال أسير تحت أرجلهم ... توهجت روحه لا شيء يطفيها

مـن الأسير بـلال أم نفوسهـم شدت إلى الأرض إذلالا وتسفيها

الثـأر:

بلال هذا الذى لاقى ما لاقى من التعذيب على يد أمية بن خلف، أظفره الله به فى غزوة بدر، فكيف التقى به؟ وماذا فعل بلال حين رآه؟ ندع الأحداث تعرض نفسها على لسان أبطالها:

قال عبد الرحمن بن عوف: كان أمية بن خلف صديقا لى بمكة، وكان اسمى عبد عمرو، فتسميت حين أسلمت عبد الرحمن، ونحن بمكة، فكان يلقانى إذ نحن بمكة، فيقول: يا عبد عمرو أرغبت؟ عن اسم سماكه أبواك، فأقول: نعم، فيقول: فإنى لا أعرف الرحمن، فاجعل بينى وبينك شيئا أدعوك به؟ فقلت: يا أبا على، اجعل ما شئت، قال: فأنت عبد الإله، فقلت: نعم، حتى إذا كان يوم بدر مررت به وهو واقف مع ابنه على بن أمية آخذ بيده، ومعى أدراع قد استلبتها، فأنا أحملها، فلما رآنى قال لى: يا عبد عمرو، فلم أجبه، فقال: يا عبد الإله؟ فقلت: نعم، قال: هل لك فى خير من هذه الأدراع التى معك؟ قلت: نعم، فطرحت الأدراع من يدى، وأخذت بيده ويد ابنه، وهو يقول: ما رأيت كاليوم قط، أما لكم حاجة فى اللبن؟.

قال ابن هشام: يريد باللبن، أن من أسره يفتدى منه بإبل كثيرة اللبن.

أى أن أمية بن خلف عرض أن يكون أسيرا لعبد الرحمن بن عوف مقابل إبل كثيرة على أن يخرجه عبد الرحمن معه، وكان هو الذى يعذب بلالا بمكة على ترك الإسلام، فيخرجه إلى رمضاء مكة - الرمل الحار من الشمس - إذا حميت، فيضجعه على ظهره، ثم يأمر بالصخرة العظيمة، فتوضع على صدره، ثم يقول: لا تزال هكذا أو تفارق دين محمد.

فلما رآه معى، قال: رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا، قلت: أى بلال أتفعل ذلك بأسيرى؟ قال: لا نجوت إن نجا، ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف، قلت: أتسمع يا ابن

السوداء، قال: لا نجوت إن نجا منا، يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف، فأحاطو بنا حتى جعلونا فى مثل المسكة[١] - أى فى مثل حلقة كالسوار - وأحدقوا بنا، وأنا أذب عنه[٢] وادافع، فاخلف رجل السيف، فضرب رجل ابنه فوقع، وصاح أمية صيحة ما سمعت مثلها قط.

فقلت لأميه: أنج بنفسك، ولا نجاء بك، فوالله ما أغنى عنك شيئا، فهبروهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما، فكان عبد الرحمن بن عوف يقول: يرحم الله بلالا، ذهبت أدراعى، وفجعنى بأسيرى.

وهل كان بلال يستطيع أن يفلت من بين يديه هذه الفرصة؟ وهذا الصيد الثمين الذى رآه معك يا سيدى عبد الرحمن بن عوف؟ لقد طبق بلال تطبيقا عمليا ما نزل به القرآن فى أسرى بدر من قبل أن ينزل، وكان سابقا لعمر بن الخطاب فيما رأى من قتل الأسرى، وعدم قبول الفداء منهم، فكان عمر هو الرأى المعارض نظريا، وكان بلال هو الرأى المعارض عمليا لاستبقاء الأسرى مقابل فدية تؤخذ منه، فلم يصغ لنداءات عبد الرحمن بن عوف، واستنكاره أن يبطش بلال بأسيره الذى عرض عليه الجمال والألبان الكثيرة، وصمم على أخذ ثأره من رقبة ظالمه.

لا نقول ذلك تقليلا من مكانة أحد، ونعوذ بالله من ذلك، ولكن نقول: ليس من عذب كمن لم يعذب، قال الله تعالى فى سورة الأنفال [٦٧، ٦٨]: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، ولعل الله تعالى أراد أن يشفى صدور هؤلاء المستضعفين وينتصر لهم، وهذا ما نلحظه فى مواقف كثيرة عرضها لنا القرآن الكريم عرضا جميلا وحاسما.

ومما يذكر فى هذا المقام، من إكرام الله تعالى لضعفاء المسلمين

(١) المسكة: حلقة كالسوار.
(٢) أذب عنه: أدافع عنه.

وفقرائهم، وأمره رسوله بذلك ما أخرجه أبو نعيم فى الحلية [١/١٤٦] عن خباب بن الأرت رضى الله عنه، قال: جاء الأقرع بن حابس التميمى، وعيينة بن حصن الفزارى، فوجدا النبى ﷺ قاعدا مع عمار وصهيب وبلال وخباب بن الأرت رضى الله عنهم فى أناس من ضعفاء المؤمنين، فلما رأوهم حقروهم فخلوا بالرسول، فقالوا: إن وفود العرب تأتيك فنستحى أن يرانا العرب قعودا مع هذه الأعبد، فإذا جئناك فأقمهم عنا.

ورسول الله ﷺ حريص على نشر الدعوة

قال: «نعم». قالوا: فأكتب لنا عليك كتابا، فدعا بالصحيفة ودعا عليا ليكتب - ونحن قعود فى ناحية - إذ نزل جبريل عليه السلام، فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الآيات [الأنعام: ٥٢ - ٥٤]، فرمى رسول الله بالصحيفة، ودعانا فأتيناه، وهو يقول: «سلام عليكم»، فدنونا منه حتى وضعنا ركبنا على ركبته، فكان رسول الله ﷺ يجلس معنا، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨]، فكنا بعد ذلك نقعد مع النبى ﷺ، فإذا بلغنا الساعة التى كان يقوم فيها قمنا وتركناه، وإلا صبر أبدا حتى نقوم.

وجاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسى، وبلال الحبشى، وصهيب الرومى رضى الله عنهم، فقال قيس: هؤلاء الأوس والخزرج قاموا بنصرة هذا الرجل، فما بال هؤلاء؟ فقام معاذ رضى الله عنه، فأخذ بتلابيبه حتى أتى به النبى ﷺ فأخبره بمقالته، فقام رسول الله ﷺ مغضبا يجر رداءه حتى دخل المسجد، ثم نودى: الصلاة جامعة، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «يا أيها الناس إن الرب رب واحد، وإن الأب أب واحد، وإن الدين دين واحد، ألا وإن العربية ليست لكم بأب ولا أم، إنما هى لسان فمن

تكلم بالعربية فهو عربى». فقال معاذ وهو آخذ بتلابيبه: يا رسـول الله، ما تقول فى هذا المنافق؟ فقال: «دعه إلى النار». فكان فيمن ارتد فقتل فى حرب الردة. [فى الكنز ٧/٤٦].

ولننظر إلى هذه العجرفة المرذولة، والتقزز الذى لا مبرر له من هذا الذى لم يجد له أبوه حابس اسما يلقبه به إلا الأقرع، يأتى هو وعيينة بن حصن إلى رسول الله ﷺ يطالبان باجتماع خاص منفرد لا يحضره فقراء المسلمين أصحاب الملابس البالية، والجباب الصوف التى لم يكن عندهم غيرها، خجلا أن يراهم العرب قعودا مع هؤلاء، فينفرون من قبول الدعوة، ومن أين للأقرع وأمثاله أن تتكشف لهم حقيقة قلوب هؤلاء المشحونة بالإيمان؟ أصحاب الأسماء التى تتقاطر منها العذوبة والرقة إلى أسماع المؤمنين، أسماء بلال بن رباح وعمار وصهيب.

وحرصا من الرسول ﷺ على استمالة أولئك النفر للإيمان بدعوته رجاء سرعة انتشارها بهم لم يجد حرجا فى عزل هذا الأقرع وأمثاله فى اجتماع خاص بهم لا يحضره هؤلاء الأتقياء الأنقياء الأبرار.

ولكن الله تعالى الذى قال عنه الرسول ﷺ: «أدبنى ربى، فأحسن تأديبى». رفض هذه العجرفة الكاذبة، وهذا التقزز المقيت، فنزلت على الفور الآيات البينات التى تشجب هذه النظرة، وترتفع ببلال وأمثاله إلى عنان السماء، وتهوى بالأقرع وأضرابه إلى حضيض الغبراء، ليبقى الكبرياء والعزة لله وحده دون غيره من الأسماء.

والسؤال: أليست هذه الأحداث المكتوبة دليلا على أن الإسلام دين حق، ورسوله رسول صدق؟ إنه يسجل كل شىء ولا يخفى شيئا.

لو كان محمد ﷺ ليس مبلغا عن الله، أو لو كان حرا فى أن يثبت ما يشاء ويخفى ما يريد، هل كنا نجد مثل هذا العتب على الرسول فى كثير من الآيات؟ ألا يستدعى هذا الإيمان الفورى لو أن العيون تقرأ والقلوب تعى والعقول تفكر، أم أن على القلوب أقفالها؟.

مؤذن الرسول وخازنه:

للصلاة أهمية خاصة فى الإسلام؛ لأنها فرضت بالأمر المباشر من الله تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج؛ ولأنها تمثل نظاما يوميا لحياة المسلم، منذ اليقظة المبكرة حتى النوم بعد العشاء فضلا عما حبب إليه من قيام الليل كل على قدر طاقته، وعلى قدر حبه وقربه من ربه.

وكان المسلمون يجتمعون فيتحينون الصلاة، فيقدرون أحيانها ليأتوا إليها، و لم يكن ينادى بها أحد، فتكلموا يوما فى ذلك، فقال بعضهم: اتخذوا ناقوسا مثل ناقوس النصارى، وقال عبد الله بن عبد ربه: لما أمر رسول الله ﷺ بالناقوس ليضرب به الناس فى الجمع للصلاة، وهو كاره لموافقته للنصارى طاف بى، وأنا نائم رجل يحمل ناقوسا فى يده، فقلت: يا عبد الله أتبيع الناقوس؟ قال: ماذا تصنع به؟ قلت: ندعو به إلى الصلاة، قال: أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك؟ فقلت له: بلى، قال: تقول: «الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدا رسول الله، أشهد أن محمدا رسول الله، حى على الصلاة، حى على الصلاة، حى على الفلاح، حى على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، ثم استأخر غير بعيد، ثم قال: تقول إذا أقيمت الصلاة: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدا رسول الله، حى الصلاة، حى على الفلاح، قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله». فلما أصبحت أتيت رسول الله فأخبرته بما رأيت فقال: «إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت، فليؤذن به فإنه أندى صوتا منك».

قال عبد الله بن عبد ربه: فقمت مع بلال، فجعلت ألقيه عليه ويؤذن به، فسمع بذلك عمر وهو فى بيته، فخرج يجر رداءه ويقول: والذى بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذى أرى، فقال النبى ﷺ: «فلله الحمد».

وهكذا بدأ بلال الندى الصوت يباشر الإعلام بدخول وقت الصلاة

بهذه الألفاظ المخصوصة، وصار يعرف بأنه مؤذن النبى.

أهمية الأذان.. لأنه مرتبط بالصلاة؛ ولأنه كما قال القرطبى: يشتمل على مسائل العقيدة؛ لأنه يبدأ بالأكبريه، وهو نداء للناس جميعا أن أقبلوا على الله فهو أكبر من كل ما يشغلكم، فلا تتكاسلوا ولا تتشاغلوا عنه بأى شىء مهما كان خطيرا بدليل أن الصلاة كانت تؤدى أثناء القتال، ولا يحول الخوف دون أدائها، وتسمى صلاة الخوف؛ لأن الخوف من الله تعالى يجب أن يكون أكبر من جميع المخاوف.

والأذان يذكر بالتوحيد، ونفى الشريك، ثم بإثبات الرسالة لمحمد ﷺ؛ لأنها لا تعرف إلا من جهته، ثم الدعوة إلى الفلاح، وهو البقاء الدائم وفيه الإشارة إلى المعاد.

قال عبد الله بن مسعود: لو كنت مؤذنا ما باليت أن أحج ولا اعتمر ولا أجاهد.

استشراف الغيب:

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لو كنت مؤذنا لكمل أمرى، وما باليت أن لا انتصب لقيام الليل، ولا صيام النهار، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم اغفر للمؤذنين، اللهم اغفر للمؤذنين» فقلت: تركتنا يا رسول الله، ونحن نجتلد على الأذان بالسيوف، قال: «كلا يا عمر إنه سيأتى على الناس زمان يتركون الأذان على ضعفائهم، وتلك لحوم حرمها الله على النار لحوم المؤذنين».

وقد صدق رسول الله ﷺ فيما أخبر عنه من ترك الأذان لضعفاء المسلمين بعدما كان يخشاه عمر من التجالد عليه بالسيوف لأهميته.

قال رسول الله مداعبا: «بماذا ضحيت يا بلال»؟ قال: بديك يا رسول الله، قال: «مؤذن ضحى بمؤذن».

وقالت عائشة رضى الله عنها لهم: هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن

دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، هو المؤذن، فإذا قال: حى على الصلاة، فقد دعا إلى الله، وإذا صلى فقد عمل صالحا، وإذا قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فهو من المسلمين.

وعن أبى معشر، قال: بلغنى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: لو كنت مؤذنا لم أبال أن لا أحج، ولا أعتمر إلا حجة الإسلام، ولو كانت الملائكة ينزلون إلى الأرض ما غلبهم أحد على الآذان.

وعن قيس بن أبى حازم، قال: قدمنا على عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقال: من مؤذنكم؟ فقلنا: عبيدنا وموالينا، فقال: إن ذلكم بكم لنقص شديد لو أطقت الأذان من الخلافة لأذنت.

وأخرج الطبرانى فى الأوسط، عن على بن أبى طالب رضى الله عنه، قال: ندمت أن لا أكون طلبت إلى رسول الله ﷺ فيجعل الحسن والحسين مؤذنين.

ولا يفوتنا أن نذكر أن الرسول داعب بلالا، فقال له فى يوم العيد: «بماذا ضحيت يا بلال»؟ قال: بديك يا رسول الله، قال: مؤذن ضحى بمؤذن.

ولعله اتضح الآن أهمية بلال رضى الله عنه، كمؤذن للرسول وكان فضلا عن ذلك للرسول خازنا، فكيف كانت نفقة النبى ﷺ؟.

أخرج البيهقى عن عبد الله الهوزينى، قال: لقيت بلالا رضى الله عنه، مؤذن رسول الله ﷺ بمدينة حلب، فقلت: يا بلال، حدثنى كيف كانت نفقة رسول الله ﷺ، فقال: ما كان له شيء إلا أنا كنت إلى ذلك منه، منذ بعثه الله إلى أن توفى، فكان إذا أتاه الإنسان المسلم فرآه عائلا يأمرنى، فأنطلق فاستقرض فاشترى البردة، والشيء فأكسوه وأطعمه، حتى اعترضنى رجل من المشركين، فقال: يا بلال، إن عندى سعة فلا تستقرض من أحد إلا منى، ففعلت، فلما كان ذات يوم توضأت، ثم قمت لأؤذن بالصلاة، فإذا المشرك فى عصابة من التجار، فلما رآنى قال: يا حبشى، قلت: يا لبيه

فتجهمني، وقال قولا عظيما، أو غليظا، وقال: أتدرى كم بينك وبين الشهر؟ قلت: قريب، قال: إنما بينك وبينه أربع ليال، فآخذك بالذى لى عليك، فإني لم أعطك الذى أعطيتك من كرامتك، ولا من كرامة صاحبك، وإنما أعطيتك لتصير لى عبدا، فآذرك ترعى فى الغنم كما كنت قبل ذلك.

فأخذنى فى نفسى ما يأخذ فى أنفس الناس، فانطلقت فناديت بالصلاة، حتى إذا صليت العتمة، ورجع رسول الله ﷺ إلى أهله، فاستأذنت عليه، فأذن لى، فقلت: يا رسول الله، بأبى أنت وأمى، إن المشرك الذى ذكرت لك أنى كنت أتدين منه، قد قال كذا وكذا، وليس عندك ما يقضى عنى ولا عندى، وهو فاضحى، فأذن لى أن آتى إلى بعض هؤلاء الأحياء الذين قد أسلموا حتى يرزق الله رسوله ما يقضى عنى.

فخرجت حتى أتيت منزلى، فجعلت سيفى وحرابى ورمحى ونعلى عند رأسى، فاستقبلت بوجهى الآفق، فكلما نمت انتبهت، فإذا رأيت على ليلا نمت حتى انشق عمود الصبح الأول، فأردت أن انطلق، فإذا إنسان يدعو: يا بلال، أجب رسول الله ﷺ، فانطلقت حتى آتيه، فإذا أربع ركائب عليهن أحمالهن، فأتيت رسول الله ﷺ فاستأذنت، فقال لى رسول الله: «أبشر فقد جاءك الله بقضاء دينك»، فحمدت الله، وقال: «ألم تمر على الركائب المناخات الأربع»؟ قلت: بلى، قال: «فإن لك رقابهن وما عليهن». فإذا عليهن كسوة وطعام أهداهن له عظيم فدك، «فاقبضهن إليك ثم اقض دينك»، ففعلت، فحططت عنهن أحمالهن، ثم علقتهن، ثم عمدت إلى تأذين صلاة الصبح، حتى إذا صلى رسول الله ﷺ خرجت إلى البقيع، فجعلت إصبعى فى أذنى، فقلت: من كان يطلب من رسول الله ﷺ دينا فليحضر، فمازلت أبيع وأقضى وأعرض حتى لم يبق على رسول الله ﷺ دين فى الأرض حتى فضل عندى أوقيتان أو أوقية ونصف.

ثم انطلقت إلى المسجد، وقد ذهب عامة النهار، فإذا رسول الله ﷺ قاعد فى المسجد وحده، فسلمت عليه، فقال لى: «ما فعل ما قبلك؟»

قلت: قضى الله كل شيء كان على رسول الله ﷺ، فلم يبق شيء، قال: «فضل شيء»؟ قلت: نعم، ديناران، قال: «انظر أن تريحني منهما، فلم يداخل على أحد من أهلي حتى تريحني منهما»، فلم يأتنا أحد، فبات في المسجد حتى أصبح، وظل في المسجد اليوم الثاني، حتى إذا كان في آخر النهار جاء راكبان، فانطلقت بهما فكسوتهما وأطعمتهما، حتى إذا صلى العتمة دعاني، فقال: «ما فعل الذي قبلك»؟ قلت: قد أراحك الله منه، فكبر الرسول، وحمد الله إشفاقا من أن يدركه الموت، وعنده ذلك، ثم اتبعته حتى جاء أزواجه، فسلم على امرأة امرأة حتى آتى مبيتة، فهذا الذي سألتني عنه.

وهكذا كان الرسول ﷺ يستقرض ليطعم المحتاجين ويكسوهم، وكيف كان يخشى أن يبيت في أحد بيوته، وعليه دين قل أو كثر مخافة أن يتوفاه الله تعالى وهو مدين، وكان ينام في المسجد حتى يوفي الله عنه دينه، وكان هذا دأبه، لا يستريح حتى ينفق كل ما يرد إليه من مال.

قدم عليه خريطة في جنح الليل بها ثمانمائة درهم، وصحيفة، فأرسل بها إلى أم سلمة رضي الله عنها، وكانت ليلتها، فظل يدخل ويخرج بعد صلاة العشاء الآخرة حتى دعي لصلاة الصبح، فصلى، ثم عاد فقال لها: «أين تلك الخريطة التي فتنتني البارحة؟ فقد كنت أصلي فتخطر على بالي، فانصرف حتى أنظر إليها، ثم أرجع فأصلي»، ولم يهدأ له بال حتى قسمها ووزعها ولم يبق منها شيء، دخل رسول الله ﷺ بيت أم سلمة رضي الله عنها، فطلب شيئا تأكله، فلم يجده فنادى بلالا رضي الله عنه: «هل من شيء»؟ فأخذ بلال الجرب ينفقها – أي الأوعية – يضربها ليخرج ما فيها، فاجتمع سبع تمرات، فوضعها في صحفة، ووضع عليهن يده، وسمى الله وقال: «كلوا باسم الله». فأكلنا فأحصيت أربعا وخمسين تمرة؛ كلها أعدها ونواها في يدي الأخرى، وصاحباي يصنعان ما أصنع، فأكل كل منهم خمسين تمرة ورفعنا أيدينا، فإذا التمرات السبع كما هن.

فقال الرسول: «يا بلال، ارفعهن في جرابك»، فلما كان الغد وضعهن

فى الصحفة، وقال: «كلوا باسم الله»، فأكلنا حتى شبعنا، وإنا لعشرة، ثم رفعنا أيدينا وإنهن كما هن سبع، فقال رسول الله: «لولا أن استحيى من ربى عز وجل لأكلت من هذه التمرات حتى نعود إلى المدينة عن آخرنا». فلما رجع إلى المدينة طلع غليم من أهل المدينة، فدفعهن إلى ذلك الغلام، فانطلق يلوكهن.

وعن الطبرانى، عن أم مالك الأنصارية رضى الله عنها، أنها جاءت بعكة سمن - قربة صغيرة إلى رسول الله ﷺ، فأمر بلال رضى الله عنه فعصرها، ثم دفعها إليها، فرجعت فإذا هى ممتلئة، فأتت النبى ﷺ فقالت: هل نزل فى شىء يا رسول الله؟ فقال: «وما ذلك يا أم مالك»؟ فقالت: لم رددت هديتى؟ فدعا بلالا، فسأله عن ذلك، فقال: والذى بعثك بالحق، لقد عصرتها حتى استحييت، فقال رسول الله ﷺ: «هنيئا لك يا أم مالك، عجل الله ثوابها». ثم علمها أن تقول فى دبر كل صلاة: «سبحان الله عشرا، والحمد لله عشرا، والله أكبر عشرا».

وفى حجة الوداع:

قالت أم الحصين رضى الله عنها: حججت مع رسول الله ﷺ حجة الوداع، فرأيت أسامة بن زيد، وبلال بن رباح رضى الله عنهما، أحدهما آخذ بخطام ناقة رسول الله ﷺ، والآخر رافع ثوبه يستره من الحر حتى رمى جمرة العقبة.

قالت: فقال رسول الله ﷺ قولا كثيرا، ثم سمعته يقول: «إن أمر عليكم عبد مجدع - مقطع الأعضاء - حسبتها قالت: أسود - يقودكم بكتاب الله، فاسمعوا له وأطيعوا».

وكان بلال رضى الله عنه لا يخشى فى الحق لومة لائم.

عن عائذ بن عمرو أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال رضى الله عنهم، فى نفر فقالوا: ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها، فقال أبو بكر رضى الله عنه: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ فأتى النبى

فأخبره، فقال: «يا أبا بكر لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك»، فآتاهم أبو بكر، فقال: يا إخوتاه، أأغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أخى، إن بلال الذى قال حينما رأى أمية بن خلف فى غزوة بدر لا نجوت إن نجا، كان هو ومن معه ممن عذبوا على أيدى هؤلاء، وعلى رأسهم أبو سفيان يرغبون فى القصاص منهم، ويتحسرون على من نجا.

وجاء بلال إلى عمر رضى الله عنه، حين قدم الشام، وعنده أمراء الأجناد، فقال: يا عمر، يا عمر، فقال عمر: هذا عمر، فقال بلال: إنك بين هؤلاء وبين الله، وليس بينك وبين الله أحد، فانظر من بين يديك، ومن عن يمينك، ومن عن شمالك، فإن هؤلاء الذين جاءوك والله ما يأكلون إلا لحوم الطير - يعنى مرفهين فاحذر منهم على فقراء المسلمين - فقال عمر: صدقت، لا أقوم من مجلسى هذا حتى يتكفلوا لى لكل رجل من المسلمين بمدى بر وحظه من الخل والزيت، قالوا: تكلفنا لك يا أمير المؤمنين، هو علينا، قد أكثر الله من الخير وأوسع، قال عمر: فنعم إذا، اللهم اكسر عنهم البرد.

عن جابر، عن بلال رضى الله عنهما، قال: أذنت الصبح فى ليلة باردة، فلم يأت أحد، ثم أذنت، فلم يأت أحد، فقال النبى ﷺ: «ما شأنهم يا بلال»؟ قال بلال: كبدهم البرد بأبى أنت وأمى يا رسول الله، فقال النبى ﷺ: «اللهم اكسر عنهم البرد»، قال بلال: فلقد رأيتهم يتروحون فى السبحة صلاة الضحى - أو الصبح.

تشوّق بلال إلى مكة، أول عهده بالهجرة:

أخرج البخارى عن عائشة رضى الله عنها، أنها قالت: لما قدم رسول الله المدينة مرض أبو بكر وبلال رضى الله عنهما، قالت عائشة: فدخلت عليهما، فقلت: يا أبت كيف تجدك؟ ويا بلال كيف تجدك؟ قالت: وكان أبو بكر إذا أخذته الحمى، يقول:

كل امرئ مصبح فى أهله والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلعت عنه يقول:

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بواد وحولى إذخر[١] وجليل(٢)
وهل أردن يوما مياه مجنة وهل يبدون لى شامة وطفيل(٣)

فجئت إلى رسول الله فأخبرته، فقال: «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، اللهم وصححها، وبارك لنا فى مدها وصاعها، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة».

تفضيل بلال وأمثاله عن بعض أشراف قريش:

عن الحسن البصرى، قال: حضر أناس باب عمر، وفيهم: سهيل بن عمر، وأبو سفيان بن حرب، والشيوخ من قريش رضى الله عنهم، فخرج آذنه، فجعل يأذن لأهل بدر كصهيب، وبلال، وعمار رضى الله عنهم، وقال الحسن: وكان عمر والله بدريا، وكان يحبهم، وكان قد أوصى بهم، فقال أبو سفيان: ما رأيت كاليوم قط، إنه يأذن لهذه العبيد، ونحن جلوس لا يلتفت إلينا، فقال سهيل بن عمرو - ويا له من رجل ما كان أعقله -: أيها القوم، إنى والله - قد أرى الذى فى وجوهكم - فإن كنتم غضابا، فاغضبوا على أنفسكم، دعى القوم ودعيتم، فأسرعوا وأبطأتم، أما والله لما سبقوكم به من الفضل، فيما يرون أشد عليكم فوتا من بابكم هذا الذى تتنافسون عليه.

ثم قال: إن هؤلاء القوم قد سبقوكم بما ترون، ولا سبيل لكم، والله إلى ما سبقوكم إليه، فانظروا هذا الجهاد فألزموه، عسى الله عز وجل أن يرزقكم الجهاد والشهادة، ثم نفض ثوبه فقام، فلحق بالشام.

قال الحسن: صدق والله، لا يجعل الله عبدا أسرع إليه كعبد أبطأ عنه.

---

(١) الأذخر: حشيشة طيبة الرائحة.

(٢) نبت ضعيف.

(٣) شامة وطفيل: جبلان بمكة.

ولعل محاولة اللحوق بما فات من سابقات المهاجرين الأوائل وسابقات الدخول فى الإسلام كانت وراء طموحات البعض كمعاوية فى الخلافة، وفيما قام به من فتوحات عبر البحار.

جهاد بلال:

كان بلال سابقا فى الإسلام، وحضر جميع المشاهد مع رسول الله ﷺ، ولم يدع أمية بن خلف يفلت من يديه حين رآه مع عبد الرحمن بن عوف.

رغبته فى الخروج فى سبيل الله:

جاء بلال إلى أبى بكر رضى الله عنهما، فقال: يا خليفة رسول الله، إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أفضل عمل المؤمنين جهاد فى سبيل الله». وقد أردت أن أرابط فى سبيل الله حتى أموت، فقال أبو بكر رضى الله عنه: أنا أنشدك بالله يا بلال، وحرمتى، وحقى، لقد كبرت سنى، وضعفت قوتى، واقترب أجلى، فأقام بلال معه، فلما توفى أبو بكر جاء عمر، فقال له مثل مقالة أبى بكر، فأبى بلال عليه، فقال عمر: فمن يا بلال؟ - أى لمن تترك الآذان - قال: إلى سعد، فإنه قد أذن بقباء على عهد رسول الله ﷺ، فجعل عمر الأذان إلى عقبة وسعد.

أذان بلال قبل دفن رسول الله ﷺ:

لما توفى رسول الله ﷺ أذن بلال رضى الله عنه، ورسول الله ﷺ لم يقبر، فكان إذا قال: أشهد أن محمدا رسول الله، انتحب الناس فى المسجد، فلما دفن رسول الله ﷺ، قال له أبو بكر رضى الله عنه: أذن، فقال: إن كنت إنما أعتقتنى لله فخلنى ومن أعتقتنى له، وإن كنت أعتقتنى لأن أكون معك فسبيل ذلك، فقال أبو بكر: ما أعتقك إلا لله، قال: فإنى لا أؤذن لأحد بعد رسول الله ﷺ، قال: فذاك إليك، فأقام حتى خرجت بعوث الشام، فسار معهم حتى انتهى إليها.

ما هذه الجفوة يا بلال؟!

بعد رحلة طويلة فى الجهاد، وابتعاد عن مدينة رسول الله ﷺ، رأى فى منامه النبى ﷺ وهو يقول له: ما هذه الجفوة يا بلال؟ ما آن لك أن تزورنا؟ فانتبه من النوم، وتمثلت أمام عينيه كل الذكريات العطرة كل النسمات النقية، كل الأيام والسنوات التى عاشها بجوار النبى والرسول والحبيب محمد ﷺ، فأسرع إلى المدينة، وبه من الشوق أضعافا مضاعفة، فأتى مثوى النبى ﷺ فألقى عليه السلام، ثم غلبته أشواقه ومشاعره فجعل يبكى عنده ويتمرغ عليه لا يستطيع أن يجد الكلمات التى يعبر بها عما فى قلبه.

وأقبل الحسن والحسين فجعل يقبلهما ويضمهما ويشم فيهما ومنهما عطر جدهما المصطفى حبيبه، وحبيب كل المؤمنين عبر العصور، فقالا له: نشتهى أن تؤذن فى السحر كما كنت تؤذن أيام رسول الله ﷺ، فعلى سطح المسجد، فلما قال: الله أكبر، الله أكبر، وسمع الناس هذا الصوت الحبيب إلى أسماعهم، ارتجت المدينة، فلما قال: أشهد أن لا إله إلا الله، زادت رجتها، فلما قال: أشهد أن محمدا رسول الله، خرج النساء من خدورهن. فما رؤى يوم أكثر باكيا وباكية من ذلك اليوم.

وتوفى بلال الذى روى عنه أبو بكر، وعمر، وعلى، وابن مسعود، وغيرهم من كبار الصحابة والتابعين، قيل: توفى سنة عشرين بدمشق عن بضع وستين سنة، وقيل: مات بحلب، ودفن على باب الأربعين.

مات بلال الذى أصبح رسول الله ﷺ فدعاه، فقال له: «يا بلال، بم سبقتنى إلى الجنة؟ ما دخلت الجنة قط إلا سمعت خشخشتك أمامى»؟ قال: ما أحدثت إلا وتطهرت، وما توضأت إلا وصليت ما شاء الله لى أن أصلى.

* * *

حمزة بن عبد المطلب

أبوه: عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى، كنيته: كان يكنى بابنيه يعلى وعمارة، فكان ينادى: يا أبا عمارة، أو يا أبا يعلى.

أمه: هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة، أمه هالة ابنت عم آمنة بنت وهب أم النبى، وحمزة شقيق صفية بنت عبد المطلب عمة النبى. وحمزة هو أخو النبى من الرضاعة، أرضعتهما ثويبة مولاة أبى لهب، كما أرضعت أبا سلمة بن عبد الأسد.

كان حمزة أسن من رسول الله ﷺ بسنتين، وقيل: بأربع سنين.

هو سيد الشهداء، آخى الرسول بينه وبين زيد بن حارثة، أسلم فى السنة الثانية من المبعث، استشهد فى غزوة أحد للنصف من شوال سنة ثلاث للهجرة.

كان عمره سبعا وخمسين، وقيل: تسعا وخمسين، وقيل: كان عمره أربعا وخمسين سنة، يقول ذلك من جعل مقام النبى ﷺ بمكة بعد الوحى عشر سنين، فيكون للنبى ﷺ اثنتان وخمسون سنة، ويكون لحمزة أربع وخمسون سنة، فإنهم لا يختلفون فى أن حمزة أكبر من النبى ﷺ.

وكان له من الولد: يعلى، وعامر، وبنت اسمها إمامة، أمها سلمى بنت عميس أخت أسماء بن عميس الخثعمية، وهى التى اختصم بها زيد، وجعفر، وعلى، أما ابنه يعلى فكان يكنى به، وابنه الآخر عامر كان صغيرا ومات صغيرا، وأمها بنت الملة بن مالك، من الأنصار، ومن الأوس. وأما عمارة فأمه خولة بنت قيس، أنصارية من نبى النجار، ويقال: إنه لم يبق لحمزة بن عبد المطلب ولد ولا عقب والله تعالى أعلم.

الأسد القناص:

كان حمزة فتيا قويًا، شجاعًا مهيبًا، يُخْشَىَ بأسه، وكان مع ذلك مولعًا بالصيد يخرج له، فيطارد فريسته ويرميها، ويعود بها غانمًا سعيدًا معتزًا بمهارته فى الصيد.

فى ذلك اليوم المشهود فى حياته:

عاد بلا حصيلة، وعند الصفاة رأته مولاة لعبد الله بن جدعان التيمى من مسكن لها فوق الصفاة، فاستوقفته، وقالت له: يا أبا عمارة، لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمدا آنفًا من أبى الحكم بن هشام، قال لها: ماذا حدث؟ قالت: وجده هاهنا جالسًا، فآذاه، وبلغ منه ما يكره سبه فى نفسه ودينه، ثم انصرف عنه، قال حمزة: وماذا فعل محمد؟ قالت المرآة: لم يرد عليه بشىء، تركه وانصرف إلى بيته.

وكان من عادة حمزة، إذا رجع من الصيد يطوف بالكعبة، ثم يعود إلى أهله، كان أعز فتى فى قريش يألف ويؤلف، إلا إذا أثير، أو جرحت كرامته بشىء، لا يمر على مجموعة من قريش يتحدثون إلا وقف وسلم، وتحدث إليهم بودادته وألفته المعهودة، إلا فى ذلك اليوم المشهود.

حمزة يقتنص أبا جهل:

لم يكد حمزة يسمع كلام المرأة فوق الصفاة، حتى تحدرت الدماء وثارت فى عروقه، كيف يسئ هذا الرجل - وكره أن ينطق باسمه؟ كيف يسئ إلى ابن أخيه وأخيه فى الرضاعة؟ كيف يسئ إلى محمد الذى لم يسئ إلى أحد قط، لاعن خوف أو جبن، إنه شجاع قوى لا يغلب، ولكنه جُبِلَ على ألا ينطق بكلمة نابية تخدش مشاعر أى إنسان، فانطلق إلى الكعبة تركض به مشاعره، كما يركض فرسه لملاقاة الرجل الذى اعتدى على ابن أخيه، وفى المسجد وقع بصره عليه كما يقع السهم فى الرمية، فوجده جالسًا يضحك مع رجال من بنى مخزوم، وإزدادت ضربات قلبه حدة، ما الذى يُضحِكُ هؤلاء؟ لعلهم يتندرون الآن بما فعل زعيمهم بمحمد، أوقف فرسه عن

قرب، ترجل امتشق قوسه سار فى تؤدة حتى إذا وقف على رأس أبى الحكم رفع القوس وأهوى به على رأسه فشجه شجة منكرة، وفغر الرجال أفواههم دهشة وذهولا.

قال حمزة: ما شأنك بمحمد؟ لماذا تؤذيه وتسبه فى نفسه ودينه؟ وقام بعض رجال بنى مخزوم لمناصرة زعيمهم، ولكن أبا الحكم نهض إليهم وهو يجفف دماء جبهته. قال مهونا الأمر عليهم: دعوا أبا عمارة، فإنى والله سببت ابن أخيه سبا قبيحا. قال بعضهم: إن محمدا يسب آلهتنا، ويسخر بهم، وقال آخر: لعلك صبأت مثله يا أبا عمارة، قال حمزة: وماذا تعيبون على محمد، إنه لا يقول منكرا، وأنا على دينه، أقول ما يقول.

وكأنما ألقى على القوم كرات من الحنضل، وقفت فى حلوقهم.

انصرف حمزة إلى أهله مبتسما راضيا، أن اقتص لابن أخيه، ولعله كان يردد على نفسه فى سعادة، لم أعد اليوم من رحلة الصيد بشىء، ولكنى سعيد باقتناص أبى جهل، لقد استبدلت قنصا بقنص، وفريسة بفريسة.

ظن أن مشاعره هدأت، وأعصابه استرحت، ولكن شيئا ما تسرب إلى نفسه، وسوسة كفحيح الشيطان: إنك سيد قريش، اتبعت هذا الصابئ، وتركت دين آبائك؟ إن الموت خير لك مما صنعت، وراح يدافع هذه الوسوسة التى كانت تتزاحم فى نفسه.

كيف يقبل عاقل هذه العقيدة الزائفة، التى تمنح الأحجار قيمة ليست لها.

-: إن آباءك وأجدادك تقربوا بها إلى الله.

-: إنها حجارة صماء بكماء لا ترد جوابا، ولا تدفع يدا تمتد إليها بهوان..

-: هل أنت أبعد نظرا، وأكثر حكمة من أبيك عبد المطلب؟.

-: إن جدنا إبراهيم.. كسر الأصنام.. لكنه حين بنى البيت وضع فيه

حجرا ما زال يقبل حتى الآن.

-: يا إلهى.. ما هذا الفحيح الشيطانى، ولماذا الإصرار على نفث هذه الوساوس فى قلبى.

اللهم.. إن كان ما صنعت رشدا، فاجعل تصديقه فى قلبى، وإلا فاجعل لى مما وقعت فيه مخرجا، وبات ليلة لم يبت بمثلها مما ألم به من وساوس وهواجس، وكأنه كان يعتلى جواد امرئ القيس:

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

حاول طوال ليلته تلك، أن يطرد سرب الهواجس، ولكنها كانت تعاوده، تطن فى أذنيه طنين الذباب، وتعجب لهذا الذى يحدث معه وساءل نفسه، لماذا تصر هذه الوساوس والشكوك على البروز فى الذاكرة؟ ومن صاحب المصلحة فى إطلاقها على هذا النحو المقلق لهدوء النفس، وسكينة الأعصاب؟ لماذا هذا التكاثر على محمد؟ والتألب عليه، والعداء له،والتحالف ضده؟ وإنه لصادق فى كل ما يقول ويفعل، لم يجرب عليه أحد كذبا قط فكيف يكذب على الله؟.

هذه هى الحقيقة التى توهجت فى قلبى، وجعلتنى أقدم على ما أقدمت عليه.

وحين أشرقت الشمس، وآذابت أشعتها ظلام الليلة الثقيلة القاسية، انطلق حمزة إلى ابن أخيه محمد، فقال له: يا ابن آخى، إنى قد وقعت فى أمر لا أعرف المخرج منه، وإقامة مثلى على ما لا أدرى ما هو أرشد أم غى شديد، فحدثنى حديثا فقد اشتهيت يا ابن أخى أن تحدثنى؟.

وروى له كل ما حدث مع الحكم ابن هشام، وكل ما عاناه من خواطره فى ليلته الماضية، فأقبل رسول الله ﷺ، فذكره ووعظه وخوفه وبشره، فألقى الله فى قلبه الإيمان بما قاله رسول الله، وضرب الرسول على صدره فى حنو بالغ، واعتنقا، وسالت دموعهما المشتركة حمدا وشكرا لله تعالى.

وذاع خبر إسلام حمزة لاذعا يغص حلوق المشركين، وعرفت قريش أن رسول الله ﷺ، قد عز وامتنع، وأن حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه.

مشهد إسلام عمر:

حينما انطلق عمر بن الخطاب إلى دار الأرقم بن أبى الأرقم لمقابلة رسول الله ﷺ كان حمزة واقفا بباب الدار هو وطلحة رضى الله عنهما، وأناس من أصحاب رسول الله ﷺ، ولما رأى وجل القوم من عمر حين سمعوا بقدومه إليهم، قال حمزة: نعم، فهذا عمر، فإن يرد الله بعمر خيرا يسلم ويتبع النبى، وإن يرد غير ذلك يكن قتله علينا هينا، ورسول الله يوحى إليه داخل الدار، فخرج رسول الله ﷺ حتى أتى عمر، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف، وقال له: «أما أنت بمنته يا عمر حتى ينزل الله بك من الخزى والنكال ما أنزل بالوليد بن المغيرة؟ اللهم هذا عمر بن الخطاب اللهم أعز الدين بعمر بن الخطاب». فقال عمر: أشهد أنك رسول الله، فأسلم، وقال: أخرج يا رسول الله [البداية ٣/٨١].

هاجر مصعب بن عمير، وهاجر عبد الله بن أم مكتوم الضرير، وتتابع المهاجرون إلى المدينة، وهاجر أسد الله، وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب، وحينما تهيأت الأسباب كلها لتكوين مجتمع المدينة، هاجر إليها رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر الصديق، ومن قبلهما عمر بن الخطاب وغيرهم من المسلمين.

وكان لابد لرسول الله ﷺ أن يدرب أتباعه على القتال الذى كان محظورا عليهم طوال مدة إقامتهم بمكة، وجاء الإذن به من الله تعالى فى أول آية نزلت فى الجهاد: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٢٢ - ٣٩،٤٠] أذن الله إذا بالقتال دفعا للظلم الذى أدى إلى حصار الدعوة فى مكة، وقلل انتشارها بها، وكان سببا فى إخراج

المسلمين الداعين إلى الله تعالى من ديارهم، إلى الحبشة مرتين، ثم إلى المدينة، والله قادر على نصر عباده بلا قتال، ولكنه يريد لهذه الدعوة العالمية أن تنتشر باتخاذ الأسباب المؤدية إلى النصر، حتى لا يتواكل المسلمون على نصر الله بلا عمل.

أول لواء.. وأول سرية لأسد الله حمزة:

أرسل النبى ﷺ عمه حمزة فى سرية من ثلاثين رجلا من المهاجرين، ليعترضوا تجارة لقريش راجعة من سورية يحرسها ثلاثمائة من المشركين بقيادة أبى جهل أحد كبار أعداء الإسلام، وعند ساحل البحر الأحمر التقى حمزة بتجارة قريش من ناحية قرية من قرى المدينة تسمى العيص، وتصدى أسد الله للقتال، وتصاف الفريقان، ولكن الله تعالى أراد لأحد رجالات تلك الناحية، وهو مجدى بن عمرو الجهنى، أن يحجز بين الفريقين ومرت القافلة دون قتال.

وروى أن النبى شكر مجديا على ما عمل، فقد كان عدد المسلمين قليلا بالنسبة لعدد عدوهم، ولكن هذه القلة العددية لم تكن لتمنع حمزة والذين معه من الاستبسال حتى الموت لو نشبت المعركة.

١ - **السرية**: قطعة من الجيش تخرج منه وتعود إليه، وهى من ثلاثة، لورود أن النبى نهى أن تبعث سرية دون ثلاثة نفر إلى خمسمائة فما زاد على خمسمائة يقال له: منسر.

٢ - **الجيش**: ما زاد على الثمانمائة.

٣ - **الجحفل**: ما زاد على أربعة آلاف.

٤ - **الجيش الجرار**: ما زاد على ذلك.

٥ - **الخميس**: هو الجيش العظيم.

٦ - **جمهور العلماء** وأهل السير يصطلحون على أن: كل عسكر حضره النبى ﷺ بنفسه يسمى غزوة، وما لم يحضره بل اختار بعضا من

أصحابه فأرسلهم إلى أعدائه دون أن يكون معهم يسمى سرية وبعثا، [السرايا الحربية فى العهد النبوى للدكتور محمد سيد طنطاوى.. شيخ الأزهر].

ولنذهب الآن إلى بدر، فقد كانت درسا آخر، لعل الله تعالى أراد أن يعدم عود صحابة رسول الله ﷺ بإدخالهم فى عديد من التجارب منذ هجرتهم إلى المدينة لتخلص عقيدتهم لله تعالى، ويشتد يقينهم بالله ورسوله، وهاهم الآن فى بدر بعد مسيرة يومين يتعاقبون كل ثلاثة على بعير.

خرجوا لطلب العير، وكتب الله عليهم أن يلتقوا بالنفير، نجا أبو سفيان بتجارته العظيمة ذلك الثعلب المحاور المداور سلك طريقا غير الطريق المرصود، وكان قد أبلغ قريش بخروج المسلمين لقافلته، فخرجت قريش بكل رجالها لم يتخلف منهم أحد، و لم يفلح العقلاء منهم فى رد السفهاء المحنقين عن قتال المسلمين.

وكان لابد من التصدى، ولكن ليس قبل أن يعرض الرسول الموقف على حقيقته «أشيروا على أيها الناس».

ورأى الرسول أن الكثيرين يميلون إلى الإستيلاء على القافلة بحجة أنه لما استنفرهم لم يذكر لهم أنه لسبيل قتال، فيأخذوا له عدته، فأنزل الله قرآنا يعاتبهم: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال ٧: ١٠]

فقال رسول الله: «سيروا على بركة الله، فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين، فوالله لكأنى انظر إلى مصارع القوم».

وكان المسلمون فى ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، وكان المشركون ما بين

التسعمائة إلى الألف، وأراد الله تعالى أن يحقق للنبى ﷺ وللصحابة أجمعين صدق قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠]

حمزة فى طليعة المقاتلين:

صف رسول الله ﷺ رجاله أمام صفوف الأعداء، وكان حمزة فى طليعة المتشوقين إلى اللقاء ليفوز بموعود الله، واندفع الأسود بن عبد الأسود من بين صفوف قريش إلى صفوف المسلمين يريد أن يهدم الحوض الذى بناه المسلمون ببدر، وكان رجلا شرسا سيئ الخلق صرخ قائلا: أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه، أو لأموتن دونه، وخرج إليه حمزة، فلما التقيا هصره أسد الله بضربة سيف هشمت قدمه بنصف ساقه قبل أن يصل إلى الحوض، فسقط تشخب رجله دما، ولكن اللعين كان مصمما على الوصول إلى الحوض ليشرب منه على الأقل، وليبر بقسمه فجعل يحبو حتى يقتحم فى الحوض، وما كان لحمزة أن يتركه ليشرب أو يهدم حوضا بنته سواعد الموحدين، فعاد إليه يغرس فيه أنياب سيفه الحادة القاطعة حتى أجهز عليه.

واستشاط عتبة بن ربيعة غيظا، عتبة الذى كان يبدو عاقلا وحكيما منذ لحظات قليلة حين كان يخاطب قريشا بقوله: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل قتل ابن عمه أو ابن خاله، أو رجل من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب، فإن أصابوه فذلك الذى أردتم، وإن كان غير ذلك لم نتعرض منه لما تكرهون.

وكان هذا هو ما نادى به الرسول ﷺ، وخاطب به قريشا أيام الإضطهاد بمكة، وما تزال تطرق سمعه كلمات أبى جهل الساخرة لمقالته تلك: إن عتبة انتفخ والله سحره[1] حين رأى محمدا وأصحابه كلا والله لا

(١) جبن.

نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد.

وأضاف **أبو جهل ساخرا** ومحرضا على قول عتبة: إنه قد رأى أن محمدا وأصحابه أكلة جزور، وفيهم ابنه، فقد تخوفكم عليه. أى أن عتبة خاف على ابنه محمد وأصحابه؛ لأنهم يأكلون الذبائح، وابنه يصلح للأكل فخاف عليه. ورد عتبة عليه حانقا: سيعلم مصفر أسته[1] من انتفخ سحره.

ثار عتبة بن ربيعة وخرج بين أخيه شيبة وابن الوليد، حتى إذا فصل من صف المشركين دعا إلى المبارزة، فخرج إليه فتية من الأنصار، فكره رسول الله ﷺ أن يكون أول لقاء فى القتال بين المسلمين والمشركين يبدأ بالأنصار، فقال رسول الله للأنصار: «ارجعوا إلى مصافكم، ودعا لهم بخير»، ونادى المشركون: يا محمد، اخرج لنا الأكفاء من قومنا، فقال رسول الله: «يا بنى هاشم، قاتلوا بحقكم الذى بعث الله به نبيكم إذ جاءوا بباطلهم ليطفئوا نور الله».

ووثب حمزة بن عبد المطلب، وعلى بن أبى طالب، وعبيدة بن الحارث ابن المطلب بن عبد مناف، ومشوا إليه، قال عتبة: تكلموا نعرفكم، قال حمزة.. أنا حمزة بن عبد المطلب أسد الله، وأسد رسوله، قال عتبة: كفء كريم، وأنا أسد الحلفاء، من هذان معك؟ قال حمزة: على بن أبى طالب، وعبيدة بن الحارث، قال عتبة: كفئان كريمان، ثم قال لابنه: قم يا وليد، فقام إليه على بن أبى طالب، فاختلفا ضربتين، فقتله على، ثم قام عتبة، وقام إليه حمزة، وحاول عتبة أن يتفادى الطعنات أو يقتنص فرصة يطعن فيها حمزة، ولكنه حمزة كان الأقوى، ولما يزل سيفه يتوهج بدماء الأسود ابن عبد الأسود فالتهم أسد الله وأسد رسوله، أسد الحلفاء، فخر صريعا فى حلبة الميدان.

ثم قام شيبة، وقام إليه عبيدة بن الحارث، وكان عبيدة يومئذ أكبر أصحاب رسول الله سنا، فضرب شيبة رجل عبيدة بطرف سيفه، فأصاب

---

(١) مصفر أسته: يعنى: الظراط.

عضلة ساقه فقطعها، فكر أسد الله حمزة، وشبل أخيه على بن أبى طالب على شيبة فقتلاه، وفيهم نزلت: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴾ [الحج: ١٩]. كان أبو ذر يقسم أن هذه الآية نزلت فى حمزة وصاحبيه، وعتبة وصاحبيه يوم برزوا فى بدر.

قال البخارى: حدثنا... عن... عن... عن قيس بن عباد، عن على بن أبى طالب، قال: أنا أول من يجثو بين يدى الرحمن للخصومة يوم القيامة، قال قيس: هم الذين برزوا يوم بدر على وحمزة وعبيدة وشيبة ابن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة.

وتزاحف الناس والتقى الجمعان صبيحة الجمعة لسبع عشر خلت من رمضان على رأس تسعة عشر شهرا من الهجرة، وجعل حمزة يصول ويجول فى المعركة، معلما نفسه بريشة نعامة على صدره، حتى انتهت المعركة التى كانت بكل الموازين المادية لا تنبئ بانتصار المسلمين، ولكنها انتهت بتحقيق وعد الله بالنصر، وظل الناس يتساءلون: من هذا الذى أعلم نفسه بريشة نعامة، هذا الذى رأينا منه الأفاعيل، وانقلب أهل مكة على أدبارهم راجعين فى ذلة وانكسار يجرون أذيال الخيبة، ويتجرعون مرارة الهزيمة، تاركين وراءهم جثث أولئك الذين كانوا يتباهون بقوتهم، ويستعرضون شجاعتهم.

أما الأبطال المنتصرون، فقد جمعوا قتلى قريش، وحفروا لهم حفرة كبيرة فاغرة فاها كأنها إحدى أبواب جهنم، سحبوهم إليها وألقوهم فيها، وتوجهوا إلى الله تعالى بالشكر العميم على ما أفاء عليهم من نصر وغنيمة.

ووقف الرسول يخاطب أولئك الذين طرحوا فى القليب قائلا: «يا أهل القليب، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، يا أمية بن خلف، يا أبا جهل ابن هشام، يا زمعة بن الأسود، يا وليد بن عتبة، يا حنظلة بن أبى سفيان، يا طعيمة بن عدى، يا نوفل بن خويلد، يا على بن أمية، يا معبد بن وهب، يا منبه بن الحجاج»، واستمر يذكر من فى القليب واحدا واحدا، «يا أهل

القليب، هل وجدتم ما وعد ربكم حقا، فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقا». قال المسلمون: يا رسول الله، أتنادى قوما جيفوا؟ قال النبى عليه الصلاة والسلام: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى».

حصاد بدر:

١ - شهداء المسلمين: أربعة عشر رجلا ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار، منهم:

عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف. عمير بن أبى وقاص. عاقل ابن أبى البكير. مهجع مولى عمر بن الخطاب. صفوان بن بيضاء. سعد بن خيثمة. مبشر بن عبد المنذر. حارثة بن سراقة. عوف بن عفراء. معوذ بن عفراء أخو عوف. عمير بن الحمام. رافع بن معلى. يزيد بن الحارث بن فسحم.

٢ - قتل من المشركين: سبعون.

٣ - أسر من المشركين: سبعون.

٤ - فداء الأسرى: على كل رجل منهم أربعة آلاف إلى ثلاثة إلى ألفين إلى ألف.

- من الرسول على من لا مال له منهم.

- استعمل رسول على الغنائم: عبد الله بن كعب المازنى من الأنصار.

- سلم رسول الله ﷺ الغنيمة كلها للمسلمين الذين حضروا بدرا، وللثمانية نفر الذين تخلفوا بإذنه، فضرب لهم بسهامهم وأجورهم.

- أخذ الرسول سهمه مع المسلمين، وفيه جمل أبى جهل وكان مهريا.

وانصرف رسول الله مكرما إلى المدينة يحيط به سائر المسلمين، ومعهم حمزة بن عبد المطلب.

حقا إنه أسد الله:

ترى كم كان عدد صرعاه من بين أولئك الذين سحبوا إلى نهايتهم المشئومة فى هذا القليب، وأهيل عليهم التراب.

رغبة المشركين فى الثأر لبدر:

عاد المشركون حزانى حانقين بعد هزيمتهم فى بدر، وجهزوا جيشا كبيرا من أرباح العير - أرباح التجارة - التى كانت سببا فى معركة بدر لردع المسلمين عن التعرض لهم مرة أخرى، وانخرط فى هذا الجيش كل حاقد ناقم لهفان على الثأر، واستنفرت قريش القبائل، وأصرت النسوة على الخروج مع الغزاة.

ووصل الجيش القرشى على بعد خمسة أميال من المدينة، ونزلوا عند سفوح جبل أحد، وخرج جيش المسلمين ليقاتل جيش المشركين، خارج المدينة إظهارا للشجاعة والقوة والبأس.

حمزة يقاتل بسيفين:

وصاح حمزة صيحة القتال يوم أحد: أمت، أمت، واندفع إلى قلب جيش قريش يقاتل بسيفين بين يدى رسول الله، ولم يكن أسد الله يعلم شيئا عما دبر له فى الخفاء، كانت هند بنت عتبة تتحرق وتتضرم شوقا للثأر من حمزة، لقد فجعت فى أبيها وعمها وأخيها وابنها، أولئك الذين قتلوا فى بدر، وطرحوا فى القليب، ولحمزة السهم الوافر فيما أصابها، وكان هناك طرف آخر، فجع فى عمه طعيمة بن عدى، إنه جبير بن مطعم بن عدى، واتفق الاثنان على شخص واحد، إن المصائب يجمعن المصابينا، إنه الشخص الوحيد الذى يمكن أن يقتل حمزة، فهو لن يقابل أو يقاتل أسد الله وجها لوجه، وإلا فالنتيجة معروفة، والثمرة مقطوفة.

كما أنه يجيد الرمى على بعد بحربته الشهيرة، وقلما يخطئ، كذلك يستطيع أن يتخفى ويتربص بالأسد، حتى تواتيه اللحظة المناسبة المنشودة،

فيصرعه بالغدر والمكيدة. أغرته هند بالمال الوفير والخير الكثير، ويهاب دسمة، اشف واستشف.

وقال له سيده مطعم: إن قتلت حمزة عم محمد فأنت عتيق، إنه وحشى الحبشى، وإنه الآن يتربص بحمزة، وحمزة يصول بسيفيه ويجول، قتل حمزة أرطاه بن عبد شرحبيل، ووحشى يتربص، إنه يرى حمزة يقاتل قريبا من على بن أبى طالب، وكأنهما كانا يتبادلان قتل حامل لواء الكفار ها هو يرى على يقتل طلحة بن أبى طلحة حامل لواء الكفار، فيحمل اللواء من بعده عثمان بن أبى طلحة، وكأنما حمله ليسقط به قتيلا، فقد لقى مصرعه على يد حمزة.

كل هذا يحدث أمام عينى وحشى المتربص، حتى حانت اللحظة الحزينة القاتلة التى حدث عنها وحشى بنفسه، فقال: كنت رجلا حبشيا أقذف بالحربة قذف الحبشة، قلما أخطئ بها شيئا، فلما التقى الناس، خرجت انظر حمزة وأتبصره، حتى رأيته فى عرض الناس، كأنه الجمل الأورق، يهد الناس بسيفه هدا ما يقوم له شىء، ولا يستطيع أحد أن يقف فى وجهه، فوالله إنى لأتهيأ له أريده، واستتر منه بشجرة أو بحجر ليدنو منى، إذ تقدمنى إليه سباع بن عبد العزى، فلما رأه حمزة رضى الله عنه، قال: هلم إلى يا ابن مقطعه البظور، فضربه ضربة كأنما أخطأ رأسه - ضربة أسرع فيها فقطع رأسه حتى كأنما لم يفعل شيئا - قال وحشى: وهززت حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه، فوقعت فى ثنته حتى خرجت من بين رجليه، وذهب لينهض نحوى فغلب، وتركته وإياها حتى مات، ثم أتيته فأخذت حربتى، ثم رجعت إلى المعسكر وقعدت فيه، ولم يكن لى بغيره حاجة، إنما قتلته لأعتق.

ودارت الدائرة على المسلمين..

فقد خالف الرماة موقعهم حين رأوا المسلمين قد انشغلوا بالغنائم، وما أكثرها وتركوا متابعة العدو، حتى يخرج عن ساحة المعركة تماما، ويبعد فى

الفرار، وحدث ما حدث، واكتفى جيش المشركين وعلى رأسه أبو سفيان بما تحقق من نصر بعد هزيمة متيقنة، وبعد أن لوح أبو سفيان بمقتل حمزة والتمثيل به.

قال الرسول: «من رأى مقتل حمزة؟» قال رجل: أعزك الله، أنا رأيت مقتله، قال الرسول: «فانطلق فأرناه»، فخرج حتى وقف على حمزة، فرآه قد شق بطنه، وقد مثل به، فنظر إلى منظر لم ينظر إلى شيء قط كان أوجع لقلبه منه، فقال: «رحمة الله عليك، فإنك كنت ما علمت وصولا للرحم، فعولا للخيرات، ولولا حزن من بعدك عليك، لسرنى أن أتركك حتى يحشرك الله من أرواح شتى، أما والله على ذلك لأمثلن بسبعين منهم مكانك»، فنزل جبريل عليه السلام والنبى واقف بخواتيم سورة النحل: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾ إلى أخر الآية، فكفر النبى عن يمينه، وأمسك عن الذى أراد.

وبالتأمل فى هذه الآيات نرى الآتى: أنها وضعت أسس الدعوة إلى الله تعالى، وهى لا تكون إلا بالحكمة والموعظة الحسنة. وضعت معيار العدالة عند اختبار الرد على العدوان ﴿ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾ . ووضعت معيار الإحسان لمن يتسع صدره للإحسان، لم يرض الله لرسوله إلا بمعيار الإحسان، ووعده تعالى بأن يعينه عليه.

ولنتأمل مدى قوة تحمل الرسول فى مثل هذا الموقف، ليس عجيبا أن يبادر خاتم الأنبياء والمرسلين بالطاعة، فيكفر عن يمينه، فقد هيأه الله وأعده لذلك، ولكن العجيب أن نظن نحن أن الترقى للدرجات العلا درجات الإحسان تتم بلا معاناة، كما لو كان صاحبها يضغط على شيء فيصعد به إلى حيث يشاء، الحزن يملأ القلب، والله سبحانه وتعالى يسلى ويواسى رسوله، فيقول له: لا تحزن، ولا يعنى هذا أسلوب أمر، بل الأقرب أن يكون أسلوب مواساة وتسلية وتعزية، وطبيعى أن مواساة الله تعالى النازلة على قلب رسول الله ستخفف عنه الكثير.

ويبقى أن الرسول قال عند موت إبراهيم ابنه: «إن العين لتدمع، وإن

القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا».

هذا السمو الأخلاقى العالى إلى درجات الإحسان، هو الذى نلمسه فى كثير من مواقف رسول الله ﷺ، فنتذكر على الفور: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] ونتذكر أيضا: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى»، ويجعلنا نتفهم بعين الإكبار موقف الرسول ممن أمعنوا فى إيذائه، وموقفه من إسلام وحشى الذى صرع عمه حمزة رضى الله عنه.

قال وحشى: فلما قدمت مكة أعتقت، ثم أقمت حتى إذا افتتح رسول الله ﷺ مكة هربت إلى الطائف، فمكثت بها، فلما خرج وفد الطائف إلى رسول الله ﷺ ليسلموا تعيت على المذاهب - ضاقت على الطرق - فقلت: ألحق بالشام، أو اليمن، أو ببعض البلاد، فوالله إنى لفى ذلك من همى، إذ قال لى رجل: ويحك إنه والله ما يقتل أحدا من الناس دخل فى دينه وتشهد شهادته، فلما قال لى ذلك، خرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ بالمدينة، فلم يرعه إلا بى قائما على رأسه، أتشهد بشهادة الحق، فلما رآنى قال: «أوحشى»؟ قلت: نعم يا رسول الله، قال: «أقعد فحدثنى كيف قتلت حمزة،» فحدثته، فلما فرغت من حديثى، قال: «ويحك غيب عنى وجهك. فلا أرينك»، فكنت أتنكب رسول الله ﷺ حيث كان لئلا يرانى، حتى قبض رسول الله ﷺ.

ويضيف وحشى:

فلما خرج المسلمون إلى مسيلمة الكذاب، صاحب اليمامة، خرجت معهم، وأخذت حربتى التى قتلت بها حمزة، فلما التقى الناس رأيت مسيلمة الكذاب قائما فى يده السيف وما أعرفه، فتهيأت له، وتهيأ له رجل من الأنصار من الناحية الأخرى، كلانا يريده فهززت حربتى، حتى إذا رضيت منها، دفعتها عليه فوقعت فيه، وشد عليه الأنصارى فضربه بالسيف، فربك أعلم أينا قتله، فإن كنت قتلته: فقد قتلت خير الناس بعد رسول الله ﷺ وقد قتلت شر الناس.

الصلاة على حمزة:

جئ بثوب يكفن به حمزة إذا غطى وجهه، انكشفت قدماه، وإذا غطيت قدماه انكشف وجه، قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها على وجهه، واجعلوا على قدمه من هذا الشجر»، ورفع الرسول رأسه، فإذا أصحابه يبكون، قال: «ما يبكيكم»؟ قيل: يا رسول الله، لا نجد لعمك اليوم ثوبا واحدا يسعه، قال: «إنه يأتى على الناس زمان يخرجون إلى الأرياف، فيصيبون فيها مطعما وملبسا ومركبا، فيكتبون إلى أهلهم: هلموا إلينا، فإنكم بأرض جردية جرداء والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شفيعا أو شهيدا يوم القيامة».

وصلى الرسول على قتلى أحد عشرة، عشرة، يصلى على حمزة مع كل عشرة.

الرسول وبكاء النساء على الموتى:

لما رجع الرسول إلى المدينة، سمع نساء بنى عبد الأشهل يبكين على قتلاهن، فقال: «لكن حمزة لا بواكى له»، فاجتمع نساء الأنصار عنده، يبكين على حمزة، فلما سمعهن قال: «ياويحهن، مروهن فليرجعن ولا يبكين على هالك بعد اليوم».

حياة الشهداء:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠، ١٧١].

وتمر السنون:

ولما أراد معاوية بن أبى سفيان أن يجرى عينه التى بأحد كتبوا إليه: إنا لا نستطيع أن نجريها على قبور الشهداء، فكتب معاوية: انقلوهم، قال جابر

ابن عبد الله: فرأيتهم يُحمَلون على أعناق الرجال، كأنهم قوم نيام، وأصابت المسحاة طرف رجل، حمزة بن عبد المطلب، فانبعث دمًا.

وكان ذلك بعد دفنهم بأكثر من أربعين سنة، صلى الله عليك يا سيدى يا رسول الله وعلى آلك، وصحبك، وسلم.

* * *

عبد الله ابن أم مكتوم

إدفعوا إلىَّ اللواء وأقيمونى بين الصَّفَّين، فإنى أعمى لا أستطيع أن أفر.

عمرو بن قيس عبد الله بن قيس
ابن أم مكتوم، ثلاثة أسماء لشخص واحد

لعل أشهرها ابـن أم مكتـوم، أهـل المدينـة يقولـون: اسمـه عبـد الله، أهـل العراق يقولون: اسمه عمرو، نسبه: اجتمعوا على نسبه، فقالوا: ابن قيس بن زائدة بن الأصم بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص بن عامر بـن لـؤى، فهو قرشي عامرى، ابن خال خديجة بنـت خويلـد؛ لأن أمـها فاطمـة بنـت زائدة بن الأصم، هى أخت قيس بن زائدة بن الأصم.

أمه: عاتكة، وتُكنى أم مكتوم بنـت عبـد الله بـن عَنْكَشَـة بـن عـامر بـن مخزوم بن يقظة.

مواقفه فى الإسلام:

١ - أسلم بمكة قديمًا.

٢ - هاجر إلى المدينة.

٣ - أذّن للرسول مع بلال.

٤ - استخلفه الرسول على المدينة.

٥ - شهد القادسية.

٦ - نزل فيه القرآن.

فارس هذه الصفحات رجل ضرير، من فقراء المسلمين، ولكن ما أصابه من ضر فى عينيه كان خيرًا عليه، ولم يحل بينه وبـين أن يكـون واحـدًا مـن فرسان المسلمين، بل وأن يكون فارسًا مميزًا بلا فرس وبلا سيف، فقد كـان من المسلمين القدماء، وله من المواقف ما يذكر المسلمين به كل يوم.

ثانى المهاجرين:

يذكر المسلمون أن مصعب بن عمير كان أول المهاجرين إلى المدينة، وابن أم مكتوم هو ثانى المهاجرين بعد مصعب.

عن البراء بن عازب رضى الله عنه، أنه قال: أول من قدم علينا من المسلمين من أصحاب رسول الله ﷺ مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم رضى الله عنهما، فجعلا يقرئاننا القرآن.

هجرته إلى المدينة كانت استمرارًا لجهاد سابق:

كان بمكة فلابد أنه أصابه بها من أذى المشركين ما أصاب غيره من المستضعفين، ولاشك أن طغاة مكة قد سخطوا عليه أشد السخط خاصة بعد أن أنزل الله فيه قرآنا يتلى ويتعبد به فى الصلاة اليومية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فغادر مكة إلى المدينة كطليعة للمهاجرين إليها بعد مصعب بن عمير لحفظه لما نزل من القرآن بمكة، وليقرئه من أسلم من أهل المدينة، ويشارك مصعب فى تعليمهم أمور دينهم إلى أن يقبل الرسول الكريم إليها.

خاصة إذا عرفنا أن كثيرا ما كان يسأل ويستفسر عما ينزل على رسول الله ﷺ من وحى إلى حد الالحاح على رسول الله مما كان سببا فى انصراف الرسول عنه فأنزل الله تعالى فى ذلك قرآنا: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١].

كان رسول الله ﷺ يخاطب بعض عظماء قريش أبا جهل بن هشام، أبى ابن خلف، عتبة بن ربيعة، شيبة بن ربيعة، وكان العباس بن عبد المطلب حاضرا، وكان الرسول يتقرب إليهم بالموعظة الحسنة راجيا إسلامهم، وطامعا فيه، لما يظن أن إسلامهم سيفتح الطريق أمام الدعوة الإسلامية لتأخذ حظها من الانتشار على نطاق واسع بمكة، وكان الرسول يبذل أقصى جهده فى الحديث معهم يقبل عليهم بوجهه المشرق الوضىء، قائلا: «أليس حسنا أن جئت بكذا وكذا.. ؟ أترى بما أقول بأسا»؟ فيقولون: بلى، والدماء.

في هذا الوقت الذى كـان رسـول الله منـهمكًا فـى تبـادل الحديـث مـع هؤلاء السادة يشرح لهم ببساطة ورقة ما جاء به الإسلام ويحببهم فيه، جـاء ابن أم مكتوم رضى الله عنه، والرسول مهتم بـأمرهم، جـاء يسـتقرئ النبـى آية من القرآن الكريم ويقول له: يا رسول الله، أرشدنى علمنى ممـا علمـك الله، ورسول الله يعرض عنه، ربمـا لأنـه يـرى تواجـد هـؤلاء معـه فـى هـذا الوقت فرصة مناسبة، قد لا تتوافر فيما بعد فى حـين أن الوقـت فيـه متسـع مع ابن أم مكتوم؛ لأنه متواجد مع الرسول فى أوقات أخرى كثيرة.

ولسنا نحن الذين نعتذر عن الرسول أمام ربـه، ونقـول أن الرسـول كـان مشغولاً بدعوة هـؤلاء إلى عبـادة الله الواحـد الأحـد، ولم ينشـغل عـن ابـن مكتوم بشىء آخر غير الدعوة، فهذا أمر معلوم للـذى لا يغيـب عـن علمـه شىء، كما أن الرسـول هـو أكـرم خلـق الله علـى الله، وهـو خـاتم الأنبيـاء والمرسلين، وهو إن شاء الله شفيعنا يوم الدين، وليس فى حاجة إلى شـفاعة أحد، ولا يمنع ما سبق مـن أن نقـف بـين يـدى الآيـات التـى أُنزلـت عليـه والواردة بسورة عبس، الذى جُعِلَ عنوانا علـى نفـس السـورة: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾ الآيات السابقة توحى بكثير من المعانى التى تضيق عنها هذه الصفحات:

١ – إنها عَتْبٌ – فى صيغة شديدة – مُوَجهٌ من الله تعالى إلى رسوله لا يصح أن يعلق على هذا العتب بأنه كان يكفى أن يقال كذا أو كـذا، فـهو عتب مقصود توجيهه بهذه الصورة الشديدة، وأى تدخل فيه بزعـم تخفيفـه فى الشكل أو المضمون – يعتبر على أدنى تقدير سـوء أدب، ومـع مـن؟. وحتى لو كان هذا التداخل بحسن نية.

٢ – من أروع ما فى هذه الآيات أنها تَرُدُ بقوة وصراحة على افـتراءات مَنْ يزعم أن هذا القرآن مِـن صنـع محمـد ﷺ صاغـه وألفـه، فـهل يصـدق عاقل، أو حتى نصف عاقل أن يكون محمد عليه الصلاة والسلام هو المؤلف

ويقول على نفسه هذا؟.

٣ - من أروع هذه الآيات أيضًا أنها تصور لرجل ضرير ما لم يره على وجه رسول الله من عبوس وتقطيب هل يوجد صدق وصراحة وقوة أكثر من هذا؟ إن الإنسان البصير لا يرى ما على وجهه هو نفسه من عبوس أو تقطيب إلا إذا نظر فى المرآة متلبسًا بهذه الحالة غير مفارقها، فكيف بِمنْ لا يبصر شيئًا حتى لو نظر فى مرآة؟.

لابد وأن ابن أم مكتوم قال لنفسه حينما تُلَيَت عليه هذه الآيات كما نقول نحن الآن: أى رب هذا الذى يصور لى بالكلمات ما لم أره على وجه رسول الله، بل ولا على أى وجه من وجوه الناس؟ ولا شك فى أنه استعاد مرات نطق الشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله.

هل رأيت الإعجاز فى مطابقة الكلام لمقتضى الحال؟ إن الله تعالى يخاطب خاتم أنبيائه وأفضل خلقه فى مطلع السورة، وكأن الرسول غائب مع أن القرآن يتنزل عليه هو لا على غيره.

وهذا يتلاءم - أو يقابل بلاغيًا - الإعراض الذى قوبل به الضرير الذى جاء يلتمس الرشد والتعليم، عبس.. من ؟.. هو، وتولى.. من ؟.. هو.

فكأن الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، حينما صرف وجهه عن ابنِ أم مكتوم قد اعتبره غائبًا فصور الله تعالى هذه الحالة كما كانت ليس تقليلاً من شأن الرسوُل، ولكنه الإعجاز للوصف الإلهى للحالة التى كانت تحت عيون القدرة الإلهية، ثم انتقلت المخاطبة من حالة الغياب البلاغى إلى حالة الحضور والمواجهة بقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾.

وعلى هذا النمط من الإعجاز تدفقت الآيات فى السورة، ويمكن التأمل فيها على هذا المنوال مع محظور واحد هو أن يتسرب إلى ظن أحد أيا كان أن فى هذه الآيات أى انتقاص من مقام رسول الله ﷺ

ولكنها تفصح عن أن العتب كان شديدًا، وهذه سنة الله مع أنبيائه ورسله، ونصل إلى الهدف من هذا العتب إن الله تعالى يكشف لنا عن قدر ابن أم مكتوم أنه بقدر علوه تحت رعاية الله بقدر انحدار قدر كل هؤلاء الجبابرة الذين كان الرسول يرغب فى إيمانهم ابن أم مكتوم بما فيه من إيمان وخوف وخشية من الله تعالى حينما يوضع فى كفة ميزان، ويوضع عتاولة التعذيب وأصحاب النفوذ والجاه والسلطان فى الكفة الأخرى المقابلة، يتطايرون ويسقطون على الأرض فى ذل واحتقار وانكسار وهَوَّان؛ لأنهم لا وزن لهم عند الله رغم كل ما يزعمون من قوة وقدرة ونفوذ وسلطان.

إن الله تعالى يقرر فى هذه السورة أنهم من الكافرين، وأن الدعوة الإسلامية ستنتشر – ليس بهم – ولكن بدونهم، وهذا ما تحقق فعلاً على أرض الواقع، فقد قتلوا جميعًا فى غزوة بدر قتل عتبة بن ربيعة، وقتل شيبة ابن ربيعة، وقتل أبو جهل، وقتل أمية بن خلف.

هؤلاء الذين كان الرسول يبذل أقصى ما لديه من جهد لينضموا إلى حظيرة الإسلام – رأفة – من الرسول ورحمة بهم كما وصفه الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وهكذا نرى أن ابن أم مكتوم كان من الشخصيات الإسلامية التى قُررَت من خلالها بعض المبادئ الإسلامية الهامة:

– غيرة الله على عباده المقبلين عليه والدفاع عنهم.

– مبدأ «إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

– مبدأ ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، فالله تعالى غير محتاج لأحد مهما كان يبدو عظيمًا، أو ذا جاه وسلطان، وأن الله تعالى عاتب أعزَّ أحبائه وأصفيائه عتابًا شديدًا على مجرد الإعراض عن رجل فقير ضرير، رغم أن هذا الإعراض كان اجتهادًا من الرسول فى سبيل الدعوة الإسلامية، و لم يكن بدافع أغراض شخصية.

وهذا يجعلنا نتساءل: ماذا يكون موقف البشر بعضهم من بعض أمام الله تعالى؟ وكيف يكون غضب الله عليهم؟ ألا يستدعى هذا أن يتأمل كل منا نفسه، وينظر بعين الاعتبار إلى تصرفاته وسلوكه فى حياته، ويحاسب نفسه قبل أن تتفلت الأيام والأعوام من بين يديه «ألا كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته».

وإذا ألح علينا سؤال، لماذا كان هذا العتب على رسول الله شديدًا؟.

فأول إجابة هى: أن الله تعالى ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

ثانيًا: إن الله تعالى له حق التأديب وإنزال العقوبة التى يشاء على من يشاء.

ثالثًا: إن الله تعالى يؤدب أنبياءه ورسله بأشد مما يؤدب به عامة الناس، أو كل الناس عدا الأنبياء والرسل لأنه اصطفاهم.

وعلى سبيل المثال، أدب الله تعالى يوسف عليه السلام، فأبقاه فى السجن بضع سنين لمجرد كلمة زلت بها لسانه: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢]. كلمة واحدة زل بها لسانه: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ كم نقول نحن: تذكرنى عند فلان، وتقال بفخر ومباهاة بمعرفة فلان هذا، تُرى ماذا لو طبق الله علينا الميزان الذى حاسب به يوسف عليه السلام؟ وعلى تكرارها عدة مرات فى اليوم أو الأسبوع أو الشهر أظن أن العقوبة ستكون السجن مدى الحياة على الأقل لولا فضل الله ورحمته بنا.

موقف الرسول بعد العتاب:

كان رسول الله ﷺ لا يلقى ابن أم مكتوم إلا هاشا باشا مرحبا قائلا له فى حب وود خالصين لوجه الله تعالى: «أهلا بمن عاتبنى فيه ربى». ما حاجتك؟ هل تريد من شيء؟ وإذا ذهب من عنده، قال له: «هل لك حاجة فى شيء»؟ فهو رسول الله الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه، رباه على طاعته،

وهو أتقى الناس، وأخشى الناس على الله ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

المؤذن:

كان ابن أم مكتوم فى المدينة مؤذنا لرسول الله مع بلال، وكان رسول الله يقول للناس: «إن بلالا يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم».

ولا يظنن أحد أن المؤذن قليل المكانة عند الله فقد جاء عن البراء بن عازب أن النبى ﷺ قال: «إن الله وملائكته يصلون على الصف المقدم والمؤذن يغفر له مد صوته ويصدقه من سمعه من رطب ويابس وله مثل أجر من صلى معه».

وصلاة الله تعالى على الناس تعنى الرحمة والمغفرة، وصلاة الملائكة على الناس الدعاء لهم بمغفرة الله ورحمته، وقد دعى رسول الله للأئمة وللمؤذنين فقال: «اللهم أرشد الأئمة، وأغفر للمؤذنين».

وجاء عن الرسول: «يعجب ربك عز وجل من راعى غنم فى فلاة يؤذن للصلاة ويصلى، فيقول الله عز وجل: انظروا لعبدى هذا يؤذن ويقيم الصلاة يخاف منى، قد غفرت لعبدى وأدخلته الجنة». رواه أحمد، وأبو داود والنسائى.

ولأهمية صلاة الجماعة كان الصحابة حريصين على ألا يتخلف عنها أحد ليؤديها فى بيته إلا لعذر يوافق عليه الرسول جاء ابن أم مكتوم إلى النبى ﷺ، فقال: يا رسول الله، ليس لى قائد يقودنى إلى المسجد، وسأل رسول الله أن يرخص له فيصلى فى بيته فرخص له، فلما ولى دعاه فقال له: «هل تسمع النداء»؟ أى الآذان، قال: نعم، قال: «فأجب». أى أنه ألغى الرخصة أو سحبها.

هاهو الرسول يتحرج فى منح رخصة لضرير يطلب الصلاة فى بيته مادام يسمع الأذان، نسأل الله العفو والعافية.

تكفير الذنوب:

ومن رحمة الله تعالى بالمؤمنين أن يعوضهم عن كل ما يصيبهم.

عن أبى سعيد رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «ما من شىء يصيب المؤمن فى جسده إلا كفر الله عنه به من الذنوب».

وجاءت بشارة المكفوفين على سمع ابن أم مكتوم، قال أنس بن مالك: إن جبرائيل أتى رسول الله ﷺ وعنده ابن أم مكتوم، فقال: «متى ذهب بصرك»؟ قال: وأنا غلام، فقال الرسول: «قال الله تبارك وتعالى: إذا ما أخذت كريمة عبدى - أى عينه - لم أجد لها بها جزاء إلا الجنة».

وكان ابن أم مكتوم دمثًا هادئ الطباع إلا إذا أوذى فى الله ورسوله، فيتحول إلى وحش مفترس، وهذا ما حدث له مع امرأة يهودية.

المرأة اليهودية:

نزل ابن أم مكتوم على امرأة يهودية بالمدينة عمة رجل من الأنصار، كانت ترافقه فى السير، ولكنها كانت سليطة اللسان تغيظه بتطاولها على الله ورسوله أثناء سيرها معه، ويظهر أنها استمرأت هذا ظنا منها أنه ضرير لا يستطيع أن يفعل معها ما يؤذيها، ولم تجد معها المجادلة بالحسنى، فأغضبته ذات يوم، فتناولها وأنهال عليها ضربًا، وهو الرجل الذى لا يرى أين تنزل ضرباته، ولم يفلتها من بين يديه إلا قتيلة بذاءة لسانها، ورُفِع الأمر إلى رسول الله ﷺ.

فقال ابن أم مكتوم: والله يا رسول الله، إنى لم أضربها لشىء صدر منها على، ولكنها آذتنى فى الله ورسوله، فضربتها، فقتلتها، وحكم الرسول ببرائته قائلا: «أبعدها الله تعالى، فقد أبطلت دماءها». أى أنها باعتدائها بالقول جراءة منها على الله ورسوله قد أهدرت دمها بنفسها.

استخلافه على المدينة:

استخلف الرسول ابن أم مكتوم على المدينة مرتين على الأقل، وقيل:

أكثر من ذلك، وليس يهم عدد المرات، ولكن الأكثر أهمية هو الصلاحية للاستخلاف، وكان الرسول يستخلف على المدينة من يراه صالحا للاستخلاف، والصلاة بالمسلمين حال خروج الرسول لإحدى الغزوات، وكان ابن أم مكتوم حال الاستخلاف يصلى الجمعة بالناس ويخطب واقفا إلى جنب المنبر، ويجعل المنبر عن يساره.

أجر المشاركة فى الجهاد:

أحس ابن أم مكتوم بالأسى والحزن لعدم مشاركته فى الجهاد بالسيف بسبب فقد البصر، وكان يتمنى لو كان مبصرا، إذا لسارع بتلبية دعوة الرسول لينال إحدى الحسنيين كما يفعل أبطال المسلمين الذين يتردد ذكر بطولاتهم على الألسنة بعد العودة من الجهاد، أو بعد الاستشهاد.

قال زيد بن ثابت: كنت إلى جنب رسول الله ﷺ، فغشيته السكينة، وهى الحالة التى يكون عليها الرسول عند نزول الوحى، فوقعت فخذ الرسول على فخذى، فما وجدت شيئا أثقل منها على فخذى، ثم سرى عنه، فقال: «أكتب يازيد»، فكتبت: ﴿يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فقام ابن أم مكتوم وكان أعمى، فقال: يا رسول الله، هل لى من رخصة، فوالله لو أستطيع الجهاد لجاهدت، خرجت هذه الكلمات النابضة بالصدق من فم الرجل الضرير، فما انقضى كلامه حتى غشيت رسول الله السكينة، كما حدث فى المرة الأولى، ثم سرى عنه فقال: «اقرأ يا زيد، فقرأت: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فقال رسول الله: أكتب: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ قال زيد: أنزلها الله وحدها، فكأنى أنظر إلى ملحقها عند صدع الكتف - أى اللوح الخشبى الذى كتبت عليه - وهكذا أنزل القرآن الكريم من الله تعالى مستجيبا لحرارة دعوات هذا الضرير الفقير.

فأصبح هو وأمثاله من أولى الأعذار لا يفترقون عند الله عن المجاهدين رغم قعود أصحاب الأعذار عن الجهاد.

الشوق إلى الجهاد الفعلى:

لم تستطع رخصة القعود أو وسام المساواة رغم القعود لعذر العمى أن تكفكف من شوق ابن أم مكتوم إلى الخروج إلى ساحة القتال الفعلى مع الجيش الإسلامى الضارب فى أحشاء الكفر بهدف فتح الأبواب أمام الراغبين فى الدخول تحت على علم الإسلام فى مختلف أنحاء العالم الذى يتبجح فيه الكفر، ولا يسمح الأباطرة والقياصرة له بالعبور داخل بلادهم، أرأيتم ضريرا يتشوق ويتحرق إلى خوض المعارك الحربية ولا يكتفى بمجرد الأمل وتسلية النفس والتماس العذر تحت شعار العمى والعجز؟.

إننا فى حاجة إلى وقفة تأمل وإعجاب.

القادسية:

ذهب الجيش الإسلامى بقيادة القائد الكبير، سعد بن أبى وقاص، لملاقاة جيش الفرس بقيادة القائد الشهير رستم، عند مدينة القادسية بالعراق، وأصر ابن أم مكتوم على أن يدخل المعركة، وقال: امنحونى راية أحملها، وأوقفونى فى الصف ادفعوا إلى اللواء، فإنى أعمى، لا أستطيع أن أفر، وأقيمونى بين الصفين.

قال أنس بن مالك: كان مع ابن أم مكتوم يوم القادسية، راية ولواء.

وهكذا تحقق له الأمل، فتدرع وحمل الراية، لا يعنى هذا أنه حارب بالسهام أو السيوف، فهذا ليس فى مقدوره، وإلا لأصاب من حوله، دون تفرقة بين عدو وصديق لكن هذه الوقفة، وفى ذاتها بين الجنود، وبين الصفوف بين المقاتلين الذين يحاربون عن عقيدة، ألا يعتبر هذا موقفا شجاعا؟ ألا يثير حمية المبصرين حين يرون رأى العين؟ هذا الرجل الضرير الذى لا يعرف كيف يدافع عن نفسه فى مثل هذه المواقف ممسكا بيده راية تغرى الأعداء بالخلوص إلى صاحبها لإسقاطه وإسقاطها.

ألا يدفع هذا المشهد المتفرد فى نوعه جنود الإسلام إلى الاستبسال فى

القتال دفاعا عن الراية التى يتشبث بها، ويرفعها واحد منهم لايفرط فيها، ولا يدعها تهوى وتسقط على أرض المعركة حتى يتحقق النصر أو الشهادة.

وما الذى يدفع هذا الضرير إلى مجرد التفكير بهذه الطريقة التى عبر عنها بهذا التعبير الفدائى المثير لكل ما فى النفوس من حمية وقوة واقتحام من يكون هذا سوى الإسلام؟!.

* * *

ذو الشهادتين

بم تشهد ولم تكن حاضرا؟ بتصديقك يا رسول الله، أنا أصدقك بخبر السماء، ولا أصدقك بما تقول؟.

عن أنس رضى الله عنه قال: افتخر الحيان: الأوس والخزرج، فقالت الأوس: منا غسيل الملائكة، حنظلة بن الراهب، ومنا من اهتز له العرش، سعد بن معاذ، ومنا من حملته الدبر، عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح، ومنا من أجيزت شهادته بشهادة رجلين خزيمة بن ثابت، رضوان الله عليهم أجمعين. ـ

وقالت الخزرجيون: منا أربعة جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ لم يجمعه غيرهم: زيد بن ثابت، أبى بن سعد، معاذ بن جبل، أبو زيد.

خزيمة بن ثابت الفاكه الأنصارى

هو خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة بن ساعدة بن عامر بن غيان بن عامر بن خطمة بن جشم بن مالك بن الأوس، فهو الأنصارى الأوسى، ثم من بنى خطمة.

أمه: كبشة بنت أوس من بنى ساعدة، يكنى: أبو عمارة، وهو: ذو الشهادتين جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين. فلماذا؟.

المشاهد التى حضرها:

شهد غزوة بدر، وهى أشهر الغزوات ولعل شهرتها الواسعة جاءت؛ لأنها كانت أول لقاء مع المشركين، فهى أول تجربة للصدام الإسلامى مع أهل الكفر على غير استعداد مسبق، وكان عدد المشركين ثلاثة أضعاف عدد المسلمين، كما كانوا أكثر منهم عدة وعتادا، بينما خرج المسلمون دون إعداد كاف لهذا اللقاء الكبير، فقد كان هدفهم هو التعرض لعير أبى سفيان، وهى فى طريقها إلى الشام.

فلما أفلتت فى الذهاب، خرجوا لها عند العودة، فأفلتت منهم كذلك بسبب حرص أبى سفيان فى إلتقاطه الأخبار عن المسلمين وتحركاتهم.

شهد خزيمة بدرا، وشهد المشاهد كلها بعدها، واستعد الرسول لفتح مكة، فأمر المسلمين بالجهاد، وأمر أهله أن يجهزوه، وكتم الذهاب إلى مكة أول الأمر.

فدخل أبو بكر على عائشة ابنته رضى الله عنها، وهى تحرك وتعد بعض جهاز الرسول ﷺ، فقال لها: هل أمركم رسول الله أن تجهزوه؟ قالت: نعم، فتجهز، قالت: فأين ترينه يريد؟ قالت: لا والله ما أدرى، ثم أن رسول الله ﷺ أعلم الناس أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجد والتهيؤ، وقال:

«اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها».

فتجهز الناس وتجهز معهم خزيمة بن ثابت الأنصارى الأوسى، وحتى فى فتح مكة ذكر الرسول غزوة بدر، ومن شارك فيها.

فقال لعمر بن الخطاب حين أراد أن يضرب عنق حاطب بن أبى بلتعة لإفشائه سر التوجه إلى مكة: قال الرسول ﷺ : «وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم»، ومضى رسول الله ﷺ لسفره إلى مكة واستخلف على المدينة أبا رهم، وذلك لعشرة أيام مضين من رمضان.

وكان الرسول فى عشرة آلاف من المسلمين، وخرج معه المهاجرون والأنصار لم يتخلف منهم أحد، ومرت القبائل فى الجيش الإسلامى قبيلة وراء قبيلة، حتى مر رسول الله ﷺ فى كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار رضى الله عنهم، لا يرى منهم إلا العيون من الحديد، وفى جنودها خزيمة بن ثابت.

فقال أبو سفيان – الذى رأى هذا المشهد متفرجا، وليس مقاتلا كما كان من قبل، بينما كان خزيمة بن ثابت يحمل راية بنى خطمة بيده يوم الفتح مع من يحملون رايات قبائلهم –: سبحان الله يا عباس، من هؤلاء؟ قال العباس: رسول الله ﷺ فى المهاجرين والأنصار، قال أبو سفيان: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة.

ودخل رسول الله ﷺ البيت يوم الفتح، فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم، فرأى إبراهيم عليه السلام مصورا وفى يده الأزلام يستقسم بها، فقال الرسول: «قاتلهم الله جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام، ما شان إبراهيم والأزلام»؟ ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]

ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست، وطاف الرسول حول البيت، ورأى الأصنام مشدودة بالرصاص فجعل يشير بقضيب فى يده إلى الأصنام

ويقول: «جاء الحق، وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا».

خزيمة يكسر الأصنام:

وكان خزيمة وعمر بن عدى بن خرشة يكسران أصنام بنى خطمة، ويرددان الشعار الذى أطلقه الرسول ﷺ: «جاء الحق، وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا». يردد الفاتحون هذا الشعار وقلوبهم تقفز بالفرح بين صدورهم، ورءوسهم تعلو شامخة، بينما قلوب المشركين ورءوسهم تطأطئ فى ذلة، وتهوى إلى الأرض مع أصنامهم الساقطة والمتكسرة.

ذو الشهادتين، الوسام الأوحد:

أخرج ابن سعد [٤/٣٧٨]: عن عمارة بن خزيمة بن ثابت، عن عمه رضى الله عنه، وكان من أصحاب النبى ﷺ اشترى النبى ﷺ فرسا من رجل من الأعراب، فاستتبعه رسول الله ﷺ ليعطيه ثمنه، فأسرع النبى ﷺ المشى، وأبطأ الإعرابى، فطفق رجال يلقون الأعرابى يساومون الفرس، ولا يشعرون أن رسول الله ﷺ قد اشتراه حتى زاد بعضهم الأعرابى فى السوم على ثمن الفرس الذى ابتاعه رسول الله ﷺ، فلما زاده نادى الأعرابى رسول الله ﷺ فقال: إن كنت مشتريا هذا الفرس فابتعه، وإلا بعته، فقام - أى وقف - النبى ﷺ حين سمع قول الإعرابى حتى أتاه الإعرابى، فقال رسول الله ﷺ: «ألست قد ابتعته - اشتريته - منك؟» فقال الإعرابى: لا والله ما بعتكه، فقال رسول الله ﷺ: «بلى قد ابتعته منك»، فطفق الناس يلوذون بالنبى ﷺ وبالإعرابى وهما يتراجعان، فطفق الإعرابى يقول: هلم شهيدا يشهد أنى بعتك، فمن جاء من المسلمين، قال للإعرابى: ويلك إن رسول الله ﷺ لم يكن ليقول إلا حقا.

حتى جاء خزيمة بن ثابت رضى الله عنه، فاستمع تراجع رسول الله ﷺ، وتراجع الإعرابى، فطفق الإعرابى يقول: هلم شهيدا أنى بايعتك، فقال خزيمة: أنا أشهد أنك قد بايعته، فأقبل رسول الله على خزيمة بن ثابت فقال: - «بم تشهد»؟ ما حملك على الشهادة و لم تكن حاضرا معنا؟ قال

خزيمة: بتصديقك يا رسول الله، أنا أصدقك بخبر السماء، ولا أصدقك بما تقول؟ وأعلم أنك لا تقول إلا حقا، فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة شهادة رجلين، وقال: «من شهد له خزيمة، فهو حسبه».

لقد كان خزيمة فقيها، وعالما، ومتأملا فى حقائق الأشياء، فهو لم يكتف بأن يوجه نظر الإعرابى بأن رسول الله ﷺ لا يقول إلا حقا طالما أن الإعرابى لا يقتنع إلا بحضور شاهد يشهد على المبايعة التى تمت بينه وبين المشترى، وإن كان المشترى هو رسول الله ﷺ، والهدف من شهادة الشهود هو الوصول إلى الحقيقة، والحقيقة واضحة وظاهرة ومتيقنة يراها خزيمة بعينيه وبقلبه وبفكره ممثلة فى رسول الله ﷺ، وقد سمعه يقول للإعرابى ويراجعه: «بلى، قد ابتعته منك»، والإعرابى ينكر ويطلب منه شهيدا على قوله، فما الذى يمنعه من أن يشهد بما شهد به الرسول ﷺ، وهو واثق كل الثقة، مطمئن كل الإطمئنان، أن شهادته صحيحة مقبولة عند الله تعالى وعند رسوله.

ومنحه رسول الله ﷺ الوسام الذى يستحقه: «من شهد له خزيمة أو عليه فهو حسبه»، أى ليس محتاجا لشهادة رجل فعلا وليس لمجرد شهادته لصالح رسول ﷺ، فما كان رسول الله ليقبل من مؤمن عملا إلا إذا بحث وتعرف على دوافعه وتوافقه مع حقائق الإيمان، ولذا سأل خزيمة: «بم تشهد؟» أى ما دليلك، وما حجتك على ما تشهد به.

وكان جواب خزيمة وعلمه ومنطقه السليم، فهو يصدق الرسول فى أمور غيبية من يتسع صدره وقلبه وعقله للتصديق بها يكون من اليسير عليه أن يصدق بغيرها كما يقال: من باب أولى.

لقد ارتقى أبو بكر رضى الله عنه من صدق الرسول الأرضى إلى التصديق فى أخبار السماء، فآمن به، وصدقه من قبل أن يرى منه معجزة سماوية، ولم يتردد فى إسلامه؛ لأنه لم يعرف عنه إلا الصدق فى جميع حالاته ومعاملاته، فكيف لا يشهد على مبايعة أبرمها الرسول مع هذا

الإعرابى، ويصدقه فيما قاله كما لو كان حاضرا وشاهدا لهذه المبايعة.

إنه المنطق السليم، والفقه المستنير، والإيمان القوى، والعلم الذى لا يكتفى بمجرد الوقوف على ظواهر الأشياء، ولكنه يستبطن الأشياء والقضايا ليتعرف على حقائقها، وكأنما أراد الله عز وجل أن يعد هذا الموقف ويدخره لموقف آخر أعظم وأجل، جاء فيما بعد وكان بطله الصحابى الجليل خزيمة بن ثابت.

جمع القرآن الكريم:

عند جمع القرآن الكريم لما استحر القتل بالقراء، وكثر فى قراء القرآن «يوم اليمامة» حين لم يكن القراء يكتفون بتلاوة القرآن فى المناسبات المختلفة، ولكنهم كانوا فى طليعة المجاهدين فى سبيل الله، خاف أبو بكر رضى الله عنه أن يضيع القرآن بموت القراء، أو قتلهم فى المعارك، فقال لعمر بن الخطاب ولزيد بن ثابت: من جاءكما بشاهدين على شىء من كتاب الله فاكتباه، فقال زيد بن ثابت: ووجدت آخر سورة التوبة مع خزيمة بن ثابت الذى جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادتين لم أجدها مع غيره فكتبوها عنه؛ لأن رسول الله ﷺ جعل شهادته بشهادتين فى قصة الفرس الذى ابتاعها رسول الله ﷺ من الأعرابى، فأنكر الأعرابى البيع، فشهد خزيمة هذا بتصديق رسول ﷺ، فأمضى شهادته، وأخذ الفرس من الأعرابى. والحديث رواه أهل السنن وهو مشهور.

والآيات المشار إليها فى آخر سورة التوبة، هى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٨، ١٢٩].

وما أعجب وما أروع أن تتوافق وتتساوق وتتناغم أواخر سورة التوبة مع مضمون القصة السابقة، ومع ما أجاب به خزيمة رسول الله ﷺ، فقد عددت صفات حضرة النبى ﷺ فهى حين تذكر: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ

﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، تعنى فيما تعنى أنه: من جنسكم وعلى لغتكم، فتذكر بدعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

إن أخلاق الرسول ﷺ وتربيته لصحابته هى التى جعلت الواحد منهم يقف أمام النجاشى، أو أمام كسرى ويقول له: إن الله بعث فينا رسولا منا، نعرف نسبه وصفته، ومدخله ومخرجه، وصدقه وأمانته.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، أى يعز عليه ويؤلمه الشىء الذى يعنت أمته ويشق عليها فيقول ﷺ: «بعثت بالحنيفية السمحة».

وفى الصحيح: «هذا الدين يسر»، وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة يسيرة على من يسرها الله تعالى له.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾، أى أنه ﷺ حريص على هداية أمته، ووصول النفع الشامل لها فى الدنيا، وفى الآخرة.

فهنيئا لك يا خزيمة هذا الوسام الذى تفردت به من بين صحابة رسول الله ﷺ أجمعين، هذا الوسام الإستثنائى من رسول الله ﷺ الذى لم يمنح إلا لك، ولم يعط لأحد قبلك، ولا لأحد بعدك، لقد ضاع درع لعلى رضى الله عنه يوم الجمل، فأصابها رجل فباعها، فعرفت عند رجل من اليهود، فخاصمه إلى شريح الذى كان قاضى المسلمين فشهد الحسن لعلى كما شهد مولاه قنبر، فقال شريح: أما شهادة مولاك فقد أجزناها، وأما شهادة ابنك لك فلا نجيزها، فقال على رضى الله عنه: ثكلتك أمك، أما سمعت عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»، ثم قال لليهودى: خذ الدرع، فقال اليهودى: أمير المؤمنين، جاء معى إلى قاضى المسلمين فقضى عليه ورضى، صدقت والله يا أمير المؤمنين، إنها لدرعك سقطت عن جمل لك التقطها، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، فوهبها له على، وأجازه بسبعمائة، ولم يزل معه حتى قتل يوم

صفين. [فى كنز العمال ٤/٦].

فها نحن نرى القاضى شريح لم يقبل شهادة الإمام على، وهو أمير للمؤمنين، واستبعد شهادة ابنه الحسن، وهو سيد شباب أهل الجنة، وقبل شهادة مولى على، وهو قنبر، ولكنها لا تكفى بمفردها لإثبات حق أمير المؤمنين على بن أبى طالب، فأى شرف إذن ناله خزيمة بن ثابت.

قيل: أنه شهد مع على رضى الله عنه وقعة الجمل، وصفين، ولكنه لم يقاتل فيها، فلما قتل عمار بن ياسر بصفين، قال خزيمة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقتل عمارا الفئة الباغية»، ثم سل سيفه وقاتل حتى قتل، وكانت صفين سنة سبع وثلاثين، قاله أبو عمر.

أخيرًا..

روى الزهرى، عن ابن خزيمة، عن أبيه: أنه رأى فيما يرى النائم أنه سجد على جبهة النبى ﷺ، فاضطجع له النبى ﷺ، وقال: صدق رؤياك، فسجد على جبهة خاتم الأنبياء والمرسلين.

فأى شرف وأى وسام.. هذا ؟

فسلام عليك يا سيدى يا رسول الله، وسلام عليكم يا صحابة رسول الله، وسلام عليك يا خزيمة.

* * *

زيد بن حارثة
الذى أنعم الله عليه

فارس هذه الصفحات من الرعيل الأول، حمل لقبًا شريفًا التحم باسمه التحاما لا يفارقه إذا ذكر اللقب عرف الاسم، وإذا ذكر الاسم تسارع اللقب إلى الأذهان، كأنما أصبح الاسم واللقب تؤمان لشخصية واحدة لا يشاركها فيهما أحد.

إنه حب رسول الله، إنه زيد بن حارثة

السَّبى المبارك:

هل كان يدرى هذا الغلام الآدم شديد الأدمة، أو الأسمر الشديد السمرة، الذى فى أنفه فطس، أنه سيحصل على كل هذا الحب، وكل هذه الشهرة فى نفوس المسلمين.

أمه: سعدى بنت ثعلبة إحدى نساء بنى معين، تنتمى إلى طئ.

أبوه: حارثة بن شراحبيل، من حى الكلابيين.

خرج زيد مع أمه سعدى، فى زيارة تبدأ من حى الكلابين أهل أبيه حارثة متوجها مع أمه إلى حى أخواله من بنى معين من طئ، تاركا وراءه آباه الذى يحبه أشد الحب، فهو أصغر إخوته، وأحبهم إلى قلبه، كما ترك أخوين شابين، وأخوات بنات، كان زيد حينذاك غلاما يافعا لم يكد يبلغ الثانية عشرة من عمره.

لم يتعرض له أحد أثناء هذه الرحلة فى الصحراء التى تقطعها الإبل فى ثلاثة أيام حتى تبلغ منازل طئ، هناك فى ظل الجبلين أجا وسلمى. لكنه هناك، وبعد أن استقر به المقام فى أبيات أخواله، أغارت خيل على أبيات بنى معين رهط أمه سعدى، فاحتملوه مع ما احتملوا وباعوه فى سوق عكاظ.

لعل زيدا سمع أن غارات السلب والنهب كانت وسيلة من وسائل العيش، متعارفا عليها للعربى البدوى، ولكنه لم يدر أنها ستظل وتبقى لآماد بعيدة تمارسها أكثر الدول تقدما أو ادعاء للتقدم.

كما أنه لم يكن يدرى أنه سيكون أحد مبيعاته أصبح زيد رقيقا بيع فى سوق عكاظ. لا يدرى ماذا سيفعل به سيده، أو ماذا ستفعل به الأيام؟.

فى منزل النبوة:

ابتاعه حكيم بن حزام بأربعمائة دينار لحساب عمته شريفة قريش وثريتها، فوهبته لزوجها الصادق الأمين محمد، هل كان يخطر ببال زيد أن حياة الرق فى بيت هذه الأسرة التى اشترته كرقيق ستكون أطيب وأرق وأحنى من حياته بين أبيه وأمه وإخوته وعشيرته، لابد أنه سمع عن حياة المهانة والقسوة التى يعانيها المسترقون عند أسيادهم، وصور الاستغلال والاستنزاف بما يعود على الأسياد بالكسب الوفير، والخير الكثير.

لكن الحياة الهانئة الكريمة التى صادفها زيد عند محمد وزوجه خديجة جعلته يترك كل الصور البغيضة الكريهة التى كانت تدور بينه وبين رفاقه عن حياة الأرقاء، شعر بحق أنه أحد أفراد هذه الأسرة، بل شعر أنه ابنها الأثير الحبيب فبادلهم حبا بحب، ووفاء بوفاء.

وهكذا أراد الله تعالى لزيد أن يعيش فى بيت النبوة يتأدب على يدى النبى المقبل قبل أن يبعثه الله هداية ورحمة للعالمين، يتأدب دون أن يلطم وجهه، أو ترفع عليه عصا غليظة أو غير غليظة، بل دون أن تخدش سمعه لفظة نابية، أو كلمة قاسية، يرتشف الصدق والإيثار، والحب والوفاء، والشجاعة فى الحق، والإقدام بلا تردد فى مواطن الإقدام.

أشواق حارثة:

كان حارثة منذ فقدان زيد دائب الشوق والحنين، لا يكف عن البحث والسؤال عن ابنه الأسير يتساءل فى لهفة عما آل إليه مصيره وينشد:

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل ... أحى فيرجى أم أتى دونه الأجل
فوا الله ما أدرى وإن كنت سائلا ... أغالك سهل الأرض أم غالك الجبل
فياليت شعرى هل لك الدهر رجعة ... فحسبى من الدنيا رجوعك لى بجل[١]
تذكرنيه الشمس عند طلوعها ... وتعرض ذكراه إذا قارب الطفل[٢]

---

(١) بجل: فحسب.

(٢) الطفل: الاحمرار عند الغروب.

وإن هبـت الأرواح هيجـن ذكـره فيا طول ما حزنـى عليـه ويـا وجـل
سأعمل نص العيش فى الأرض جاهدا ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبـل
حيـاتى أو تـأتى علـى منيتـى وكـل امرئ فـان وإن عـزه الأمـل
وأوصـى بـه قيسـا وعمـرا كليهمـا وأوصـى يزيـدا ومـن بعـده جبـل

وكان زيد فى الجانب الآخر، يحس بشوق للقاء أهله، رغم حياته الهانئة مع محمد وزوجه، فهذا شعور فطرى مألوف، لا ينتقص من حب زيد لمحمد، أو حب محمد لزيد.

ويشاء الله أن يحج أناس من قبيلة كلب، وأن يروا زيدا فيعرفهم ويعرفونه، فيقول لهم: بلغوا أهلى هذه الرسالة، فإنى أعلم أنهم جزعوا على، وكانت الرسالة هذه الأبيات:

ألكنـى إلى قومـى وإن كنـت نائيـا بـأنى قطـين البيـت عنـد المشـاعر
فكفوا من الوجد الذى قد شـجاكم ولا تعملوا فى الأرض نـص الأبـاعر
فإنى بـحمـد الله فـى خيـر أسـرة كـرام معـد كابـرا بعـد كابـر

زيد يؤثر محمدا على أبيه:

حمل الكلبيون رسالة زيد إلى أبيه، ووصفوا له موضعه، وعند من هو.

تساقطت الكلمات الرقيقة على قلب أبيه المتشقق حزنا على فراق ابنه كما يتساقط المطر الغزير على الأرض العطشى، فتعيد إليها الخصوبة وطراوة الحياة وليونتها بعد قسوة الجفاف وشظف المعاناة.

خرج حارثة وأخوه كعب بن شراحبيل بفدائه، وقدما مكة، وسألا عن محمد، وعرفا أنه بالمسجد، وهناك قالا له: يا ابن عبد الله، يا ابن عبد المطلب، يا ابن هاشم، يا ابن سيد قومه، أنتم أهل الحرم وجيرانه، تفكون العانى، وتطعمون الأسير، جئناك فى ابننا عندك، فامنن علينا، وأحسن علينا فى فدائه، فإنا سنرفع لك فى الفداء.

قال الرسول ﷺ: «من هو»؟ قالوا: زيد بن حارثة، قال: «فهل لغير ذلك»، قالوا: وما هو؟ قال: «دعوه فخيروه، فإن اختاركم فهو لكم بغير

فداء، وإن اختارنى، فوا الله ما أنا بالذى اختار على من اختارنى أحدا»، قالوا: قد زدتنا عن النصف – أى انصفتنا أكثر مما نتوقع – وأحسنت، فدعاه فقال: «هل تعرف هؤلاء»؟ قال: نعم، هذا أبى، وهذا عمى، قال الرسول: «فأنا من قد علمت ورأيت صحبتى، فاخترنى، أو اخترهما»، قال زيد: ما أنا بالذى أختار عليك أحدا، أنت منى بمكان الأب والأم.

و لم يدر بخاطر الأب والعم أن من يخالط محمدا فى حياته اليومية، ويتشبع بأخلاقه، لا يستطيع أن يفارقه حتى إلى خاصة أهله، وأهل مودته الذين يضنيهم الشوق إليه، والبحث عنه، فظنوا الجحود بزيد.

قالا له: أتختار العبودية على الحرية يا زيد؟ وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟ قال زيد: إنى رأيت من هذا الرجل شيئا، ما أنا الذى أختار عليه أحدا.

الرسول يعلن تبنيه لزيد:

فى هذا الموقف النابض بالمشاعر السامية أخذ محمد بيد زيد، وخرج به إلى الحجر، وقال: «يا من حضر، اشهدوا أن زيدا ابنى أرثه، ويرثنى».

ونزلت هذه الكلمات بردا وسلاما على قلب الأب والعم، وطابت أنفسهما، وانصرفا عائدين، وقد تبنى ابنهما ابن سيد قومه ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم أهل الحرم وجيرانه.

ومنذ تلك اللحظة حمل زيد وساما لا يطال، وازدادت مكانته علوا وارتفاعا، فقد عرف الجميع أن ما يربط محمد بزيد هو نوع فريد من الحب المتبادل، و لم تعد قيمة زيد تقدر بما دفع فيه من ثمن، فقد أعلن محمد أنه لن يقبل فيه فداء مهما علا، حتى إذا اختار الرجوع إلى أهله.

وجاءت كلمات زيد دليلا قاطعا على حبه الكبير لمحمد، إنها درجة من الحب أكبر من أن يقال عنها: إنها تعادل مكانة الابن من أبيه، وبديهى أن إعلان بنوة زيد لمحمد، تعنى أنه قد صار حرا، و لم يعد رقيقا.

والحقيقة: أنه كان حرا منذ دخل بيت النبوة، وليس فقط منذ إعلان البنوة.

إسلام زيد:

من آيات الله المعجزة أن ينزل القرآن المعجز على رجل أمى لا يقرأ ولا يكتب، فهذا يعنى أن الله تعالى سيجعل من أمية محمد أسمى درجة من درجات العلم؛ لأن المعلم هو الله تعالى، وليس أحدا من الناس.

وحامل العلم من الله إلى الرسول هو كبير الملائكة، ومحمد ﷺ مرسل إلى الناس كافة، فهل يصح بعد ذلك أن يقاس علم أى أحد من البشر، ليقال إنه أعظم مما جاء به محمد، ولذلك فإن التحدى قائم إلى أن تقوم الساعة.

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

نزول الوحى: اقرأ، محمد: ما أنا بقارئ، ما أنا بقارئ، ما أنا بقارئ، جبريل: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

وتفتحت أبواب العلم والمعرفة، وأسرع زيد إلى التصديق والإيمان بمحمد، ولم تختلف آراء القائلين فى سبقه إلا فى تحديد هذه الأسبقية: هل كان الأول أم الثانى أم الثالث؟ وعلاقة زيد بالرسول وحبه له يؤهلانه لأن يكون من أوائل المصدقين بالرسول وبالرسالة.

مدى حب الرسول لزيد بعد الإسلام:

لا شك أن الأقوال إنما توزن بمدى صدق قائليها، كما أن الأفعال تقدر بقدر قوة فاعليها؛ لذلك نرى زيد بن حارثة وقد نال من حب رسول الله ﷺ شأوا بعيدا تحدثت به الأجيال، وستظل إلى قيام الساعة، وازداد الحب المتبادل بالإسلام تألقا والشهود على ذلك:

١- ها هو عبد الله بن عمر يقول: فرض أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لأسامة بن زيد عطاء أكثر مما فرض لى، فسألته، فقال: إنه كان أحب إلى رسول الله منك، وإن أباه كان أحب إلى رسول الله من أبيك.

وصمت ابن عمر كأنه استمع إلى قضية سبق الحكم فيها بالعدل فلا تحتمل جدلا.

٢- ها هى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تقول: ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة فى جيش قط إلا أمره عليهم، ولو بقى بعده لاستخلفه.

تقول ذلك وهى بنت الصديق أبى بكر رضى الله عنه، فأى شهادة تلك؟

٣- بل إن رسول الله نفسه يقول لزيد: «أنت مولاى، ومنى، وإلى، وأحب الناس إلى».

٤- حين أذن الله تعالى لنبيه وللمؤمنين فى الهجرة، هاجر زيد مع المهاجرين، وآخى الرسول بين زيد، وبين عمه حمزة، إخاء بين شهيدين لم يحن بعد يوم استشهادهما.

٥- يغزو النبى، فيخلف زيدا على أمر المدينة، كل ذلك يدل على قدر زيد فى الإسلام؛ لأن هوى زيد كان تبعا لما جاء به الإسلام.

هل هو حب العقب الذكر؟ هل كان الرسول يحب زيدا كل هذا الحب لحرصه على العقب الذكر فى عصر كانت البنات يوءدن فيه؟ ولشعوره بالألم لوفاة ابنيه؟ فلم يطق محمد على الحرمان صبرا، حتى إذا جئ بزيد بن حارثة يشترى، طلب من خديجة أن تبتاعه ففعلت، ثم أعتقه وتبناه، فكان يدعى زيد بن محمد؟.

هذا ما جاء بكتاب حياة محمد للدكتور هيكل عند الحديث عن أبناء محمد، ولو كان الأمر مجرد اللهفة على تبنى أى مولود ذكر لما عجزت خديجة الواسعة الثراء عن شراء من يفوق زيد بن حارثة وسامة وجمالا.

ولكن الذى يبدو أقرب للحقيقة أن الله تعالى دفع بزيد القصير القامة،

الأسمر الشديد السمرة، الذى فى أنفه فطس، إلى بيت النبوة لما به من صفات يعلمها الله تعالى، ولما سيظهر من تكريم الله تعالى له: «الذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه»، إنه زيد بن حارثه الذى جئ به سببا ليعيش فى بيت النبوة، ثم جعله الله محورا لتطبيق بعض الأحكام الهامة فى القرآن الكريم، ولتغيير بعض الأحكام الأخرى التى كان معمولا بها فى الجاهلية، ولتكريم من يريد الله تعالى تكريمه، ولإثبات أن طاعة الرسول لله تعالى طاعة مطلقة ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

هل ورد مثل هذا التعبير الذى جمع بين إنعامين، فى صحابى آخر غير زيد بن حارثة؟ وهل ذكر أحد من صحابة رسول الله ﷺ باسمه غير زيد بن حارثة؟ بل هل ذكر أحد من عباد الله الصالحين بالاسم فى القرآن غير زيد ابن حارثة؟ هل ذكر بالأسم صاحب موسى؟ ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦].

هل ذكر بالاسم صاحب سليمان؟ ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النمل: ٤٠].

وغير هؤلاء كثير، ولا يقال هذا بهدف تفضيل أحد على أحد، فدرجات التفضيل هى من الشئون الخاصة بالله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [الحديد: ٢١]، فلا يجوز لمخلوق أن يقتحم هذا المجال بدون إذن من الله تعالى ولكن نذكر ذلك بهدف تأكيد وتحقيق قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾، لتعداد بعض النعم الخاصة التى تفضل الله تعالى بها على هذا الصحابى الجليل، وهذه النعم الخاصة غير النعم العامة التى لا تحصى، والتى أنعم الله بها على جميع الناس.

الزواج بزينب:

من الأمور التى جعل الله تعالى فيها زيدا محورا لتطبيق بعض الأحكام وبعض المبادئ الهامة فى الإسلام، قصة زواجه بزينب بنت جحش، وتطليقه منها بعدما يقرب من عام، وقد تم كل ذلك بتدبير محكم من الله تعالى.

الرسول عليه الصلاة والسلام هو الذى زوج زيدا من ابنة عمته زينب، لتحقيق الآتى:

١ - إعلاء الحسب الإسلامى ليصير كفئا لأى حسب آخر مهما علت درجته بين الناس، فلا يعلو على الحسب الإسلامى حسب قبلى ولا اعتبار للشكل أو اللون، أو الجنس فى التفضيل، وليس لمؤمنة مهما كانت درجتها فى السلم الإجتماعى المتعارف عليه بين الناس منخفضة أن تتزوج بكافر مهما علت درجته الاجتماعية بين الناس، وليس لمؤمنة أن تتعالى بحسبها، ولا بنسبها على مسلم. يتضح كل ذلك فيما دار من حوار بين الرسول ﷺ وابنة عمته.

خطبها على زيد بن حارثة، فقالت له: يا رسول الله، لا أرضاه لنفسى، وأنا أيم قريش - أى عذراء قريش -وشريفتها، أنا خير منه حسبا.

تشير إلى أنه كان رقيقا وأعتقه الرسول.

ونزل الوحى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٣ - ٣٦].

فتراجعت عذراء قريش وشريفتها وابنة عمته - أميمة بنت عبد المطلب - عن رفضها له كزوج، تراجعت إذعانا وتطبيقا لهذا المبدأ الإيمانى وقالت: أرضيته لى يا رسول الله زوجا؟ قال: «نعم»، قالت: إذن لا أعصى رسول الله.

وما كان الرسول ليفعل ذلك إلا بأمر الله تعالى، إنه لا ينطق عن الهوى، وهو نفسه الذى قرر لا تكره فتاة على الزواج بمن لا تريد، لقد كان هذا الزواج بالذات، وبأطرافه المحددة، هو الملائم وهو المطلوب لتأكيد غرس المبدأ الإسلامى السابق الإشارة إليه:رفع وإعلاء الحسب الإسلامى على أى حسب آخر، دون النظر إلى شكل أو لون أو جنس.

وقد أدى هذا التزويج مهمته، فقد جاء الأمر به من الله تعالى على أقرب

المقربين لرسول الله ﷺ، وتم تنفيذه، وأدى مهمته فى الإعلام بـه والإعـلان عنه، و لم تعد هناك ضرورة تقتضى استمرار فرضه على طرفين لا يريد كـل منهما الآخر.

تعذر الحياة الزوجية بين زيد وزينب:

استمرت المعاشرة الزوجية ما يقرب من عام، ولكن ما كان لهـذه الحيـاة أن تستمر بين طرفين أحدهمـا يتعـالى معـتزا بحسبه، والآخـر لا يقبـل هـذا التعالى معتزا بإسلامه، والله تعالى لا يريد إكراه أحـد علـى الـزواج، ولكـن المهم أن يوضع المبدأ، فيكون سابقة شرعية لمن يرغـب فـى أن يسـتند إليـها مستقبلا، دون أن يتعرض لمعايرة أو تنقيص أو تنغيص من حق أو كرامة.

٣ – الغاء التبنى:

مبدأ آخر محوره زيد بن حارثة تم تطبيقه على أعلا مسـتوى مـن البشـر، حتى لا تكون هناك ذريعة للتراجع عنه، هذا هو رسول الله ﷺ الذى أشهد الناس على أنه «يرث زيدا ويرثه زيد»، يحنى رأسـه امتثـالا لأمـر الله تعـالى، ويلغى ما سبق أن أشهد الناس عليـه دون غضاضـة مما يدعـم أيضـا أنـه لا ينطق عن الهوى؛ لأن أمر الله تعالى يجب الإذعان له من الجميع والإمتثال لله تعالى لا يشكل ضغطا أو ضيقا على صدر المؤمن؛ لأنه يمارسـه عـدة مـرات فى اليوم فى الصلاة.

٤ – إباحة الزواج من زوجة المتبنى:

مبدأ إسلامى آخر، كان المبدأ الراسخ فى الجاهلية يقضـى بتحريـم زواج الرجل من زوجة ابنه بالتبنى، وجاء الإسـلام بإلغـاء هـذا المبـدأ أيضـا علـى أعلى مستويات البشـر، فـزوج الله رسـوله مـن زينـب التـى سـبق تـهديدها بالضلال المبين حينما حاولت رفض الـتزوج بزيـد لشـرفها وحسـبها، فلمـا أذعنت لله تعالى أثابها على طاعتها بأن زوجها من رسوله زواجا لا مثيل له يظل مفخرة لها على مدى الزمن زواج بلا عقد، ولا مهر، ولا شهود، كما هو مقرر بين الناس.

دخل الرسول عليها بعد انقضاء عدتها من زيد بلا إذن، وكان فى هذا الزواج المبارك إنعام من الله تعالى على الأطراف الثلاثة:

١ - كان إنعاما من الله على الرسول ﷺ؛ لأن هذا الزواج كان من الله مباشرة، وهو سبحانه الذى تكفل به بعقده، ومهره، وشهادته، ثم من بعد شهادة أول الشاهدين عليه، شهادة جميع الخلق لوروده بالقرآن الكريم، وكل من يتلو هذه الآيات الكريمة يعتبر شاهدا بعد الله على هذا الزواج الفريد الذى أعلن عنه فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

٢ - وكان إنعاما على زينب فهو بمثابة الجائزة لها على طاعتها زوجها الله تعالى برسوله، فصارت أما لجميع المؤمنين، متفردة بهذا الزواج فخورة به على جميع زوجات الرسول بما فيهن عائشة رضى الله عنها.

٣ - وكان إنعاما على زيد كزوج سابق لمن زوجها الله لرسوله فأصبحت من أمهات المؤمنين بل إنها كانت تفخر عليهن فتقول: كلكن زوجكن أهلكن، أما أنا فقد زوجنى الله من فوق سبع سموات.

مبدأ آخر من مبادئ الإسلام:

أحكام الميراث لا تقبل التعديل، نظام التوارث الذى جاء به الإسلام نظام إلهى ثابت يجب ألا تمتد إليه يد بالتعديل، أو التغيير، أو التحايل تحت أى مسمى أو شعار، مثل الدعوة بمساواة المرأة بالرجل، كما لا يجوز اتخاذ التبنى ثغرة لاختراق مبادئ الميراث، وتم ذلك بالتصريح بإلغاء التبنى فى قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤، ٥].

والشخصية المحورية فى كل ذلك كان زيد بن حارثة.

ثقة الرسول فى زيد:

قال الرسول لزيد: «ما أجد أحدا آمن عندى، أو أوثق فى نفسى منك، ائت إلى زينب فاخطبها على»، وانطلق زيد حاملا هذه البشرى إلى زينب، ووجدها تخمر عجينا، قال: فلما رأيتها عظمت فى صدرى حتى ما أستطيع أن أنظر إليها فوليتها ظهرى، ونكصت على عقبى، فقلت: يا زينب، أرسل رسول الله ﷺ يذكرك - يخطبك أو يتزوجك.

الرسول فى المرة الأولى ذهب بنفسه إلى زينب ليخطبها زيد، وفى هذه المرة أرسل الرسول زيدا إلى زينب ليخطبها للرسول ﷺ، أى ثقة، وأى شرف، وأى وسام؟.

زيد يتزوج أم أيمن:

زوج الرسول ﷺ زيد بن حارثة أم أيمن حاضنة الرسول ومولاته وجعل له الجنة، فولدت له أسامة الذى حمل نفس اللقب الذى يحمله أبوه، فكان يلقب بأنه: حب رسول الله، وابن حب رسول الله ﷺ.

المعارك التى شهدها زيد:

كان زيد أميرا لسبع سرايا أولها: القردة، اعترض لعير أبى سفيان بن حرب ومعه أعيان القوم، أخذ العير وقدم بها على النبى ﷺ، أسر يومئذ فرات بن العجلى، ولكن أفلت أبو سفيان وأعيان القوم من الأسر، ثم توالت إمارته للسرايا بعد ذلك، فكانت سريته إلى الحموم، ثم إلى العيّص، ثم إلى الطرف، ثم إلى حسمة، ثم سريته إلى أم قرفة.

وكان زيد ممن شهد بدرا، وأحدا، واستخلفه الرسول على المدينة حين خرج النبى إلى المريسيع كما شهد الخندق والحديبية وخيبر، وكان من الرماة المذكورين من أصحاب رسول الله ﷺ.

الحياة الأبدية فى موته:

كانت هذه المعركة آخر معاركه فى الحياة، وبداية حياته الأبدية

كشهيد، ومعركة مؤتة تمتاز عن غيرها من المعارك؛ لأنها هى المعركة التى قاتل فيها قادة الجيش الإسلامى، وجنوده البواسل، وليس أمامهم إلا إحدى الحسنيين فقط، أى الإستشهاد فى سبيل الله تعالى، وقعة فى السنة الثامنة للهجرة، ثلاثة آلاف جندى من خير جنود الإسلام اتجهوا إلى شمال الشام يحملون معهم وصية الرسول ﷺ التى تعتبر ميثاقا عالميا لحقوق الإنسان فى الحرب.

بنود الميثاق الإسلامى:

لاتقتلوا النساء، لا تقتلوا الأطفال، لا تقتلوا الصبيان، لا تقتلوا المكفوفين.

وتطبيقا للمبدأ الإسلامى فى تعيين القيادة.

قال الرسول: «عليكم زيد بن حارثة، فإن أصيب فجعفر بن أبى طالب، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة».

ونرى أن الأمر فى قيادة الجيش الإسلامى كان لزيد كما قالت أم المؤمنين عائشة: ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة فى جيش قط إلا أمره عليه، وقد وجد جعفر بن أبى طالب فى نفسه شيئا لتقديم زيد عليه، ولكن الرسول رداه فأطع.

المفاجأة:

حين وصل الجيش الإسلامى إلى مشارف الشام تكشفت الحقيقة، وأى حقيقة إنهم أمام جيش أكبر من أن يقال فيه: جيش لجب، جيش يفوق بكثير معدل التفوق العددى الذى ارتضاه الله تعالى للمؤمنين الوارد فى قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا﴾ [الإنفال: ٦٥]، فما العمل؟ وقد خفف الله عن المؤمنين فقال: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ

ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٦].

كان جيش الروم مائتى ألف أو مائة ألف على قول آخر.

معركة غير متكافئة بكل المقاييس، ورغم ذلك تقدم البطل الكبير زيد بن حارثة، تقدم وليس أمامه إلا الإستشهاد فى سبيل الله تعالى، حمل راية الإسلام، وقاتل راجلا - أى على قدميه - وتقدم الصفوف، وتكاثرت عليه الرماح، وتطايرت حتى مزقته، وحمل الراية من بعده جعفر بن أبى طالب، ومن بعده عبد الله بن رواحة، استشهد القواد الثلاثة، رفضوا الفرار من الزحف طلبا للحياة الأبدية فى جنة الخلد مع النبيين والصديقين والشهداء، وحسن أولئك رفيقا.

ولما بلغ رسول الله قتل القواد الثلاثة، قام فبدأ بزيد قائلا: «اللهم اغفر لزيد، اللهم اغفر لزيد، اللهم اغفر لزيد»، ثم قال: «اللهم اغفر لجعفر، ولعبد الله بن رواحة».

ولما ذهب الرسول لمواساة أهل زيد جهشت بنت زيد فى وجه الرسول، وبكى الرسول حتى انتحب.

قال له سعد بن عبادة: يا رسول الله ما هذا؟ قال رسول الله: «شوق الحبيب إلى الحبيب».

* * *

عبد الله بن حذافة

حق على كل مسلم أن يُقبِّل رأسه وأنا أبدأ التوقيع. عمر بن الخطاب.

عبد الله بن حذافة

قريشى، سهمى، يكنى: أباحذافة.

أبوه: حذافة بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصبعى ابن كعب بن لؤى، القرشى السهمى.

أمه: تميمة بنت حرثان من بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة.

إخوته: قيس بن حذافة، خنيس بن حذافة: كان زوجا لحفصة بنت عمر ابن الخطاب قبل النبى ﷺ

مواقفه فى الإسلام:

كان قديم الإسلام بمكة، هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية مع أخيه قيس ابن حذافة، لم يشهد بدرا، قيل: أنه شهدها، لكن المؤكد أن الذى شهدها أخوه خنيس. وفاته: فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنهما.

الرسول والصحابة:

حرص الرسول على أن يتعهد صحابته بالتوجيه حتى تكون عبادتهم خالصة لله تعالى.

قام عبد الله بن حذافة يصلى، فجهر بالقراءة، قال النبى: «لا يا أبا حذافة، لا تسمعنى، وسمع الله».

كلمات قليلة لكنها تعبر عن الأسلوب النبوى فى توجيه أتباعه، هل استشعر الرسول عليه السلام أن أبا حذافة رفع صوته ليسمع الرسول، وأن صلاته ينقصها الخشوع، وخشى أن يقع أبو حذافة فى شىء من الرياء، فلفت نظره إلى مراعاة الإخلاص لله تعالى فى العبادة، والانصراف بكليته إلى الرقيب الأعلى، الذى يعلم السر وأخفى؛ لأن الصلاة هى معراج

الروح، وأنها أول ما يحاسب عليه الإنسان، إذا صلحت صلح العمل كله، وإذا فسدت فسد العمل كله أيضا.

والإحساس بأن كلمات الرسول توحى بهذا المعنى نستخرجه من هذه الألفاظ القليلة التى تنبئ بهذا التوجيه وتشير إليه، وإلا لقال له الرسول: لا ترفع صوتك. بدلا من قوله: «لا تسمعنى، وأسمع الله». وهذا التوجيه النبوى الكريم لم يكن قاصرا على أبى حذافة، بل مارسه الرسول مع كبار الصحابة.

كان أبو بكر إذا صلى فقرأ خفض صوته، قال له الرسول: «لم تصنع ذلك»؟ قال أبو بكر: أناجى ربى عز وجل، وقد علم حاجتى. قال له الرسول: أحسنت.

وكان عمر إذا صلى فقرأ رفع صوته، قال له الرسول: «لم تفعل ذلك؟»، قال عمر: أطرد الشيطان، وأوقظ الوسنان، قال له الرسول: «أحسنت».

ونلاحظ أن الرسول لم يقل لعمر رغم رفع صوته: لاتسمعنى، وتسمع الله»، كما قال لابن حذافة، بل قال لكل من أبى بكر وعمر: «أحسنت»، لماذا؟ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام، كان هو الطبيب الروحى للمسلمين يعرف الداء ويشخصه.

يرى بنور النبوه، والإلهام الإلهى الصادق للحالة النفسية لأتباعه وأصحابه، ويكتشف حقيقة النية النابع منها الفعل.

ثم نزل القرآن الكريم بالقاعدة الذهبية الوسطية، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

إذ كان رفع الصوت بالقرآن قبل نزول هذه الآية مما ضايق المشركين بمكة، فاجترءوا على القرآن! وعلى من أنزله! وعلى من جاء به، فاكتفى الرسول بأن يسمع أصحابه، ولا يسمع المشركين لعنهم الله.

وربما دفع النفاق بعض من يظهرون غير ما يبطنون إلى رفع الصوت

بالقرآن فى الصلاة ذرا بالرماد فى العيون، فأنزل الله تعالى هذه الآية يضع بها حدا وسطيا يمكن المؤمنين من التمتع بتلاوة القرآن فى خشوع وتدبر، ويكبت المنافقين، ويكشف نواياهم. ولذا قال الرسول لأبى بكر بعد نزول هذه الآيه: «ارفع صوتك قليلا»، وقال لعمر: «اخفض صوتك قليلا».

ربما ليتلاقى الصاحبان الكبيران عند الحد الأمثل للتلاوة، ولعل هذا ما قصده الرسول، من قوله لابن حذافة: «لا تسمعنى، وسمع الله»، حتى يبعده عما يفعله المراءون المنافقون لعلمه بحسن إسلامه.

بعض التهور:

نحس أنه كان فى ابن حذافة بعض التهور، وأن لسانه كان سباقا على الفكر المتأنى مما جعله يقتحم بعض المواقف الذى كان بعضها سببا فى سخط أمه عليه، نرى وضوح هذه الصفة فيه فى موقفين نكتشف فى كل منهما عبرة وعظة، ودرسا مستفادا له، ولغيره من المسلمين.

الموقف الأول:

شارك ابن أبى حذافة أولئك الذين كانوا يلحون على الرسول بالأسئلة، وكان منهم بعض المنافقين، وبعض المتسرعين بالسؤال عما لا يحمد عقباه.

ورسول الله ﷺ كان يحتمل الجميع حتى المنافقين رغم أن الله تعالى أطلعه عليهم، فكان عليه السلام لا يفتأ يوجه، ويرشد، ويقبل التحدى فيجيب على أى سؤال مهما كان حرجا.

من هذه الأسئلة التى قصد به السخرية:

ناقتى ضاعت أين أجدها؟ ومثل هذه الأسئلة لا يليق أن توجه لرسول الله، أسئلة أخرى قد تؤدى إلى توسيع دائرة المحرمات، وتضييق دائرة الحل لولا حلم رسول الله ﷺ، مثل: هل فرض الله الحج على المسلمين مرة واحدة فى العمر أم فرضه عليهم كل عام مرة؟ تجاهل الرسول هذا السؤال والإجابة عليه حتى ألح السائل عليه ثلاث مرات، حينئذ قال الرسول

مغضبا، أو متضايقا:لا، ولو قلت إن الحج يجب عليكم كل عام لوجب، وأصبح فرضا عليكم، ولو حدث ذلك لما استطعتم، اتركونى ما تركتكم»، فإنما أهلك الذين من قبلكم مثل هذه الأسئلة التى فتحت عليهم أبواب التشدد فى التكليفات والتنفيذ.

وفى يوم ضاق الرسول بالأسئلة الحرجة، وأراد أن يظهر لهم أنه لا يصمت عن عجز، ولكنه يصمت رحمة ورأفة بهم.

صعد المنبر وقال لهم: «لا تسألونى اليوم عن شىء إلا بينته لكم»، قام رجل من الحاضرين وسأل: أين أبى يا رسول الله؟ قال الرسول: «أبوك فى النار»، وقال صاحبنا عبد الله بن حذافة وسأل: من أبى يا رسول الله؟ أجاب الرسول على الفور: «أبوك حذافة، الابن للفراش وللعاهر الحجر»، وأوشكت الأسئلة من هذا القبيل أن تنهال على رسول الله ﷺ، وفزع عمر ابن الخطاب، وخشى مغبة ما يتكشف من فضائح أخفاها الله عن عباده المؤمنين رحمة بهم، جثا عمر على ركبتيه باكيا أمام رسول الله، ليستعطفه قائلا: رضينا بالله تعالى ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ، وبالقرآن إماما، إننا يا رسول الله حديثوا عهد بجاهلية وشرك، والله تعالى أعلم بحقيقة آبائنا ومن هم؟ والإسلام يجب ما قبله، والله هو ساتر العورات، وكفا هذا يا رسول الله، فسكن غضب الرسول.

ونزل قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [المائدة: ١٠١].

وسمعت أم عبد الله عن الأسئلة التى وجهت إلى رسول الله، وسؤال ابنها عن أبيه، فاستقبلته غاضبة وهى تقول: ما رأيت ولدا أعق منك قط، أكنت تأمل أن تكون أمك قد قارفت ما قارف أهل الجاهلية، فتفضحها على رؤوس الناس؟ قال عبد الله: والله لو ألحقنى بعبد أسود للحقته، ولكنى أردت أن أبدى ما فى نفسى.

موقف آخر يدل على التسرع:

روى أنــه أسـتعمل علـى سـرية، وأمرهـم الرسـول أن يسـمعوا لـه ويطيعوا كأمير عليـهم، أغضبـوه فـى شـىء، فقـال لهـم: اجمعـوا لى حطبـا، فجمعوا له ما أراد، قال لهم: أوقدوا نارا، فأوقدوا له النار كما أمرهم قـال: ألم يـأمركم رسـول الله ﷺ أن تسـمعوا لى وتطيعـوا؟ قـالوا: بلـى، قـال: فادخلوها، قالوا: ندخل ماذا؟ قال: ادخلوا هذه النار، قالوا: كيف ندخلها، لا يعذب بالنار إلا خالق النار، وما فررنا إلى رسول الله إلا خوفا من النـار، وضحك عبد الله بن حذافة كما لو كـان سـكن غضبـه، أو كمـا لـو كـان الأمر دعابة من دعاباته وأطفئت النار.

ولما قدموا على النبى ﷺ، ذكروا ذلـك لـه، فقـال النبـى: «لـو دخلوهـا ماخرجوا منها إنما الطاعة فى المعروف».

وهذا درس آخر عملى قرره الرسول:

إنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق حتى لو كان الآمـر أمـيرا، ورغـم هذا الموقف فقد كان له موقف جعل الرسول يبتسم مسرورا.

روى أن رجلا أتى النبى ﷺ سأل الرسول فأعطاه، ثم جاء آخـر فسـأل الرسول، فأعطاه، ثم جاء ثالث فسأل النبى أن يعطيه شيئا، فقال النبى: «ما عندى ما أعطيك، ولكن اذهب فاشتر مـا تحتاجـه دينـا علـى، فـإذا جـائنى شىء قضيته ودفعته لصاحبه»، قـال عمـر بـن الخطـاب رضـى الله عنـه: يـا رسول الله سئلت، فأعطيت، ثم سئلت، فأعطيت، ثم سئلت، فوعدت، ثم سئلت، فوعدت، وما كلفك الله بما لا تقدر عليه، فكره النبـى قـول عمـر، وظهر على وجهه، فقام عبد الله بن حذافة، فقال: أنفق يـا رسـول الله، ولا تخش من ذى العرش إقلالا، فتبسم رسول الله ﷺ وعرف التبسم فى وجهه لهذا القول. فقد كان الرسول غاية فـى الجـود، يعطى عطـاء مـن لا يخشـى الفقر.

رسالة الرسول إلى كسرى:

بعث رسول الله ﷺ بكتابه إلى كسرى مع عبد الله بن حذافه، فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه خرقه ومزقه، قال الرسول: «مزق الله ملكه، إن ربى قتل كسرى لا كسرى بعد اليوم»، فقتله ابنه شيرويه وجلس على مقعده.

وفى حجة الوداع، وتسمى حجة البلاغ خرج الرسول إليها فى ٢٥ ذى القعدة سنة ١٠ هـ، وفى منى بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة ينادى الناس فى منى، قال الرسول: «يا عبد الله، قل للناس فى منى: أنها أيام أكل وشرب وذكر»، قال عبد الله: نعم يا رسول الله، وانطلق لينادى، ويقال إنه كان به دعابة، فأخذ يخاطب نفسه، قال له نصفه المازح، وهو يغترف بيده فى القضاء، ويلقى إلى جوفه إنها أيام أكل وشرب، إنها أيام أكل وشرب، إنها أيام أكل وشرب، وجعل يتلمظ حتى شبع، فقال له نصفه الآخر: حذار أن تنسى يا عبد الله، إنها أيام ذكر، إنها أيام ذكر، إنها أيام ذكر، وجعل ينادى بمنى كما أمره الرسول أن يفعل.

صلابة الإيمان:

إن ابن حذافة هذا الذى يقال عنه أنه كان به دعابة، لم تمنعه دعابته أن يكون صلب الإيمان كجبل راسخ العقيدة لا يخشى الموت إذا قابله وجها لوجه، ولو تمثل له فى أبشع صورة وأفظعها، أن ما حدث له يعد من أروع قصص الثبات على الحقيقة التى يؤمن بها كعين اليقين، وعلى التمسك بالإسلام، فى وقت قد تنخلع فيه قلوب الرجال لتظل قصته نبراسا ساطعا على الحق أمام كل المجاهدين إلى ما شاء الله.

وكان قد تدرب على يدى رسول الله، ونمت شخصيته وأينعت حتى اكتمل النضج فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وجه عمر الفاروق رضى الله عنه جيشا إلى الروم فيهم الصحابى عبد الله بن حذافة، وشاء الله تعالى أن يقع فى الأسر، فذهبوا به إلى ملكهم، وقالوا له: إن هذا من

أصحاب محمد، نظر إليه الملك، فرأى فيه شيئا ما محببا إليه، فقال له: يا هذا، دع ما أنت فيه وابق معنا، قال له عبد الله: وماذا أفعل هنا؟ قال الملك: تعتنق ديانتنا، وتبقى كواحد من حرسنا، قال عبد الله: كيف أترك أصحاب رسول الله، أترك أمير المؤمنين عمر وأعيش بعيدا معتنقا دينا آخر غير الذى آمنت به؟ الملك: نحن نخيرك بين حياة الشظف التى تعيشونها مع أميركم العربى، وبين حياة أخرى رغدة ناعمة، عبدالله: نحن نعيش فى الدنيا فى نطاق ما أحل الله وحرم فلا نحرم حلالا، ولا نحل حراما، وكان نبينا يعيش بواحد منا، يشبع يوما فيشكر الله ويجوع يوما، فيصبر على ما أراد الله انتظارا للجزاء الأكبر يوم القيامة.

الملك: إما أن تعتنق ديننا وإما. عبد الله: وإما ماذا؟ الملك: وإما أن تقتل شر قتله. عبد الله: إفعل ما بدا لك. الملك: بإشارة خفية اقتلوه بالسهام، وشد إلى الصليب، وانهالت السهام من حوله قريبا من يديه من رجليه من رأسه وهو ينطق بالشهادة. الملك: وقد أعجب به يعرض عليه النجاة من القتل، تنصر وانج بحياتك، عبدالله: لا أفعل، الملك: تنصر وإلا ألقيتك فى البقرة[1] عبد الله: ما أفعل، ودعا الملك بالبقرة النحاس، وملئت زيتا وأوقدوا عليها النار حتى الغليان، ثم دعا برجل من أسرى المسلمين فعرض عليه النصرانية فأبى، فألقاه فى الزيت الذى يغلى، فإذا عظامه تلوح ويحترق لحمه.

قال الملك لابن حذافة: تنصر، وإلا ألقيتك، قال: ما يكون لى أن أفعل ذلك، الملك: ألقوه فى البقرة، عبد الله بن حذافة: يبكى، قالوا للملك: لقد جزع، إنه يبكى، قال الملك: ردوه عرض عليه النصرانية، عبد الله: ما أفعل، الملك: ما الذى أبكاك إذن؟ ما أعجب أمرك؟ ابن حذافة: قلت فى نفسى ألقى هذه الساعة فى هذه البقرة، فأموت وكنت اشتهى أن يكون لى بكل شعرة فى جسدى نفس تلقى فى الله، ازداد الملك إعجابا به وأحب أن يطلقه، قال الملك: تنصر وأزوجك ابنتى، وأقاسمك ملكى، قال: ما أفعل،

(١) البقرة: وعاء كبير من النحاس.

قال الملك: قبل رأسي، وأطلقك - لعله رأى في ذلك نصرا عليه وإذلالا له - قال عبد الله: وتطلق جميع أسارى المسلمين معي، قال الملك معجبا به: أطلقك وأطلق جميع أسارى المسلمين، قال عبد الله: قلت في نفسي عدو من أعداء الله أقبل رأسه فيخلي عني وعن أسارى المسلمين، لا أبالي، فدنا منه فقبل رأسه.

فدفع إليه الأسارى، فقدم بهم على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فأخبر عمر بخبره وما كان منه، فقال عمر: حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أبدأ، وقام عمر فقبل رأسه.

مزاح الصحابة معه:

كان أصحاب رسول الله ﷺ يمازحون عبد الله، فيقولون له: قبلت رأس علج[1]؟ وكان يضحك ويقول لهم: بل قبلت رأس عجل! ولكن الله أطلق بتلك القبلة ثمانين من المسلمين من أمثالكم، كانت ستأكلهم بقرته.

* * *

---

(١) العلج: الفظ الغليظ من المشركين.

جُلَيبيب

قتل سبعة وقتلوه.

زوَّجه رسول الله ﷺ، ودعا لزوجه، فقال: «اللهم صب عليها الخير صبًا صبا، ولا تجعل عيشها كدًا كدًا»، فما كان فى الأنصار أيِّمٌ أنفق منها

جُلَيبيب

أنصارى، التعريف: إنه جليبيب على وزن قنيديل.

نحن نعرف الكثير عن المشاهير، ولكن أليس من واجبنا أن نتحدث عن أناس لا يعرفهم التاريخ باسم آبائهم وأجدادهم، ولا بأعمالهم العظيمة الخالدة، أناس مجهولون، ولكن كان لهم موقف معين يستحق منا أن نقف عنده، ونلفت الأنظار إليه، فقد يكون فى أحد المواقف العابرة عظة وعبرة يحسن بنا ألا نتركها تضيع بين أمواج التاريخ المزدحمة بالبطولات الكبيرة.

لذا ومع احترامنا وتقديرنا، وتوقيرنا للشخصيات الإسلامية التى فرضت نفسها على التاريخ الإسلامى، بل والعالمى، فإنه لا يضير هذه الشخصيات أن نطالع إلى من يقفون حولها جنبا إلى جنب، ما دام فى ذكرهم شىء هام يقال، يمكن أن تلتفت له الأجيال، من هذه الشخصيات المغمورة: جليبيب الأنصارى.

بعض صفات جُلَيبيب:

قيل عنه: كان قصيرا، ودميما، ولا أظن أن القصر، إذا أضيف إليه الدمامة بالشىء الذى يحبب النساء فى صاحبها، بل لعل العكس هو الصحيح، فالنساء غالبا، والفتيات خاصة، يردن فارس الأحلام فارعا.. جميلا ممشوقا، إلا إذا كان له رصيد آخر يعوض ما يعتبر نقصا فى زوج المستقبل، وغالبا ما يكون الرصيد الآخر شيئا، يدور حول النسب العريق، أو القوة أو الجاه الأثير، أو المال الوفير، أو كل ذلك جميعا.

وقلما يجدى الخلق الطيب إذا كان هو الفارس الوحيد فى الميدان، حتى لو أضيف له خفة دم، أو رشاقة روح.

جُليبيب خفيف الدم:

ويظهر أنه أطلق عليه جليبيب؛ لأنه القصير الـذى يكفيـه جلبـاب صغـير بقدر قامته القصيرة؛ لأن جليبيب تصغير لكلمة جلباب بمعنى قميص، ويبدو أنه كان خفيف الظل والدم والروح.

فقد أخرج أحمد عن أبى برزة الأسلمى رضى الله عنه، أن جليبيبا كـان امرأ يدخل على النساء يمر بهن ويلاعبهن، قال أبو بـرزة لأهلـه: لا تدخلـن عليكم جليبيبا، إن دخـل عليكـم لأفعلـن ولأفعلـن. ويظـهر أنـه لم يكـن ذا خطر على النساء، بل لعلهن لم يستشعرن حرجا فى مداعباته والحديث معه لدمامته وقصر قامته.

جُلَيبيب يشكو للرسول:

ولعل جليبيب شكى لرسول الله ﷺ مـا يلاقيـه مـن إعـراض النـاس عـن تزويجه لأسباب لا يد له فيها، ولمس الرسول فيه أيضـا خلقـا طيبـا، ونفسـا رضية، ورغبة مشروعة، لا حرج فى تحقيقها.

قال النبى لرجل من الأنصار: «زوجنى ابنتك»، قال الرجـل فرحـا: نعـم وكرامة يا رسول الله، ونعمة عين، وهل يجد مثلى أحدا أفضـل مـن رسـول الله؟ قال الرسول: «إنى لست أريدها لنفسى»، وابتلع الرجل ريقه، ودارت الأفكار بسرعة فى رأسه، قال: فلمن يا رسول الله؟ إنى طـوع أمـرك، قـال الرسول: «لجليبيب».

يـا للطامـة الكـبرى، جليبيـب هـذا الـذى ترفضـه الفتيـات، جليبيـب.. القصير... الدميم... جليبيب.. الذى يضحك النساء.. ويضحكن منه.. لم يستطع الرجل أن يرفض طلـب رسـول ﷺ.. فـى مواجهتـه.. وفكـر فـى طريقة للخروج من هذا المأزق وأسعفه تفكيره.. وقد جف حلقه.

فقال: أشاور أمها، وذهب الرجل يجر رجليه جرا إلى بيته، فطالعته زوجه فقال لهـا: إن رسـول الله يخطـب ابنتـك، وتـهلل وجـه المرأة، وقـالت: وا

فرحتاه نعم، ونعمة عين، ما لك يا رجل مصفر الوجه كأنك خارج من جب؟ أفى مثل هذه الساعة تأتى هكذا؟ دعنى أخبر الجيران، قال الرجل: اصبرى يا امرأة، إنه ليس يخطبها لنفسه، وتراجعت المرأة قليلا إلى الوراء، وقالت: لعله يخطبها لأحد صحابته، أو ولم يدعها زوجها تكمل.

وقال لها وكأنه يلقى عليها ببعض الحصيات التى أحرقتها حرارة الشمس الملتهبة، يلقيها عليها حصاة حصاة فى تؤدة شديد: إنه يطلبها يخطبها، قالت المرأة: لمن يا رجل؟ قل: بشرك الله بالخير، قال الزوج: إنه يطلبها يخطبها، وصمت الرجل، ونظر إلى عيون زوجته، قالت: المرأة أكمل قبل أن، قال الرجل: لجليبيب، قالت المرأة: وا مصيبتاه،وا مصيبتاه، إنيه إنيه[1] لجليبيب إنيه، لا لعمر الله لا نزوجه.

وقال الزوج: هل هذا رأيك؟ قالت المرأة: وهل هناك رأى آخر، نزوج ابنتنا لمن ترفضه الفتيات جميعا، وكانت الفتاة تصغى لجميع ما دار بين أمها وأبيها، فلما هم الرجل بالانصراف، ليخبر النبى بما قالت أم الفتاة، قالت الجارية: من خطبنى إليكم؟ قالت الأم: خطبك رسول الله لجليبيب، أرأيت حظك العاثر يا بنيه، قالت الجارية: لماذا تقولين هذا يا أماه؟ أتردون أمر رسول الله ادفعونى إليه، فإنه لن يضيعنى.

وخجل الأب، وأطرقت الأم، هذه الجارية أكثر منهما حكمة، ووثوقا برسول الله ﷺ، قالت الجارية: إذهب يا أبى إلى رسول الله، وأخبره أنى لا أعصى له أمرا، وتلت قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] رضيت، وسلمت، رضيت، وسلمت، لما يرضى لى به رسول الله ﷺ.

وروى الرجل لرسول الله كل ما دار بينه وبين زوجته، وما قالته الابنة، وما تلته من كتاب الله تعالى، فدعا لها رسول الله ﷺ وقال: «اللهم أصبب عليها الخير صبا، ولا تجعل عيشها كدا». وزوجها الرسول جليبيبا.

---

(١) إنيه: لفظة تستعملها العرب فى حالة الرفض والإنكار.

جُلَيبيب يغزو مع الرسول:

خرج رسول الله ﷺ فى غزاة لـه، فلما أفاء الله عز وجل عليه، قال الرسول: «هل تفقدون من أحـد»؟ قالوا: لا، قال الرسول: «لكنى أفقد جليبيبا، فاطلبوه»، فوجدوه إلى جنب سبعة رجال قتلهم، ثم قتلوه، فقالوا: يا رسول الله، ها هو ذا إلى جنب سبعة، قتلهم وقتل إلى جوارهم.

فأتاه النبى ﷺ، فقال: «قتل سبعة، ثم قتلوه، هذا منى، وأنا منـه»، قالها مرتين أو ثلاثا، ثم بسط الرسول ذراعيه، ووضع جليبيب على ذراعى النبى، ما له سرير إلا ساعد النبى حتى دفن. لم يذكر أنه غسله.

قال ثابت: فما كان فى الأنصار أيم أنفق منها، وأكثر منها خيرا، بفضل دعاء الرسول لها: «اللهم صب عليها الخير صبا صبا، ولا تجعل عيشها كد ا كد ا».

بقى أن نقول: أن المعاملة النبوية الكريمة الرحيمة التى حبا بها رسول الله جليبيبا كانت سببا فى أن تجعل منه البطل المجاهد المغمور، الـذى لم يفتقده أحد ممن كان معه إلا رسول الله ﷺ.

* * *

عمرو بن عبسة السلمى
ربيع الإسلام

حينما يتأمل الإنسان ما طرأ على رجل بدوى يغلب عليه أن يكون فظًا غليظ القلب، لا يكاد يؤمن إلا بتقاليد قبيلته، وما تلقاه عن آبائه وأجداده الراسخين فى الكفر والعناد، والذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٧].

حينئذ ينظر معجبا بما كان من أمر عمرو بن عبسة، ويعجب قبل هذا بما تمثله هذه الصورة من فضل الله تعالى على من يشاء من عباده، وقدرته على التغيير، وأن يخرج الشىء من نقيضه، فيخرج الحى من الميت، ويخرج الظلمات من النور ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠].

لحظة تأمل:

نظر عمرو إلى وجهه الذى يهتز على صفحة الماء فى القدر، وهو يغترف منها الماء ليروى ظمأه، واهتزت فى نفسه قيم الآباء والأجداد الراسخة عبر السنين : - عجبا لك يا عمرو، ما عدت تقبل الأشياء كما كنت تقبلها من قبل، لا أطيق أن أقف أمام هذه الأحجار الصماء، كيف أتحدث إليها أقدم لها القرابين، أذبح لها الذبائح إنها لا تسمع، لا تبصر، لا تتحرك، لم تطلب منى شيئا أفعله لها، أو لغيرها بل أنا الذى انتقيت هذه القطعة من الصخر وجعلت منها نصبا نصبته فى المكان الذى أريده، وأخيرا أعبده، يا لضلال ما أحمل فى أم رأسى من عقل وفكر؟ هل هذه الحجارة التى نشكلها بأيدينا هى التى خلقتنا وهل هى التى خلقت هذه السماء العالية المزدانة بالكواكب؟ وهذه البحور من الرمال الممتدة وما يسكنها من

وحوش وهوام وزواحف وثعابين؟ ما هذا يا عمرو يا بن عبسة؟ أتقف خاشعا ذليلا أمام قطعة من الصخر لا تعرف شيئا من التفكير، كلا هذا لن يكون بعد اليوم.

وانطلق إلى خارج خيمته وركب راحلته، وأسرع كأنه يبحث عن شيء عز عليه افتقاده طوال تلك السنين الماضية، وكأنما أحست راحلته بانطلاق أفكاره، فانطلقت هي الأخرى مثلها في الصباح الباكر كسفينة تجرى على صفحات الرمال الناعمة المتموجة.

اللقاء بعالِم من أهل تيماء:

التقى عمرو وهو في حالته تلك برجل من أهل الكتاب من تيماء، فقال له: إنى امرؤ ممن يعبد الأصنام والأوثان والنصب، ينزلون الحى ليس معهم إله، فيخرج الرجل منهم فيأتى بأربعة أحجار فينصب ثلاثة لقدره، ويجعل أحسنها إلها يعبده، ثم لعله يجد ما هو أحسن منه قبل أن يرتحل فيتركه، ويأخذ غيره إذا نزل منزلا سواه، فرأيت أنه إله باطل، لا ينفع، ولا يضر، لذلك فإنى رغبت عن آلهة قومى؛ لأنها باطلة فهل لك أن تدلنى على خير من هذا؟.

قال الكاتب: يخرج من مكة رجل يرغب عن آلهة قومه، ويدعو إلى غيرها، فإذا رأيت ذلك فاتبعه، فإنه يأتى بأفضل دين، ومنذ تلك اللحظة لم تكن لعمرو همة إلا مكة، ذهب إلى مكة وسأل: هل حدث بمكة حدث؟ قيل له: لا.

أخذ عمرو يتطلع إلى تلك الآلهة الكثيرة المنتشرة حول الكعبة وفوقها، آلهة مزعومة، وشعر وكأنه فى سوق كبير تعرض فيه هذه الأباطيل، والتفت إلى كبيرهم إنه هبل، وأخذ يتأمل فيه.

هبل! إنه أكبر الأصنام، كبير الآلهة عند العرب مصنوع من العقيق، على صورة إنسان يبدو أن ذراعه كسرت لا أحد يدرى كيف لعل إنسانا لم يعجبه منظره، تسلل إليه خفية بعيدا عن أعين مريديه ومحبيه، أراد أن يلوى

ذراعه، فوجدها لا تلتوى معه فكسرها، وكان يمكن أن يكسر عنقه أيضا دون أن يحرك هذا الهبل ساكنا، أو يدافع عن نفسه، أو حتى يحتج، ولكن عبدة الأصنام صعب عليهم أن أحدا يلوى ذراع كبير آلهتهم ويكسرها، فأبدلوه ذراعا من ذهب.

كان هبل هذا هو ساكن الكعبة بمكة، وكان الناس يحجون إليه من كل فج عميق، والحقيقة أن العبادة لا تكون إلا لله الذى لا إله إلا هو سواء رضى الإنسان أم أبى طبقا لما أراده الله تعالى بمقتضى قوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

ولكن الناس يحاسبون على نواياهم فى التوجه إلى الكعبة الذى أراده الله تعالى خالصا مذ أصدر أمره إلى خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

وبعد الحساب على النوايا تلقى الأصنام(١) والأوثان(٢) والأنصاب(٣) ومن عبدوها فى الدنيا فى جهنم لتكون وقودا لها: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

عاد عمرو إلى أهله فى بنى سليم، ولكنه ظل يتساءل عن مكة، ولا يفارق سمعه قول صاحب تيماء، حتى أراد الله تعالى له فسمع من يقول: لقد ظهر بمكة رجل يقول ببطلان عبادة الأصنام، ويرغب عن عبادة قومه ويدعو إلى غيرها.

يقول عمرو: رجعت إلى أهلى، فشددت راحلتى برحلها، ثم قدمت

---

(١) الصنم: يصنع على صورة إنسان من معدن أو خشب.

(٢) الوثن: تمثال على صورة إنسان ولكن لا يصنع إلا من الحجر.

(٣) النصب: صخرة ليست لها صورة معينة تزعم القبيلة التى تتعبدها أن لها أصل سماوى: حجر بركانى أو ما يشبهه.

منزلى الذى كنت أنزل فيه بمكة فسألت عنه فوجدته مستخفيا، ووجدت قريشا عليه أشداء، سألت: ماذا يقول؟ قالوا: يقول إن العبادة يجب أن تكون لله الذى خلق كل شىء لا للأصنام، قال: كيف ألقاه؟ قالوا: إنه يطوف بالبيت ليلا لا يتوقف أمام صنم أو وثن.

وتلطفت حتى رأيته، وعرفته بما يصدر عنه من قول: «لا إله إلا الله، الله أكبر، الحمد لله، سبحان الله العظيم». واقتربت منه، وقلت له: ما أنت؟ قال: «أنا نبى»، قلت: وما نبى؟ قال: «رسول الله»، قلت: أألله أرسلك؟ قال: «نعم»، قلت: بأى شىء؟ قال: «بأن يوحد الله، ولا يشرك به شىء، وكسر الأصنام والأوثان وأرسلنى لصلة الرحم بين الناس، وبحقن الدماء، وأمان السبيل». قلت: نعم ما أرسلت به من معك على هذا؟ قال: «رجلان حر وعبد»، قلت: إنى متبعك، فهل تأمرنى بالبقاء معك؟ قال: «إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ولكن ارجع إلى أهلك، فإذا سمعت أنى ظهرت، فالحق بى». فرجعت إلى أهلى، وقد أسلمت.

اللقاء بيثرب:

وجعلت أتخبر الأخبار، حتى جاء ركبه من يثرب، فقلت: ما فعل هذا الرجل المكى الذى أتاكم؟ قالوا: أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك، وحيل بينهم وبينه، وتركت الناس إليه مسرعا، فركبت راحلتى حتى قدمت عليه المدينة، فدخلت عليه، فقلت: يا رسول الله، تعرفنى؟ قال: «نعم، ألست الذى أتيتنى بمكة؟ ألست أنت السلمى؟ الذى سألتنى عن كذا وكذا»، قلت: بلى يا رسول الله، واغتنمت ذلك المجلس، وعلمت ألا يكون الدهر أفرغ قلبا لى منه فى ذلك المجلس.

فقلت: يا نبى الله، أى الساعات أسمع؟ قال: «الثلث الآخر، فإن الصلاة مشهودة مقبولة حتى تطلع الشمس، فإذا رأيتها طلعت حمراء كأنها الحجفة - الترس - فأقصر عنها، فإنها تطلع بين قرنى شيطان، فيصلى لها الكفار، فإذا ارتفعت قيد رمح أو رمحين، فإن الصلاة مشهودة مقبولة حتى يساوى

الرجل ظله، فأقصر عنها، فإنها حينئذ تسجر جهنم، فإذا فاء الفىء فصل، فإن الصلاة مشهودة مقبولة حتى تصلى العصر، فأقصر حتى تغرب الشمس، فإنها تغرب بين قرنى شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار، فإذا رأيتها غربت حمراء كأنها الحجفة فأقصر.

فقلت: يا رسول الله، أخبرنى عن الوضوء، فقال: «ما منكم من رجل يقرب وضوءه فيمضمض ويمج إلا خرجت خطاياه من فيه - فمه - ثم يستنشق ويثتنر إلا خرجت خطاياه من أنفه مع الماء، ثم يغسل وجهه كما أمره الله إلا خرجت خطايا من وجهه من أطراف لحيته مع الماء، ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلا خرجت خطايا يده من أطراف أنامله مع الماء، ثم يمسح رأسه كما أمره الله إلا خرجت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين كما أمره الله إلا خرجت خطايا قدميه من أطراف أصابعه مع الماء، ثم يقوم ويحمد الله ويثنى عليه الذى هو أهله، ثم يركع ركعتين إلا انصرف من ذنوبه كهيئته يوم ولدته أمه».

قال أبو أمامة: يا عمرو بن عبسة، انظر ماذا تقول أأنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ويعطى الرجل هذا كله فى مقامه؟ فقال عمرو: يا أبا أمامه، لقد كبرت سنى، ورق عظمى، واقترب أجلى، وما بى من حاجه أكذب على الله وعلى رسوله ﷺ لو لم أسمعه من رسول الله ﷺ إلا مرة أو مرتين أو ثلاثا، لقد سمعته سبعا أو ثمانية أو أكثر من ذلك.

رجال يغبطهم النبيون:

أخرج الطبرانى بإسناد حسن عن عمرو بن عبسة رضى الله عنه، أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، رجال ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغشى بياض وجوههم نظر الناظرين، يغبطهم النبيون والشهداء بمقعدهم وقربهم من الله عز وجل»، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «هم جماع من نوازع القبائل - أى أخلاط من قبائل شتى - ومواضع مختلفة لم يجتمعوا لقرابة بينهم، ولا نسب ولا معرفة، وإنما

اجتمعوا لذكر الله لا غير يجتمعون على ذكر الله فينتقون أطايب الكلام كما ينتقى آكل التمر آطايبه. رواه الطبرانى ورجاله موثقون.

الشيبة فى الإسلام نور:

عن عبد الرحمن بن يزيد، أنه سمع عمرو بن عبسة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شاب شيبة فى الإسلام كانت له نورا يوم القيامة، ومن رمى سهما فى سبيل الله فبلغ العدو، أو قصر كان له عدل رقبة، ومن أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله تعالى بكل عضو منه عضوا من المعتق من النار». أخرجه الإمام أحمد.

إظلال السحب:

عن مولى لكعب، قال: انطلقنا مع المقداد بن الأسود، وعمرو بن عبسة، وشافع بن حبيب الهذلى، رضى الله عنهم، فخرج عمرو بن عبسة يوما للرعية، فانطلقت نصف النهار - يعنى لأراه - فإذا سحابة قد أظلته ما فيها عنه مفصل فأيقظته، فقال: إن هذا شىء إن علمت أنك أخبرت به أحدا لا يكون بينى وبينك خير، قال: فوالله ما أخبرت به حتى مات. [كذا فى الإصابة ٣/٦].

ويبدو مما سبق أن عمرو بن عبسة كان يرى أن تظليل غمامة له فى الظهيرة يعتبر نعمة خاصة حباه الله تعالى بها، يجب أن تظل فى طى الكتمان سدا لمنافذ الشيطان، خاصة وأن الإسلام دين قد اكتمل بالقرآن والسنة، وليس بحاجة لدعمه بمثل هذه الظواهر الفردية التى يمنحها الله تعالى لمن يشاء من عبادة الصالحين.

المشاهد التى شارك فيها:

لم يشهد بدرا وأحدا والخندق والحديبية وخيبرا، وشهد ما بعد ذلك فى عهد الرسول ﷺ، وكما شهد بعض المعارك فى عهد أبى بكر الصديق، وعهد الفاروق عمر بن الخطاب.

شهد فتح مكة، ورأى القبائل العربية فى الجيش الإسلامى تستعرض قوتها رافعة راياتها مما أذهل أبا سفيان زعيم قريش وجعله يرفع راية التسليم مناديا: يا معشر قريش، إن محمدا قد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل بيت أبى سفيان فهو آمن، ومن دخل بيته وأغلق عليه داره فهو آمن.

ورأى محمدا رسول الله يمر مهيبا جليلا فى كتيبته الخضراء محاطا بالمهاجرين والأنصار، لم يأخذه الزهو، ولكنه ليحنى رأسه تواضعا لله تعالى لما أكرمه به من الفتح، يدخل البيت الحرام فيطهره من الأصنام يكسرها وهو يقول: «جاء الحق، وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا».

رأى فى البيت صور الملائكة وغيرهم، ورأى إبراهيم عليه السلام مصورا فى يده الأزلام يستقسم بها، فقال: «قاتلهم الله، ما شأن إبراهيم والأزلام»، ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]

ثم أمر بتلك الصور فطمست، وأسدل الستار إلى الأبد إن شاء الله على عبادة غير الله فى هذا المكان المقدس.

وفى معركة اليرموك:

وهى من أشهر المعارك الإسلامية التى هزمت فيها دولة الروم، تم فيها النصر بفضل الله للجيش الإسلامى على يد أعظم قائد عربى عرفه التاريخ والذى لقبه الرسول ﷺ: «بسيف الله المسلول»، توفى خليفة المسلمين أبو بكر الصديق قبل الفتح بعشر ليال، كان جند الروم مائتين وأربعين ألفا مقابل ستة وأربعين ألفا من جنود المسلمين، ومعركة اليرموك تحتاج إلى دراسة أكثر اتساعا عند التحدث عن القائد الإسلامى الكبير خالد بن الوليد، ويكفى هنا أن نقول: إن عمرو بن عبسة كان فى موقعة اليرموك على رأس مجموعة كبيرة من الفرسان، وهى إحدى المجموعات التى شكلها القائد الإسلامى خالد، والتى بلغت أربعين كردوسا.

وقد تحقق النصر للجيش الإسلامى فى اليوم الذى قاد فيه خالد المعركة.

قال له رجل: ما أكثر الروم، وأقل المسلمين، فقال: بل ما أقل الروم، وأكثر المسلمين، إنما تكثر الجنود بالنصر.

وأخيرا: ما أشبه عمرو بن عبسة بسلمان الفارسى فى البحث عن العقيدة السليمة!.

* * *

هبَّارُ بن الأسود

أبوه: الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصى القرشى.

أمه: فاختة بنت عامر بن قرط القشيرية.

أخواه لأمه: هبيرة، وحزن ابنا أبى وهب المخزوميان، وحزن هذا هو جد سعيد بن المسيب بن حزن

وفى سنة ثلاث عشرة هجرية، وفى ليلتين بقيتا من جمادى الأول، قتل يومئذ من المسلمين جماعة منهم صاحب هذه الصفحات هبار بن الأسود.

موقعة أجنادين:

أجنادين بلد بين الرملة وبيت جبرين من أرض فلسطين، انتهت عندها جيوش المسلمين بقيادات خالد بن الوليد، وأبو عبيدة بن الجراح، وشرحبيل ابن حسنة، ويزيد بن أبى سفيان، مددا لعمرو بن العاص الذى كان مقيما بالعربات من غور فلسطين، وسار إليهم عمرو بن العاص، والتقوا جميعا فى أجنادين.

ولما سمعت الروم بهم انطلقوا من «جلق» لملاقاة المسلمين فى أجنادين، وقيل: أنه كان على الروم رجل منهم يقال له: «القبقلار»، وانصرف إليه «تذارق» بمن معه من الروم مددا للقبقلار المهم أنه تواجه المعسكران فى إجنادين معسكر الروم، وعليه القبقلار، تذارق، ومعسكر المسلمين بالقيادات المشار إليها فيما سبق.

المخابرات:

لما تدان المعسكران بعث القبقلار بهدف التخابر رجلا عربيا يقال إنه من قضاعة، ويقال: أن اسمه هزارق، ليدخل بين المسلمين ويقيم فيهم يوما

وليلة، فدخل فى الناس بصفته رجلا عربيا لا يشك فيه، فأقام يوما وليلة، ثم أتى القبقلار، فقال له: ما ورائك؟ قال هزارف: هم بالليل رهبان، وبالنهار فرسان، ولو سرق ابن ملكهم قطعوا يده، ولو زنى ابن ملكهم، رجم لإقامة الحق فيهم، قال القبقلار: لئن كنت صدقتنى لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها، ولوددت أن حظى من الله أن يخلى بينى وبينهم، فلا ينصرنى عليهم ولا ينصرهم على، ثم تزاحف الناس فاقتتلوا، فلما رأى القبقلار ما رأى من قتال المسلمين، وشدة استبسالهم عند لقاء الأعداء. قال للروم: لفوا رأسى بثوب، قالوا له: لم؟ قال: إنه يوم بئيس لا أحب أن أراه، ما رأيت فى الدنيا يوما أشد من هذا، وقطع المسلمون رأسه، وإنه لملفف.

أردنا التعريف بهذه المعركة؛ لأنها هى التى شارك فيها هبار، وقتل فيها، وما نظن أنه ذهب إلى هناك رغبة فى الرحيل، أو التغيير، أو التبجيل أو لمجرد استنشاق الهواء العليل، إنها رحلة شاقة ومخاطرة جسيمة، إنها رحلة ليس التنزه أو الترفه أحد بنودها، لابد أن فكره وقلبه وروحه وكل كيانه كان مسرحا لمختلف الخواطر والمشاعر والأحاسيس.

ترى ماذا دار بذهنه وهو ذاهب إلى أرض المعركة هناك؟.

كان هبار لسنا بليغا فصيحا، لكنه لم يكن ذاهبا لمعركة كلامية، أو شعرية فى سوق عكاظ، بل كان مقدما على معركة دموية، ووراءه لاشك ماض ينغص عليه حياته، خاصة بعدما تذوق حلاوة الإسلام، وارتشف من مبادئه، وتمكن الإسلام من قلبه طوال السنوات الماضية، ولماذا لا يحدث الإسلام فى قلبه ما فجره فى قلوب غيره من المؤمنين؟ لماذا لا يكون طلب الشهادة هدفا يسعى إليه؟ فليذهب هناك بعيدا فى أرض الجهاد يسأل الله، ويلح فى الطلب ليغفر الله له ما سلف، ويمسح بيده الحانية ذنوبه الماضية فيرافق الشهداء، ويلقى موعود الله ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

ترى هل سالت دموع قلبه على خديه فأحرقتهما حزنا وأسى خوفا وإشفاقا وعادت به الذكريات إلى أكثر من عشر سنوات ماضية، لماذا فعل ما فعل؟ ولكن ما أحلم هذا النبى الكريم، وما أكرم الله الذى سواه، كم تحمل منه، ومن أمثاله من المشركين لو عاملهم بالمثل ما أبقى على أحد منهم يوم الفتح، وتتابعت أمام عينيه الصور، كما لو كانت واقعا يعيشه، ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

ولعله وضع كفيه على عينيه حتى لا يرى شيئا، ولكن يبدوا أن الإنسان فى لحظاته الأخيرة خاصة حين يقترب من الموت أو يقترب منه الموت يرى أمامه كل شىء، لقد أهدر الرسول دمه.

قال الزبير بن العوام: ما رأيت رسول الله ﷺ ذكر هبار - يعنى ابن الأسود - قط إلا تغيظ عليه، ولا رأيت رسول الله ﷺ، بعث سرية قط إلا قال: «إن رأيتم هبار هذا فأحرقوه بالنار». ثم قال: «لا تحرقوه، ولكن اقتلوه؛ فإنه لا يعذب بالنار إلا رب النار». أو قال: «اقطعوا يديه ورجليه، ثم اضربوا عنقه».

وقال الزبير بن العوام: والله لقد كنت أطلبه وأسأل عنه، والله يعلم لو ظفرت به لقتلته.

وتوالت الصور أمام هبار، لماذا يا أبى سميتنى هبار؟ أليكون لى من اسمى نصيب؟ ولكنك يا أبى، فعلت بى ما فعله بك أبوك، ألم يسمك أبوك الأسود؟ وهل يعرف من يسمى بالأسود أن يأتى باسم أفضل من هبار؟ إن رسول الله ﷺ كان يخلع عن أصحابه مثل هذه الأسماء، ويلبسهم أسماء جديدة يرضاها لهم ولكن أين كنت أنا من رسول الله؟.

كنت مع الحاقدين الناقمين عليه وعلى مبادئه، ولكن ما أكرمه إنى لأذكر يوم طلعت عليه، فلما نظر القوم إلى، صاحوا: يا رسول الله، هبار ابن الأسود، هبار بن الأسود، هبار بن الأسود، قال الرسول فى هدوء

وسكينة ووقار وصبر: «قد رأيته».

كلمة واحدة تضخ كثيرا من المعانى، أراد بعض القوم القيام إلى، تقدمهم الزبير بن العوام، أشار إليه رسول الله ﷺ باقتضاب آمر: «أن اجلس»، فوقفت أمام رسول الله، وقلت: السلام عليك يا رسول الله، إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، ولقد هربت منك فى البلاد، فأردت اللحوق بالأعاجم، ثم ذكرت عائذتك وفضلك، وبرك وصفحك عمن جهل عليك، وكنا يا رسول الله أهل شرك، فهدانا الله بك، وأنقذنا بك من الهلكة، فأفصح عن جهلى، وعما كان يبلغك منى، فإنى مقر بسوءتى، معترف بذنبى، كم كنت موضعا ومسفا فى أذاك، وكنت مخذولا، وقد بصرنى الله وهدانى للإسلام.

قال الزبير: فجعلت أنظر إلى رسول الله ﷺ، وإنه ليطأطئ رأسه مما يعتذر هبار، وجعل رسول الله يقول: «قد عفوت عنك، والإسلام يجب ما كان قبله».

يا إلهى: أى تطبيق عملى لقوله تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ٣٤] إن الكريم إذا قدر غفر، وإذا رأى زلة ستر، لا أحد يقدر على ذلك غير رسول الله، ومن اهتدى بهديه، لو أن هبار هذا روع أى امرأة أخرى وأسقطها، وأسقط جنينها فى الطريق العام بلا جريرة سوى أنها مهاجرة إلى أبيها، تاركة كل شيء وراءها، للحقه العار، وركبه القصاص.

الإسلام يحظر على المسلم أن يتعرض بالأذى للنساء أو الشيوخ أو الأطفال، هذه هى الفروسية والشهامة الحقة، مواقف كثيرة مرت لعل هبار تذكرها، ولماذا لا أتذكر أنا أيضا بعضها مع هبار؟.

كان الرسول فى أشد حالات الضيق، وهو عائد من ثقيف توجه إلى الله تعال بقوله: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين»، أتى إليه جبرائيل، فقال: إن الله قد سمع الذى

قلته، وسمع ما ردوا به عليك، وهذا أخى ملك الجبال، إن شئت أن يطبق عليهم الأخشبين فعل، فقلت له: «لا، يا أخى جبريل، فإنى أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبده وحده لا يشرك به شيئا».

حقا يا سيدى يا رسول الله لا أحد يقدر على ذلك غيرك.

وتزاحف الناس، فاقتتلوا فى أجنادين، وطعن هبار بن الأسود طعنة ذكرته بطعنات، وحمله الرفاق، والدموع تملأ عينيه.

ترى هل كانت دموع الذكرى الأليمة التى عاودته لعله رأى أشد ذنب ارتكبه فى حياته حين تجهزت زينب بنت الرسول للهجرة إلى أبيها فى المدينة، وحملت على بعير فى هودج، ورآها تسير مطمئنة فى الطريق إلى أبيها، وكان هو أول من سبق إليها، روعها بالرمح وهى فى الهودج، لم يزل يطعن بعيرها برمحه حتى سقطت على الأرض، وألقت ما فى بطنها؛ إنه الآن يعانى آلام طعنة نفذت إليه، لكن شتان بين طعنة وطعنة، إنى استحق هذا الجزاء بل أستحق ما هو أشد أيصفح عنى الرسول رغم ما فعلته بابنته؟ أيعفو عن كل هذه الخسة ؟ ماذا فعلت حتى أروعها؟ لا شهامة، ولا رجولة، ولا أى شيء يمكن أن يبرر هذه الفعلة.

إنها ظلت تعانى، وتذبل شيئا فشيئا حتى ماتت بسبب فعلتى، ليت قتلى هنا فى هذا الموقف يكفى قصاصا، وتساقطت دموعه حبات تسبيح، وتوبة واستغفار، وجعل يتقلب على أرض الغربة، وأرض الجهاد، يتقلب بين الخوف من الله تعالى والرجاء فيه، وأشرقت أسارير وهو يقول: إن الرسول لا يقول إلا حقا لقد عفى عنى، وصفح، قال له: «إن الإسلام يجب ما كان قبله»، إنى لأتذكر حين زوجت ابنتى كنت أضرب فى عرسها بالدف وأرقص، وسمع رسول الله ﷺ، فقال: «ما هذا؟» قالوا: إن هبار، يرقص ويغنى ويضرب الدف، فرحا بزواج ابنته، وعاد يبكى، ويقول: هل كنت أصفح عمن يفعل بابنتى، وما فعلته ببنت رسول الله، ولكن رسول الله عفى وصفح، وقال باسما: «هذا هو الفارق بين النكاح، وبين السفاح، السفاح

يجلب العار والمذلة، يتم فى الخفاء، أما الزواج فيدخل البهجة والفرحة على جميع القلوب، يتم فى علانية، لا مذلة فيها، ولا هوان».

قتل هبار.. طعن.. لفظ آخر أنفاسه، ولا أحد غير الله تعالى يعلم هل كانت الدموع ما تزال تطل من عينيه، دموع حزن على ما كان، أم دموع فرح على ما سيكون، أم أن الحزن والفرح تلاقيا معا، وامتزجا معا، وتساقطا من قلب واحد على خدين اثنين، ساعة انطلاق الروح إلى رب العالمين.

* * *

زيد بن ثابت
الأنصارى النجارى
الخزرجى

جامع القرآن، وأول مترجم من اللغات الأجنبية إلى العربية

زيد بن ثابت الأنصارى النجارى الخزرجى

هو زيد بن ثابت بن الضحاك بن مالك بن النجار الأنصارى الخزرجى، ثم النجارى.

أمه: النوار بنت مالك بن عدى بن النجار.

كنيته: أبو سعيد، وقيل: أبو عبد الرحمن، وقيل: أبو خارجة، كان عمره إحدى عشرة سنة لما قدم النبى ﷺ المدينة.

وكان يوم بعاث ابن ست سنين، وفيها قتل أبوه، استصغره رسول الله ﷺ يوم بدر فرده، قيل: شهد أحدا، وقيل: لم يشهدها.

شهد الخندق أول مشاهده، وكان ينقل التراب مع المسلمين، فقال الرسول عليه السلام: «نعم الغلام».

كان من كتبة الوحى لرسول الله ﷺ.

فضائله رضى الله عنه:

مناقبه وفضائله كثيرة، فقد كان واحد من أربعة يفخر بهم الأنصار الخزرجيون لجمعهم القرآن الكريم، قال الأنصار الخزرجيون: منا أربعة جمعوا القرآن الكريم على عهد رسول الله ﷺ لم يجمعه غيرهم أولهم هو، وهم: زيد بن ثابت، وأبى بن كعب، ومعاذ بن جبل، وأبو زيد.

وكان زيد بن ثابت من كتبة الوحى لرسول الله ﷺ ومن أكثر الصحابة أخذا وتعهدا للقرآن، وقد كانت راية بنى مالك بن النجار يوم تبوك مع عمارة بن حزم، فأخذها منه رسول الله ﷺ، ودفعها إلى زيد بن ثابت مما أحرج عمارة، فظن أنه أحدث أمرا يغضب رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، هل بلغك عنى شىء؟ قال النبى: «لا، ولكن القرآن مقدم، وزيد أكثر أخذا للقرآن منك».

الاهتمام بلغات الآخرين:

نحن نعيش الآن فى عالم رحيب امتدت أطرافه، فشملت أنحاء الكرة الأرضية جميعا، ولا يخفى أن اللغات هى أداة التعرف بين الناس بعضهم وبعض، ولذلك نجد أن جميع بلدان العالم اليوم يوجد بها أناس متخصصون فى اللغات المختلفة على مستوى العالم للتعرف على مشاكل الأمم واحتياجاتها ومصادر قوتها وضعفها.

وكان الإسلام سباقا إلى التعرف على لغات الآخرين، وكان رسول الإسلام ﷺ حريصا على ذلك.

عن زيد بن ثابت قال: قال لى رسول الله ﷺ: «إنه يأتينى كتب من أناس لا أحب أن يقرأها أحد، فهل تستطيع أن تتعلم كتاب العبرانية»، أو قال: «السريانيه»؟ فقلت: نعم، فتعلمتها فى سبع عشرة ليلة.

وعن زيد أيضا أنه قال: لما قدم رسول الله المدينه، قال لى: «تعلم كتاب اليهود، فإني والله ما آمن اليهود على كتابى». قال زيد: فتعلمته فى أقل من نصف شهر. مما يدل على سرعة حفظه وتعلمه وذكائه.

اللغة هى المعبر عن الشخصية:

نرى أن اللغة هى المعبرة عن شخصية الناطق بها عن قوته أو ضعفه، فتكون للغة القومية الغلبة فى حالات القوة، وتتراجع فى حالات الضعف، حتى فى بلادها وبين أهلها، فيصبح التفاخر والتباهى بمعرفة اللغات الأجنبية ظاهره من ظواهر الضعف حتى على المستوى العالمى.

ونحن نرى أن الدول القوية تتمسك بالتحدث بلغاتها فى المؤتمرات العامة، بينما نرى الدول فيما يسمى بالعالم الثالث، قلما تستعمل لغتها القومية، وتتحدث غالبا باللغة التى تساندها القوة المادية، واللغة العربية هى كما وصفها الله تعالى فى قرآنه حينما زعموا أن الرسول ﷺ يأخذ علمه عن رجل غير عربى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ

﴿ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

إذن فتعلم اللغات الأجنبية ضرورة، ولكن التمسك باللغة القومية فرض فيجب الاهتمام باللغة العربية، لغتنا القومية التى تدنت حتى فى المؤسسات التى يجب أن تكون فيها رافعة الرأس قوية، وأن يكون التحدث بها فى المؤتمرات والاجتماعات العامة العالمية، حتى ولو كان المتحدث يتقن اللغة الأجنبية كأحد أبنائها؛ لأن اللغة هى معيار الشخصية تضعف بضعفها وتقوى بقوتها.

لقد عرف الصحابة رضوان الله عليهم حب زيد بن ثابت للعلم، وقدرته على تعليم غيره مما جعلهم يبقون عليه فى المدينة لتعليم الناس.

كان عمر رضى الله عنه، يستخلف زيد بن ثابت فى كل سفر يسافره، وكان يفرق الناس فى البلدان ويوجهه فى الأمور المهمة، ويطلب إليه الرجال المسمون – أى المهمون – فيقال له: زيد بن ثابت، فيقول عمر: لم يسقط على مكان زيد، ولكن أهل البلد يحتاجون إلى زيد فيما يجدون عنده فيما يحدث لهم ما لا يجدون عند غيره.

وفى خلافة عثمان رضى الله عنه قرأ أبو عبد الرحمن السلمى على عثمان، فقال له: إنك إذن تشغلنى عن النظر فى أمور الناس، فامض إلى زيد بن ثابت، فإنه أفرغ لهذا الأمر، فاقرأ عليه فإن قراءتى وقراءته واحدة ليس بينى وبينه فيها خلاف.

وخطب عمر رضى الله عنه فى الجابية يشير بأخذ العلم عن علماء الصحابة فقال: من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبى بن كعب، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتنى فإن الله جعلنى له واليا وقاسما.

استنكار السؤال عما لم يحدث:

عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبيه رضى الله عنه، أنه كان لا يقول برأيه فى شىء يسأل عنه حتى يقول: أنزل – وقع – أم لا؟ فإن لم يكن

نزل لم يقل فيه، وإن يكن وقع تكلم فيه، وكان إذا سئل عن مسألة فيقول: أوقعت؟ فقال له: يا أبا سعيد ما وقعت ولكنا نعدها، فيقول: دعوها، فإن كانت وقعت أخبرهم، فقد كان الناس يتساءلون عن الشيء من أمر النبى ﷺ يسألون رسول الله ﷺ وهو حلال فلا يزالون يسألون فيه حتى يحرم عليهم.

أخرج البزار، عن جابر رضى الله عنه، قال: ما نزلت آية التلاعن إلا لكثرة السؤال.

الفتاوى:

كان الذين يفتون على عهد رسول الله ﷺ ثلاثة نفر من المهاجرين، وثلاثة من الأنصار، فكان عن المهاجرين: عمر، وعثمان، وعلى، وكان من الأنصار: أبى بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت.

وطبيعى أن هذا التقسيم كان تقسيم انتقاء، وليس للفصل بين المهاجرين والأنصار، فكل واحد من هؤلاء الستة له حق الإفتاء العام للمهاجرين والأنصار؛ لأن الدين واحد، والأحكام واحدة، تطبق على الجميع.

وجاء عن قبيصة، قال: كان زيد بن ثابت مترئسا - رئيسا - بالمدينة فى القضاء والفتوى والقراءة والفرائض فى عهد عمر وعثمان وعلى فى مقامه بالمدينة، وبعد ذلك خمس سنين حتى ولى معاوية سنة أربعين، فكان كذلك أيضا حتى توفى زيد سنة خمس وأربعين.

وقال مسروق: قدمت المدينة فسألت عن أصحاب النبى ﷺ: فإذا زيد ابن ثابت من الراسخين فى العلم.

وحذر الرسول ﷺ من أخذ العمال العاملين فى دولة الإسلام من أخذ الهدايا التى تقدم لهم بحكم صفاتهم، وأنها تعتبر من الغلول.

فقد أخرج البخارى (٢/٩٨٢): عن أبى حميد الساعدى رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ استعمل عاملا، فجاءه العامل حين فرغ من عمله، فقال:

يا رسول الله، هذا لكم، وهذا أهدى لى، فقال له: «أفلا قعدت فى بيتك، فنظرت أيهدى لك أم لا»؟ ثم قام رسول الله ﷺ عشية بعد الصلاة، فتشهد وأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد، فما بال العامل نستعمله، فيأتينا فيقول: هذا من عملكم، وهذا أهدى لى، أفلا قعد فى بيت أبيه وأمه، فينظر هل يهدى له أم لا؟ فوالذى نفس محمد بيده، لا يغل أحدكم منها شيئا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه - يا للفضيحة - إن كان بعيرا جاء به له رغاء، وإن كانت بقرة جاء بها لها خوار، وإن كانت شاة جاء بها تيعر - تصيح - فقد بلغت».

قال أبو حميد: وقد سمع ذلك معى زيد بن ثابت من النبى ﷺ فسلوه.

فإذا كانت تلك هى صور الغلول فى الماضى، فماذا يكون عليه حال صور ما استحدث من غلول منذ ذلك العهد حتى الآن؟ وقد سقطت فى المستنقع رواسب كثيرة أردنا فقط التقاط صورة لما كان يحذر الرسول منه فى الماضى لنقف لحظة نعمل فيها الفكر، ونتخيل بعض الأشياء، وعلى كل، فإن الله قادر على الإتيان بالأعاجيب، فلا يعجزه ثقل الأحمال، ولا التخفى خلف صوالح الأعمال.

مع سعد بن الربيع فى آخر لحظات حياته يوم أحد:

ومن صور كرامته لدى النبى ﷺ وتقديره ما أخرجه الحاكم عن زيد بن ثابت رضى الله عنه، قال: بعثنى رسول الله ﷺ يوم أحد لطلب سعد بن الربيع رضى الله عنه، وقال لى: «إن رأيته فأقرئه منى السلام، وقل له: يقول لك رسول الله: «كيف تجدك»؟ قال: فجعلت أطوف بين القتلى، فأصبته، وهو فى آخر رمق، وبه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم، فقلت له: إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام، ويقول لك: «أخبرنى كيف تجدك؟» قال: على رسول الله السلام، وعليك السلام، قل له: يا رسول الله، أجدنى أجد ريح الجنة؛ وقل لقومى الأنصار: لا عذر لكم عند الله أن يخلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم شفر يطرف - رمش

يطرف أو عين تطرف - وفاضت نفسه رحمه الله.

أرأيت أو أسمعت إلى هذه الرسالة التى تناقلت عبر الشفاة من رسـول الله ﷺ، والتى استوعبها زيد بن ثابت ونقلها كمـا هـى إلى مسـامع سـعد بـن الربيع، وهو يجود بأنفاسه، والذى يبدو كما لو كان ينتظرهـا، و لم يبـق لـه على ظهر الحياة من العمر إلا ما يكفى لرده على هذه الرسالة الغالية.

لقـد كـان زيـد بـن ثـابت أهـلا لنقـل رسـالة الرسـول والعـودة برسـالة الصحابى الجليل سعد بن الربيع.

رجل المواقف الصعبة:

لم يكـن زيـد رضـى الله عنـه ممـن تـأخذه الحميـة القبليـة، وتشـده إلى أحضانها، فتبعده عن جانب الحق، بل كان دائما يحب أن يقف فى المكـان الذى يحب الله تعالى أن يراه فيه، ولعله اكتسـب هـذه الصفـة مـن ملازمته للقرآن وجمعه.

ومن أبرز المواقف التى أسفرت عن هذه الصفة، صفة الوقوف إلى جانب الحق والدفاع عنه، موقفه فى سقيفة بنى ساعدة إلى جانب أحقية المهاجرين بالخلافة بعد رسول الله ﷺ رغم أنه هو من الأنصار.

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه، قال: لما توفى رسـول الله ﷺ قـام خطباء الأنصار، فجعل الرجل منهم يقول: يا معشر المـهاجرين، إن رسـول الله ﷺ كان إذا استعمل رجلا منكم قرن معه رجلا منا، فنرى أن يلى هذا الأمر رجلان أحدهما منكم، والآخر منـا، فتتـابعت خطبـاء الأنصـار علـى ذلك، فقام زيد بن ثابت رضى الله عنه، فقال: إن رسول الله ﷺ كان مـن المهاجرين، وإن الإمام يكون من المهاجرين، ونحن أنصاره كما كنـا أنصـار رسول الله ﷺ، فقام أبو بكر رضى الله عنـه، فقـال: جزاكـم الله يـا معشـر الأنصار خيرا، وثبت قـائلكم، ثـم قـال: أمـا والله لـو فعلتـم غـير ذلـك لمـا صالحناكم، ثم أخذ زيد بيد أبى بكر، فقال: هذا صاحبكم فبايعوه.

وتدافع الناس لمبايعة رفيق الغار، ثانى اثنين وأول من آمن من الرجال، وجنب الله المسلمين شر فتنة كانت محدقة بالأبواب.

فتواه ضد عمر رضى الله عنه:

حدث عمر أن أبا محجن الثقفى يشرب الخمر فى بيته هو وأصحاب له، فانطلق عمر حتى دخل عليه، فإذا ليس عنده إلا رجل، فقال أبو محجن: يا أمير المؤمنين، إن هذا لا يحل لك، قد نهاك الله عن التجسس، فقال عمر: ما يقول هذا؟ فقال له زيد بن ثابت وعبد الرحمن بن الأرقم رضى الله عنهما: صدق يا أمير المؤمنين، هذا من التجسس، فخرج عمر وتركه. كذا فى الكنز (١٤١/٢).

استئذان عمر عليه:

استأذن عمر بن الخطاب يوما على زيد بن ثابت فأذن له، ورأسه فى يد جارية له ترجله - تمشط شعره - فنزع رأسه، فقال له عمر: دعها ترجلك، فقال زيد: يا أمير المؤمنين، لو أرسلت إلى جئتك، فقال عمر: إنما الحاجة لى.

اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية:

كان ابن عباس رضى الله عنه يذهب ككثير من الصحابة، ومنهم أبى بكر الصديق إلى: أن الجد يحجب جميع الأخوة والأخوات فى المواريث كالأب، وكان زيد بن ثابت يذهب إلى توريث الأخوة مع الجد ولا يحجبهم به، مثل رأى على بن أبى طالب وابن مسعود، وفريق آخر من الصحابة.

فقال ابن عباس يوما: ألا يتقى الله زيد؟ يجعل ابن الابن ابنا، ولا يجعل أبا الأب أبا، وقال: لوددت أنى وهؤلاء الذين يخالفوننى فى الفريضة نجتمع فنضع أيدينا على الركن، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين.

إن ابن عباس الذى بلغت ثقته بصحة اجتهاده وخطأ زيد فى اجتهاده

إلى هذا المدى الذى يطلب فيه المباهلة، كان له موقف آخر فى تكريم زيد ابن ثابت كعالم يجب إكرامه.

فقد رأى زيد يركب دابته يوما، فأخذ ابن عباس بركاب دابته، فقال له زيد: تنح يا ابن عم رسول الله ﷺ، قال ابن عباس: لا، هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا وكبرائنا، فقال زيد: أرنى يدك، فأخرج ابن عباس يده، فقبلها زيد، وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا.

وعند وفاة زيد بن ثابت، قال سعيد بن المسيب: شهدت جنازته، فلما دفن فى قبره، قال ابن عباس رضى الله عنهما: يا هؤلاء، من سره أن يعلم كيف ذهاب العلم، فهكذا ذهاب العلم، وأيم الله لقد ذهب اليوم علم كثير بموت زيد.

وأمن الرسول على دعاء زيد:

وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن قبس المدنى ،أن رجلا جاء زيد بن ثابت رضى الله عنه فسأل عن شىء، فقال له زيد: عليك بأبى هريرة، فبينما أنا وأبو هريرة وفلان فى المسجد ندعوا ونذكر ربنا عز وجل، إذ خرج إلينا رسول الله ﷺ حتى جلس إلينا، فسكتنا، فقال الرسول ﷺ: «عودوا للذى كنتم فيه»، فقال زيد: فدعوت أنا وصاحبى قبل أبى هريرة وجعل النبى ﷺ يؤمن على دعائنا، ثم دعا أبو هريرة، فقال: «اللهم إنى سائلك بمثل ما سألك صاحباى، وأسألك علما لا ينسى». فقال النبى ﷺ: «آمين». فقلنا: يا رسول الله، ونحن نسأل الله علما لا ينسى، فقال النبى ﷺ: «سبقكما بها الغلام الدوسى».

ومن أدعية زيد:

كان يقول حين يضطجع: اللهم إنى أسألك غنى الأهل والمولى، وأعوذ بك أن تدعو على رحم قطعتها.

ومن مواعظ زيد بن ثابت رضى الله عنه:

فمنها ما كتبه إلى أبى بن كعب رضى الله عنهما، أما بعد: فإن الله قد جعل اللسان ترجمانا للقلب، وجعل القلب وعاء وراعيا ينقاد له اللسان لما هداه له القلب، فإذا كان القلب على وفق اللسان، جاء الكلام، وائتلف القول واعتدال، ولم يكن للسان عثرة ولا ذلة، ولا حلم لمن لم يكن قلبه من بين يدى لسانه، فإذا ترك الرجل كلامه بلسانه، وخالفه على ذلك قلبه جدع بذلك أنفه، وإذا وزن الرجل كلامه بفعله صدق ذلك مواقع حديثه، يذكر هل وجدت بخيلا إلا وهو يجود بالقول ويمن بالفعل، وذلك لأن لسانه بين يدى قلبه، يذكر هل تجد عند أحد شرفا أو مروءة إذا لم يحفظ ما قال ثم يتبعه، ويقول ما قال وهو يعلم أنه حق عليه واجب حين يتكلم به، لا يكون بصيرا بعيوب الناس، فإن الذى يبصر عيوب الناس ويهون عليه عيبه كمن يتكلف ما لا يؤمر به، والسلام. كذا فى الكنز (٢٢٤/٨)

وحدث زيد عن سخاء الرسول وجوده:

فقال: جاء إلى رسول ﷺ رجل من العرب فسأله أرضا بين جبلين، فكتب له بها، فأسلم، ثم أتى قومه فقال لهم: أسلموا فقد جئتكم من عند رجل يعطى عطية من لا يخاف الفقر.

وكان زيد من أهل الشورى:

فكان أبو بكر إذا نزل به أمر يريد فيه مشاورة أهل الرأى، وأهل الفقه، دعا رجالا من المهاجرين والأنصار، ودعا عمر وعثمان وعليا وعبد الرحمن ابن عوف ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب وزيد بن ثابت - رضى الله عنهم - وكل هؤلاء كان يفتى فى خلافته فمضى أبو بكر على ذلك، ثم ولى عمر فكان يدعو هؤلاء النفر، وكانت الفتوى تصير وهو خليفة إلى عثمان وأبى وزيد.

جمع القرآن:

قال زيد بن ثابت: أرسل إلى أبو بكر حين كثر مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبو بكر: إن عمر أتانى فقال: إن القتل قد استحر وكثر بقراء القرآن، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن، فقلت لعمر: كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك، ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر.

قال أبو بكر لزيد: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه، والله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن.

قال زيد: كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال أبو بكر: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر رضى الله عنهما، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب[1] واللخاف[2]، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع غيره أى لم يجدها مكتوبة عند غيره ممن كانوا يكتبون الوحى لا إنه لم يكن يحفظها غيره بل كان يحفظها الكثيرون ويتلونها فى الصلاة وغيرها وهى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٣٨] حتى خاتمة براءة.

أقوال زيد فى الصلاة:

قال زيد: صلاة الرجل فى بيته نور، وإذا قام الرجل إلى الصلاة علقت خطاياه فوقه، فلا يسجد سجدة إلا كفر الله بها عنه خطيئته.

---

(١) العسب: الجريد.

(٢) اللخاف: جمع لخفة وهى صفائح الحجارة الرقاق.

مقاربة الخطا فى السير إلى المسجد:

عن زيد بن ثابت أنه قال: كنت أمشى مع النبى ﷺ، ونحن نريد الصلاة فكان يقارب الخطا، فقال: «أتدرون لم أقارب الخطا»؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «لا يزال العبد فى الصلاة ما دام فى طلب الصلاة».

بكاؤه على عثمان:

روى أن زيد بن ثابت رضى الله عنه، كان يبكى على عثمان رضى الله عنه يوم الدار.

رحم الله زيد بن ثابت جامع القرآن، وأول مترجم من اللغات الأجنبية إلى العربية، والذى أخذ حبر الأمة ابن عباس رضى الله عنه بركاب دابته، وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا وكبرائنا.

* * *

كعب بن مالك الخزرجى

شهد العقبة، وشهد المشاهد كلها لم يتخلف عن رسول الله ﷺ إلا فى غزوة بدر، وغزوة تبوك.

آخى الرسول عليه السلام بينه وبين طلحة بن عبيد الله حين آخى بين المهاجرين والأنصار. كان من شعراء رسول الله ﷺ.

أبشر يا كعب... بخير يوم مر عليك

هو كعب بن مالك بن أبى بن كعب:

جده أبو كعب: يسمى عمرو بن القين بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة بن سعد بن على الأنصارى الخزرجى السلمى، كنيته: قيل: أبو عبد الله، وقيل: أبو عبد الرحمن.

أمه: ليلى بنت زيد بن ثعلبة، من بنى سلمة أيضا.

شهد العقبة، وشهد المشاهد كلها لم يتخلف عن رسول الله ﷺ إلا فى غزوة بدر، وغزوة تبوك.

آخى الرسول عليه السلام بينه وبين طلحة بن عبيد الله حين آخى بين المهاجرين والأنصار. كان من شعراء رسول الله ﷺ.

روى عنه: أبو جعفر محمد بن على، وعمر بن الحكم بن ثوبان، وغيرهما.

مشهد العقبة:

خرج سبعون من مسلمى الأنصار مع من خرج من حجاج قومهم من أهل الشرك ومن هؤلاء السبعين رجلا كان كعب بن مالك، وفى مكة واعدوا رسول الله على اللقاء فى العقبة من أوسط أيام التشريق.

كان يعتز بشهوده العقبة لأنها كانت بداية كرامتهم كأوائل المسلمين فى المدينة، كما كانت بداية النصر لنبيه وإعزاز الإسلام وأهله وإذلال الشرك والمشركين، بايعهم الرسول يدا بيد وطلب منهم العودة إلى رحالهم.

وسُمِع صارخ من رأس العقبة ينادى: يا أهل الجباجب[1]، هل لكم فى

(١) الجباجب: المنازل.

مذمم[١] والصباة[٢]، قد اجتمعوا على حربكم، وبات كعب بن مالك ومن شهد العقبة فى رحالهم، وفى الصباح غدت عليهم جلة من قريش قالوا لهم: يا معشر الخزرج، بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإن أبغض شىء إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينكم، فأقسم لهم بعض مشركى المدينة الذين حضروا الحج معهم، ولم يعلموا ببيعة العقبة أقسموا أن شيئا من ذلك لم يحدث.

وأراد كعب بن مالك أن يغير اتجاه الحديث، فقال لأحد المبايعين: يا أبا جابر، أما تستطيع أن تتخذ وأنت سيد من ساداتنا مثل الفتى القرشى المشار إليه، وصاحب الحذاء هو: الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومى، وسمع الحارث هذا القول فخلع حذاءه من رجليه، ورمى بهما إلى كعب بن مالك، مقسما عليه بانتعالهما.

قال أبو جابر لكعب بن مالك: رد عليه نعله فقد أحفظته[٣]، قال كعب: والله لا أردهما، هذا والله فأل حسن، والله لئن صدق الفأل لأسلبنه[٤].

وفى أحُد:

قاتل كعب بن مالك فى أحد، ولبس لأمة الرسول، ولبس الرسول عليه الصلاة والسلام لأمته - درعه - وكان هو أول من عرف أن الرسول لم يقتل، وبشر المسلمين بسلامته، مما أعاد إليهم الحمية، وبث فى عروقهم ضراوة القتال، والإصرار على حماية الرسول مهما كانت التضحيات.

قال كعب: بعد أن قال الناس قتل رسول الله ﷺ، رأيته وعرفته من عينيه، ﷺ كانت عيناه تزهران وتضيئان من تحت المغفر، فناديت بأعلى

(١) المذمم: المذموم غاية الذم .. وقد صرفهم الله عن اسم محمد .. فألقوا عليه اسم مذمم.
(٢) الصباة: جمع صابئ .. وكان يطلق لفظ صابئ على من أسلم فى عهد الرسول.
(٣) أحفظته: أغضبته.
(٤) أقهرنه وأنتصر عليه .. وآخذ ماله غنيمة.

صوتى: يا معشر المسلمين ابشروا، هذا رسول الله ﷺ فأشار إليه رسول الله أن أنصت، فلما عرف المسلمون رسول الله نهضوا به، ونهض معهم نحو الشعب، ونهض معه أبو بكر الصديق، عمر بن الخطاب، على بن أبى طالب، طلحة بن عبيد الله، الزبير بن العوام، رضوان الله عليهم جميعا، والحارث بن الصمه، ورهط من المسلمين.

ولما أسند رسول الله عليه السلام فى الشعب ظن أبى بن خلف أن الرسول قد أصبح فريسة سهلة له فى هذا الوقت، فأدرك الرسول وهو يقول: أى محمد، لا نجوت إن نجا، وقد حقق الله لأبى بن خلف دعوته، بأن أنجى الله رسوله، وتحقق عدم نجاة ابن خلف، ألم يطلب هو ذلك، قال المسلمون المحيطون برسول الله ﷺ أيعطف عليه رجل منا؟ يا رسول الله؟ قال الرسول: «دعوه»، فلما دنى، تناول رسول الله الحربة من الحارث بن الصمه، وانتفض بها انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشعراء[1] عن ظهر البعير، إذا انتفض بها، ثم استقبله فطعنه فى عنقه طعنه تدأدأ منها عن فرسه مرارا، وتقلب، وجعل يتدحرج أشهد أنه لا إله إلا الله، وأنك رسول الله حقا وصدقا.

أبى بن خلف على فرسه بكامل عدته، وأنت يا رسول الله واقف على قدميك، فى حالة يعز على المؤمنين، وصنعها لما كان بك من إصابات وجراحات ولكنك تقبل التحدى، ولا تدع أحدا غيرك يتصدى له رغم أن أى واحد ممن ثبتوا معك وكانوا حولك كان قادرا بعون الله أن يجندله ويقتله، ولكنك أردت أن تثبت للجميع، وعلى وجه اليقين كم كانت شجاعتك حتى فى أشد حالات إصاباتك، كما تثبت صدق نبوتك ورسالتك.

ألم يكن يقول لك كلما يلقاك: إنى سأقتلك يا محمد، وكنت ترد عليه فى ثقة لا يحدها حد: «بل أنا إن شاء الله الذى يقتلك»، وها قد فعلت.

---

(١) الشعراء: ذباب له لدغة.

وعادت الذاكرة بكعب بن مالك إلى سنوات مضت، إلى أول لقاء له برسول الله ﷺ، كان ذلك قبيل بيعة العقبة، رآه بالمسجد بمكة، كان معه البراء بن معرور، سألا رجلا بمكة عنه، فقال لهما: تجدانه بالمسجد يجلس معه دائما عمه العباس بن عبد المطلب، وكان العباس معروفا لهم لكثرة تردده على يثرب وغيرها للتجارة، وهناك فى المسجد، وفى حضرة النبى، أسلموا ثم جلسوا، قال النبى للعباس: «أتعرف من هذين الرجلين»؟ قال العباس: نعم، هذا البراء بن معرور سيد قومه، وهذا كعب بن مالك، قال الرسول: «الشاعر»؟ قال العباس: نعم.

يقول كعب: والله ما أنسى قول الرسول: «الشاعر»؟ اغتبط كعب أن الرسول يعرفه بشعره قبل أن يراه، ويتعرف عليه لأول مرة، كان الشعراء يتمتعون بشهرة عالية فى ذلك الزمان؛ لأنهم كانوا لسان حال القبائل المعبرين عن أفراحهم وأحزانهم ومفاخرهم ومعاركهم، كان الشعراء يقومون بدور يعادل دور أجهزة الإعلام كلها فى زماننا هذا، وأصبح كعب من شعراء الرسول منذ بيعة العقبة، بل منذ التفت إليه الرسول قائلا: «كعب بن مالك الشاعر»؟ إذن عليه أن يتصدى بالسيف والرمح واللسان معا لسيوف المشركين، وألسنتهم مقاتلين وشعراء.

عليه أن يعبر عن قيم الإسلام التى جاء بها محمد ﷺ من عند الله، ويظهر الفوارق بين الإسلام وظلام الشرك والإلحاد والجاهلية، المسلم يدافع عن الحق ويفخر بالموت فى سبيله؛ لأنه يؤمن أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، أما المشركون فلا دافع لهم للقتال إلا الحمية الجاهلية، والنعرة القبلية المشحونة بالحقد والكراهية، تصدى لشاعر المشركين هبيرة بن وهب، ووقف له بالمرصاد قال هبيرة يناصر المشركين فى أحد، ويوجه خطابه إلى هند:

ما بال هم عميد بات يطرقنى ... بالود من هند إذ تعدوا عواديها
باتت تعاتبنى هند وتعذلنى ... والحرب قد شغلت عنى مواليها
مهلا فلا تعذلينى إن من خلقى ... ما قد علمت وما إن لست أخفيها

إلى آخر ما قال من شعر لا يستند إلى عقيدة قوية يزود عنها.

ورد عليه كعب بن مالك، ولا ينسى، بل وكيف ينسى، أنه يدافع ويجالد عن عقيدة حتى لو فاتهم النصر فى بعض الأحيان لأسباب يجعلها الله تعالى عظة وعبرة ودرسا لهم فى مقبل الأيام، يقول كعب من قصيدة طويلة:

بجالدنا عن ديننا كل فخمنة[1] مدربة فيها القوانيس تلمع

ويذكرهم ببدر فيقول:

ولكن ببدر سائلوا من لقيتم من الناس والأنباء بالغيب تسمع
وإن بأرض الخوق لو كان أهلها سوانا لقد أجلوا بليل وأقشعوا
بجالد لا تبقى علينا قبيلة من الناس إلا أن يهابوا ويفظعوا
وفينا رسول الله نتبع أمره إذا قال فينا القول لا نتطلع
تدلى عليه الروح من عند ربه ينزل من جو السماء ويرفع
نشاوره فيما نريد وحسبنا إذا ما اشتهى أنا نطيع ونسمع
وقال رسول الله لما بدوا لنا ذروا عنكم هول المنيات واطعموا
وكونوا كمن يشرى الحياة تقربا إلى ملك يحيا لديه ويرجع
ولكن خذوا أسيافكم وتوكلوا على الله إن الأمر لله أجمع

وهكذا نرى الفوارق الأساسية بين شعر المسلمين، وشعر المشركين، شعراء المسلمين يؤمنون بالله تعالى وبرسوله يستندون إلى عقيدة راسخة لديهم، يعدون السلاح اللازم للمعركة، ويتوكلون على الله تعالى، والنتيجة معروفة لديهم، وهم يسعدون بها فى كل حال؛ لأنها هى حصولهم على إحدى الحسنيين، النصر أو الشهادة.

إسلام دوس:

وكان شعر كعب يدخل الرعب فى قلوب المشركين بما يحمله من إشارات القوة والإصرار على قتالهم حتى النصر، والخوف والرعب واحد

(١) الفخمنة: الكتيبة العظيمة .

من جنود الله، شهره الله على لسان كعب بن مالك، حتى لقد قيل: إن «دوسا» أسلمت فرقا وخوفا من قول كعب بن مالك حينما سمعت إنشاده:

قضينا من تهامة كل وتر وخيبر ثم أغمدنا السيوف
نخيرها ولو نطقت لقالت قواطعهن دوسا أو ثقيفا

أرأيت إلى هذا التهديد المخيف الذى أدخل الرعب فى قلبها، فقالت دوس: انطلقوا فخذوا لأنفسكم قبل أن ينزل بكم ما نزل بثقيف.

وحينما نزلت: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤] ذهب شعراء الرسول الثلاثة إليه، إنهم: كعب بن مالك، وحسان بن ثابت، وابن أبى رواحة، ذهبوا إلى الرسول ﷺ يبكون، قال لهم الرسول: «ما الذى يبكيكم»؟ قالوا: هل نزلت فينا هذه الآية من القرآن الكريم، لقد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء، قال الرسول عليه الصلاة والسلام: فمن هم ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ هم أنتم، ومن هم ﴿ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الشعراء: ٢٢٧] هم أنتم، ومن هم الذين انتصروا من بعدما ظلموا؟ هم أنتم»، وسرى عنهم ما ألم بهم من حزن وجزع.

ويمضى بنا ركب كعب حتى نصل إلى تبوك.

تبوك، مدينة على حدود الشام. بلغ النبى عليه السلام أن الروم تعد الجيوش لتغزوا بها حدود العرب الشمالية حتى توقف زحف جحافل الجنود الإسلامية المناوئة لسلطان الروم فى الشمال، وسلطان فارس فى الحيرة، وقرر النبى عليه السلام مواجهة هذه القوى بنفسه، وأخذ سلاح المبادرة حتى يقضى على أى أمل يداعبهم فى غزو الجزيرة العربية، أو التعرض للعرب فى بلادهم، وأعلن الرسول عن عزمه على السير إلى تبوك، على غير عادته فى الغزوات الأخرى لبعد المسافة ومشقة السير، وحتى يستكمل الجند معدات القتال، ووسائل السفر والماء والمؤنة وأخطر جميع القبائل المشاركة فى هذا السير، كما أبلغ أثرياء المسلمين يحثهم على المشاركة بأموالهم فى تجهيز الجيش الإسلامى الكبير.

كشف النقاب:

بعد المسافة، مشقة السفر، الحر الشديد، المخاطرة، نفقات التجهيز، كل هذه العوامل أدت إلى كشف النقاب وإزاحة الستار عن قلوب المنافقين من جانب، وعن المؤمنين الصادقين من جانب آخر، الجد بن قيس كان يمثل نموذجا للمنافقين. قال له الرسول: «يا جد، هل لك هذا العام فى قتال بنى الأصفر - أى الروم -»؟.

أجاب الجدى: أوتأذن لى يا رسول الله، ولا تفتنى، لماذا الفتنة يا جد الفسق والفجور، هذا التساؤل لم يصدر عن رسول الله، ولكنى أتخيله من واقع إجابة هذا الجد.

قال جد: فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجل أشد عجبا بالنساء منى، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر، ألا أصبر.

أرأيت إلى إجابة هذا الماجن؟ وما بها من سوء أدب مع الرسول، ألا يستحق منا أن نصفه بما هو أشد، وكان السفر البعيد، والحر الشديد لم يمنعه كل ذلك من فضح نفسه، إنه يعتذر عن الذهاب، وكأنه كان مدعوا إلى حفل ساهر خصص للقاء نسوة بنى الأصفر، ونزل القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩].

أرأيت إلى هذا الإعجاز الإلهى الذى يعطينا اللقطة المعبرة والصورة البلاغية العالية الرفيعة فى إيجاز بليغ لا يخل بما فى اعتذار «جد» بما لا يليق الاعتذار فى مثل هذه الظروف، ومن قبل هذا كشف الله تعالى ما دار بين بعض المنافقين وبعض من تثبيط الهمم، والتعلل بالحر وشدته تبريرا للقعود عن الجهاد، ورد الله تعالى عليهم بأنه ليس أشد من حر نار جهنم فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (81) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨١، ٨٢].

أما جانب المؤمنين الصادقين فقد بذل كل واحد منهم أقصى ما يستطيع

من مال، ونفقة وسلاح، وبقى من المؤمنين الصادقين من لا يملك شيئًا، فذهبوا لرسول الله وقالوا له: احملنا فنحن لا نجد ما يحملنا، وقال لهم رسول الله: «وأنا لا أجد ما أحملكم عليه»، فرجعوا باكين حزانى لعدم مشاركتهم فى هذا الجهاد.

وقد سجل الله تعالى لهم هذا الموقف المؤثر الذى ينبع عن إخلاصهم العظيم لله ولرسوله وللإسلام، جاء ذلك فى قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ [التوبة: ٩١] ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢] وقد عُرِفَ هؤلاء منذ تلك اللحظة «بالبكائين».

جيش العسرة:

تجهز جيش العسرة من ثلاثين ألفا من المسلمين، يتقدمهم عشرة آلاف فارس، وقاد هذا الجيش الجرار نبى الله محمد ﷺ عابرًا به الصحراء نحو الشمال.

ما ذكرنا هو وصف لحالة الجيش الإسلامى، وهو يستكمل استعداداته بالمدينة، ولكن ماذا لقى بعد أن غادر المدينة حتى وصل إلى تبوك؟ لكى تبدو لنا الصورة واضحة من جميع الزوايا التى ننظر إليها منها فقد خرج الجيش إلى تبوك فى سنة مجدبة، أصاب المسلمين فيها جهد شديد.

من صور المشقة:

ذُكِرَ أن الرجلين كان يشقان التمرة الواحدة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة الواحدة بينهم يمصها هذا، ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا، ثم يشرب عليها، وكان هذا ابتلاء شديدًا من الله للمسلمين.

وقيل لعمر بن الخطاب: حدثنا عن تبوك، فقال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك فى قيظ شديد، فنزلنا منزلاً فأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، وحتى أن الرجل منا كان يذهب يلتمس الماء، فلا يرجع

حتى يظن أن رقبته ستنقطع، وحتى أن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقى على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله عز وجل قد عودك فى الدعاء خيرًا فادع لنا، قال الرسول: «تحب ذلك»؟ قال: نعم، فرفع الرسول يديه، فلم يرجعهما حتى سالت السماء فأهطلت، ثم سكنت، فملؤا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر، فلم نجدها جاوزت العسكر.

وكاد يشك البعض فى دينهم، ويرتاب للذى نالهم من المشقة والشدة فى سفرهم وغزوهم، ثم أن الله تعالى رزقهم الإنابة إليه، والرجوع إلى الثبات على الدين.

قصدنا أن نقدم هذه الصورة عن جيش العسرة لنتعرف على شدة الابتلاء الذى قد يتعرض له المسلمون، ولا علاج له إلا الصبر والتمسك بحبل الله المتين حتى يقبل الله العفو، ويرفع ما أنزل من ابتلاء.

نتعرف كذلك على مدى قدرة الرسول على التحمل والصبر فى جميع أحواله، وحتى إنه لم يستسق إلا بعد أن طلب منه الصديق الاستسقاء استحياءً من الله تعالى، وبعد أن أحس الرسول أن الصبر أوشك أن ينفد ممن معه.

نتعرف أيضًا على مدى المأزق الذى يواجه المتخلفين عن هذا الركب الذى يقوده رسول الله، وكبار الصحابة، وسائر المؤمنين الصادقين، ماذا يقول المتخلف عن هذه الغزوة للرسول؟ وماذا عساه أن يقدم من أعذار؟ وهل ينجو – رغم تخلفه – من مثل هذا الضيق الذى تقلب فيه المسلمون.

وأخيرًا ماذا كان من أمر كعب بن مالك؟ فلندعه هو يتحدث عن نفسه:

قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله فى غزاة غزاها قط، إلا فى غزاة تبوك، غير أنى كنت تخلفت فى غزاة بدر، ولم يعاتب رسول الله ﷺ أحدًا تخلف عنه، فقد خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم

وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ليلة العقبة حين تواثقنا وتعاهدنا على الإسلام، وما أحب أن لى بها مشهد بدر.

وإن كانت بدر أذكر فى الناس منها، وأشهر.

أسباب التخلف:

قال كعب: وكان من خبرى حين تخلفت أنى لم أكن قط أقوى، ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزاة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتها فى تلك الغزاة، وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورى[1] بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا، ومفاوز[2] واستقبل عدوًا كثيرًا، فخلّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم، فأخبرهم وجهه الذى يريد، والمسلمون مع رسول الله كثير لا يجمعهم كتاب حافظ - أى ديوان مسجلة فيه الأسماء - قال كعب: فقال رجل يريد أن يتغيب: إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه ما لم ينزل فيه وحى من الله عز وجل.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت تلك الثمار والظلال، وأنا إليها أصعر[3]، فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه، فطفقت أغدو لكى أتجهز معه، فارجع و لم أقض من جهازى شيئًا، فأقول لنفسى أنا قادر على ذاك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بى، حتى استمر بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ غاديًا والمسلمون معه، و لم أقض من جهازى شيئًا.

وقلت: أتجهز بعد يوم أو يومين، ثم ألحقه، فغدوت بعدما فصلوا[4] لأتجهز، فرجعت و لم أقض من جهازى شيئًا، ثم غدوت فرجعت و لم أقض

---

(١) ورى: عرَّض لمح.
(٢) مفاوز: صحارى شاسعة.
(٣) أصعر: أميل.
(٤) فصلوا رحلوا.

شيئًا، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا، وتفارط[١] الغزو، فهممت أن أرتحل فألحقهم، وليت أنى فعلت، ثم لم يقَدَّر ذلك لى، فطفقت إذا خرجت فى الناس بعد رسول الله ﷺ يحزننى أنى لا أرى إلا رجلاً مغموصًا [٢] عليه فى النفاق، أو رجلاً ممن عذره الله عز وجل.

متى ذكر الرسول كعب؟

لم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك»؟ أجاب رجل من بنى سلمة: حبسه يا رسول الله برداه، والنظر فى عِطْفَيهِ - أى التكبر والخيلاء - فقال معاذ بن جبل للرجل: بئسما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرًا، فسكت رسول الله ﷺ.

العودة من تبوك:

قال كعب بن مالك: لما بلغنى أن رسول الله قافل[٣] حضرنى بثى[٤] وطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدًا؟ وأستعين على ذلك بكل ذى رأى من أهلى، فلما قيل لى أن رسول الله قد أظل قادمًا انزاح عنى الباطل، وعرفت أنى لم أنج منه بشىء أبدًا، فأجمعت صدقه، فأصبح رسول الله ﷺ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون، فطفقوا يحلفون له ويعتذرون إليه، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فيقبل منهم رسول الله علانيتهم، ويستغفر لهم، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى.

المواجهة:

جئت، فلما سلمت عليه تَبَسَّم تَبَسُّمُ الغاضب، ثم قال لى: «تعال»،

---

(٢) تفارط الغزو: بعد.

(٢) مغوصاً: منسوبا عليه النفاق.

(٣) قافل: راجع.

(٤) بثى: حزنى.

فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لى: «ما خلفك؟ ألم تكن قد اشتريت ظهرًا»؟ فقلت: يا رسول الله، إنى لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر، لقد أُعْطِيتُ جدلاً، ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يُسْخِطَكَ علىّ، ولئن حدثتك بصدق تجد[1] علىَّ فيه، إنى لأرجو عُقْبَىَ ذلك من الله عز وجل، والله ما كان لى عذر، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر منى حين تخلفت عنك، قال رسول الله: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضى الله فيك». فقمت، وقام إلى رجال من بنى سلمة، واتبعونى، فقالوا لى: والله ما علمناك أذنبت ذنبًا قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله بما اعتذر به المتخلفون، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله لك.

قال كعب: فوالله ما زالوا يؤنبونى حتى أردت أن أرجع، فأكذب نفسى، ثم قلت لهم: هل لقى معى هذا أحد؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان، قالا مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك، قلت: فمن هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العامرى، وهلال بن أمية الواقفى، فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرًا لى فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لى.

الأمر بالمقاطعة:

قال كعب: ونهى رسول الله المسلمين عن كلامنا نحن الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا، حتى تنكرت لى الأرض، فما هى بالأرض التى كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباى: فقد استكانا، وقعدا فى بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف بالأسواق فلا يكلمنى أحد، وآتى رسول الله ﷺ وهو فى مجلسه بعد الصلاة، فأسلم، وأقول لنفسى: أحرك شفتيه برد السلام علىّ أم لا، ثم أصلى قريبًا منه،

---

(١) تجد على فيه: تغضب.

وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلىّ، فإذا التفت نحوه أعرض عنى.

كعب يتسور الحيطان:

قال كعب: حتى إذا طال علىّ ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى أتيت وتسورت حائط أبى قتادة، وهو ابن عمى، وأحب الناس إلىّ، فسلمت عليه، فوالله مارد علىّ السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدك الله هل تعلم أنى أحب الله ورسوله؟ فسكت أبو قتادة، فعدت له فنشدته الله، فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناى، وتوليت حتى تسورت الجدار، فبينما أنا أمشى بسوق المدينة.

ابتلاء آخر:

إذا أنا بنبطى من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدلنى على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون له إلىّ، حتى جاء فدفع إلىّ كتابًا من ملك غسان، وكنت كاتبا، فإذا فيه، أما بعد: فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، وأن الله لم يجعلك فى درا هوان، ولا مضيعة فالحق بنا نواسك، فقلت حين قرأته: وهذا أيضًا من البلاء، فتيممت به التنور فسجرته به - أى ذهبت به إلى الفرن فأحرقته.

اعتزال الزوجة:

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا برسول رسول الله يأتينى يقول: يأمرك رسول الله ﷺ أن تعتزل امرأتك، قلت: أطلقها؟ أم ماذا أفعل؟ قال: بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبى بمثل ذلك، قلت لامرأتى: الحقى بأهلك، فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر ما يشاء، وجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله، فقالت: يا رسول الله، إن هلالا شيخ ضعيف ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال الرسول: «لا، ولكن لا يقربك»، قالت: إنه والله ما به من حركة إلى شىء، وإنه والله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، فقال لى بعض أهلى: يا

كعب، لو استأذنت رسول الله فى امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، قلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما أدرى ما يقول فيها إذا استأذنته، وأنا رجل شاب.

ولبثنا عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا، ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة، على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله تعالى منا قد ضاقت علىَّ نفسى، وضاقت علىَّ الأرض بما رحبت، سمعت صارخًا أوفى- قام - على جبل سلع يقول بأعلى صوته: أبشر يا كعب بن مالك، فخررت ساجدًا، وعرفت أنه قد جاء الفرج من الله عزّ وجل بالتوبة علينا، فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبَل صاحبى مبشرون، وركض إلى رجل فرسا، وسعى ساع من أسلم، وأوفى على الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءنى البشير الذى سمعت صوته، نزعت له ثوبى فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما كنت أملك يومئذ غيرهما، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، وتلقانى الناس فوجًا فوجا يهنئونى بتوبة الله، يقولون: ليهنك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس فى المسجد والناس حوله، فقام إلىَّ طلحة بن عبيد يهرول حتى صافحنى وهنأنى، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره، فكنت لا أنساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ، قال وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك»، قلت: أمن عندك يا رسول الله؟ أم من عند الله؟ قال: «لا، بل من عند الله»، قال كعب: وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، حتى يُعْرَفَ ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتى أن أتخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله، قال: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك»، قلت: فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر، وقلت: يا رسول الله، إنما نجانى الله بالصدق، وإن من توبتى ألا أحَدِثَ إلا صدقًا ما بقيت.

قال كعب: فوالله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي.

قال كعب: وأنزل الله تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧ - ١١٩] إلى آخر الآيات.

قال كعب: فوالله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ أن لا أكون كذبته فأهلك، كما أهلك الذين كذبوه، فإن الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

وبالتأمل في الآيات البينات السابقة، تنبعث في النفس هذه الخواطر، أن الله تعالى سخط على فريق المنافقين، وما صدر عنهم في غزاة تبوك سخطًا شديدًا وتوعدهم بالعذاب لم يقبل أعذارهم الكاذبة التي قبلها منهم الرسول، و لم يقبل استغفار الرسول لهم الذي قبل منهم ما أظهروه، وترك سرائرهم إلى الله تعالى، ولعل هذا الرفق من الرسول بهم في هذا الموقف هو الذي عاتبه الله عليه، ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾.

الفريق الآخر يشمل المهاجرين والأنصار، من ضاق منهم بالحر اللافح، والماء الذي كانوا يعتصرونه من فرث رواحلهم، والظمأ الذي يكاد يقطع

الرقاب كما حدث عمر بن الخطاب إلى آخر ما كان من شدة البلاء والعناء، ولكن قلوبهم ظلت على إيمانهم الراسخ العميق.

وفريق آخر من المهاجرين والأنصار ظل على إيمانه وإن راود قلوبهم شيء من الشك لقسوة الموقف الذى عاشوا فيه.

والفريق الثالث هم على التحديد: الثلاثة الذين خُلِّفوا، ولقد تاب الله على الجميع تاب الله على النبى، وعلى المهاجرين والأنصار، وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا.

هؤلاء الثلاثة تاب الله عليهم لصدقهم، فيما أخبروا به الرسول ﷺ رغم تخلفهم بلا عذر، والنص القرآنى يقول: ﴿ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ ولم يقل: «الذين تخلفوا»، أى الذين تركوا دون الفصل فى أمرهم حتى يفصل الله فيهم عاقبهم الرسول على التخلف بإصدار أمره لجميع المسلمين بالمدينة بمقاطعتهم.

وعقوبة المقاطعة الجماعية مع ترك الإنسان حرًا يذهب حيث يشاء دون أن يحادثه أحد، أو يعيره التفاتًا، هى عقوبة إسلامية لا نظير لها استمرت المقاطعة خمسين يومًا.

وتشير الآيات إلى أنهم لقوا من الإبتلاءات والشدة والآلام والضيق طوال هذه المدة ما يعجز عنه الوصف بغير ما جاء فى القرآن الكريم.

إن ما عاناه مؤمنو جيش العسرة كان معاناة مادية لا يستهان بها، أما ما عاناه كعب بن مالك وصاحباه، فكان شيئًا آخر غير مادى، كان عذابًا مسلطًا على نفوسهم وأرواحهم، ولنا أن نتخيل إنسانا ضاق به بيته، ضاق به طريقه، ضاق به بلده، ضاقت عليه الأرض كلها بسمائها بهوائها بأناسها بأشجارها بطيورها بأزهارها، ضاقت عليه بما رحبت، كما جاء فى التعبير القرآنى المعجز.

فما عاد شيء يدخل البهجة والسرور على القلب الحزين المقرور، فإذا هرب مما يحيط به، وكيف له ذلك، وعاد إلى نفسه متأملاً يتلمس فى

جوانبها الفرار مما حوله طلبًا لشيء من راحة أو سكينة، ضاقت عليه نفسه، يا الله أى عذاب هذا؟ لقد صارت الأرض كل الأرض بما فيها، ومن فيها موصدة فى وجهه، فضلاً عن نفسه التى بين جنبيه التى أطبقت عليه هى الأخرى.

أى ابتلاء للإيمان أشد من هذا؟ وأى جهاد للنفس أروع من هذا؟ مثل هذا الإنسان فى مثل هذه الحالة التى صورها القرآن فى أجمل تعبير، وأصدق بيان، لا حياة له إلا إذا بقيت فى نفسه، رغم كل هذه الظروف نافذة واحدة مضيئة يشرق منها على قلبه خالق الأرض والسماء، خالق النفس، خالق كل شىء.

هذه النفس التى تضيق على صاحبها وتعذبه وتؤنبه، ربما تكون هى النفس اللوامة فى أشد صورها تعذيبًا وتأنيبًا وتأديبًا حتى إذا فُتِحَتَ طاقات الرحمة، وأبواب الفرج من الله تعالى ارتقت هذه النفس اللوامة إلى حالة الرضى والسكينة والطمأنينة، وصارت نفسًا مطمئنة إلى صدق موعود الله واليقين به؛ لأن الله تعالى شملها بفضله وعفوه وإحسانه.

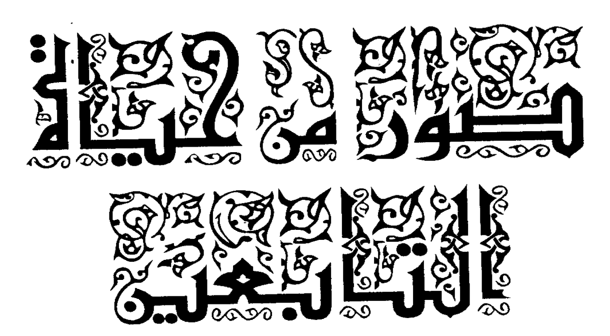
ولعل هذا ما توحى به الآيات التى صُدِرَت بقوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧]، ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ [التوبة: ١١٨].

فإذ دخل إنسان بعينه معرف بشخصه فى آيات تصدرتها التوبة على النبى ﷺ ، فهل يتصور مؤمن أن يرجع الله فى فضل أعطاه، وأنزله فى قرآن يتلى فى الصلاة، وفى غير الصلاة، يتردد على الشفاه إلى أن تقوم الساعة.

إن الإنسان إذا تاب إلى الله بجرم جناه قد يسائل نفسه، هل قبل الله توبتى؟ وكيف استيقن من هذا؟ أما اذا قال الله تعالى فى قرآن مؤكدًا لقد تاب الله على، فهذا شىء يقينى، وعطاء إلهى لا يُتَصَورَ من الله سبحانه، ولعل هذا المعنى، أو هذا الخاطر هو ما جعل الرسول يقول لكعب بن مالك عند نزول هذه الآيات: «أبشر يا كعب بخير يوم مرَّ عليك»، فقد التحم

ذكر هؤلاء الثلاثة بذكر الرسول ﷺ وذكر الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

* * *


صور من حياة
التابعين

عمر بن عبد العزيز

لأن يجتمع المسلمون على حاكم مسلم ترجى توبته خير من أن
يتفرقوا يضرب بعضهم رقاب بعض.
أولادى أحد رجلين ولد صالح: فالله يتولى الصالحين، ولد غير صالح،
فلا أعينه بالمال على معصية الله، أكون بعد موتى شريكه فيما يعمل،
لذلك
فإنى لا أبالى بأى واد هلك!.

عمر بن عبد العزيز

الناس لا يصلحهم السيف والسوط، ولكن يصلحهم الحق والعدل، فابسط ذلك فيهم، واعلم أن الله لا يصلح عمل المفسدين.

أبوه: عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس. **أمه:** أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب بن نفيل من بنى عدى. **كنيته:** أبو حفص. **أولاده:** رزقه الله الكثير من الأبناء: عبد الله، بكر، أم عمار، إبراهيم، إسحاق، يعقوب، موسى، عبد الملك بن عمر، الوليد، عاصم، يزيد، عبد الله، عبد العزيز.

ميلاده: قالوا: ولد عمر سنه ثلاث وستين. وهى السنة التى ماتت فيها ميمونة زوج النبى ﷺ.

بعض صفاته: تعددت الأقوال والرؤى عن عدالة عمر بن عبد العزيز حتى من قبل أن يولد، فعمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: من ذو الإصابة من ولدى الذى يملؤها عدلا كما ملئت جورا.

ويقول خصيف: رأيت فى المنام رجلا عن يمينه رجل، وعن شماله رجل، إذ أقبل عمر بن عبد العزيز فأراد أن يجلس بين الذى عن يمينه وبينه، فلم يسمح له، ولصق بصاحبه فدار عمر بن عبد العزيز، فأراد أن يجلس بينه وبين الذى عن يساره فلصق به، فجذبه الأوسط فأقعده فى حجره، قال: قلت: من هذا؟ قالوا: هذا رسول الله، وهذا أبو بكر، وهذا عمر.

وقال ابن عمر: كنا نتحدث أن هذا الأمر لا ينقضى حتى يلى هذه الأمة رجل من ولد عمر يسير فيها بسيرة عمر، بوجهه شامة، فكنا نقول: أنه بلال بن عبد الله بن عمر، وكانت بوجهه شامة حتى جاء الله بعمر بن عبد العزيز، وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب.

وحينما ضربت عمر وهو صغير دابة من دواب أبيه عبد العزيز فشجته، جعل أبوه يمسح الدم ويقول: سعدت إن كنت أنت أشج بنى أمية.

اختار أبوه زوجة صالحة

لما أراد عبد العزيز بن مروان أن يتزوج أم عمر، قال لقيمّة: اجمع لى أربعمائة دينار من طيب مالى، فإنى أريد أن أتزوج إلى أهل بيت لهم صلاح.

هذه بعض المبشرات السابقة على مولده التى تتحدث عن عدالته، وعن صلاح نسبه.

ولايته على المدينة:

ولى عمر بن عبد العزيز فى شهر ربيع الأول سنة سبع وثمانين هجرية، وهو ابن خمس وعشرون، ولاها إياه الوليد بن عبد الملك حين استخلف، فولى عمر على قضاء المدينة أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم. ولما أراد أن يحج من المدينة وهو واليها فى خلافة الوليد بن عبد الملك: دخل عليه أنس بن مالك وهو يومئذ بالمدينة فقال له عمر: يا أبا حمزة ألا تخبرنا عن خطب النبى ﷺ فقال أنس رضى الله عنه: خطب رسول الله ؟ مكة قبل التروية بيوم، وخطب بعرفة يوم عرفة،وخطب بمنى الغد - اليوم الذى بعد يومك - من يوم النحر، والغد من يوم النَّفْر.

ورغم أن عمر بن عبد العزيز لم يشاهد رسول الله ؟ إلا أن أنس بن مالك، رضى الله عنه، يقول: ما صليت وراء أحد أشبه صلاة برسول الله من هذا الفتى، يعنى عمر بن عبد العزيز .

قيل أنه المهدى: سأل رجل سعيد بن المسيب فقال له: يا أبا محمد، من المهدى؟ فقال له سعيد: أدخلت دار مروان؟ فقال: لا، قال سعيد: فادخل دار مروان ترى المهدى، فأذن عمر للناس، فانطلق الرجل حتى دار مروان، فرأى الأمير والناس مجتمعين، ثم رجع إلى سعيد بن المسيب، فقال: يا أبا محمد، دخلت دار مروان فلم أر أحدًا أقول هذا المهدى، فقال له سعيد: هل رأيت الأشج عمر بن عبد العزيز القاعد على السرير؟ قال: نعم، قال سعيد: فهو المهدى.

حبه لآل بيت النبى عليه السلام:

وقال محمد بن على بن أبى طالب: النبى منا، والمهدى من بنى عبد شمس، ولا نعلمه إلا عمر بن عبد العزيز، وحدث هذا فى خلافة عمر بن عبد العزيز، وذكرت فاطمة بنت على بن أبى طالب عمر بن عبد العزيز، فأكثرت الترحم عليه وقالت: دخلت عليه وهو أمير المدينة يومئذ، فأخرج عنى كل خصىٍ وحرسىٍّ حتى لم يبق فى البيت أحدًا غيرى وغيره، ثم قال: يا ابنة علىٍّ، والله ما على ظهر الأرض أهل بيت أحب إلىَّ منكم، ولأنتم أحب إلى من أهل بيتى.

أرأيت حبه الشديد لآل بيت رسول الله ﷺ، وتفضيلهم على آل بيته فى وقت كان الأمويون يلعنون فيه عليا على المنابر فى مواعظ يوم الجمعة ناسين أو متناسين أن زوج السيدة فاطمة بنت رسول الله ؟، وابن عمه وأول من آمن به من الصبيان، وقال عمر ذلك وهو وال على المدينة، وبعد أن أخرج كل من فى البيت من الحراس، أى قاله سرًا لابنة الإمام على مما يشير بخطورة هذا القول الذى لم يكن يتسامح فيه أو يتهاون خلفاء بنى أمية الذين جعلوا التطاول على الإمام على بلعنه على منابرهم بندًا من بنود الأمر بالمعروف فى خطبهم، حتى بعد أن خلت لهم الساحة وتوطدت لهم الخلافة، وقال عمر ذاك القول و لم يكن قد بلغ به الزهد والتقشف ما وصل إليه بعد أن صار أميرًا للمؤمنين، بل وهو على ولاية المدينة فى عهد الوليد ابن عبد الملك من أحسن الناس لباسًا، ومن أطيبهم ريحًا، ومن أخيلهم فى مشيه، هذا الأمر الذى تغير فيما بعد، فصار عمر يمشى مشية الرهبان، ويرتدى أخشن الثياب، ويقول: ما أرقها وما أنعمها!.

قال حجاج الصواف: أمرنى عمر بن عبد العزيز، وهو وال على المدينة، أن اشترى له ثيابًا فاشتريت له، فكان فيها ثوب بأربعمائة، فقطعه قميصًا، ثم لمسه بيده، فقال: ما أخشنه وأغلظه! ثم أمر بشراء ثوب له، وهو خليفة، فاشتروه بأربعة عشر درهمًا، فلما لمسه بيده قال: سبحان الله، ما ألينه وأرقه، فسبحان الله مغير الأحوال.

حديث الذكريات:

كان سليمان بن عبد الملك فصيحا جميلا وسيما لبس يوما ثيابا خضرا من خز، وعمامة خضراء، وهو فى أتم صحة وعافية، فنظر فى المرآة فأعجبه شبابه وغرته قوته وأزدهار سلطانه، فقال: أنا والله الملك الشاب، وكانت عنده جارية حجازية تسمى إمامة، فقال لها: كيف ترين الهيئة؟ فقالت له: أنت أجمل العرب لولا، قال لها: لولا ماذا؟ وأقسم عليها أن تصارحه بما دار فى خاطرها، فقالت:

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى   غير أن لا بقاء للإنسان
أنت خلو من العيوب ومما   يكره الناس غير أنك فان

خرج إلى الصلاة يصلى بالناس الجمعة، فلم يرجع حتى وعك، وثقل عليه المرض، ودخل عليه عمر يعوده، قال عمر: إنى أرى وجه أمير المؤمنين يعاود إشراقه، وأسأل الله لك تمام العافية.

قال سليمان: أنت أهل لكل خير يا أبا حفص، والحمد لله على كل حال، وإنك لتعرف أنك قريب من قلبى، فاستريح لك ولمشورتك، ووالله ما أهمنى أمر قط إلا وخطرت ببالى يا عمر، عمر: هذا شرف كبير يا أمير المؤمنين، سليمان: إنى لأرجو أن تنسى أية إساءة تكون قد بدرت منى إليك خاصة حينما ضرب غلمانك غلمانى، وسألتك فأنكرت معرفتك بهذه الواقعة، فلم أصدقك ساعتها.

عمر: الحقيقة يا أمير المؤمنين، إنى لم أنكر شيئا أعرفه، كما أنى لم أكذب قط منذ بلغت الحلم، وعرفت أن الكذب يضر بأهله، ولقد شعرت ساعتها أنك أسفت، وانتهى الأمر، فنحن أهل وأبناء عمومة. سليمان: ولكنك بعدها جهزت متاعك، وكنت تنوى مفارقتنا، عمر باسما: ولكنى رجعت فى القرار طوعا لرغبتك يا أمير المؤمنين، وقد كنت أخشى أن تكون قد ضقت بمشورتى، ولقد عاهدت الله ألا أقول إلا ما يرضيه حتى لو كان القول ثقيلا.

سليمان: ولهذا أحببتك يا أبا حفص خاصة، وأنك ظلمت فى عهد

الوليد، فقد عزلـك من ولاية المدينة بغير حق، تحت تأثير الحجاج بن يوسف. عمر: حقا يا أمير المؤمنين، كما حاول أن ينحيك أنت أيضا عن الخلافة من بعده. سليمان: باسما، ولكنه قدر عليك، و لم يقدر على، إنى لا أنسى وقفتك معى يا عمر، حينما قلت له: لا يمكن أن تنقض بيعتك لولى العهد إلا إذا نقضت بيعتك للخليفة نفسه، لأنك بايعتهما فى عقد واحد.

عمر: تلك مشيئة الله، وإنى لم أندم قط على عزلى، فقد جنبنى الله مزالق السلطة خاصة بعد أن تورطت فى قتل خبيب. سليمان: أنت رقيق الحس رحيم القلب يا عمر، لكن لا ذنب لك لقد أمرك الوليد أمير المؤمنين حينذاك أن توقع العقوبة على خبيب، ومات خبيب أثناء تنفيذ العقوبة التى أمر بها الخليفة، فلست أنت المسئول عن ذلك. عمر: كلا يا أمير المؤمنين، لا أستطيع أن أخدع نفسى وأزعم أنى برىء من قتل خبيب، إن أحدا لا يغنى عن أحد من الله شيئا، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، وأن كان الآمر أمير المؤمنين.

ولكن لماذا أخذنا الحديث إلى هذا المذهب الذى قد يثقل على أمير المؤمنين، إنك فى حاجة إلى الراحة والاستجمام. سليمان: الحق، رغم أن مجهد، إلا أنى أشعر بالراحة وأنت تتحدث إلى، كما أحس برغبة شديدة فى استعادة ذكريات قديمة. عمر: يحسن يا أمير المؤمنين أن تستريح. سليمان: لا أملك الآن أن أدفع هذه الذكريات، إنها تلح على، أنى أراها حتى لو أغمضت عينى أرى صورا من حياتى تمر واحدة إثر أخرى مذ كانت لى ذاكرة تحفظ الأشياء حتى الآن! إنى أحاسب نفسى الآن، ولا أملك لشىء دفعا.

عمر: رفقا بنفسك يا أمير المؤمنين، أنت فى حاجة إلى الراحة والهدوء. سليمان: ينهض من الفراش، يسير فى بطء، وكأنه يحلم، لا أستطيع يا عمر، إنى لأذكر الآن أشياء، أحس لها معان أخرى غير تلك التى كنت أحس بها فى حينها، أتذكر يا عمر ذلك اليوم الذى اصطحبتك فيه لزيارة بعض معسكرات الجيش، وهناك أمام المعسكر الملىء بالعتاد والرجال

سألتك ما تقول فى هذا الذى ترى يا عمر؟ عمر: لا داعى للإجهاد يا أمير المؤمنين. سليمان مسترسلا: إنى أذكر كلمتك، كلمة كلمة، ولكن بربك، أعدها على سمعى بصوتك يا عمر. عمر: بعد شيء من التردد يشرد بذهنه إلى الماضى القريب ويقول: أرى دنيا يأكل بعضها بعضا، وأنت المسئول عنها، والمأخوذ بها. سليمان: ما أعجبك!. عمر: بل ما أعجب من عرف الله فعصاه، وعرف الشيطان فاتبعه، وعرف الدنيا فركن إليها.

سليمان: وماذا قلت أيضا، أكمل يا عمر، إن كلمتك لم تزل ترن فى أذنى. عمر: اعفنى يا أمير المؤمنين. سليمان: إسمعها إذن منى أنا: سرور لولا أنه غرور، وحياة لولا أنه موت، وحسن لولا أنه حزن، وملك لولا أنه إلى زوال، ونعيم لولا أنه عذاب أليم. أليست هذه هى كلمتك يا عمر؟ عمر: نعم يا أمير المؤمنين. سليمان: ربما شعرت بالضيق وقتها؛ لأنى كنت فى لحظة زهو، ولكن يبدو أن كل شيء يظهر لى الآن كما قلت أنت لا كما أحسست أنا حينذاك.

عمر: لعل الإرهاق يا أمير المؤمنين هو الذى يلقى ظلاله القاتمة على كل الذكريات فيطبعها بطابع الحزن والألم المؤقتين. سليمان: كلا.. يبدو أن النهاية قد اقتربت بأسرع مما نظن يا عمر.

السرور، الحياة، الملك، النعيم، كلها أشياء فى طريقها إلى الزوال، الغرور، الموت، الحزن، العذاب، كلها أشياء أخشى أن تكون مقبلة فى القريب، سليمان يبكى، يدخل رجاء بن حيوة، يلتفت له عمر ويقول عمر: أن أمير المؤمنين فى حاجة إلى الراحة، فلا تدع أحدا يدخل عليه الآن. وينصرف عمر والدموع فى عينيه.

استخلاف عمر:

وثقل المرض أكثر على سليمان بن عبد الملك، فاستدعى رجاء بن حيوة، فدخل عليه فقال له: يا رجاء، عرفتك شيخا فقيها تقيا، وإنى أثق بك كما لا أثق بأحد غيرك، أدخل على أبنائى حتى أرى، لعل أحدا منهم يصلح للخلافة من بعدى، وخرج رجاء وعاد بأبناء سليمان، وهم يرتدون ملابس

الخلافة، وجعل سليمان يصعد النظر فى أبنائه حزينا ويقول لرجاء: يا رجاء، قلد أبنائى السيوف والدروع، رجاء يقلدهم السيوف والدروع فيجرونها جرا، سليمان باكيا: إن بنى صبية صغار، أفلح من كن له كبار.

رجاء: يا أمير المؤمنين، هون عليك، فإن الله تعالى يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى ١٤، ١٥] سليمان: صدق الله العظيم، أشر على يا رجاء، هؤلاء أبنائى صغارا كما ترى، فماذا ترى؟ رجاء: يا أمير المؤمنين، إن مما يحفظ به الخليفة فى قبره ويشفع له فى أخراه أن يستخلف على المسلمين رجلا صالحا. سليمان: ما ترى فى داود بن سليمان؟ رجاء: هو غائب بقسطنطينية، وأنت لا تدرى أحى هو أم ميت. سليمان: فمن ترى يا رجاء؟.

قال رجاء: رأيك يا أمير المؤمنين، أريد أن أنظر من يذكر. قال سليمان: كيف ترى فى عمر بن عبد العزيز؟ رجاء: أعلمه والله فاضلا، وفضلا عن ذلك، فقد وقف بجانبك حينما حاول الوليد البيعة لأبنائه. قال سليمان: صدقت يا رجاء، وكان أبوه أحق بالخلافة لولا أنه مات فى حياة عبد الملك، ولكن ولئن وليته و لم أول أحدا من ولد عبد الملك لتكونن فتنة، ولا يتركونه أبدا يلى عليهم إلا أن اجعل أحدهم بعده، فيزيد ابن عبد الملك، وكان يزيد غائبا على الموسم يومئذ، أجعله بعده، فإن ذلك مما يسكنهم ويرضون به. قال رجاء: رأيك يا أمير المؤمنين، لك الأمر وعلى الله التنفيذ. قال سليمان، فى عزم وحزم واصرار: والله لأعقدن لهم عقدا لا يكون للشيطان فيه نصيب. فكتبه سليمان بيده:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن العزيز، إنى وليته الخلافة من بعدى، ومن بعده يزيد بن عبد الملك، فاسمعوا له وأطيعوا، واتقو الله ولا تختلفوا فيطمعو فيكم. وختم الكتاب فأرسل إلى كعب بن حامد صاحب شرطة أن مر أهل بيتى فليجتمعوا، فأرسل اليهم كعب فجمعهم، ثم قال سليمان لرجاء بعد اجتماعهم: اذهب بكتابى هذا إليهم، فأخبرهم أنه كتابى، ومرهم فليبايعوا من وليت، ففعل

رجاء، فلم قال لهم ذلك قالوا: سمعنا وأطعنا لمن فيه، وقالوا لرجاء: ندخل فنسلم على أمير المؤمنين؟ قال: نعم، فدخلوا.

فقال لهم سليمان: هذا الكتاب، وهو يشير لهم، وهم ينظرون إليه فى يد رجاء بن حيوة، هذا عهدى فاسمعوا وأطيعوا وبايعوا لمن سميت فى هذا الكتاب.

فبايعوه رجلا رجلا، ثم خرج بالكتاب مختوما فى يد رجاء، قال رجاء: فلما تفرق الناس جاءنى عمر بن عبد العزيز، فقال: يا أبا المقدام، إنى أرى أمير المؤمنين فى الموت، ولا أحسبه إلا سيعهد وكانت لى به رحمة ومودة وكان بى بارا، فأنا أخشى أن يكون قد أسند إلى من هذا الأمر شيئا، وإنى أناشدك الله إذا ذكرنى بشىء من ذلك أن تصرفه عنى، وألا تذكرنى له فى هذا الأمر أبدا.

قال رجاء: يا أبا حفص، لقد ذهب ظنك مذهبا بعيدا، أتظن أن بنى عبد الملك يدخلونك فى أمورهم؟ قال عمر: أردت فقط أن أخبرك بذات نفسى؛ لأنى كاره لهذا الأمر، ويكفينى ما لقيت من ولاية المدينة فى عهد الوليد، فأنشدك الله وحرمتى ومودتى إن كان هناك شىء إلا أعلمتنى حتى أستعفيه الآن قبل أن يأتى حال لا أقدر فيها على ما أقدر الساعة.

قال رجاء: لا والله ما أنا بمخبرك حرفا واحدا، قال: فذهب عمر غاضبا. وقال رجاء: ولقينى هشام بن عبد الملك، فقال لى: يا رجاء إن لى بك حرمة ومودة قديمة، فأنبئنى بهذا الأمر، إن كان صائرا إلى علمت، وإن كان لغيرى تكلمت، ولك على العهد ألا أذكر من ذلك شيئا أبدا.

رجاء: إن الخليفة قد ائتمننى وأخذ على العهد ألا أتكلم، ولا أستطيع أن أخون عهد أمير المؤمنين الذى اطمأن إلى ووثق بى. هشام: يا رجاء، لماذا هذا التكتم وأنا ابن عبد الملك؟ ولا يغضبنى ألا أكون الخليفة ما دام الأمر سيصير إلى أحد إخوتى؟ أليس كذلك يا رجاء؟ رجاء: أيها الأمير، لا يرضيك أن أفشى سرا سيظهر فى حينه والأعمار بيد الله.

هشام: يا شيخ رجاء، إن الخليفة يحتضر، إنه يموت، إن لم يكن قد مات

فعلا، وهو أخى، ولن أفشى هذا السر لأحد أبدا. رجـاء: أيـها الأمـير، لـن يكون أمينا عندك، من كان خائنا لغيرك. هشام: ما هذا الذى أسمعـه؟ لابـد أن شيئا ما يحدث من وراء أبناء عبد الملك. رجاء: لاتسئ الظن بـأحد، ولا تجعل الغضب يتملكك فى أمر لم تتكشف لك بعد جوانبه.

هشام، ينصرف غاضبا وهو يسـائل نفسـه بصوت عـال: إذا كنـت قـد نحيت عنها، فإلى من ياترى؟ وهل ستخرج الخلافـة مـن بنـى عبـد الملـك؟ وانصرف يضرب بإحدى يديه على الأخرى.

قال رجاء: ودخلت على سليمان بن عبد الملك، فإذا هو يموت، فجعلت إذا أخذته سكرة من سكرات الموت حرفتـه إلى القبلـة، فجعـل يقـول وهـو يفأق: لم يأن لذلك بعد يا رجاء، حتـى فعلـت ذلـك مرتـين، فلمـا كـانت الثالثة قال: من الآن يا رجاء إن كنت تريد شـيئا، أشـهد أن لا إلـه إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، فحرفتـه إلى القبلـة ومـات، فلمـا أغمضتـه سجيته بقطيفة خضراء وأغلقت الباب، وأرسلت إلى زوجته تنظر إليه كيف أصبح، فقلت: نام وقد تغطى، فنظر الرسـول إليـه مغطى بالقطيفـة، فرجـع فأخبرها، فقبلت ذلك وظنت إنه نائم.

قال رجاء: وأجلست على البـاب مـن أثـق بـه وأوصيتـه إلا يغيـب عـن مكانه حتى آتيه، ولا يدخل على الخليفة أحدا، وجمع أهل بيت أمير المؤمنين فى مسجد دابق، وقال لهم: بايعوا، قالوا: بايعنا مـرة، أنبـايع أخـرى؟ قـال: هذا أمر أمير المؤمنين، بايعوا على ما أمر بـه، ومـن سمـى فـى هـذا الكتـاب المختوم. فبايعوا بيعة ثانية رجلا رجلا، فلما بايعوا بعد مـوت سـليمان رأى رجاء أنه قد أحكم الأمر، فقال لهم: قوموا إلى صاحبكم فقد مـات، قـالوا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقـرة: ١٥٦] وقـرأت عليـهم الكتـاب فلمـا انتهيت إلى ذكر عمر بن عبد العزيز نادى هشام: لا نبايعه أبدا

قال رجاء: و الله أضرب عنقك، ثم قرأ رجاء، ومن بعد عمـر يزيـد بـن عبد الملك فتهللت وجوه أبناء عبد الملك، واستمر رجاء فى القراءة، فاسمعوا له واطيعوا، ولا تختلفوا فيطمع فيكم، هات يدك يـا أمـير المؤمنـين أبـايعك،

عمر: ألم أناشدك الله يا رجاء؟ ويتجه عمر إلى الجماهير ويخاطبهم بقوله: عمر أيها الناس، لقد ابتليت بهذا الأمر، على غير رأى منى فيه، وعلى غير مشورة من المسلمين، وإنى أخلع هذه البيعة، فاختاروا لأنفسكم.

الجموع: بل أياك نختار، إياك نختار، أياك نختار يا أمير المؤمنين، سعيد بن عبد الملك: أنت أمير المؤمنين، ونحن جميعا بايعناك، ونبايعك الآن مرة أخرى، أتريد أن نختلف ويضرب بعضنا رقاب بعض؟ تقبل البيعة يا أمير المؤمنين، وتتزاحم الجموع على المبايعة.

ويلتفت أحد الجماهير إلى الآخر ويقول له: سبحان الله، وليها أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، ولم يقولوا هذا، ويقوله: عمر! ويقول آخر: سبحان الله، إنه يبدو كما لو كان غير راغب فيها حقيقة، هشام: يتقدم محزونا ويبايع عمر قائلا: إنا لله وإنا إليه راجعون، إذ نحيت عنى، عمر: بل إنا لله وإنا إليه راجعون، إذ صارت إلى وأنا كاره. كعب بن حامد، رئيس الشرطة: أيها الناس، يا من بايعتم الخليفة الجديد، افسحوا الطريق حتى تبدأ مراسم الاحتفال، تقدم يا شيخ رجاء.

الشيخ رجاء: يا غلام، هات الملابس الجديدة، عمر: أية ملابس يا رجاء؟ رجاء: إنها ثياب الخلافة التى يتحلى بها كل خليفة جديد، عمر: وأين هى هذه الملابس؟ رجاء: فى الغرفة المخصصة لذلك، وهى معدة لهذا اليوم يا أمير المؤمنين. عمر: لا حاجة لى بها، تكفينى ملابسى، ضم هذه الملابس إلى بيت المال. هشام هامسا لأحد الأمراء: لعلها لا تناسبه، إن شهرته فى انتقاء ثيابه، وتعطيرها عبقت الآفاق!.

رئيس الشرطة: يا غلام، أفسح الطريق حتى تقبل الجاريات والوصيفات. عمر: يا رجاء، أغلق الطريق عليهن، لا أحب رؤية أى منهن، تول أمرهن جميعا، أرجع كل واحدة منهن إلى أرضها وذويها. هشام: هكذا من قبل أن تراهن يا أمير المؤمنين؟ عمر: لا حاجة لى بهن يا هشام. هشام لجاره: لعله يرغب فى انتقائهن على مهل وبعيدا عن عيون الرعية. أحد الأقراء لهشام: ليتنى كنت مكانه.

هشام: ويحك، أترجو الخلافة بدل أبناء عبد الملك؟ الأمير: كلا يا ابن العم، إنما أرجو الجوارى فقط. رئيس الشرطة: أيها الناس أفسحوا الطريق حتى يصل الخليفة إلى الجياد أن الموكب فى انتظارك يا أمير المؤمنين. عمر: أى موكب، وأية جياد يا كعب؟ رئيس الشرطة: إنها جياد منتقاة بكل دقة وعناية، إنها لم تركب قط من قبل، إنها معدة تماما لهذا اليوم المشهود، وسوف يطوف الموكب بطرقات المدينة، وينتهى بعد ذلك إلى السرادق.

عمر: لا حاجة لى بكل ذلك، إنى أمتطى قدمى فى المسافات التى أقدر عليها، وتكفينى دابتى فى المسافات البعيدة يا مزاحم، ضم الجياد إلى بيت المال. هشام لجاره فى دهشة: ماذا ترى؟ وماذا نسمع؟ أتصدق هذا؟ أيمكن أن يكون هذا هو عمر بن عبد العزيز الذى عرفناه؟ أم أن شيئا غير معقول سيحدث فى هذه الأمة؟

رجاء: إذن سنذهب إلى السرادق على الأقدام. عمر: لن نذهب إلى سرادقات، وفروا أموال المسلمين ولنجتمع فى المسجد فى المكان الذى حدده الله للقاء الإخوة، يا مزاحم ضم السرادق ومحتوياته جميعا إلى بيت المال، يا مزاحم، نعم يا أمير المؤمنين، هات ورقة وقلما واكتب.

رجاء: ألا ترجىء هذا إلى غد حتى تستريح يا أمير المؤمنين. عمر: كلا يا رجاء، لقد فعلتها أنت بى، فدعنى استنقذ نفسى من عذاب يوم عظيم، أكتب: يعزل أسامة التنوخى الغاشم الظلوم، ويقدم للحساب، يعزل يزيد ابن أبى مسلم عن أفريقيا، ويقدم للحساب. هشام لجاره: إن الولع بالسلطان لا يدع الخليفة يصبر حتى الصباح. الأمير لهشام: الحق، إن رأسى تدور، ولا أستطيع الآن تقدير الأمور، لا أدرى إن كان هذا ولعا بالسلطان أم أنه شىء آخر ليس فى الحسبان.

عمر: أيها الناس، لست بقاض، وإنما أنا منفذ، لست بمبتدع، وإنما أنا متبع، لست بخيركم، وإنما أنا رجل منكم، غير أنى أثقلكم حملا. رجاء: جزاك الله عن الإسلام خيرا يا أمير المؤمنين. عمر: بل جزى الله الإسلام عنى خيرا يا رجاء، اللهم زد محسن أمة محمد إحسانا، وأرجع مسيئهم إلى

التوبة، اللهم وحط من أوزارهم برحمتك. الجموع: آمين، آمين.

عمر: أيها الناس إنى لأقول لكم هذه المقالة، وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما أعلم عند نفسى، فأستغفر الله وأتوب إليه.

رد المظالم:

مازال عمر بن عبد العزيز يرد المظالم، وهى الأموال والضياع التى كانت تحت يد الولاة السابقين وأقربائهم منذ استخلف إلى أن مات. وبدأ بأهل بيته فرد ما كان بأيديهم من المظالم، ثم بالناس بعد، وكان يقول: إنه لينبغى أن لا أبدا بأول من نفسى، فنظر إلى ما فى يديه من أرض أو متاع، فخرج منه حتى نظر إلى فص خاتم، فقال: هذا مما كان الوليد بن عبد الملك أعطانيه مما جاء من أرض المغرب، فخرج منه، وكان يرد المظالم من لدنه معاوية إلى أن استخلف.

وهكذا بدأ عمر بن عبد العزيز بنفسه، فرد إلى بيت مال المسلمين ما وصل إليه عن طريق العطايا وغيرها، بدءا من معاوية إلى أن استخلف، وبدأ زهده فى الدنيا مرتبطا بعدالة التوزيع على أفراد الرعية، وكان هذا التحول سريعا إلى الحد الذى قال عنه المنذر بن عبيد:

ولى عمر بن عبد العزيز بعد صلاة الجمعة، فأنكرت حاله فى العصر! عرضت له دواب سليمان فكشر، ثم أشار إلى بغيلة شهباء، فأتى بها فركبها إلى منزله، وهناك وجد فرس الإمارة، فقال: لقد عجلتم، ثم تناول وسادة فطرحها بينه وبين الأرض، ثم قال: أما والله لولا أنى فى حوائج المسلمين ما جلست عليك!.

وولى أبا بكر بن محمد بن حزم المدينة، وكتب له أن استبرئ الدواوين فانظر إلى كل جور جاره من قبلى من حق مسلم، أو معاهدة فرده عليه، فإن كان أهل تلك المظلمة قد ماتوا فأدفعه إلى ورثتهم.

وقال ابن حزم أيضا: ما كان يقدم على كتاب من عمر إلا فيه رد مظلمة أو أحياء سنة، أو إطفاء بدعة، أو قسم أو تقدير عطاء، أو خير،

حتى خرج من الدنيا.

وقال عمر ناصحا ابن حزم فى كتاب أرسله إليه: إياك والجلوس فى بيتك، أخرج للناس فآس وساو بينهم فى المجلس والمنظر، ولا يكن أحد من الناس آثر عندك من أحد، ولا تقولن هؤلاء من أهل بيت أمير المؤمنين، فإن أهل بيت أمير المؤمنين وغيرهم عندى اليوم سواء، بل أنا أحرى أن أظن بأهل بيت أمير المؤمنين أنهم يقهرون من نازعهم، وإذا أشكل عليك شىء فأكتب إلى فيه!.

وهكذا بدأ سريان نور العدالة من مصباح عمر إلى مصابيح عماله فى مختلف الأقاليم، بل أنه قام فى مسجد دمشق، ثم نادى بأعلى صوته: لا طاعة لنا فى معصية الله. وقال: لو كان كل بدعة يميتها الله على يدى، وكل سنة ينعشها الله على يدى ببضعة من لحمى حتى يأتى آخر ذلك على نفسى كان فى الله يسيرا.

الإعلان التاريخى عن بيع تحف ونفائس

لقد فوجئ الناس برجل فى ميدان دمشق بجوار قصر الخلافة الرجل يتوسط المكان وبجواره غلام يدق ناقوسا كبيرا معلنا عن بيع تحف ونفائس وأحجار كريمة، الرجل ينادى ويقول: تعالوا إلى متاع الخونة، تعالوا إلى متاع الظلمة. ويتساءل الناس فيما بينهم: من هم الخونة؟ من هم الظلمة؟ أتعرف من يقصد هذا الرجل؟ لا، لا أعرف شيئا، لعله رجل مجنون يهذى بأقوال لا معنى لها. إنه يبدو كشعلة من الحماس فى ندائه، لكنى لا أرى فى ملامح وجهه ما يدل على جنونه، ما دمت ترى أنه متحمس فقط فى الإعلان عن بضاعته، وأنه ليس معتوها، فأذهب إليه وأسأله عن قصيده، وقل له: من هم الخونة؟ ومن هم الظلمة الذين تعرض متاعهم للبيع؟ فلعله يجيبك بما يسرك......: أنا أسأله! لماذا؟ لا حاجة بى إلى سؤاله هذا هو أمامك، فأسأله أنت. لعلك تعرف إذن من هم الظلمة ومن هم الخونة؟ الذين يعنيهم هذا الرجل ولذلك فلست فى حاجة إلى السؤال، ويلك، ماذا

دهاك؟ لماذا تخاطبنى هكذا؟ ألم تقل أنه متحمس فقط، ولكنه غير مجنون؟ أنا قلت: إنى لا أرى فى ملامحه أنه مجنون، ربما لضعف فى نظرى يا أخى، وربما لم يكن مجنونا، أما ترى رجل الشرطة الواقف بجواره، فلو كان مجنونا لما وقف بجانب رجال الشرطة لكى ينادى، بهذا القول: أرجو يا أبا (......) أن تثبت على رأى، هل الرجل مجنون أم عاقل؟ أرجح أنه عاقل، ولكن طريقته مثيرة ومبتكرة فى تجميع الناس حوله.

البائع: أيها الناس، لماذا تتهامسون، وممن تخافون؟ لماذا تترددون فى الشراء من أشهر مزاد عرفه التاريخ، لماذا لا تقبلون على ما نعرضه عليكم ؟ هنا مزاد العظة والعبرة، تعالوا إلى متاع من خلف الرسول بغير سنته، تعالوا إلى متاع من خلف الرسول بغير سيرته، تعالوا إلى متاع بنى أمية.

هل سمعت يا أبا (.....) ماذا يقول هذا الرجل يا للمصيبة، يا للكارثة، أنه لا شك مجنون، مجنون، مجنون، ألم تقل منذ لحظة أنه غير مجنون بدليل وقوفه بجوار رجل الشرطة؟.

....: لقد تبين لى الآن أن هذا هو دليل جنونه، وهل هناك دليل على جنونه أكبر من وقوفه بجوار رجل الشرطة وصراحة بهذا القول؟ إنه رجل فقد كل إحساس بالخوف إنه لا يخاف أحدا حتى مع وجود رجل الشرطة، (هامسا) شرطة حكام بنى أمية! أهناك دليل أقوى من هذا على جنونه؟.

....: معقول، ولكن، ولكن، ولكن ماذا؟ ولكن من أدرانا أن الرجل الواقف بجواره هو رجل الشرطة؟! ماذا تقول؟ هذا الرجل الآخر ليس شرطة من يكون إذن، هامسا: لعله مجنون مثله هيأ له جنونه أن يرتدى لباس الشرطة ويقف فى ميدان عام بجوار زميله، لا شك أنهما مجنونان جمعتهما مصيبة واحدة يا أخى، كما جمعتنى بك، فى هذا اليوم المشئوم.

...: هامسا، رأسى، رأسى، حذار يا أبا (الشجعان) فربما يكون هذا الرجل رجل شرطة حقيقى، ولكنه يقف بجوار هذا المجنون ليتعرف على من يلتفون حوله ويكتب أسماءهم ويسجل تعليقاتهم.

....: معقول يا أبا (الندمان)، هامسا، وربما يكون بجوارك الآن رجل

شرطة آخر ترك زى الشرطة فى بيته إمعانا فى التنكر، واندس بين الناس هيا يا أخى نغادر هذا المكان وننصرف حالا. هيا يا أخى قبل أن نصاب نحن بجنون حقيقى من هذا الذى نراه ونسمعه.

البائع يوالى النداء: أنا غيلان الدمشقى، باسم الحق والعدل، أيها الناس باسم ثانى العمرين، باسم أمير المؤمنين الخليفة الراشد، باسم الحق والعدل، تعالوا إلى متاع الخونة، تعالوا إلى متاع الظلمة، أحد الخوارج: أيحدث هذا بجوار قصر الخلافة، وفى أكبر ميادين دمشق، وعلى رؤوس الأشهاد إن هذا هو الجنون بعينه. خارجى آخر: يا أخى، إن ما تراه وتسمعه ليس جنونا، وليس خيالا، إنه حقيقة، وإن كانت أكبر من أن تتسع لها عيناك.

......: هل يمكن أن يحدث هذا وباسم الخليفة عمر بن عبد العزيز أحد أبناء بنى أمية؟ نعم، ها نحن نراه بأعيننا ونسمعه بآذاننا، ولسنا فى حاجة إلى شهادة أحد. هل يسمح الخليفة عمر بن عبد العزيز بن مروان، لأى أحد مهما كان أن يقول عن أسرته مثل هذا الذى نسمعه؟ أقسم أنى لو شاهدت قطا يصرع نمرا لما كنت أكثر دهشة مما أنا فيه الآن!!.

الخارجى: لاشيء محال، يبدو أننا مقبلون على عهد جديد تماما عما سبقه، ولعل كثرة الظلم تفجر نوعا عجيبا من العدل ينفجر فى الظالمين، ومن أقرب المقربين إليهم!

يقبل الأميران عمرو بن الوليد بن عبد الملك، وعمه هشام بن عبد الملك.

عمرو بن الوليد: من هذا المجنون الذى يهذى بهذا الهراء الذى نسمعه فى أكبر ميادين دمشق وبجوار قصر الخلافة؟ هل بلغ الحمق ببعض الناس هذا المبلغ. غيلان: ينادى بانفعال أشد: أنا غيلان الدمشقى، أبيع ما اغتصبه الخونة، باسم أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أبيع متاع الظلمة، باسم العدل نرد للفقراء مظالمهم منذ معاوية حتى الآن.

هشام فى غضب واستنكار شديدين: باسم أمير المؤمنين تسب أقاربه، وتنادى عليهم، وتدق الأجراس تشهيرا بهم. غيلان: باسم أمير المؤمنين نعيد الحق إلى أصحابه، ونقول للظالم يا ظالم، حتى يرتدع عن ظلمه، باسم

أمير المؤمنين نقول للخائن يا خـائن، حتـى يكـف عـن خيانتـه، باسـم أمـير المؤمنين نقول للأعور يا أعور، إذا تباهى على المبصرين، وجحد حقوق الفقراء والمساكين، إلى أيها الناس لتروا بأعينكم كيف كانوا يعيشـون؟ هنـا جوارب من الحرير محلاة بـالجواهر واللآلـئ الثمينـة، هنـا تحـف المغتصبـين، ونفائس الظالمين.

ابن الوليد: لم يبق إلا السفلة والمتمردون والمراق وأراذل الناس يتجـرءون علـى أسـيادهم، دعنـى أسـحق رأس هـذا الصعلـوك الحقـير. هشـام: يمنعـه ويهمس لا، لن أدعك تلطخ يديك بلعـاب حيـوان يعـوى، تمـالك نفسـك، تمالك نفسك يا عمرو. ابن الوليد: دعنى أقتله، وليكن ما يكـون ألا تسـمع نداءاته الوقحة؟ إنها تكاد تخرق طبلة أذنى وتصيبنى بالصمم.

هشام مهدئا: مهلا، مهلا يا ابن الوليد، إنـه مـا كـان يجرؤ علـى التفـوه بحرف واحد مما يقول لولا أنه محاط بالحرس، إن ابن عبد العزيـز هـو الـذى أطلق هذا لينهش فـى لحـوم أسـرته. غيـلان يـوالى نداءاتـه فـى تحـد ظـاهر. هشام: وهو يصر على أسنانه، ويقول فى صوت خافت: أتضيـع هيبتنـا إلى هذا الحد؟ والله لئن أمكننى الله منه لأقطعن يديه ورجليه وأجعله عبرة لكـل من توسوس له نفسه بالتطاول على سادة العرب.

غيلان: فى قمة انفعالاته مناديـا: اليـوم نبيـع متـاع الظلمـة، وغـدا نبيـع الظلمة أنفسهم فى سوق العبيد، ويدق الأجراس فى عنف، وتشرئب أعناق أفراد الرعية.

أحد الخوارج يقول لزميله: ما رأيك فيما يقول غيلان؟ أى أمير من أمراء بنى أمية ترغب فى حجزه لحسابك ودفع ثمنـه مـن الآن؟. ابـن الوليـد: فـى حقد شديد. ابن عبد العزيز: لا إنه حفيد بائعة اللبن هو الذى جرأ الأوغاد، وحكم السفلة، الويل للجميع. أحد رجال الشـرطة يدنـو مـن هشـام وابـن الوليد، ويقول لهما: يستحسن أن تنصرفا من هنا الآن ما دمتمـا لا ترغبـان فى الشراء، لدينا أوامر صريحة من أمير المؤمنين بمنع أى إنسان يعترض علـى مهمة غيلان أو يعتدى عليه.

هشام: يأخذ بيد عمرو بن الوليد وينصرف قائلا لم يبق إلا أن نشترى أمتعتنا فيستردها ابن عبد العزيز ثانية، ويودعها بيت المال. عمرو: ساخرا، نعم، ثم يعطيها لمثل هذا فينادى عليها وعلينا فى الأسواق. هشام: هيا بنا يا ابن الوليد لمقابلة عمر بن عبد العزيز حتى نضع حدا لكل هذا.

عمر والتجار:

دخل عليه أحد التجار اسمه عنبسة بن سعيد، وكان على صلة به قبل توليه الخلافة. عنبسة: السلام على أمير المؤمنين، عمر: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. عنبسة: جئت أهنئك بالإمارة أولا ولقضاء حاجة بعد ذلك. عمر: أتظن أن الإمارة تسرنى يا عنبسة؟ والله ما طلبت هذا الأمر من الله فى سر ولا علن. عنبسة: لماذا يا أمير المؤمنين، وأنت أهل لها أبا عن جد؟ عمر: إن لى نفسا تواقة، أخذت حظها كاملا من الدنيا، فلما شبعت أصبحت تشتاق إلى الآخرة. عنبسة: يا أمير المؤمنين أنت خير من يعلم أن حب الآخرة لا يتعارض مع إمارة المؤمنين.

عمر: هذا قول من لا يعرف أعباء الخلافة وواجباتها إنها أمانة يا عنبسة، ألا تعرف ماذا يعنى ذلك؟ رجاء بن حيوة: عنبسة تاجر، ولاشك أنه يدرك معنى الأمانة. عمر: إنها يوم القيامة خزى وندامة إلا من أخذها بحقها. عنبسة: وأنت أخذتها بحقها يا أمير المؤمنين. عمر: ليتها ذهبت بعيدا عنى، كان المسلمون على عهد رسول الله ﷺ يهربون منها. عنبسة: كيف أيهرب أحد من الإمارة؟ عمر: قل له يا رجاء؟.

رجاء: بعضهم يا أمير المؤمنين. عمر: قل له يا رجاء ماذا فعل عبادة بن الصامت، رجاء: إنه أقسم بالله ألا يكون أميرا على اثنين أبدا. عمر: وهل تعلم يا عنبسة أن سلمان الفارسى رفض الإمارة، وقال: إن استطعت أن تأكل التراب ولا تكون أميرا على اثنين فأفعل. رجاء: يحاول التخفيف عن أمير المؤمنين، فيقول: أمير المؤمنين يحفظ تاريخ جميع الرافضين. عمر: لأنها مسئولية، والإسلام دين المسئولية. رجاء: هذا حق المسئولية لا تنفك عن رقبة إنسان أيا كانت درجته فى الإسلام، الخادم

مسئول عن مال سيده، والزوجة مسئولة عن مال زوجها، والرجل مسئول عن أسرته.

عمر: أما أمير المؤمنين، فمسئوليته تتسع بقدر اتساع الأرض التى يرتفع عليها علم الإسلام وهو مسئول عن الجميع.. عن المسلم وغير المسلم، إنى أشعر بالخوف من هذه المسئولية ليل نهار. عنبسة: هل تأذن لى يا أمير المؤمنين أن أقول لك: إنك بهذا التفكير العميق تتعب نفسك كثيرا ولا تستطيع أن تستمتع بشيء. عمر: مضى عهد الاستمتاع يا عنبسة، إن النوم لا يكاد يعرف طريقه إلى عينى. عنبسة: كما أنك يا سيدى لا تستطيع أن ترضى أقاربك.

عمر: إن أقاربى من أسباب سهدى وسهرى إنى أسهر طوال الليل أناجى الله وأستغفره من أجلهم، لقد أرسلت لأمراء بنى أمية بمال لا حق لهم فيه. عنبسة: ومنهم ولى عهدك يزيد بن عبد الملك. عمر: نعم ومن أدراك بذلك. عنبسة: الأمراء أنفسهم، قالوا إنك أرسلت لكل منهم عشرة دنانير، وفكروا أن يردوا لك هذا العطاء لولا خوف غضبك. عمر: ليتهم ردوه لبيت المال فهو أحق به منهم، ووالله لن أعطيهم بعد ذلك درهما واحدا إلا أن يأخذ جميع المسلمين مثلهم.

عنبسة: يا أمير المؤمنين، إن لأقاربك طلبا خاصا بهم هل تقضيه لهم؟ عمر: إن كان لهم حق فيه قضاه الله على يدى. عنبسة: إنهم يستأذنونك فى أن يرحلوا طالما قطعت عنهم أعطياتهم. عمر: لهم ذلك لا أجبر أحد على البقاء بجانبى، فليرحل من يشاء إلى أى أرض يشاء. عنبسة: ولى طلب خاص بى يا أمير المؤمنين. عمر: أترغب فى الرحيل أنت الآخر لتمارس تجارتك معهم؟ عنبسة: كلا يا سيدى، إن الخليفة الراحل سليمان بن عبد الملك كتب لى صكا بمبلغ من المال، وقد استوفى هذا الصك جميع الإجراءات.

عمر: وماذا تريد يا أخى؟ هل ترغب فى رد المبلغ إلى بيت المال، بارك الله عليك. عنبسة: إننى لم أقبض بعد هذا المبلغ. عمر: ولماذا يا عنبسة؟

عنبسة: لأن الخليفة مات قبل أن أقبضه. عمر: وماذا تريد منى؟ عنبسة: إن صلتنا قديمة، وهى أوثق من صلتى بالخليفة السابق. عمر: نعم، وماذا بعد؟ عنبسة فى استعطاف: إنى أطمع أن تأمر لى بصرف هذا المبلغ. عمر: ثم، يسترده مزاحم بعد صرفه ويضعه فى بيت المسلمين. عمر: هل أنت مدين بشىء يا عنبسة؟ عنبسة: كلا، لست مدينا لأحد يا أمير المؤمنين. عمر: وما مقدار هذا الصك الذى أعطاه لك سليمان؟ عنبسة: إنه فقط عشرون ألف دينار.

عمر: فقط عشرون ألف دينار؟! عنبسة: نعم يا سيدى، أتظن أنه مبلغ كبير؟. عمر: إن هذا المبلغ يمكن أن يرفع الجوع عن عدد كبير من الأفواه والأسر، فكيف أعطيه لشخص واحد غير جائع. عنبسة: إن الذى أمر به هو الخليفة السابق. عمر: خذه من الخليفة السابق!. عنبسة: لا أقصد ذلك يا سيدى، ولكنى أعنى أنك لست مسئولا عنه. عمر: لماذا تطالبنى به إذن ما دمت غير مسئول عنه؟ عنبسة: يكرر فى حزن مضحك. إنه استوفى جميع الإجراءات إلا القبض! إنه استوفى جميع الإجراءات إلا القبض!.

عمر: ألا تعلم يا عنبسة إننا نسترد كل ما أعطى بغير وجه حق. عنبسة: نعم يا سيدى، أعلم ذلك أعلمه. عمر: ألم أقل لك منذ لحظة إننى لم أنم من أجل عشرة دنانير أعطيتها لولى العهد. عنبسة: عرفت ذلك يا سيدى عرفته منذ لحظة، منذ لحظة فقط. عمر: أتريد أن أسهر عاما كاملا بلا نوم أحاسب نفسى على عشرين ألف دينار أعطيها لك دون وجه حق؟ إن قدر لى أن أعيش. عنبسة: واضح يا سيدى أنه لا أمل فى قبض هذا المبلغ الذى استوفى جميع الإجراءات إلا القبض؟.

عمر: كيف تطمع؟ ومهما كانت الصلة بيننا أن أعمد إلى مال الله فأعطيه لك فى غير حاجة وأدع الفقراء؟ أليس لديك مال غير هذا؟ عنبسة: لدى يا سيدى. عمر: إن كان مالك حراما فلا تضف إليه حراما آخر، وإن كان مالك حلالا، فليكن لك فيه غناء، واتق الله، وانظر من أين جمعته، وحاسب نفسك قبل أن يحاسبك أسرع الحاسبين. عنبسة: يوشك أن

يبكى، سيدى لا تظن أنى جشع، ولكنى حاولت أن أصرف هذا الصك حتى أتذكر به خليفتين عظيمين، أما الآن فلست فى حاجة إلى شىء، دعنى يا سيدى أمزقه أمامك، يلقى الصك على الأرض دون تمزيق. عمر: يمكنك أن تحتفظ به. عنبسة: وماذا أفعل به ما دمت لن تصرفه لى.

عمر ضاحكا: ربما يأتى من بعدى من هو أجرأ منى على بيت مال المسلمين فيصرفه لك. عنبسة: ينحنى مسرعا يلتقط الصك يضعه سريعا فى جيبه بعد أن يطمئن على سلامته.

عمر يواجه أقاربه:

لقد واجه عمر بن عبد العزيز أمرا لم يقدم عليه حاكم من قبل، أمرا أغضب أقاربه وحببه إلى سائر الفقراء والمساكين، بل وجعله نموذجا للحاكم العادل الذى لا يحابى أحدا حتى نفسه وزوجه، وحتى أبناءه الصغار الذين تركهم واثقا من رعاية الله تعالى للجميع.

ذهبت إليه عمته مطالبة بما ترى أنه من حقها، وحق أقاربها، وحق زوجته، فرأت منه رفقا فى غير ضعف، وقوة فى غير عنف، والتقت العمة بابنة أخيها عبد الملك بن مروان فقالت لها: مالى أراك حزينة يا ابنتى، وأنت وزوجك لازلتما فى ريعان الشباب، أين وجهك الضحوك؟ أين ثغرك المشرق؟ أين عطرك الأخاذ؟

الزوجة: كل ذلك أودعه عمر فى بيت المال يا عمتى ونحمد الله على كل حال، هذه الإمارة، لوددت أنها بعدت عنا بعد المشرق والمغرب. العمة: ألهذا الحد يا بنيتى؟ الزوجة: نعم ولولا أنك بمثابة أمى ما قلت لك ذلك، ورغم هذا فالناس يحسدوننا، ولكنى لم أتذوق يوما حلوا منذ أصبح عمر أميرا للمؤمنين. العمة: هل ضعف حبك لزوجك يا فاطمة؟ الزوجة: كلا يا عمة، لكنى أبغض هذه الإمارة بكل ما فى الدنيا من كراهية.

العمة: لماذا يا ابنتى؟ وأنت بنت الخلافة وسليلة الملك؟ الزوجة: كانت الخلافة فى يد أبى وأخوتى غير تلك التى فى يد عمر. العمة: وكيف ذلك يا حبيبتى؟ الزوجة: حينما كان أبى وأخوتى أمراء كان واحد من أفراد

الرعية يتمنى أن يعيش يوما واحدا من أيامهم، أما الآن فلا أحد يحب أن يعيش كما يعيش عمر، ولو ليوم واحد لشدة ما نعانى. العمة: أصحيح أنه أخذ بعض جواهرك التى أهداها إليك والدك عبد الملك؟ الزوجة: الصحيح إنه أخذها كلها، والحقيقة كذلك أنه لم يأخذها لنفسه بل أودعها بيت مال المسلمين.

العمة: وهل رضيت بذلك؟ الزوجة: لقد خيرنى، فاخترته، العمة: أنت إذن لا تقدرين على فراقه يا فتاتى؟ الزوجة: نعم يا عمة، ولكن أين هو زوجى، إنه بعيد عنا تماما رغم أنه يعيش بيننا، وأنا وإن كنت حزينة من أجل نفسى وأولادى، فأنا حزينة أكثر من أجله هو. العمة: حزينة من أجله هو؟ لماذا؟ أهو يشكو من شىء تعرفينه وتكتمينه عنى؟ الزوجة: كلا يا عمة، إنه لم يعد عمر الذى عرفته، عمر المتأنق فى مشيته، عمر المتأنق فى ملبسه، عمر المتطيب بأغلى أنواع العطور، عمر الذى كان أثرياء الشباب بالمدينة يتقربون ويتوددون لغسالة ثيابه لكى تغسل ملابسهم بعد ملابسه، لتنتقل رائحة عطوره الفاخرة إلى ملابسهم.

العمة: هذا صحيح يا ابنتى، كان عمر لا يلبس إلا أرق الثياب وأنعمها، ويقول: ما أخشنها! الزوجة: نعم، ولقد أصبح الآن يأتون إليه بأخشن الثياب، فيقول: ما أرقها وما أنعمها، أتصدقين هذا يا عمة؟ العمة: كل ما تقولينه صادق، ويعلن عن نفسه فى ثيابه التى يرتديها، إننى فى حيرة من أمر زوجك.

الزوجة: وأنا كذلك يا عمة، إنى أجلس إليه فيقول لى: ما كان أسعد تلك الليالى يا فاطمة. العمة: إنه الآن أقدر على توفير أسباب السعادة من البارحة فما الذى يمنعه؟ الزوجة: هذا ما أقوله له، ولكنه ينهض فجأة فزعا مضطربا كعصفور بللته الأمطار من كثرة ما يبكى حتى أكاد أتمزق من أجله. العمة: ولماذا كل هذا؟ لماذا يعذب نفسه كل هذا التعذيب؟ الزوجة: ما رأيت أحدا يخاف الله كخوف عمر، إنه يحس كما لو كانت كل ذنوب رعيته ستقيد فى صفحاته هو، وكأن النار لم تخلق إلا من أجله هو. العمة:

كان الله فى عونك يا ابنتى، كنت أحسبك سعيدة، وقد أصبح زوجك أميرا للمؤمنين.

الزوجة: ظننت ذلك للحظة، ولكن الخلافة حينما جاءت عصفت بسعادتنا عصفا، وتركتنا هو وأنا كورقتين ذابلتين فى بيت الخلافة، انظرى إلى ابن أخيك فى الحجرة المجاورة انظرى يا عمة، هاهو يجلس منكمشا على نفسه يتناول طعامه بعد يوم مرهق. العمة تتجه ناحيته وتقول: أهكذا يجلس أمير المؤمنين على أرض يتناول عشاءه. عمر: ينهض ويتجه نحو عمته باسما مرحبا فى حب وود أهلا بك يا عمة، تفضلى، العمة: أهلا بك يا أمير المؤمنين. يا زين شباب بنى أمية، جئتك يا ابن أخى فى أمر يخصنى، ولكنى ما كدت أراك حتى آثرت أن أبدأ بك.

عمر: تفضلى يا عمة، قولى ما بدا لك، العمة: ألا ترفق بنفسك يا عمر؟ ما هذا؟ خبز وزيت وملح، أهذا كل طعام أمير المؤمنين؟ عمر: نعم والحمد الله على ذلك، وماذا أفعل يا عمة؟ العمة: تتخذ لك طعاما ألين من هذا. عمر: ليس عندى يا عمة، ولو كان عندى ما فعلت. العمة: أمير المؤمنين، ولا يجد فى بيته ما يأكله غير الخبز والزيت والملح؟ عمر: الحمد الله هذا ما يحل لى تناوله، إن المرء ليأكل اللقمة الحرام فلا يتقبل منه عمل صالح أربعين يوما.

العمة: يبدو إنك لن تقضى لى حاجتى التى جئت من أجلها؟ عمر: لماذا يا عمة، قولى تفضلى أنت موضع إعزازى وتقديرى، كم أتمنى أن يكون فى مقدورى قضاء حاجتك. العمة: يا أمير المؤمنين، كان عمك عبد الملك يجرى على من العطاء ما تعرف، ثم كان الوليد فزادنى، ثم كان سليمان فزادنى، ثم وليت أنت فقطعته عنى.

عمر: يا عمة، إن عمى عبد الملك وأبناء عمى الوليد وسليمان كانوا يعطونك من مال المسلمين، وهذا المال ليس لى، ولا جرأة لى على أخذ مال المسلمين وإعطائه لأى أحد حتى ولو كان لعمتى العزيزة، ولكنى أعطيك مالى إن شئت. العمة: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ عمر: عطائى مائتا دينار

فهل لك فيه؟ العمة: وما يبلغ منى عطاؤك، إنى أشفق عليك يا ابن أخى. عمر: شكرا لك يا عمة، فلست أملك غيره؟.

العمة: يا عمر، من حقك أن تفعل بنفسك ما تشاء، تأكل ما يطيب لك، تلبس ما تحب، ولكن زوجتك وأولادك، هل من حقك أن تجبرهم على أن يعيشوا مثلك؟! عمر: يا عمة، أنا لا أجبر أحدا على أن يعيش معى، أو يعيش مثلى. الزوجة: لا يا عمة، إنى اخترت عمر، اخترت الحياة معه على مال الدنيا بأسرها. عمر: تدبرى أمرك جيدا يا فاطمة، لعلك لا تقدرين على مواصلة الحياة معى.

الزوجة: بل إنى لا أقدر على مواصلة الحياة بعيدا عنك، لقد فطمت نفسى عما كنت استمتع به أيام أبى، وأيام إخوتى، وأيامى الأولى معك يا عمر، واخترت السير معك نجوع معا فنصبر، ونشبع معا فنشكر، ولن أتخلى عن هذا الاختيار أبدا إن شاء الله. العمة: أرى تأثيرك القوى على زوجتك وحبها لك، ولكن هل تستطيع أن تقنع قرابتك الآخرين؟ بمثل ما أقنعت به زوجتك؟.

عمر: وماذا أفعل لهم يا عمة؟ العمة: إنهم يشكونك يزعمون إنهم يسبون عندك فلا تدفع عنهم، بل ما تبدى مجرد عدم رضائك عما يحدث. عمر: أتريديننى يا عمة أن أدافع عن الباطل، إنى لا أسمح لأحد أن يتحدث عنهم إلا بما فيهم من صفات وخلق، أما أن أقول للذئب يا رحيم القلب، يا عفيف الأنياب، فهذا ما لا أقدر عليه.

العمة: إنهم يقولون إنك أخذت منهم خير غيرك، أعطيته للناس باسم رد المظالم. عمر: يا عمة، والله ما منعتهم حقا أو شيئا كان لهم. العمة: يا ابن أخى، إنهم يقولون: إنك أفقرت بنى أبيك فيما ترد من هذه المظالم، هذا أمر قد وليه غيرك من قبلك فدع من وليه، وما كان منه يحاسبه الله على فعله، واشتغل أنت وشأنك، واعمل بما رأيت. عمر: والله يا عمة، لوددت ألا تبقى فى الأرض مظلمة إلا رددتها. العمة: يا ابن أخى، إنى سمعتهم تتكلمون، رأيتهم يتذمرون، وأخشى أن يثوروا عليك، ويهيجوا عليك يوما

عصبيا.

عمر: إنى لا أخاف غير الله، ولا أخشى غير حسابه، وكل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا وقانى الله شره، يا مزاحم، ينادى عليه، مزاحم: نعم يا أمير المؤمنين، عمر: هات ما عندك، مزاحم يأتى بمجمرة وقطعة حديد محمرة، ويمسك عمر بالمجمرة، وبقطعة الحديد المحمرة، ويدنو من عمته ويقول عمر: أنظرى يا عمة، ألا تخافين على ابن أخيك من هذا؟ يا عمة، لا طاقة لى على احتمال هذا، لا أستطيع يبكى. العمة: فى رقة وقد آثارها ما رأته من صدق مشاعر عمر، وقاك الله شر ما تخاف وتكره يا بنى، لا تظن إنى غاضبة منك أو ساخطة عليك.

ودخل هشام بن عبد الملك ومعه عمر بن الوليد، فقال هشام لعمته: هل وصلت يا عمة مع ابن أخيك عمر لحل يرضى أهل بيته وقرابته؟ العمة: لم أصل معه إلى شيء، إنه لا يرفق حتى بنفسه. هشام: هو حر فى نفسه ولكن لنا حقوق. العمة: محاولة التخفيف من حدة توتر هشام الذنب ذنبكم، وعليكم أن تذوقوا ثمرة غرسكم، لقد زوجتم صاحبكم عبد العزيز ابن مروان بحفيدة عمر بن الخطاب، فجاءتكم بأبى حفص ملفوفا فى ثياب ابن أخى هذا، وانصرفت العمة ضاحكة تاركة وراءها هشاما وابن الوليد.

هشام: محاولا استرضاء عمر، يا أمير المؤمنين، نحن أهلك وعشيرتك، وأقرب المقربين إليك، وما يخدشنا لابد أن يترك آثاره عليك. عمر: هذا حق يا ابن العم، وهل ترانى أنكر قرابتى لكم أو أجحدها. هشام: ولكنك منذ توليت الخلافة كنت للرعية، فطمع الرعاع فينا، وهم الآن يسبوننا علنا بعد أن كنا نحن نسب أسيادهم ولا أحد يجرؤ على الرد. عمر: يا هشام، سبكم للإمام على ولعنكم إياه على المنابر كان ذنبا عظيما يجب الاستغفار له، وليس التباهى والتفاخر به.

ابن الوليد فى شيء من الحدة: إذا طمع الرعاع فينا فستذهب هيبتنا، ويضيع ملكنا ويزول سلطاننا، ويطارد بنى أمية كما يطارد الخوارج. عمر: الملك لله يا ابن الوليد، ونحن لا نطارد أحدا الآن طالما لا يتعرض بأى أذى

لأى أحد من الناس. ابن الوليد: هذا واضح تماما، حتى الخوارج يجدون الآن الأمن والأمان، كيف نترك هؤلاء المراق ولدينا القدرة على ضربهم واستئصال جذورهم؟ عمر: يا ابن الوليد، إذا دعتك قدرتك إلى أن تظلم الناس فتذكر قدرة الله عليك! إن الخوارج وغيرهم سيظلون آمنين ما داموا لا يتعرضون لأحد بسوء.

هشام: يا أمير المؤمنين، نحن لا نطلب منك أن تظلم أحدا من الناس، ولكن لا تظلمنا نحن. عمر: وهل منعتكم حقا لكم؟ هشام: ألم ترسل لولاتك فى الأمصار أن يدبروا لكل مواطن سكنا يأوى إليه، وفرسا يجاهد عليه، وأثاثا فى بيته، وأن يقضوا عنه حتى ديونه؟! عمر : نعم حدث هذا، وأحمد الله عليه، هل فى هذا ما يضيركم؟ ابن الوليد: وهل أمرت لكل أعمى بقائد على حساب الدولة، ولكل مريض بخادم، وفرضت لكل مولود راتبا بمجرد ولادته، وليس بعد فطامه؟.

عمر: نعم، ووفقنا الله تعالى لكفالة اليتامى فى جميع الأمصار أولئك الذين لا عائل لهم، ماذا فى هذا؟ هشام: وهل كفلت حاجات العلماء والفقهاء؟ عمر: نعم، حتى يتفرغوا لرسالتهم دون انتظار أجر من الناس، حفظا لكرامة العلم وحملته. هشام: وهل ستقدم نفقات الزواج لكل راغب من الشباب؟ عمر: نعم، نعم، أيضيركم هذا ما أعجب أمركم؟ هشام: نعم، يضيرنا، أيرضيك أن تأخذ أموالنا فتنفقها فى هذه الأشياء؟ ابن الوليد: انفق من مالك الخاص على ما تريد من مصارف، فأما مالنا نحن فلا.

عمر: آه،من أجل هذا تعترضون، لا إنها ليست أموالكم، ولكنها أموال المسلمين تعود إليهم، كما تعود المياه إلى مجاريها الحقيقية فتروى كل الأراضى، وكما تشرق الشمس على جميع الناس فقراء وأغنياء. ابن الوليد: كلا ليس الأمر كما تزعم، وكما تتخيل، إنها أموالنا، ورثناها عن آبائنا وأجدادنا. عمر: أنت تعرف يا ابن الوليد من أين جاءت هذه الأموال، أو بالأحرى كيف جىء بها إلى آبائنا وأجدادنا. ابن الوليد: أنا أعرف إنى ورثتها عن أبى، كما أعرف إنك تهدف إلى تحقير من كان قبلك من

الخلفاء، وتسير بغير سيرتهم.

عمر: لست أهدف إلى تحقير أحد، ولكنى أحاول السير خلف خطوات رسول الله ﷺ وصحابته الصالحين. ابن الوليد: أنت تفعل ما تفعل بغضا لمن كان قبلك، وكراهية لنا نحن أولادهم، وأسباب ميلك للرعاع معروفة للجميع، وتسرى دماؤها فى عروقك. عمر: إنه لشرف لى ومصدر لفخرى لا أدفعه ولا أنكره، وسواء لمحت به ،أو لم تلمح، أقول لك أنا: إن جدتى هى تلك الفتاة الفقيرة التى كانت تبيع اللبن، ولكنها رفضت أن تغش أحدا، رفضت أن تأكل شيئا ليس من حقها، وقالت: إن كان عمر لا يرانا، فإن رب عمر يرانا! أما أمك أنت؟.

ابن الوليد: أتطعن فى زوجة أمير المؤمنين؟ عمر: محتدا، أما تعرف أن أمك ؟بنانة؟ وإنها كانت تطوف بأسواق حمص، وتدخل فى حوانيتها، ثم، الله أعلم بها، واشتراها ذبيان بن ذبيان من فىء المسلمين، أهداها لأبيك، فحملت بك، فبئس الحامل، وبئس المحمول، ثم نشأت أنت، فكنت جبارا عنيدا.

ابن الوليد: إنها كراهيتك لنا هى التى أنستك أوامر الله فقطعت ما أمر الله به أن يوصل، وعمدت إلى أموال قريش ومواريثهم وحقوقهم، فأدخلتها بيت مال المسلمين. عمر: هذا المال من حق الفقير الجائع، والمريض الضائع، والمظلوم المقهور، واليتيم والأرملة، وليس من حقك ولا من حق أبيك. ابن الوليد: أنت تتقرب إلى الرعاع على حسابنا نحن ظلما وعدوانا. عمر: الرعاع الظلم العدوان، ماذا تقول يا ابن الوليد؟ ابن الوليد فى قمة غضبه وثورته: أقول لك اتق الله وراقبه، فإنك لم تكد أن تصل إلى الخلافة حتى خصصت قرابتك بالظلم والجور.

عمر فى سخرية معبرة: أنا الظالم الجائر، وأنت ابن العادلين؟ لا إن شئت أخبرتك عمن هو أظلم منى، وأترك لعهد الله. ابن الوليد: تقصد أبى؟ عمر: نعم، إنه أبوك الوليد، لأنه استعملك صبيا سفيها على جند المسلمين تحكم برأيك، فويل لك وويل لأبيك، وما أكثر خصماؤكما يوم القيامة وكيف

تنجو، وينجو أبوك من خصمائه؟!

هشام: لا يبلغ بك الغضب هذا المدى يا أمير المؤمنين، إننا لم نفكر في أن يصل الأمر إلى هذا الحد. عمر: اصمت يا هشام، إنه أظلم مني، وأترك لعهد الله، من استعمل الحجاج بن يوسف يسفك الدماء الحرام، ويأخذ المال الحرام، أن أظلم مني وأترك لعهد الله من استعمل قرة بن شريك الفاسق المتهتك على مصر، وأذن له في اللهو والطرب والشراب حتى في مساجد الله.

هشام مغيظا ومحتدا: يا إلهي أهكذا نسب في أكبر ميادين دمشق، وفي داخل قصر الخلافة، نحن أمراء بني أمية!! عمر: نعم، لابد أن يعرف الظالم قدره، وإنه أظلم مني، وأترك لعهد الله من استعمل يزيد بن أبي مسلم على جميع المغرب يسفك الدم الحرام، ويجبي المال الحرام. ابن الوليد: لم أكن أعرف أنك تحمل كل هذه الكراهية لمن كان يجب أن تكون امتدادا لهم.

عمر: مهلا، مهلا، يا ابن بنانة، أني لا أحب أن أكون امتدادا للظالمين، ولو طالت بي حياة لأتفرغن لك، ولأهل بيتك، حتى أقيم سيقانكم العرجاء على الطريق المستقيم.

يفتح بابه للمظلومين:

كان يخطب الناس فيقول: أيها الناس، الحقوا ببلادكم، فإني أذكركم في بلادكم وأنساكم عندي، ألا وإني قد استعملت عليكم رجالا لا أقول هم خياركم، ولكنهم خير ممن هو شر منهم، فمن ظلمه عامله بمظلمة فليدخل علي بلا استئذان، كيف امنع هذا المال عن نفسي وأهلي ثم أبخل به عليكم، إني لو فعلت ذلك لكنت أبخل البخلاء، وهذا لن يكون أبدا إن شاء الله والله إني لا أهدف إلا إلى أحد أمرين: إما أن أنعش سنة وأحييها، وإما أن أسير بحق، ولولا ذلك الهدف ما أحببت أن أعيش لحظة واحدة في الدنيا.

تهديده لبني مروان:

جاءه كتاب من بعض بني مروان فأغضبه فاستشاط غضبا، ثم قال: إن لله في بني أميه ذبحا، ولعل ذلك الذبح يكون على يدى، وقال: لئن عاد بني مروان إلى ما يرددونه من أقوال، لأشدن ركابى، ثم لأقدمن المدينة، ولاجعلنها، أو أصيرها شورى، أما إنى أعرف صاحبها إنه الأعمش.

القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق:

فلما بلغ هذا القول القاسم، قال: اليوم أصبح الناس أحرارا بحق، اليوم ينطق كل من كان لا ينطق، وأنا لنرجو الخير لسليمان بن عبد الملك بتوليته لعمر بن عبد العزيز، أما عن نفسى فإنى أضعف أن أقوم بأمر أهلى، فكيف أقوم بأمر أمة محمد؟! ولما بلغ تهديد عمر بإعادة أمر ولاية العهد، بل والخلافة معا إلى الشورى بين المسلمين كفوا عما كانوا يجاهرون به من مناوأتهم له، لأنهم كانوا يعلمون صرامته وإنه إن وقع فى أمر مضى فيه حتى ينفذه.

عمر والخوارج:

وصل مندوبان عن ثوار الخوارج للحوار مع عمر، أصرا على الدخول عليه بسيفيهما، ودخل رجاء بن حيوة يتبادل الرأى مع أمير المؤمنين فى هذا الأمر قبل اللقاء بهما. رجاء: هؤلاء الخوارج يا أمير المؤمنين، لا يتنازل الواحد منهم عن سيفه إلا ميتا. عمر: ربما يكون لهم العذر فى هذه العادة يا رجاء. رجاء: يا أمير المؤمنين، هؤلاء أناس متطرفون لم يستطع على بتقواه، ولا معاوية بدهائه، أن يستميلهم إلى صفه.

عمر: يا رجاء، إن المسلمين لم يختلفوا فى ربهم، ولا فى نبيهم، وإنما اختلفوا على الدينار والدرهم، وهؤلاء الخوارج يبدو من مظهرهم وصيامهم وصلاتهم إنهم ليسوا طلاب دنيا. رجاء: يا أمير المؤمنين، هؤلاء الناس لا يتحدثون إلا بالسيف، ولا يحتكمون إلا إليه. عمر: ربما هناك فى أعماقهم أشياء دفعتهم إلى التطرف، أود أن أبحث عنها بنفسى. رجاء: إنك فعلت معهم ما لم يفعله أحد قبلك، لقد أمرت ألا يتعرض لهم أحد بسوء طالما لم

يقطعوا طريقا أو يؤذوا أحدا.

عمر: الحجة لا تقرع إلا الحجة، إما أن تضرب الرأى الآخر بهراوتك فهذا ظلم لا أقره، إنك لا تقتل خصمك بالسيف إلا إذا كنت عاجزا عن قهره بالحجة. رجاء: هؤلاء الخوارج من الصعب أن يزحزحهم أحد عن آرائهم ولو استطاعوا لفرضوا آراءهم على الناس بالسيف، أى بالقوة، فما العمل إذا كنت تحاور بالحجة من لا تقنعه بالحجة مهما كانت مشرقة كالشمس. عمر: يا رجاء، دعنا لا نستبق الأحداث، ولننظر ماذا سيحدث، لعلنا نكتشف الطريق إلى قلوبهم، أو إلى قلوب بعضهم، فيكون كسبا للإسلام والمسلمين. رجاء: وهل ستسمح لهما بالدخول بسلاحهما؟.

عمر: رغم أن هذا يبدو غير مقبول شكلا، إلا أنى أقبله لأثبت لهما أن هذا التصرف منهما دليل ضعف وليس دليل قوة، وما يهمنى هو أن أشعرهما بالأمن والأمان المفتقدين عندهما، ودخل بهما رجاء وعرفهما لأمير المؤمنين: إنهما شوذب ومعه رفيقه عاصم. عمر: إنى أرسلت لكما لنتحاور بالحجة والمنطق، فلماذا جئتما بسلاحكما؟

شوذب: إن هذا الأمر أصبح عادة لنا أيها الأمير. عمر: ولكنكما تريان أنى أقف معكما وأقعد بلا سلاح سوى هذه المسبحة الخشبية. عاصم: السيف أيها الأمير يكاد يكون أصبعا سادسا فى يد الواحد منا لكثرة ما ننام، ونستيقظ عليه. شوذب: عذرا أيها الأمير شدة جفاف الصحراء علمت حتى النبات أن تكون له أشواك يحتمى بها، وكثرة المطاردة علمت حتى الغزلان أن تكون لها قرون طويلة لتدافع بها عن نفسها.

عمر: حجة مقبولة، ولكن هل تظنان أن سيفا كهذا يمكن أن يحمى صاحبه لو أردنا تجريده منه، والحاق الأذى به. عاصم: لم يغب هذا عنا، ولكنا قبلنا هذه المخاطرة، ومثلنا لا يموت قبل أن يقتص لنفسه. عمر: لماذا تتجنبون مخاطبتى باسم أمير المؤمنين؟ هل أنتم تعارضون خلافتى للمسلمين؟ شوذب: الحق، إنك أخذت الخلافة بغير حقها، ثم أصبحت من حقك بشىء واحد. عمر: بماذا؟ شوذب : بالعدل يا أمير المؤمنين. عمر: أخبرانى

ما الـذى أخرجكم عن حكمى هذا؟ ومـاذا تبغضون منى؟ أنا والله لا نبغضك، ولا نبغض سيرتك ويسعدنا أنك عزلت الظالمين، وتحريت العدل والإحسان فى ولاتك الجدد، ولكن بيننا وبينك أمرا، إن وافقتنا عليه فنحن منك وأنت منا، وإن عارضتنا فلسنا منك، ولست منا. عمر: وما هـو هـذا الأمر؟ رأيناك خالفت أهل بيتك، وسميتها مظالم فإن زعمت أنك على هدى، وأهل بيتك على ضلال فألعنهم، وتبرأ منهم، وهذا يا أمير المؤمنين، هو الذى يجمع بيننا أو يفرق.

عمر: يردد فى استنكار، ألعن أهل بيتى، وأتبرء منهم حتى ترضون عنى، نعم، ونصبح من جنودك وأعوانك. عمر: إنى أعرف أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب الدنيا ومتاعها، ولكنكم فى الحقيقة أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها. كيف ذلك أيها الأمير؟ عمر: هل تجيبون بصراحة عن كل ما أسألكم عنه؟ نعم، نعم، لك علينا ذلك. عمر: إذن أخبرونى عن أبى بكر وعمر هل تشهدون لهما بالصلاح والتقوى والنجاة؟ اللهم نعم.

عمر: هل علمتما أن أبا بكر حين ارتدت العرب بعد رسول الله ؟ قاتلهم فسفك الدماء وأخذ الأموال وسبا الأطفال؟ نعم، نعم. عمر: فهل علمتم بعد ذلك أن عمر بن الخطاب قام بعد أبى بكر وأعاد السبايا إلى عشائرها؟ نعم، نعم، حدث هذا يا أمير المؤمنين. عمر: هل تبرأ عمر بن الخطاب من أبى بكر؟ وهل تتبرءون أنتم من عمر؟ أو تتبرءون من أبى بكر؟ فى اقتناع بمنطق عمر: لا، لا. عمر: أخبرانى عن خوارج العراق، أليسوا من أسلافكم وممن تشهدون لهم بالصلاح والنجاة يوم القيامة؟ الخارجيان: يتبادلان النظرات نعم، نعم هم كما ذكرت.

عمر: هل تعلمون أن أهل الكوفة حين خرجوا كفوا أيديهم فلم يسفكوا دما، و لم يخيفوا آمنا. و لم يأخذوا مالا؟ نعم، نعم أيها الأمير، عمر: فهل علمتم كذلك أن أهل البصرة حين خرجوا مع مسعر بن فديك استعرضوا الناس يقتلونهم، ولقوا عبد الله بن خباب بن الأرت صاحب رسول الله ﷺ فقتلوه وقتلوا جاريته، ثم قتلوا النساء والأطفال وجعلوا يلقونهم فى القدور

وهى تفور؟ الخارجيان يقولان معا وكل منهما ينظر للآخر: نعم قد كان ذلك.

عمر: متسائلا فهل تبرأ أهل الكوفة من أهل البصرة؟ لا لم يتبرأ أحدهما من الآخر. عمر: هل تتبرءون أنتم من إحدى الفئتين؟ لا، لا. عمر: أفرأيتم الدين أليس الدين واحدا؟ أم الدين اثنان؟ بل الدين واحد. عمر: هل يسعكم منه شيء، ولا يسعنى؟ هل يطبق عليكم، ولا يطبق على؟ هل يعفيكم من شيء، ولا يعفينى منه؟. بل إنه يسع الجميع، ويطبق على الجميع. عمر: فكيف وسعكم أن توليتم أبا بكر وعمر، وتولى كل واحد منهما صاحبه، وتوليتم أهل البصرة والكوفة، وتولى بعضهم بعضا، وقد اختلفوا فى أعظم الأشياء، اختلفوا فى الدماء، اختلفوا فى الأموال، اختلفوا فى الأعراض، قل لى يا شوذب أنت وصاحبك، كيف وسعكم كل ذلك، ولا يسعنى إلا أن ألعن أهل بيتى، وأتبرأ منهم؟ الخارجيان: لا يجدان ردا.

عمر: هل ترون أن لعن أهل الذنوب فريضة لابد منها؟ الخارجيان صامتان. عمر: إن كان كذلك فقولا لى: متى عهدكما بلعن فرعون، وقد قال: أنا ربكم الأعلى؟ الخارجيان: فى ذهول: لا نذكر أنا لعنا فرعون. عمر: ويحكما لا تذكران أنكما لعنتما فرعون وهو أخبث الخلق، وتفرضان على أن ألعن أهل بيتى وأتبرأ منهم، ويحكم إنكم قوم تجهلون، أردتم أمرا فأخطأتموه، أنتم ترفضون ما قبله رسول الله ﷺ من الناس الخارجيان: كيف ذلك يا أمير المؤمنين؟. عمر: هل قتل رسول الله ﷺ من نطق بالشهادتين وترك عبادة الأصنام، الخارجيان: لا، لم يفعل.

عمر: وأنتم ألستم تلقون من شهد أنه لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وترك عبادة الأصنام فتستحلون دمه وماله ويلعن عندكم، ومن ترك ذلك تحرمون دمه وماله. ويأمن عندكم؟ شوذب الخارجى فى اقتناع كامل برأى عمر: يا أمير المؤمنين، ما سمعت كلاما أوضح حجة، ولا أبلغ منطقا من هذا الكلام الذى سمعته منك اليوم، أنى أشهد أنك على الحق، وأنى برئ ممن يتبرأ منك. الخارجى الآخر: وأنا أيضا ما أفحمنا أحد قبلك، وأنى

أشهد الله أنك على الحق، ما أحسن ما قلت ما أحسن ما قلت يا أمير المؤمنين، لكن يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن يزيد بن عبد الملك، لم تقره خليفة بعدك؟ عمر: فى حزن صيره غيرى، جاء الدور عليك يا أمير المؤمنين، أتأذن لنا فى أن نسألك، وتجيبنا فى صراحة؟.

عمر: اسألا كما تريدان، أرأيت لو استودعك أحد ماله، ثم طلبه منك أتكون قد أديت الأمانة إذا أعطيت المال لغير مأمون ليعيده إلى صاحبه؟ عمر صامتا، لماذا ترد المظالم لبيت المال مع أن غيرك المسئول عنها؟ عمر: أفهم قصدكما وأقدره، ولكن أمهلانى ثلاثة أيام، حتى أتخذ قرارى، ونحن أيضا لا نستبد برأى، سنرجع لأصحابنا ونعرض عليهم ما حدث، وفقك الله يا أمير المؤمنين. عمر: لكما ذلك، ووفقنا الله لما فيه خير الأمة، يا مزاحم، مزاحم: نعم يا أمير المؤمنين.

عمر: مر أحد الحراس بمصاحبة هذين الرجلين حتى يبلغا مأمنهما. مزاحم: سمعا وطاعة يا أمير المؤمنين. قال رجاء: هاأنت يا أمير المؤمنين قد التقيت برجلين من الخوارج، ولو التقيت بهم جميعا لوجدتهم نموذجا لرجل واحد، ولعلك لمست بنفسك تطرفهم وتعصبهم لما يعتنقون من آراء هل وصلت معهم إلى شيء؟

عمر: وجدت عندهم نصف الحقيقة، واقتنعوا هم بالنصف الآخر، وبقى علينا أن نعمل بما نعتقد أنه الحق. رجاء: وماذا تنوى أن تفعل بعد هذا اللقاء؟ عمر: لا أدرى بالضبط يا رجاء لكن هذا الخارجى أشعل فتيلا كان خابيا فى إحدى زوايا عقلى، ولن أتمكن من النوم بعد الآن. رجاء: أى أنك يا أمير المؤمنين كنت تسهر ثلثى الليل قبل هذا اللقاء، وجاء هذا الخارجى ليؤرقك الليل كله.

عمر: يا رجاء، لو كنت مدينا لأحد، وطالبك بالسداد أتكون قد وفيت له دينه إذا أرسلته له مع من يلتهم حقوق الناس؟ رجاء: لا يا أمير المؤمنين بل لابد من تخير الرجل الأمين الذى يؤدى الأمانة إلى أهلها. عمر: لقد فصلت فى القضية يا رجاء، كيف إذن أترك الأمر من بعدى ليزيد بن عبد

الملك، وهو على ما تعلم من ظلم وجور؟ رجاء: يا أمير المؤمنين، إن ولاية العهد هى الأمل الباقى بعد ما فعلته بهم من رد كل ما كان معهم من مال إلى بيت مال المسلمين.

عمر: لست أخاف أحدا منهم، رجاء: لا أعنى هذا، ولا أجد يجرؤ على إتهامك به، لكن هذا الأمر الذى يدور بذهنك أمر جد خطير، ولابد أن يتم التدبير له فى هدوء وصمت وكتمان. عمر: لماذا لا نعرض الأمر على الناس جميعا فى استفتاء عام ليختاروا لأنفسهم أميرا للمؤمنين، ووليا للعهد من جديد؟ رجاء: لقد خلعت نفسك، ولكن الناس بايعوك، فلماذا تعرض الأمر عليهم مرة أخرى، وما جدوى ذلك؟ ثم إنك أدرى بمكائد بنى عبد الملك.

عمر: قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا. رجاء: هذا حق لا ريب فيه، ولكن يجب أن ننتظر. عمر: إن ابن أبى بكر أحق بالولاية من يزيد. رجاء: ولكن يزيد وإخوته وأقاربه لا يسكتون على ذلك أبدا وربما تكون فتنة يسفك فيها دم غزير، وقاك الله يا أمير المؤمنين أن تكون سببا من أسبابها.

عمر: هذا ما يقلقنى، ولكن لابد أن أقرر أمرا خلال الأيام المقبلة. رجاء: الله يوفقك نتركك حتى تستريح. عمر: لا رغبة لى فى النوم الآن، يوشك السراج أن ينطفئ يهم رجاء بإصلاحه، عمر: أقسم عليك أن تجلس يا شيخ رجاء. رجاء: أتذهب يا أمير المؤمنين لإصلاح السراج بنفسك. عمر: أنت تقول ذلك يا شيخ رجاء وماذا فى هذا؟ قمت وأنا عمر، وعدت وأنا عمر. عمر: يا مزاحم. مزاحم: نعم يا أمير المؤمنين.

عمر: ما أخبار الناس فى الأمصار؟ مزاحم: كل الناس فى سعة وراحة، ما عدا أمير المؤمنين، وأنا والدابة التى تحملك. عمر: الحمد لله، اقرأ على يا مزاحم بريد اليوم. مزاحم: ألا نستريح حتى الصباح يا أمير المؤمنين؟ اقرأ يا مزاحم، اقرأ، رجاء: قبل أن نعرض بريد اليوم توجد شكوى من أهل سمرقند يزعمون فيها أن ولايتهم قد فتحت سلما، ولكن قائد الجيش الذى فتح سمرقند يزعم أنها فتحت بالقوة، ولذلك تؤخذ منهم الجزية وتوزع

أرض سمرقند على الفاتحين.

عمر: يعين لهم قاض، فإذا ثبت لديه صحة دعوى أهل سمرقند وأنها فتحت سلما وليس عنوة يخرج جيش المسلمين منها، وترفع عنهم الجزية، وترد لهم الأموال التى سبق أخذها منهم، وكذلك الأراضى التى وزعت على الجند تعود ملكيتها لأهل سمرقند. رجاء: هذا الحكم لم يسمع أحد عن مثله من قبل. عمر: هذا هو حكم الإسلام، بل ويعوضون عن كل ما أصابهم من ضرر يا شيخ رجاء. رجاء: بارك الله عليك يا أمير المؤمنين وجزاك خيرا.

مزاحم: هذا كتاب ورد من والى العراق عدى بن أرطاة يقول فيه: إن الناس قد دخلوا فى الإسلام أفواجا. عمر: الحمد لله على ذلك كثيرا، وماذا يريد منا والى العراق؟ مزاحم: إنه يخشى أن يقل الخراج لدخول الكثيرين فى الإسلام. عمر مغضبا: أكتب له الرد حالا يا مزاحم، قل له على لسانى: والله لوددت أن الناس كلهم يسلمون حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا. رجاء: كان ولاة بنى أمية يفرضون الجزية حتى على من أسلم، ويبدو أن بعض ولاتك يا أمير المؤمنين يرغبون فى العودة إلى هذه العادة التى لا تتفق مع مبادئ الإسلام.

عمر: لن أسمح بردة عن مبادئ الإسلام، أكتب يا مزاحم لجميع الولاة فى كافة الأقاليم: إن الله بعث محمدا هاديا، ولم يبعثه جابيا، ولا جزية على من أسلم. مزاحم: يظهر أن بريد اليوم خاص بالمال والضرائب. عمر: اقرأ يا مزاحم. مزاحم: هذا كتاب من عروة بن محمد والى اليمن يقول فيه: إنه حينما ذهب إلى اليمن وجد على أهلها ضريبة من الخراج ثابتة على أعناقهم لا ترفع عنهم سواء أخصبوا أم أجدبوا، وسواء ماتوا، أو عاشوا. عمر: يا لهؤلاء الولاة، أما يخشون الله؟ إنهم لا يهتمون إلا بجمع المال من الناس بكل الطرق. رجاء: لقد تعودوا على ذلك فى العهد السابق، كان الخلفاء يقيسون كفاءة الوالى بمقدار ما يجمع من مال.

عمر: أكتب يا مزاحم: إذا أتاك كتابى هذا فدع ما تنكره من الباطل إلى

ما تعرفه من الحق، واعلم أنك إن لم ترفع لى إلا حفنة تمر من جميع اليمن، فأنى سأكون بها مسرورا مادام فى ذلك إبقاء على الحق والعدل. عمر: اقرأ يا مزاحم، واطرد النوم عن جفونك. مزاحم: فى شىء من الإرهاق هذا كتاب من والى خراسان يستأذنك فى أن ترخص له باستخدام بعض القوة والعنف، فالناس - كما يرى - لايصلحهم إلا السيف والسوط. عمر مغضبا: أكتب له، قل له على لسانى: كذبت، الناس لايصلحهم السيف والسوط، ولكن يصلحهم الحق والعدل، فابسط ذلك فيهم وأعلم أن الله لا يصلح عمل المفسدين.

مزاحم: آخر كتاب يا سيدى جاء من أمرأة تسمى فرتونة السوداء بالجيزة تشكو تهدم حائطها، وسرقة دجاجها. رجاء: وماذا تطلب فرتونة السوداء من أمير المؤمنين؟ مزاحم: إنها تطلب تعلية الحائط، وتشديد الحراسة على بيتها حتى لا يسرق دجاجها مرة أخرى. عمر: أكتب يا مزاحم خطابين، أكتب أولا إلى أيوب بن شرحبيل، قل له على لسانى: إذا جاءك كتابى هذا فاذهب إلى فرتونة السوداء بنفسك بالجيزة، وحصن لها جدارها على نفقة الدولة.

واكتب يا مزاحم كتابا آخر إلى فرتونة السوداء، قل لها فيه: إننى تسلمت خطابها وسيذهب لها والى مصر لتعلية جدار منزلها حتى لا يسرق دجاجها إن شاء الله ألديك شىء آخر يا مزاحم؟ مزاحم: نعم يا أمير المؤمنين.

عمر: ما هو؟ مزاحم: خطاب من ملاك النوم يقول فيه لأمير المؤمنين إنه قد حان ميعاد نومى. عمر ضاحكا: ملاك النوم لا ينام يا مزاحم، ولكن ما دمتما لا تقدران على السهر أكثر من ذلك فالسلام عليكما. رجاء ومزاحم: وعليكم السلام يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

أرأيت إلى هذا السهر المثمر على ضوء شمعة يستبدلها أمير المؤمنين بغيرها، أو يصلحها بنفسه، رعاية لحقوق المسلمين، حتى تلك المرأة القاطنة بالجيزة، والتى يرسل لها والى مصر لاصلاح جدار بيتها حتى لا يسرق

دجاجها، نموذج للعدل قل أن يتكرر له نظير.

فى فراش المرض:

مرض أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز فى بيته وجعل يردد قول الشاعر:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة وليلك نوم والردى لك لازم
تسر بما يبلى وتفرح بالمنى كما أغتر باللذات فى النوم حالم
وسعيك فيما سوف تكره غبه كذلك فى الدنيا تعيش البهائم

آه، آه، كم من مستقبل يومه وليس بمستكمله، كم من منتظر غدا ليس من أجله، آه لو رأيتم الأجل وسيره، لأبغضتم الأمل وغروره.

مزاحم: يا أمير المؤمنين، كبير أطباء ملك الروم يستأذن فى الدخول عليك، ومعه رسالة منه. عمر: دعه يدخل. كبير الأطباء: السلام على أمير المؤمنين. عمر: وعلى المؤمنين السلام ورحمة الله وبركاته، ما معك؟ كبير الأطباء: معى رسالة من سيدى ومولاى ملك الروم. عمر: يفض الرسالة ويقرأ: بلغنى أنك سقيت سما، وقد بعثت إليك رأس الأساقفة وكبيرهم وأطبهم ليعالجك مما بك. ويقوم الطبيب بجس أمير المؤمنين وفحصه.

الطبيب: سقيت يا أمير المؤمنين. عمر: فما عندك؟ الطبيب: أسقيك حتى أخرج السم من عروقك. عمر: لا والله، لو كان روح الحياة بيدك ما مكنتك من ذلك، ارجع مشكورا إلى صاحبك، لا حاجة لى فى علاجك. الطبيب: يا أمير المؤمنين، إن ملك الروم يقدر لك حسن جوارك كما يذكر لك أنك أنت الذى أمرت بانسحاب الجيش الذى أرسله سليمان لفتح القسطنطينية، ولذلك فقد أوصانى ببذل كل ما فى وسعى لعلاجك.

عمر: أعلم أيها الطبيب أنى حينما أمرت الجيش بالانسحاب والعودة من هذه الحملة المشئومة إنما فعلت ذلك ابتغاء مرضاة الله وحرصا على جند المسلمين، أما حرصك وحرص ملك الروم على علاجى، فإنى أترك ذلك لمشيئة الله سبحانه وتعالى. الطبيب: إنك برفضك العلاج تعرض نفسك للموت المحقق ما دام سريان السم سيستمر فى جسدك. عمر: فى ثقة

عظيمة بالله، أعرض نفسى للموت؟ وهل مفاتيح الموت والحياة بيد أحد من الناس؟ ثم ماذا لو مت؟ إنى لست أول من كتب عليه الموت، ومات فعلا.

الطبيب: سيدى، إن سيرتك عطرت الدنيا، وعدلك ملأ البقاع، وأشاع فى النفوس الأمن والحب، فكيف تجرؤ يد على أن تقدم الموت لمن يريد لها الحياة؟ عمر: إن لله حكمة عالية فى قضائه وقدره، قد نعرفها، وقد لا نعرفها، ولكننا يجب أن نؤمن بأن ما يحدث لنا هو الخير، وإن كنا لا ندركه.

الطبيب: سيدى، كم أتمنى لو تركتنى أحاول إنقاذك، حتى أشعر أنى فعلت شيئا عظيما فى حياتى، وحتى لا أرجع محزون القلب باكيا، أجر أذيال الخيبة والفشل. عمر: أيها الطبيب، شكرا لك على شعورك النبيل، ولكنى أعتقد أن الموت هو الطريق إلى لقاء الله، وإنى لأستحى من مجرد التفكير فى الهرب من لقائه تعالى. الطبيب: ليس العجب لراهب يعرض عن الدنيا، ولكن العجب كل العجب لمن تكون الدنيا فى يده فيوزعها على كل الناس من حوله ولا يستبقى منها لنفسه شيئا، ليتك تتركنى ساعة واحدة لأداء مهمتى.

عمر فى إصرار وتصميم وهو يبتسم: أرجو أيها الطبيب أن تتركنى لربى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء ٧٨] الطبيب فى حزن شديد: أستودعك الله يا سيدى، وأرجو أن تأذن لى بالانصراف والعودة إلى وطنى. عمر: لك ذلك، وإنه ليؤسفنى ما تكبدته من مشقة السفر من أجلى، شكرا لك، ولمن أرسلك.

يخرج الطبيب ويخرج معه مزاحم، ويبقى عمر بمفرده فى الفراش يدخل عليه خادم طعامه، وقد بدا عليه الإرهاق والارتباك الشديد.

عمر: فى صوت ضعيف، تعالى يابنى، مالى أراك مصفر الوجه، مضطرب الخطوات تدخل على وتخرج بلا حاجة ظاهرة تقضيها؟ وكلما

أنظر إليك أشعر كأنك تحاول أن تقول شيئا ثم تكتمه عنى، قل لى ماذا بك؟ الخادم: مرتجفا، لا شىء.. لا شىء يا سيدى. عمر: يا بنى، إن الكلمات تكاد تسقط من بين شفتيك، هل تشكو من شىء؟ هل أنت فى حاجة إلى معونة يمكن أن أقدمها لك قبل أن ينفذ قضاء الله؟

الخادم باكيا: سيدى، سيدى، لا أكاد أصدق ما أرى لولا أنه يحدث أمامى، حتى وأنت على هذه الحال تفكر فى أمثالى، آه، ما أفظع الجرم، وما أبشع الخيانة. عمر: هون عليك يا بنى، إنه لا توجد مشكلة بغير حل إلا مشكلة الموت، فلا تخفى عنى شيئا، وقل لى ماذا يحزنك، قل لى يا بنى، قل؟ الخادم: سيدى، إننى لا أستحق كلمة عطف واحدة تخرج من فمك أنت أنبل سيد رأيته فى حياتى.

عمر: لماذا إذن ترفض أن تشركنى فى أحزانك ألست مسئولا عنك؟ ماذا أقول لربى إذا سألنى عنك؟ أأقول له: توليت أمر المسلمين ولا أعرف عن آلامهم شيئا؟ الخادم فى انفعال باك: سيدى، قطع الله يدا أمتدت إليك بالأذى، إنه حتى ولا الشيطان يطاوعه ضميره أن يقتلك، ومهما كان الثمن. عمر: لا تتعجل الأمور يا بنى، فربما كان قاتلى على حق، ربما فعلت به ما أستحق عليه الموت. الخادم: كلا يا سيدى، كلا يا سيدى، إنك لم تفعل له شيئا تستحق عليه اللوم.

عمر: من أدراك يا بنى؟ الخادم منهارا: سيدى، لم أعد أطيق، إنى استحق الموت عشرات المرات! عمر: منتبها إلى كلمات الخادم ماذا تعنى؟ الخادم أنظر فى عينى، إن طهارة عينيك تجعلك لا ترى مافى عيون الآخرين إننى.. إننى، لايستطيع أن يتم كلامه، عمر: أنت إذن هو؟ الخادم وهو يبكى بكاء شديدا: نعم يا سيدى أنا هو

عمر: ولماذا فعلت ذلك؟ هل أصابك ظلم؟ أو لحقك منى أذى؟ الخادم: ليتك ظلمتنى، أو أسأت إلى مرة واحدة، ربما كنت أجد شيئا من الراحة أو العذر، ولكنى كلما أبحث فى حياتى وأحفر فيها لا أجد إلا فضلك وبرك، لماذا فعلت ذلك؟ لماذا؟ لا أعرف، ولكنى خدعت وغرر بى.

عمر: فى حزن وتأمل، خدعت، وغرر بك، أحرص عليكم وتقتلونى، أئتمنك وتخوننى، آكل من يدك فتدس لى السم (عمر يبكى). الخادم يبكى بانفعال شديد: اقتلنى يا سيدى، اقتلنى، اقتلنى، ترحمنى، عمر: فى تأثر، وحزن، وتساؤل مرير متى أشفى غيظى؟ أحينما أعجز فيقال لى: لو صبرت أم حينما أقدر فيقال لى: لو عفوت؟ الخادم: أقتص لنفسك يا سيدى القاتل أمامك، يقر بذنبه يعترف بجريمته، أننى لست أهلا لعفوك.

عمر: وماذا آخذ من قتلك؟ لا لن أقتص لنفسى أبدا، اذهب، اذهب بعيدا عنى، اذهب قبل أن تعرف الحقيقة فلا أملك حمايتك، اذهب يا بنى، أرجوك أن تذهب، اذهب يا بنى عفى الله عنى وعنك، يخرج الخادم متعثر الخطوات باكيا، ويدخل رجاء بن حيوة، فيجد عمر وآثار الدموع فى عينيه، وهو يعانى من آلام شديدة. رجاء: ماذا بك يا أمير المؤمنين؟ عمر: آلام شديدة يا رجاء، إنها تذكرنى بالسياط التى جلد بها خبيب، ولكنها من الداخل إنها تهوى على أحشائى. رجاء: إذن هو السم حقا يا أمير المؤمنين، عمر: نعم، يا رجاء. رجاء: وهل عرفت الخائن؟ عمر: نعم عرفته. رجاء: من هو يا أمير المؤمنين؟.

عمر: ولماذا تريد معرفته يا رجاء؟ رجاء: حتى نقتص منه. عمر: لقد عفوت عنه. رجاء باكيا: عفوت عنه، إنه لا يستحق، أين هو؟ لماذا عفوت عنه؟ لماذا تركته يفلت من العقوبة؟ عمر: عفوت عنه، رجاء أن يعفو الله عنى يا رجاء، آه ما أسعدنى لو عفى الله عنى، لكنت أنا الرابح فى هذه الصفقة، يا إلهى، يا ربى، أعف عنى. رجاء: أعرفت من الخائن كل شىء؟ أعرفت من حرضه؟ وما أسباب فعلته؟ وما هو الثمن الذى قبضه؟ عمر: كلا، لم أعرف شيئا، ولا أريد أن أعرف، لقد تركته لله. رجاء: إنه لم تمض بعد ثلاثة أيام على لقائك بممثلى الخوارج. عمر: أعرف ذلك، ولو كان لى من الأمر شىء لعزلت يزيد، وذهبت بها للقاسم بن محمد بن أبى بكر، أما الآن فلا. رجاء: ولماذا يا أمير المؤمنين والمؤامرة يكاد يبصرها كل ذى عينين.

عمر: لأن يجتمع المسلمون على حاكم مسلم ترجى توبته خير من أن يتفرقوا شيعا يضرب بعضهم رقاب بعض. رجاء: رأيك صائب يا أمير المؤمنين، ولكن لماذا هذا الغدر اللئيم وهذه الخيانة البشعة؟ لماذا هذا التآمر؟ ما أخبث تلك اليد التى امتدت إليك بهذا الذى تسلل كالأفعى إلى طعامك أو شرابك، وقد عاهدت الله، ثم الناس على أن تكون أقلهم منفعة، وأثقلهم حملا؟ عمر: لا شيء يذهب بلا ثمن يا رجاء، أنا الذى قتلت أو شاركت فى قتل خبيب! وإنى أحس الآن، ورغم كل ما بى من آلام، أنى سعيد بهذا القصاص! ليت خبيب يرضى، ليته يسامحنى، إنى أرجو عفو الله تعالى، وأرجو أن يكون ما وقع لى من قضاء الله بشارة بمغفرة الله وعفوه ورضوانه. رجاء: حتى فى هذه اللحظات لا تنسى ما حدث لخبيب؟!

عمر: وكيف لا، وهذه هى لحظات الذكرى، ولا يمكن لى أن أنساه، اللهم أرضنى بقضائك حتى لا أحب تأخير ما عجلت، ولا تعجيل ما أخرت، يا رب، يا إلهى، يا ذا الجلال والإكرام، أسألك الصفح والمغفرة.

ويدخل مسلمة بن عبد الملك لعيادته:

مسلمة: شفاك الله وعافاك يا أمير المؤمنين. عمر: يبدو أن هذا هو آخر عهدى بكم يا مسلمة. مسلمة: أسأل الله تعالى أن يكون ما ألم بك سحابة صيف عما قليل تنقشع وتتبدد، ولكن يا أمير المؤمنين أليس من الأحوط أن توصى لأبنائك. عمر: وبماذا أوصى، وما عندى من مال؟ مسلمة: يا أمير المؤمنين، هذه مائة ألف دينار أفعل بها ما تشاء، وأوصى بما تحب. عمر: وهل تقبل وصيتى فيها؟ مسلمة: نعم يا أمير المؤمنين. عمر إذن ردها على من أخذت منه ظلما، وادفعها إلى بيت مال المسلمين. مسلمة: يا أمير المؤمنين، إنك فطمت أفواه أولادك عن هذا المال، وتركتهم عالة، ولابد من شيء يصلحهم؟.

عمر: أجلسونى، أجلسونى، إنى لم أمنح أولادى حقا هو لغيرهم، فالمال مال المسلمين، ولا أعطى أولادى حق أحد من أبناء المسلمين. مسلمة: إذن يا أمير المؤمنين، ألا توصى بهم إلى أو إلى نظرائى من أهل بيتك، لنكفيك

مؤونتهم إن شاء الله. عمر: مغضبا، أبالله تخوفنى يـا مسـلمة؟ إن أولادى لا أوصى بهم إليك، أو إلى أحد من نظرائك من أهل بيتى، فإن وصيتى ووليى فيهم هو الله الذى نزل الكتاب، والله يتولى الصـالحين. مسـلمة: أخشـى يـا أمير المؤمنين أن تتركهم بلا مال، وهم أولادك، وعزيز علينا أن نراهم فقراء من بعدك.

عمر: لا تخش شيئا علـى أولادى، إن أولادى هـم أحـد رجلين: رجـل صالح اتقى الله، فسيجعل الله له من أمره يسرا ويرزقه من حيث لا يحتسب، فالله يتولى الصالحين. مسلمة مقاطعا عمر: أتحـب لأحـد أبنـائك حتـى وإن أغرته نزوات الشباب أن يعيش فقـيرا معدمـا لا يجـد مـا يعينـه علـى الحيـاة كأمثاله من أهله وقرابته؟ عمر: إن كان غير صالح فلا أكون من يعينه بالمال على جشعه، وعلى معصية الله تعالى، وأكون بعد موتى شريكه فيما يعمـل، ولذلك فإنى لا أبالى بأى واد هلك.

مسلمة يبكى: يرحمك الله يا أمير المؤمنين، لقـد ألنـت منـا قلوبـا قاسـية، وأبقيت لنا ذكرى فى الصالحين. عمر: شكر الله لـك حسـن ظنـك بـى يـا مسلمة. مسلمة: لى رجاء أخير، يا أمير المؤمنين. عمر: قل يا أخى. مسلمة: لو ذهبت إلى المدينة، فإن قضى الله موتا دفنت فى القبر الرابع مع رسول الله ﷺ وصاحبيه أبى بكر وعمر. عمـر: والله لأن يعذبنـى الله بكـل عـذاب إلا النار، فإنه لا صبر لى عليها أحب إلى من أن أدعى أننى أهل لذلك (يبكـى) ليتنى كنت ظفرا فى قدم أبى بكر، أو شعرة فى جلد عمـر! مسـلمة: رفقـا بنفسك يا أمير المؤمنين، وأرجو أن تغفر لى أنى أثرت مشـاعرك وأحزانـك، مع أنك فى حاجة إلى الراحة وأتركك فى رعاية الله تعالى.

ويسأل عن أحوال المسلمين فى لحظاته الأخيرة:

عمر: يا رجاء، أخبرنى كيف حال المسـلمين فـى جميـع البلـدان؟ رجـاء حزينا: بخير يا أمير المؤمنين. عمر: وكيـف حـال أهـل العـهد؟ رجـاء: كـل الناس بخير. عمر: ما هى آخر أخبار الولاة فى الأمصار؟ هل فيهم من يقسو على أحد من رعيته؟ رجاء: يا أمـير المؤمنـين إنـك فـى حاجـة إلى الراحـة.

عمر: مستمرا فى السؤال عن أحوال الرعية. كيف حال أبناء المهاجرين والأنصار؟ كيف حال أبناء السبيل والفقراء؟ هل يصل الحق إلى أصحابه؟ رجاء: سيدى الجميع بخير، بل إن الزكاة لا تجد فقيرا يأخذها.

عمر: الحمد لله، الحمد لله، (يتهلل وجهه). رجاء: سيدى أرجوك أن تستريح قليلا. عمر: سوف أستريح طويلا يا رجاء، فلا تعجل، أكتب إلى يزيد بن عبد الملك، رجاء يمسك بالقلم ويكتب فى تأثر شديد: سلام عليك، أما بعد، فإنى لا أرانى إلا لما بى، ولا أرى الأمر إلا سيفضى إليك، فالله الله فى أمة محمد ﷺ ، حتى لا تدع الدنيا لمن لا يحمدك، وتذهب إلى من لا يعذرك.

عمر يلقى آخر نظرة على أبنائه:

عمر: يا مزاحم، نعم يا سيدى، وإمامى. عمر: أدخل على أبنائى. يدخل أولاد عمر، ينظر إليهم ويطيل النظر تغرورق عيناه بالدموع. عمر فى تأثر بالغ: يا بنى، إن أباكم خير بين أمرين، بين أن تستغنوا ويدخل أبوكم النار، وبين أن تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة إن شاء الله، فكان أن تفتقروا ويدخل الجنة أحب إليه من أن تستغنوا ويدخل النار، قوموا يا بنى، عصمكم الله ورزقكم، عصمكم الله ورزقكم، عصمكم الله ورزقكم، يخرج الأولاد، ومعهم رجاء ومزاحم. ثم يعود الشيخ رجاء.

عمر: فى لحظاته الأخيرة يردد: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ ويغمض عمر عينيه فى هدوء وإشراق والعاقبة للمتقين.

* * *

سعيد بن المسيب

ما أكرمت العباد أنفسها بمثل طاعة الله، ولا أهانت أنفسها
بمثل معصية الله
ما كان بالمدينة عالم إلا يأتينى بعلمه
ولكن كنت أوتى بما عند سعيد

سعيد بن المسيب

كنيته: أبو محمد. **أبوه:** المسيب بن حزن. **أمه:** أم سعيد بنت حكيم. **أبناؤه:** محمد، سعيد، الياس، أم عثمان، أم عمرو، فاختنة، مريم. من أهل المدينة. من الطبقة الأولى من التابعين.

عاش ومات بالمدينة لم يتحول عنها، توفى سنة أربع وتسعين هـ. فى خلافة الوليد بن عبد الملك، عن خمس وسبعين سنة.

سنة الفقهاء: كان يقال للسنة التى مات فيها سنة الفقهاء لكثرة من مات منهم فيها.

شكله ولباسه الخارجى:

كان سعيد بن المسيب رضى الله عنه أبيض اللون بحمرة، يقول البعض: أنه كان يصفر لحيته كما يقال كذلك: إنه كان أبيض الرأس واللحية، يحفى شاربه أى يقصره شبيهًا بالحلق، لا يدع ظفره يطول، يكره كثرة الضحك، يصلى صلاة التطوع فى رحله، يعتم وعليه قلنسوة لطيفة بعمامة بيضاء لها علم أحمر يرخيها وراءه شبرا، ورآه البعض يعتم بعمامة سوداء ثم يرسلها خلفه، ورأى عليه إزارا وطيلسانا وخفين، ورآه البعض فى عيد الفطر وعيد الأضحى يلبس عمامة سوداء، ويلبس عليها برنسا أحمر أرجوانا. البرنس: هو كل ثوب رأسه منه ملتزق به، رآه البعض يصلى فى نعليه، كان يلبس السراويل، له جميجمة (شعر رأسه) ليست بالكثيرة قد فرقها، يرتدى الخز (أى الصوف النقى).

وقال عمران: ما أحصى ما رأيت على سعيد بن المسيب من عدة قمص غالية، وكان يلبس هذه البرود الغالية البيض، وكان يهتم بذلك ويشتد فى العيدين يوم الفطر ويوم النحر.

صفاته الخلقية:

كان سعيد بن المسيب، رضى الله عنه، مهيبا مهابة أضفاها عليه علمه

الغزير، وكان ودودًا يصافح كل من لقيه فى تواضع ويكره كثرة الضحك. وكانت مدينة الرسول ﷺ أشبه ما تكون بالجامعة فى عصرنا الحاضر.

تعج بالعلماء والفقهاء من صحابة النبى ﷺ وراح سعيد ينهل ويرتشف من هذا النبع الثرى الفياض بقدر ما آتاه الله من رغبة وشوق وحب للعلم والعلماء حتى قال عن نفسه: ما بقى أحد أعلم بكل قضاء قضاه رسول الله ﷺ ، ولا أبو بكر وعمر وعثمان منى.

وسأله سائل عمن أخذ علمه فقال له: إنه أخذه عن زيد بن ثابت، وجالس سعد بن أبى وقاص وابن عباس وابن عمر، ودخل على أزواج النبى ﷺ عائشة وأم سلمة، رضى الله عنهما، كما سمع من عثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالب، ومهيب ومحمد بن مسلمة، رضى الله عنهم أجمعين.

زوجته بنت أبى هريرة:

ومعروف أن أبا هريرة كان أكثر الصحابة مجالسة للرسول ﷺ وحفظًا لأحاديثه، وكان سعيد زوج أبنته لذا نجد معظم روايته المسندة عن أبى هريرة، كما كان يقال عن سعيد: إنه راوية عمر، وذلك لأنه كان أحفظ الناس لأحكامه وأقضيته، رغم أنه لم يدركه، فقد قال عن نفسه: ولدت لسنتين مضتا من خلافة عمر بن الخطاب، وكانت خلافة عمر، رضى الله عنه، عشر سنين وأربعة أشهر.

بل لقد سئل سعيد سؤالاً مباشرًا كما جاء عن بكير بن الأشج، هل أدركت عمر بن الخطاب؟ فقال: لا، ولكنه لشغفه بأحكام عمر وأقضيته وحرصه على تحصيلها حدث عن عمر كما لو كان قد سمعه، فقد ذكر أنه كان يسير الليالى والأيام فى طلب الحديث الواحد.

شهادة عصره عليه: فقيه الفقهاء:

كان وجوه الفقهاء الذين روى عنهم الفقه والحديث من أهل المدينة سبعة هم: سعيد بن المسيب، والقاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق،

وعروة بن الزبير، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث، ابن هشام ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وخارجة بن زيد بن ثابت، وسليمان بن يسار. هؤلاء هم وجوه الفقهاء بالمدينة.

وكان سعيد بن المسيب رأس من بالمدينة فى دهره المقدم على الجميع فى الفتوى ويسمى فقيه الفقهاء، وكان يفتى وأصحاب رسول الله أحياء، وجاء عن مكحول أنه قال: سعيد بن المسيب عالم العلماء.

وقد توالت شهادة علماء عصره بفضله. محمد بن مطعم بن جبير كان يستفتى سعيد بن المسيب، وأبو على بن حسين يقول: سعيد بن المسيب أعلم الناس بما سبقه من الآثار وأفقههم فى رأيه. وميمون بن مهران قال: أتيت المدينة فسألت عن أفقه أهلها، فدفعت إلى سعيد بن المسيب فسألته. وشهاب بن عباد القصرى قال: حججت فأتينا المدينة فسألنا عن أعلم أهل المدينة، فقالوا: سعيد بن المسيب.

وأخبر معن بن عيسى، عن مالك بن أنس قال: كان عمر بن عبد العزيز لا يقضى بقضاء حتى يسأل سعيد بن المسيب. وأرسل عمر إليه إنسانا يسأله فدعاه فجاءه حتى دخل فقال عمر: أخطأ الرسول، إنما أرسلناه يسألك فى مجلسك. ونلحظ هنا أن سعيد بن المسيب ذهب مع السائل إلى عمر بن عبد العزيز، وهو الذى كان يتأبى على عبد الملك بن مروان، فلا ينتقل إليه كما سنرى فيما بعد، وذلك يدل على التقدير الكبير المتبادل بين عمر بن عبد العزيز وسعيد بن المسيب لما اشتهر عن عمر من عدل وتواضع وتقدير كبير واحترام للعلماء والفقهاء.

ولذا نرى عمر بن عبد العزيز كان يقول:ما كان بالمدينة عالم إلا يأتينى بعلمه، وأوتى بما عند سعيد بن المسيب.

وحدث عمران بن عبد الله الخزاعى قال: سألنى سعيد بن المسيب فانتسبت له فقال: لقد جلس أبوك إلى فى خلافة معاوية، فسألنى عن كذا وكذا فقلت له: كذا وكذا. وقال سلام: يقول عمران: والله ما أراه مر على أذنه شيء قط إلا وعاه قلبه يعنى بذلك سعيد بن المسيب.

سعيد والشعر:

ذكرنا أنه متعدد المواهب، قيل: أنه كان يحب أن يسمع الشعر ويطرب له. ولكنه لا ينشده ومن الطريف أن بعض الشعراء استشهدوا به على حبهم، وطلبوا منه الفتوى فى غرامهم، لكنه كذبهم. قال الشاعر جامع بن مرخيه وهو من شعراء الحجاز: سألت سعيد بن المسيب مفتى المدينة هل فى حب ظمياء من وزر؟ فقال سعيد بن المسيب: إنما تلام على ما تستطيع من الأمر، وكأن الشاعر يلحق الحب بالقضاء والقدر الذى لا حيلة فيه، ويزعم أن ابن المسيب قد منحه هذه الفتوى. فبلغ قوله سعيدا فقال: كذب، والله ما سألنى ولا أفتيته بما قال.

وقدمت المدينة امرأة من ناحية مكة، وكانت جميلة فخطبها الناس، وكادت تذهب بعقول أكثرهم، فقال فيها عبيد الله بن عبد الله بن عتبة:

أحبك حبا لو علمت ببعضه لجدت ولم يصعب عليك شديد
وحبك يا أم الصبى مدلهى شهيدى أبو بكر على شهيد
ويعلم وجدى القاسم بن محمد وعروة ما ألفى بكم وسعيد
ويعلم ما أخفى سليمان علمه وخارجة يبدى لنا ويعيد
متى تسألى عما أقول فتخبرى فللحب عندى طارف وتليد

والطريف أن الشاعر قائل هذه الأبيات هو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وهو أحد علماء المدينة السبعة الذين ذكرهم فى قصيدته، فقد ذكر أبو بكر، ويعنى به أبو بكر عبد الرحمن بن الحارث شاهدا على حبه، وأتى بباقى العلماء السبعة شهودا على هذا الحب والوجد الذى دلهه، فجاء بالقاسم بن محمد بن أبى بكر، ثم عروة بن الزبير، ثم سعيد وهو ابن المسيب، ثم سليمان بن يسار، وبعده خارجة بن زيد بن ثابت، أرأيت هذه القضية الغرامية التى حشد لها الشاعر الفقيه كل زملائه فى الفتوى شهودا عليها، ولكن حين بلغت أبياته سعيد بن المسيب قال: والله لقد أمن أن تسألنا، وعلم أنها لو استشهدت بنا لم نشهد له بالباطل عندها.

وذكرنا أن سعيد كان يعظم ما عظم الله، فحينما أنشد قول عمر بن أبى ربيعة:

وغاب قمير كنت أرجو غيوبه ... وروح رعيان ونوم سمر

قال سعيد: ما له قاتله الله. لقد صغر ما عظم الله، يقول الله عز وجل: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس ٣٩] وإن كنا لانوافقه على هذا الرأى فى هذا البيت، فالقمر هنا، وإن كان يعنى به قمر السماء فالتصغير فى هذا المجال ليس للتحقير ولا للتقليل من الشأن ولكنه للتدليل. كما لو كان قمر السماء استجاب لرغبته هو فى أن يختفى ويغيب وتفاعل مع ما فى نفسه فجعل يدلله بقوله: قمير لما يحس به من جمال تعاطفه معه.

ولا يحاسب الشعراء بنظريات الفقهاء. ولكل مشروب وكأس مذاق.. ولا يرتشف كأس الشعر بشفاه الفقهاء وإنما على الفقيه أن يتذوق الشعر إذا نزل لساحته بروح الشعراء.

شخصيته متعددة المواهب!

كان سعيد، رضى الله عنه، إلى جانب علمه وفقهه وفتاويه وقضائه متعدد المواهب فهو عالم بتأويل الأحلام، وذواقة للأدب والشعر.

تأويله الأحلام:

قال محمد بن عمر: كان سعيد بن المسيب من أعبر الناس للرؤيا، أخذ ذلك عن أسماء بنت أبى بكر الصديق، رضى الله عنها، وأخذته أسماء عن أبيها أبى بكر، رضى الله عنه.

روى أن رجلا جاء لسعيد بن المسيب فقال: يا أبا محمد، إنى رأيت رؤيا، قال سعيد: ما هى؟ قال الرجل: رأيت أنى أخذت عبد الملك بن مروان فأضجعته إلى الأرض ثم بطحته، فأوتدت فى ظهره أربعة أوتاد، وانظر إلى فطنة سعيد وألمعيته، قال للرجل: ما أنت رأيت هذه الرؤيا، قال الرجل: بلى أنا رأيتها، قال سعيد: لا أخبرك حتى تخبرنى بالحقيقة، من رأى هذه الرؤيا؟ ووجد الرجل نفسه أمام رجل صادق الفراسة، ولا مفر من أن يصارحه بالحقيقة التى كان يود إخفاءها.

قال الرجل: صاحب الرؤيا هو عبد الله بن الزبير، رآها وهو الذى بعثنى إليك، قال سعيد: لئن صدقت رؤياه، قتله عبد الملك بن مروان، وخرج من صلب عبد الملك أربعة كلهم يكون خليفة. قال الرجل: فدخلت إلى عبد الملك بن مروان بالشام فأخبرته بما ذكر سعيد بن المسيب عن هذه الرؤيا، فسر بذلك، وسألنى عن سعيد وعن حاله فأخبرته، وأمر لى بقضاء دينى، وأصبت منه خيرا.

وحدث شريك بن أبى نمر فقال: قلت لابن المسيب: رأيت فى النوم كأن أسنانى سقطت فى يدى ثم دفنتها، فقال لى سعيد: إن صدقت رؤياك، دفنت من أهل بيتك من هم فى مثل سنك.

وقال رجل لابن المسيب: إنى أرانى أبول فى يدى، فقال له: اتق الله، فإن تحتك ذات محرم، فنظر الرجل، فإذا امرأة بينها وبينه رضاع.

وجاءه رجل آخر فقال: يا أبا محمد، إنى أرى كأنى أبول فى أصل زيتونة، قال سعيد: أنظر من تحتك، تحتك ذات محرم، فنظر الرجل، فإذا امرأته لا يحل له نكاحها.

وجاء آخر فقال: طلبت الولد فلم يولد لى، فقلت لابن المسيب: إنى أرى أنه طرح فى حجرى بيض. فقال له سعيد: الدجاج عجمى، فاطلب سببا إلى العجم. قال الرجل: فتسريت أى تزوجت أعجمية. فولد لى، وكان لا يولد لى.

وهكذا نرى أن الرؤيا إن صدقت كانت بمثابة نافذة تطل على مشارف الغيب، كما أنها قد ترشد إلى ما قد يفيد فى الأنجاب، أو فى تجنب الزواج ممن لا يصح الاقتران بها فى بعض الأحيان.

وكان سعيد يقول للرجل إذا رأى الرؤيا، وقصها عليه خيرا رأيت. خيرا رأيت إن شاء الله.

قال له رجل: يا أبا محمد، إنى رأيت كأنى جالس فى الظل، فقمت إلى الشمس، فقال ابن المسيب: والله لئن صدقت رؤياك، لتخرجن من الإسلام،

قال الرجل: يا أبا محمد، إني أراني أخرجت حتى أدخلت في الشمس فخسلت (رذل وضعف) قال: تكره على الكفر، قال الرجل: فخرج في زمان عبد الملك بن مروان فأسر فأكره على الكفر، فرجع ثم قدم المدينة، فكان يخبر بهذا.

وكان ابن المسيب يقول: التمر في النوم رزق على كل حال، والرطب في زمانه رزق، ورؤية القيد والكبل في النوم تعني الثبات في الدين. وآخر أمد للرؤيا أربعون سنة.

محاسبة النفس:

كان رضي الله عنه شديد محاسبة النفس، يزجرها بشدة كي تلين له وتسلم له قيادها، يروضها بعصيانها وعدم تحقيق رغباتها حتى يطوعها لطاعة الله عز وجل، وها نحن نسمعه وقد دخل الليل، وسكنت الأصوات ونام الغافلون، أو سهروا على غير مرضاة الله تعالى نسمع سعيد بن المسيب يخاطب نفسه بقوله: قومي يا مأوى كل شر، والله لأدعنك تزحفي زحف البعير، فكان يصبح وقدماه منتفخان من طول الوقوف عليهما، والمثول بين يدي الله تعالى، والتضرع إليه، فيقول لنفسه: بذا أمرت ولذا خلقت. وكأنه يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ – ٥٨].

وصلاة الليل لا يعرف حقيقتها، إلا من تذوق حلاوتها؛ لأنها تمثل خلوة الإنسان المؤمن مع ربه عز وجل بعيدا عن ضوضاء النهار وضجيج الحياة والأحياء، قد يشوب الصلاة النهارية شيء من النفاق؛ لأن الناس ينظر بعضهم إلى بعض، وقد يتدخل الشيطان لا فساد صلاة من لا يستعين بالله عليه، أو من تشغله متاعب الحياة ومشاكلها، أو.. أو.. إلخ ما يرد على الذهن.

أما صلاة الليل خاصة في الثلث الأخير منه فلا مجال لنفاق، ولا لتظاهر، ولا لغش أو خداع، فيغلب عليها الصفاء والنقاء، فتقدم للقلب وجبة

روحية وزادا إيمانيا، وقربا من حضرة المولى عز وجل، لذا نسمع الله تعالى يشهد لهم بالإيمان ومن يشهد الله له بالإيمان أيكون فى حاجة إلى أن يشهد له أحد إلا من قبيل التشريف للشاهد والمشهود له

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٥ - ١٧].

وقال سهل بن سعد: جاء جبريل إلى النبى ﷺ فقال: «يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، وأعمل ما شئت فإنك مجزى عنه، واحبب من شئت فإنك مفارقه، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل، وعزه استغناؤه عن الناس».

وما على الإنسان - أيا كانت عقيدته - إلا أن يتأمل ويتفكر فى هذه الآيات وأمثالها، وفى الأحاديث النبوية، ويتدبر فيها حرصا على نفسه هو، وعلى مصيره هو، عسى الله أن يرزقنا ويرزقه لحظة من لحظات الرضا فتتكشف الحقيقة، وينشرح الصدر، ونتذوق جميعا، أى جميع المؤمنين بالله تعالى، حلاوة الإيمان به، ولطف التقرب منه.

وقد رأينا كيف واجه سعيد بن المسيب، رضى الله عنه، نفسه وعمل على تطويعها بالصلاة الليلية، وهو إلى جانب ذلك كان حريصا على الصلاة فى جماعة؛ لأن صلاة الجماعة توحد بين قلوب المسلمين، وتوثق الروابط بينهم فكان يقول: ما فاتتنى فريضة فى جماعة منذ أربعين سنة، وما أذن المؤذن منذ ثلاثين سنة إلا وأنا فى المسجد، كما أنه صلى صلاة الصبح بوضوء العشاء خمسين سنة، ورغم ذلك كان يكثر الاختلاف إلى السوق ويقول: لا خير فيمن لا يجمع الدنيا يصون بها دينه وجسمه ويصل بها رحمه.

أى أنه ليس هناك فجوة وانقطاع بين الدين والدنيا، وما أجمل الدين والدنيا إذا اجتمعا.

المعصية كشف عورة !

حينما نتأمل فى قول سعيد بن المسيب: إن الناس كلهم تحت كنف الله يعملون أعمالهم، فإذا أراد الله عز وجل فضيحة عبد أخرجه من تحت كنفه فبدت للناس عورته.

ما أجمل هذا الكلام وأدقه، وما أروع ما يرسمه من صور أمام أعيننا، المعصية عورة وفضيحة، والطاعة طهرة وستر وفضيلة، ولعل هذا المعنى استخرجه ابن المسيب مما جاء بالقرآن الكريم من وصف المعصية الأولى التى وقعت من أبينا آدم عليه السلام. فقد كان يعيش فى الجنة هو وزوجه فى هدوء نفس وراحة بال تحت كنف الله تعالى، حياة خالية من الجوع والعرى والظمأ، لا يواجهان إلا عدوا واحدا حذرهما الله منه كما جاء بقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه ١١٧ - ١٢٢].

ولسنا فى مجال العتب على أبينا آدم عليه السلام بل نحمد الله على معصية أعقبها من الله اجتباء وتوبة. ونلحظ هنا أن هذه المعصية الأولى كانت هى السبب المباشر للإخراج من كنف الله تعالى فى ستر الجنة، وما أعقب ذلك من كشف العورة، وهذا هو شأن المعصية الأولى، وشأن كل معصية تحدث بعد ذلك من بنى البشر.

فالمعاصى تخرج مرتكبها من تحت كنف الله، وتظهر عورته لنفسه، وللناس كما فعلت مع أبى البشر آدم عليه السلام، فلا يعود مقترف المعصية إلى كنف الله تعالى إلا بتوبة خالصة.

الخوف من النساء:

عن على بن زيد، عن سعيد بن المسيب أنه قال: قد بلغت ثمانين سنة،

وما شيء أخوف عندى من النساء. يقول هذا وقد كاد بصره يذهب. فقالوا له: يا أبا محمد، إن مثلك لا تريده النساء، ولا يريد النساء، قال: هو ما أقول لكم.

قال ذلك وهو شيخ كبير أعمش، ويعجب المرء لهذا التخوف الشديد من كيد النساء خاصة إذا كان هذا الخوف صادرا من عالم تقى ورع فيما بين السبعين والثمانين من عمره. هذا شيء يستدعى التدبر والتأمل والبحث.

إن ابن المسيب لم يعترض على قول من قال له: إن مثلك لا يريد النساء ولا تريده النساء، ورغم هذا يبدى هذا التخوف الشديد، ويقول: هو ما أقول لكم. ترى هل كان مصدر هذا التخوف نابعا مما جاء فى القرآن الكريم، خاصا بوصف كيد النساء فى قصة نبى الله يوسف العفيف ابن العفيف ابن العفيف ابن العفيف على لسان شاهد من أهلها: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف ٢٨].

مع ملاحظة أنه لم يأت فى القرآن الكريم ما ينفى هذا الوصف عن كيد النساء، مما يدل على إقراره وتوثيقه من الله تعالى. ولكن نرى من ناحية أخرى أن الله تعالى وصف كيد فرعون بقوله: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٧].

وجاء وصف كيد الكافرين بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٨]. ووصف كيد الساحر بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩]. ووصف كيد الشيطان نفسه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]. فهل كيد النساء يفوق كيد كل هؤلاء، نعوذ بالله منه.

يفوق كيد فرعون، وكيد السحرة، وكيد الشياطين، إن يوسف عليه السلام استجار بالله من هذا الكيد فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣] إن كيد النساء لا يقتصر فقط على

الأغواء المعروف بل يتعداه إلى مكائد أخرى، وقانا الله شرها.

من نماذجها قصة المرأة والرجل المتعبد الزاهد الذى علقته امرأة غوية، فأرسلت إليه جاريتها تدعوه لشهادة تريدها من سيدتها، فدخل مع الجارية، وكلما دخل بابا أغلقته دونه حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلام وباطية خمر، فقالت: إنى والله ما دعوتك لشهادة، ولكن دعوتك لتقع على أو تقتل هذا الغلام أو تشرب هذا الخمر، فسقته كأسا، فقال: زيدونى، فلم يبرح حتى وقع عليها، وقتل الغلام.

ونلحظ أن هذه القصة، وإن كانت تشير إلى خطورة الخمر، فإنها تشير كذلك إلى خطورة كيد المرأة، وأن الخمر كانت إحدى أسلحتها التى استعملتها مع هذا العابد الزاهد. أردنا من كل ذلك أن نشير إلى أن مخاوف سعيد بن المسيب، رضى الله عنه، كان لها ما يبررها رغم أنه قال قولته تلك وهو شيخ كبير طاعن فى السن لا يريد النساء، ولا تريده النساء.

لا رهبنة فى الإسلام:

قيل: إن سعيد بن المسيب كان يسرد الصوم، وقيل: إنه كان يصوم الدهر، بمعنى أنه كان كثير الصوم، وكان يفطر أيام التشريق، أى فى أيام العيد. ونحن نعرف أن الإسلام لم يفرض إلا شهرا واحدا يسمى بشهر الصبر، وهو شهر رمضان المعظم، الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس. ونعلم أيضا أن الرسول عليه السلام اعترض على مجموعة من الشباب اتفقت فيما بينها على سبيل المنافسة أن يتسابق كل منهم فى ضرب من ضروب العبادة، فقال أحدهم: أصوم ولا أفطر، وقال آخر: وأنا أقوم الليل ولا أنام، وقال ثالث: وأنا لا أتزوج النساء، وانقطع إلى عبادة الله تعالى دون شاغل يشغلنى من زوجة أو أولاد.

وسارع النبى عليه السلام بالقضاء على هذا الاتجاه المغالى فيه فقال: «ما بالكم تقولون كذا.. وكذا، إنى أصوم وأفطر، وأقوم من الليل وأنام، وأتزوج النساء، هذه هى سنتى، ومن رغب عن سنتى فليس منى». أو كما قال ﷺ.

سارع الرسول إلى هذا التنبيه مخافة أن تنتشر هذه الأفكار الجماعية فتشجع غيرها على مثل ذلك، فيظن أن هذه الأفكار المغالى فيها من قواعد الإسلام ومن فرائضه، وهى ليست كذلك، فالله تعالى يقول فى كتابه الكريم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٢].

أما أن يجد أحد المسلمين على النطاق الفردى، وطبقا لظروف خاصة به أن يصوم ما يشاء من أيام فى غير رمضان، وفى غير أيام الأعياد، أو أن يقوم من الليل ما يشاء، أو حتى يعزف عن الزواج لأسباب هو أدرى بها، فليس فى هذا المسلك جرما يعاقب عليه الإسلام.

أن يجد مسلم حلاوة العبادة فى الصلاة كما كان يجد فيها رسول الله ﷺ وصحابته والتابعين من بعده كسعيد بن المسيب، فلا ضير فى ذلك، بل إن الله تعالى حبب فى ذلك وكان الرسول يقول: «جعلت قرة عينى فى الصلاة». وكان يصلى بالليل حتى تتورم قدماه، وحينما أشفقت عليه أم المؤمنين عائشة وقالت له: لم كل ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر أجابها بقوله: «أفلا أكون عبدا شكورا».

وعلى هذا المنوال حاول سعيد بن المسيب أيضا، فكان يصلى حتى تتورم قدماه.. وكان يكثر من الصوم كذلك لما به من مزايا ضبط النفس وكسر شهواتها وتطويعها على الطاعة وحسن الخلق.. وقد حدث أبو هريرة - والد زوجة سعيد - عن رسول الله ﷺ أنه قال: قال الله عز وجل: «كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به، والصيام جنة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث، ولا يصخب، ولا يجهل». «فإن شاتمه أحد أو قاتله فليقل: إنى صائم مرتين، والذى نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله يوم القيامة من ريح المسك». وللصائم فرحتان يفرحهما: «إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقى ربه فرح بصومه». والأحاديث فى فضل الصيام كثيرة، وكذلك فى فضل قيام الليل.

جوهر العبادة:

جاء مولى لسعيد بن المسيب يدعى برد، فقال: ما رأيت أحسن ما يصنع هؤلاء! قال سعيد: ماذا يصنعون؟ قال برد: يصلى أحدهم الظهر، ثم لا يزال صافا رجليه يصلى حتى العصر! قال سعيد: ويحك يا برد، أما والله ما هى بالعبادة، أتدرى ما العبادة؟ إنما العبادة التفكر فى أمر الله، والكف عن محارم الله.

اقراره بالنقص البشرى:

كان رضى الله عنه يقول: ليس من شريف ولا عالم ولا ذى فضل إلا وفيه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغى أن تذكر عيوبه، فمن كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله.

الرفق بالمذنبين:

كان ينصح بالتستر على المذنب حتى لو رؤى على معصية، وأن يعامل بالرفق والموعظة الحسنة بالأسلوب الذى حدده الله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل ١٢٥]، سأله أحد الناس قائلا: لو وجدت رجلا سكرانا فهل يسعنى ألا أرفع أمره إلى السلطان؟ قال له سعيد: إن استطعت أن تستره بثوبك فأفعل، قال الرجل: فرجعت إلى البيت، فإذا الرجل قد أفاق، فلما رآنى عرفت فيه الحياء، فقلت: أما تستحى؟ لو أخذت البارحة لأقيم عليك الحد، فكنت فى الناس مثل الميت لا تجوز لك شهادة، فقال: والله لا أعود له أبدا، فرأيته قد حسنت حاله بعد.

وهذا هو هدى الإسلام بشرط أن توضع العقوبات التى قررها الشارع الإسلامى موضع التطبيق لتردع المصرين على المخالفة والإستهتار بما أراده الله تعالى للناس وللمجتمع الإسلامى من طهر وعفة وفضيلة، فليس من الحرية الشخصية أن يترك المجاهرون بالمعاصى فى الطرقات، وفى وسائل النقل العامة، أو الخاصة فى شهر رمضان وفى غيره، ولنتأمل ما حولنا وهو كثير بدءا من التدخين فى أماكن التجمعات الكبيرة والصغيرة دون اعتبار

للأضرار التى تلحق بالغير من الشباب والشيوخ والنساء، إلى ما هو أشد من ذلك مما يؤثر على اضمحلال القيم الإسلامية فى النفوس، وارتفاع قيم أخرى هابطة ترتبط بالتكالب على الحياة المادية فيقدر الإنسان بقيمة ما فى جيبه من مال مثلا: معك قرش تساوى قرش، معك جنيه تساوى جنيه، وهكذا. والحديث يطول والشباب فى حاجة إلى رعاية أكثر، والمجتمع محتاج إلى إعادة ترتيب وتنظيم، وقواعد الإسلام مرنة والدولة بعون الله قادرة على تطبيق أحكام الإسلام بلا مغالاة أو تفريط بما يكفل الأمن والأمان للجميع وإعطاء كل ذى حق حقه.

والإسلام يحرص على حقوق المسلمين أكثر من أى تشريع آخر حتى على مستوى العالم، ويكفى لأى منصف أن ينظر لحال المسلمين خارج بلاد الإسلام ويقارنها بحال غير المسلمين فى دول الإسلام، وما يحدث لهؤلاء وأولئك من اضطهاد وتعذيب وإبادة جماعية هناك، وحياة رغيدة آمنة هنا، وليس ذلك منة أو تفضلا من المسلمين كأفراد على أحد، ولكنه يرجع إلى أن هذا الأمن والأمان الذى يتمتع به غير المسلمين فى بلاد الإسلام إنما هو أمر من الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

أرأيت هذا التركيز على العدل والأمر به، أى لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم. بل استعملوا العدل فى كل أحد صديقا كان أو عدوا.

مما يطمئن الجميع أيا كانت جنسياتهم أو دياناتهم، تعظيم ما عظم الله.

كان ابن المسيب، رضى الله عنه، يعظم ما عظم الله تعالى، فكان يرفض تصغير كلمة «مسجد»، أو كلمة «مصحف»، ويقول فى ذلك: لا تقولن: «مصيحف» ولا «مسيجد» ولكن عظموا ما عظم الله، وكل ما عظم الله فهو عظيم حسن. والله تعالى عظم العدل، والمسلمون هم أولى الناس وأحق الناس بتعظيمه.

تعرض فقيه الفقهاء وعالم العلماء الذى كان يستأذن عليه لهيبته وعلمه

كما يستأذن على الأمراء تعرض لمحنة عظيمة وبلاء شديد

كتب عبد الملك بن مروان إلى هشام بن إسماعيل المخزومى أن يدعو الناس لبيعة الوليد وسليمان، وبايع الناس، إلا سعيد بن المسيب فأبى، وقال: لا أبايع وعبد الملك حى، فضربه هشام ضربا مبرحا خمسين سوطا، وأقامه بالحرة وألبسه تبان (ثوب غليظ من الصوف) شعر وسرحوه إلى منطقة بالمدينة كانوا يقتلون عندها ويصلبون، فظن سعيد إنهم يريدون قتله، فلما عادوا به قال: لو ظننت أنهم لا يصلبوننى ما لبست لهم التبان، ولكن قلت يصلبوننى فيسترنى، وبلغ عبد الملك خبر سعيد، وما فعل به فقال: قبح الله هشاما! إنما كان ينبغى أن يدعوه إلى البيعة فإن أبى يضرب عنقه، أو يكف عنه.

ويعجب المرء لما يحدث من تغير وتقلب فى بعض النفوس البشرية. عبد الملك بن مروان هذا الذى ضرب عامله فقيه الفقهاء سعيد بن المسيب يقول عنه السيوطى: ؟كان عابدا زاهدا ناسكا فى المدينة قبل الخلافة؟، وقال عنه نافع: لقد رأيت المدينة وما بها شاب أشد تشميرا وأكثر جدية ولا أفقه ولا أنسك ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان الذى عرف بأنه حمامة المسجد لمداومته على تلاوة القرآن، فما الذى حدث لحمامة المسجد التى تحولت إلى نسر جارح بعد الخلافة تعذب الحمامة الحقيقية الماكثة فى المسجد العاكفة على القرآن الكريم والصلاة طوال الوقت.

لقد ذبحت شاة وسلخت ووضع إهابها على ظهر سعيد، وقدموا له علفا رطبا للدواب إمعانا فى مهانته، وكان كلما نظر إلى عضديه قال: اللهم أنصرنى من هشام. دخل عليه فى سجنه أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فجعل يقول لسعيد: إنك لم تحسن فى تعاملك مع هشام، وسعيد يقول له: يا أبا بكر أتق الله وآثره على ما سواه، وأبو بكر يردد عليه قائلا، إنك لم ترفق، إنك لم ترفق حتى ضاق سعيد وانفجر فيه قائلا: إنك والله أعمى البصر، أعمى القلب. فخرج من عند سعيد واتصل به هشام بن إسماعيل عامل عبد الملك على المدينة، فقال له: هل لان سعيد بن

المسيب منذ ضربناه؟ فقال أبو بكر: والله ما كان أشد لسانا منه منذ فعلت به ما فعلت فأكفف عن الرجل.

قبيصة يتوسط لسعيد:

دخل قبيصة بن ذؤيب على عبد الملك بن مروان بكتاب هشام بن إسماعيل يذكر أنه ضرب سعيدا وطاف به، قال قبيصة: يا أمير المؤمنين، يفتات عليك هشام بمثل هذا، يضرب ابن المسيب ويطوف به، والله لا يكون سعيدا أبدا إلا أشد معارضة حين يضرب، سعيد لو لم يبايع ما كان يكون منه، سعيد ليس ممن يخاف انشقاقه، ولا تخاف غوائله على الإسلام وأهله، إنه لمن أهل الجماعة والسنة، اكتب إليه يا أمير فى ذلك، فقال عبد الملك: أكتب أنت إليه تخبره بحسن رأيى فيه، وأخبره بأن هشاما لم يضربه بأمر منى، وكتب قصيبة إلى سعيد بذلك، فقال سعيد عندما قرأ الكتاب: الله بينى وبين من ظلمنى.

وجاء كتاب من عبد الملك بن مروان إلى هشام بن إسماعيل، يلومه فى ضرب سعيد بن المسيب ويقول: ما ضرك لو تركت سعيدا، ووطئت ما قال، وندم هشام بن إسماعيل على ما صنع بسعيد، فخلى سبيله، خلى سبيله بعد أن ألبسه جلد شاة!

وصنعت له ابنته طعاما كثيرا حين حبس، فبعث به إليه فلما جاء الطعام دعا سعيد أسلم، مولى بنى مخزوم، وكان ثقة، فقال له: اذهب إلى ابنتى فقل لها: لا تعودى لمثل هذا أبدا، فهذه حاجة هشام بن إسماعيل يريد أن يذهب مالى فأحتاج إلى ما بأيديهم، وأنا لا أدرى ما أحبس، فانظرى إلى القوت الذى كنت آكل فى بيتى. فابعثى إلى به، فكانت تبعث إليه بذلك.

وحدث عمران بن عبد الله الخزاعى قال: إنى أرى أن نفس سعيد بن المسيب كانت أهون عليه فى ذات الله من نفس ذبابة.

تحذيره من النظر إلى الظلمة:

كان ابن المسيب يقول: لا تملؤا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بالإنكار

من قلوبكم لكى لا تحبط أعمالكم الصالحة. وحين منع الناس من الجلوس إليه، كان يقول لهم: لا أحد يجالسنى فإنهم قد جلدونى ومنعوا الناس من مجالستى، فيرجع الناس عنه.

وترك حقه فى بيت المال:

وكان عطاؤه فى بيت المال بضعة وثلاثون ألفا، فكان يدعى إليها فيأبى ويقول: لا حاجة لى فيها حتى يحكم الله بينى، وبين بنى مروان. وقيل له: ادع على بنى أمية، فقال: اللهم أعز دينك، وأظهر أولياءك، واخز أعداءك فى عافية لأمة محمد، وكان إذا سئل عن هؤلاء القوم قال: أقول فيهم ما قولنى ربى، ربنا أغفر لنا ولأخواننا. وسئل: لماذا لا يبعث لك الحجاج ولا يحركك ولا يؤذيك؟ قال: والله لا أدرى، إلا أنه دخل ذات يوم مع أبيه المسجد فصلى فجعل لا يتم ركوعها، ولا سجودها، فأخذت كفا من حصى فحصبته بها، زعم أن الحجاج قال: ما زلت بعد ذلك أحسن الصلاة.

تأبيه على عبد الملك بن مروان:

حج عبد الملك بن مروان، فلما قدم المدينة، وقف على باب المسجد فأرسل حاجبه إلى سعيد بن المسيب يدعوه ولا يجبره، فأتاه الرسول وقال له: أمير المؤمنين واقف بالباب يريد أن يكلمك، فقال: ما لأمير المؤمنين إلى حاجة، وما بى إليه حاجة، وإن حاجته إلى غير مقضية. فرجع الرسول فأخبره بذلك، فقال عبد الملك: ارجع إليه، فقل: إنما أريد أن أكلمك، ولا تكرهه وتجبره، فرجع الحاجب إليه، فقال له: أجب أمير المؤمنين، فقال له سعيد: ما قال له أولا، فقال له الرسول: لولا أنه تقدم إلى فيك، وقال: لا تجبره ما ذهبت إليه إلا برأسك، يرسل إليك أمير المؤمنين يكلمك فتقول مثل هذه المقالة، فقال سعيد: إن كان يريد أن يصنع بى خيرا فهو لك، وإن كان يريد غير ذلك فلا أحل حبوتى حتى يقضى ما هو قاض، إنى لست من حداث أمير المؤمنين، فأتاه فأخبره، فقال: رحم الله أبا محمد، أبى إلا الصلابة، فلما استخلف الوليد بن عبد الملك قدم المدينة، فدخل المسجد

فرأى شيخا قد اجتمع الناس عليه، فقال: من هذا؟ قالوا: سعيد بن المسيب، فلما جلس أرسل إليه فأتاه الرسول فقال: أجب أمير المؤمنين. قال سعيد: لعلك أخطأت باسمى، أو لعله أرسل إلى غيرى.

فأتى الرسول فأخبر الوليد بما قال سعيد فغضب، وهم أن يبطش به. وكان فى الناس يومئذ بقية، فأقبل عليه جلساؤه، فقالوا: يا أمير المؤمنين، فقيه أهل المدينة، وشيخ قريش، وصديق أبيك، لم يطمع ملك قبلك أن يأتيه، فما زالوا به حتى أضرب عنه وتركه.

إن قيمة المؤمن عند الله عظيمة قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]. فمتى نعاود قراءة التاريخ، دون أن يتملكنا أو يستحوذ علينا الأعجاب بالباطشين.

وكان مستجاب الدعوة:

حدث على بن زيد، وكان كفيفا، قال: قال لى سعيد: قل لقائدك يقوم فينظر إلى وجه هذا الرجل وجسده، فانطلق فنظر فإذا رجل أسود الوجه، فجاء القائد، فقال: رأيت وجه زنجى، ولكن جسده أبيض، فقال سعيد: إن هذا الرجل سب هؤلاء الرهط، سب طلحة والزبير وعليا، فنهيته عن ذلك فأبى، فدعوت عليه فقلت: إن كنت كاذبا فسود الله وجهك، فخرجت بوجهه قرحة فاسود وجهه.

وله تجربة أخرى مع ديك. كان يستيقظ لقيام الليل على صياحه، وذات ليلة لم يصح الديك، ولم يستيقظ شيخنا سعيد، رضى الله عنه، فى الموعد المحدد، فدعا على الديك، فمات على الفور، فقرر ألا يدعو على الديكة فيما بعد، ولا على أى شىء آخر.

وربما كان هذا الديك سيئ الحظ، وكان أحرى بشيخنا أن يذبحه ويأكله حلالا بلالا، ويقتنى ديكا غيره أكثر طاعة، بدلا من أن يدعو عليه فيموت تلك الميتة الفورية، التى لا ذنب له فيها فما ذنبه، وقد ضرب الله على أذنه كما ضرب على أذن سيدنا بلال، رضى الله عنه، فنام حتى استيقظ

الجميع، ومعهم رسول الله ؟ على غمزة الشمس ولما عاتبه الرسول مداعبا: «لماذا لم توقظنا يا بلال»؟قال: ضرب على أذني الذى ضرب على آذانكم يا رسول الله، وضحك الجميع وأذن بلال بعد شروق الشمس وصلوا خلف رسول الله ﷺ مرتاحة ضمائرهم.

خشيته:

جاء رجل إليه وهو مريض، فسأله عن حديث وهو مضطجع فجلس فحدثه، فقال الرجل: وددت لو أنك لم تنهض وتتعب نفسك وأنت في حالة مرضك، قال سعيد: إني كرهت أن أحدثك عن رسول الله ؟ وأنا مضطجع، وكان يقول: ما أكرمت العباد أنفسها بمثل طاعة الله عز وجل، ولا أهانت أنفسها بمثل معصية الله، وكفى بالمؤمن نصرة من الله عز وجل، أن يرى عدوه يعمل بمعصية الله.

وكان يقول: أن الدنيا نذالة وهي إلى كل نذل أميل، وأنذل منها من أخذها بغير حقها، وطلبها بغير وجهها، ووضعها في غير سبلها. وكان يكثر أن يقول: اللهم سلم سلم.

وفاته:

اشتكى سعيد بن المسيب، رضى الله عنه، واشتد وجعه، فدخل عليه نافع ابن جبير بن مطعم يعوده، فأغمى عليه، قال نافع: وجهوا فراشه إلى القبلة، ففعلوا فأفاق سعيد فقال: من أمركم أن تحولوا فراشي إلى القبلة، لعل نافع ابن جبير أمركم بذلك؟ قال نافع: نعم أنا فعلت ذلك، قال سعيد: لئن لم أكن على القبلة والملة لا ينفعني توجيهكم فراشي ألست امرءا مسلما وجهي إلى الله حيثما كنت؟ إني ولدت على القبلة، وعليها أموت، وعليها أبعث إن شاء الله، يا زرعة بن عبد الرحمن، إني أشهدك على ابني محمد لا يؤذنن بي أحدا، حسبي أربعة يحملوني إلى ربي، ولا تتبعني صائحة تقول في ما ليس في، واتجه إلى الله تعالى فقال: اللهم إنك تعلم أني ما تركت من دنانير حبا في الدنيا، إني لم أتركها إلا لأصون بها حسبي وديني.

مات سعيد بن المسيب، ورش على قبره الماء، مات بالمدينة سنة أربع

وتسعين، فى خلافة الوليد بن عبد الملك، وهو ابن خمس وسبعين سنة، وكان يقال لهذه السنة التى مات فيها: سنة الفقهاء لكثرة من مات منهم فيها.

قالوا: وكان سعيد بن المسيب جامعا ثقة كثير الحديث، ثبتا فقيها مفتيا مأمونا ورعا عاليا رفيعا.

* * *

أويس بن عامر القرنى

«إن رجلاً يأتيكم من اليمن يقال له: أويس لا يدع باليمن غير أمٍّ له، قد كان به بياض، فدعا الله تعالى فأذهبه عنه ، إلا مثل موضع الدينار أو الدرهم ، فمن لقيه منكم فمروه فليستغفر لكم».

عن النبى ﷺ

مقدمة للتعريف برجل مغمور
من هو؟ ومن أين؟ وكيف كان يعيش؟!

كان رجلاً خامل الذكر، لا يهتم به أحد، ولا يسعى لمعرفة شىء عن أحد، ولولا أن الرسول ﷺ ذكره ما ذكره أحد، حدث عنه الرسول دون أن يلتقى به على أرض الواقع. ولا عجب فى ذلك، ولا غرابة فى أن يحدث، ولا يكفى فى كيف ينبئ عنه دون أن يرى أحدهما الآخر.

إن الذى أوحى إلى خاتم أنبيائه ورسله بأعجب الأخبار وأصدقها عن السماء وأهلها لقادر على أن يوحى إليه ما يشاء عن أهل الأرض، يرفع الستر فيكشف ما يشاء لمن يشاء. فما هى الحكمة فى أن ترفع الستار عن بعض ما خفى عن أعين البشر فيتألق ما كان خافيا ويصبح ملء السمع والبصر؟

قد تكون الحكمة هى تركيز الضوء على آية من آيات الله تعالى وقدرته فيبدو لنا ما نعبر عنه أحيانا بأنه يضع سره فى أضعف خلقه، وقد تكون الحكمة هى لفت الأنظار الشاردة الضالة إلى أن أقدار الناس عند الله لا تقاس بأقدارهم عند بعضهم البعض، فرب مغمور مطمور عند الناس، ولكنه عند الله متألق مشهور، ولا حرج على فضل الله أن يرفع ما يبدو خسيسًا، أو أن يضع ما يبدو لعيون الناس غاليًا ونفيسًا.

وهذا ما حدث لبطل هذه الصفحات فما أن تحدث عنه النبى ﷺ حتى أصبح ملء السمع والبصر. وأصبح يوصف بأنه سيد العباد، وعلم الأصفياء من الزهاد، ويسعى للتعرف عليه كبار الصحابة، وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فقد أصبح بعد حديث رسول الله ﷺ عنه نموذجًا عاليًا للعبادة والزهادة.

* * *

أويس بن عامر القرنى

بشر به النبى ﷺ وأوصى به أصحابه، يوصف بأنه سيد العباد، وعلم الأصفياء من الزهاد، فقد كان نموذجًا عاليًا للعبادة والزهادة.

عن أسير بن جابر قال: كان محدث بالكوفة يحدثنا، فإذا فرغ من حديثه يقول: تفرقوا ويبقى رهط فيهم رجل يتكلم بكلام لا أسمع أحدًا يتكلم بكلامه، فأحببته ففقدته، فقلت لأصحابى: هل تعرفون رجلاً كان يجالسنا كذا وكذا؟ فقال رجل من القوم: نعم أنا أعرفه، ذاك أويس القرنى، قلت: أفتعرف منزله؟ قال: نعم، فانطلقت معه حتى جئت حجرته فخرج إلىّ، قلت: يا أخى، ما حبسك عنا؟ قال: حبسنى العرى، وكان أصحابه يسخرون به ويؤذونه، قلت له: خذ هذا البرد فالبسه، قال: لا تفعل، فإنهم إذن يؤذوننى إذا رأوه، فلم أزل به حتى لبسه فخرج عليهم، فقالوا: من ترون خدع عن برده هذا؟ فجاء أويس فخلع البرد فوضعه، وقال: أرأيت ما حدث لى؟ فغضب أسير بن جابر، وجاء إلى مجلس القوم معاتبا، فقال: ماذا تريدون من هذا الرجل؟ لقد آذيتموه، الرجل يعرى مرة، ويكتسى مرة، أتركوه ما شأنكم به، إنه لم يؤذ أحدا منكم كما آذيتموه، واتهمتموه بالخديعة والحيلة، وأخذتهم بلسانى أخذا شديدا.

وفد الكوفة إلى عمر:

وفى عهد عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، جاء وفد أهل الكوفة إلى عمر، فوجد رجل ممن كان يسخر بأويس، قال عمر: هل هنا أحد من القرنيين؟ فجاء ذلك الرجل فقال: أنا، قال عمر: إن رسول الله ﷺ قد قال: «إن رجلا يأتيكم من اليمن يقال له: أويس، لا يدع باليمن غير أم له، وقد كان به بياض فدعا الله تعالى فأذهبه عنه، إلا مثل موضع الدينار أو الدرهم، فمن لقيه منكم، فمروه فليستغفر لكم». قال عمر: فقدم علينا، فقلت: من أين؟ قال: من اليمن، قلت: ما اسمك؟ قال: أويس، قلت: فمن تركت باليمن؟ قال: أما لى، قلت: أكان بك بياض فدعوت الله فأذهب عنك؟ قال: نعم، قلت: فاستغفر لى، قال: أو يستغفر مثلى لمثلك يا أمير المؤمنين، قال عمر: فاستغفر لى. قلت، أى عمر: أنت أخى فلا تفارقنى، قال عمر:

فأنملس منى، أى تفلت وذهب و لم يعد.

وأنبئت أنه قدم عليكم الكوفة، فجعل ذلك الرجل الذى كان يسخر منه يحقره ويقول لعمر: ما هذا فينا ولا نعرفه، قال عمر: بلى إنه رجل وصفه لنا الرسول ﷺ ، وهو رجل حق، قال الرجل أخيرا: فينا رجل يا أمير المؤمنين، يقال له أويس، قال عمر: أدرك ولا أراك تدرك، وانطلق الرجل حتى دخل على أويس قبل أن يأتى أهله!

قال له أويس: ما هذه بعادتك فما بدا لك؟ قال: سمعت عمر يقول كذا وكذا، فاستغفر لى يا أويس، قال أويس: لا أفعل حتى تجعل لى عليك أن لا تسخر بى فيما بعد، وأن لا تذكر الذى سمعته من عمر إلى أحد، فاستغفر له، وما لبث أن فشا أمره بالكوفة، ودخل عليه أسير بن جابر فقال له: أأنت على هذه الحال ونحن لا نشعر؟ قال أويس: ما كان فى هذا ما أتبلغ به فى الناس! وما يجزى كل عبد إلا بعمله. ثم تفلت منهم أويس، وخرج و لم يعد لهم بعدما عرف عنه من لقائه بعمر بن الخطاب، رضى الله عنه.

وصف الرسول لأويس القرنى:

قال رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة، إن الله تعالى يحب من خلقه الأصفياء الأخفياء الأبرياء، الشعثة رؤوسهم، المغبرة وجوههم الخمصة بطونهم إلا من كسب الحلال، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم، وإن خطبوا المتنعمات لم ينكحوا، وإن غابوا لم يفتقدوا، وإن حضروا لم يدعوا، وإن طلعوا لم يفرح أطلعتهم، وإن مرضوا لم يعادوا، وإن ماتوا لم يشهدوا». قالوا: يا رسول الله، كيف لنا برجل منهم؟ قال: «ذاك أويس القرنى». قالوا: وما أويس القرنى؟ قال: «أشهل – فى عينه حمرة – ذا صهوبة – حمرة أو شقرة فى الشعر – بعيد ما بين المنكبين، معتدل القامة، ضارب بذقنه إلى صدره، رام بذقنه إلى موضع سجوده، واضع يمينه على شماله، يتلو القرآن يبكى على نفسه ذو طمرين لا يؤبه له، متزر بإزار صوف، ورداء صوف، مجهول فى أهل الأرض، معروف فى أهل السماء لو أقسم على الله لأبر قسمه، ألا وإن تحت منكبه الأيسر لمعة بيضاء، ألا وأنه إذا كان يوم

القيامة قيل للعباد ادخلوا الجنة، ويقال لأويس: قف فأشفع فيشفع الله، عز وجل فى مثل عدد ربيعة ومضر، يا عمر، ويا على، إذا أنتما لقيتماه فاطلبا إليه أن يستغفر لكما»، فمكثا يطلبانه عشر سنين لا يقدران عليه.

فلما كان فى آخر السنة التى هلك فيها عمر فى ذلك العام، قام على أبى قبيس فنادى بأعلا صوته: يا أهل الحجيج من أهل اليمن، أفيكم أويس من مراد؟ فقام شيخ كبير طويل اللحية فقال: إنا لا ندرى ما أويس؟ ولكن ابن أخ لى يقال له: أويس، وهو أخمل ذكرا، وأقل مالا وأهون أمرا من أن نرفعه إليك، وإنه ليرعى إبلنا، حقير بين أظهرنا، فعمى عليه عمر كأنه لا يريده، قال عمر: أين ابن أخيك هذا؟ أبحرسنا هو؟ قال الرجل: نعم، قال عمر: وأين يصاب؟ قال: بأراك - القطعة من الأرض - عرفات - قرب نمرة - فركب عمر وعلى سراعا إلى عرفات، فإذا هو قائم يصلى إلى شجرة، والإبل حوله ترعى، فشدا دابتيهما ثم أقبلا إليه فقالا: السلام عليك ورحمة الله، فخفف أويس الصلاة، ثم قال: السلام عليكما ورحمة الله وبركاته، قالا: من الرجل؟ قال: راعى إبل وأجير قوم، قالا: لسنا نسألك عن الرعاية ولا الإجارة، ما اسمك؟ قال: عبد الله، قالا: قد علمنا أن أهل السموات والأرض كلهم عبيد الله، فما أسمك الذى سمتك أمك؟ قال: يا هذان، ما تريدان إلى، قالا: وصف لنا محمد ؟ أويسا القرنى، فقد عرفنا الصهولة والشهولة، وأخبرنا أن تحت منكبك الأيسر لمعة بيضاء فأوضحها لنا، فإن كان بك فأنت هو.

فأوضح منكبه فإذا اللمعة، فابتدراه يقبلانه، قالا: نشهد إنك أويس القرنى، فاستغفر الله لنا يغفر الله لك، قال: ما أخص باستغفارى نفسى، ولا أحدا من ولد آدم، لكنه فى البر والبحر، فى المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، يا هذان، قد أشهر الله لكما حالى، وعرفكما أمرى، فمن أنتما؟ قال على، رضى الله عنه: أما هذا فعمر أمير المؤمنين، وأما أنا فعلى بن أبى طالب، فاستوى أويس قائما وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، وأنت يا ابن أبى طالب فجزاكما الله عن هذه

الأمة خيرا، قالا: وأنت جزاك الله عن نفسك خيرا، فقال له عمر: ابق في مكانك يرحمك الله حتى أدخل مكة فآتيك بنفقة من عطائي، وفضل كسوة من ثيابي، قال: يا أمير المؤمنين، لا ميعاد بيني وبينك، لا أراك بعد اليوم تعرفني، ما أصنع بالنفقة؟ ما أصنع بالكسوة؟ أما ترى على إزارا من صوف، ورداء من صوف، متى تراني أخرقهما؟ أما تراني، إني قد أخذت من رعايتي أربعة دراهم متى تراني آكلها؟.

يا أمير المؤمنين، إن بين يدي ويديك عقبة كؤودا لا يجاوزها إلا ضامر مخف مهزول، فأخف يرحمك الله، فلما سمع عمر ذلك من كلامه ضرب بدرته الأرض، ثم نادى بأعلا صوته، ألا ليت أم عمر لم تلد عمرا، يا ليتها كانت عاقرا لم تعالج حملها، ألا من يأخذ الخلافة بما فيها ولها؟ ثم قال أويس: يا أمير المؤمنين، خذ أنت هاهنا حتى آخذ أنا هاهنا، فولى عمر ناحية مكة، وساق أويس إبله فوافى القوم إبلهم وخلى عن الرعاية، وأقبل على العبادة حتى لحق بالله عز وجل.

كيف الزمان عليك؟

مر رجل من مراد على أويس القرني فقال له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت أحمد الله، قال: كيف الزمان عليك؟ قال: كيف الزمان على رجل إن أصبح ظن أن لا يمسي، وإن أمسى ظن أن لا يصبح، فمبشر بالجنة، أو مبشر بالنار، يا أخا مراد، إن الموت وذكره لم يدع لمؤمن فرحا، وإن علمه بحقوق الله لم يترك له في ماله فضة ولا ذهب، وإن قيامه بالحق لم يترك له صديقا.

زهده في الملبس:

عن محارب بن دثار، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أمتي من لا يستطيع أن يأتي مسجده أو مصلاه من العري، يحجزه إيمانه أن يسأل الناس، منهم أويس القرني وفرات بن حيان».

التصدق بالثياب:

كان أويس القرنى ليتصدق بثيابه حتى يجلس عريانا لا يجد ما يروح فيه إلى صلاة الجمعة.

حدث ابن بشير، عن عمرو، عن أبيه، قال: كسوت أويسا القرنى ثوبين من العرى.

لقاء هرم بن حيان وأويس القرنى:

قال هرم بن حيان قدمت الكوفة، فلم يكن لى هم إلا أويس أسأل عنه، فدفعت إليه بشاطئ الفرات يتوضأ ويغسل ثوبه، فعرفته بالنعت، فإذا هو رجل آدم محلوق الرأس، كث اللحية، مهيب المنظر فسلمت عليه ومددت إليه يدى لأصافحه، فأبى أن يصافحنى؛ فخنقتنى العبرة لما رأيت من حاله. فقلت: السلام عليك يا أويس، كيف أنت يا أخى؟ قال: وأنت فحياك الله يا هرم بن حيان، من دلك على؟ قلت: الله عز وجل، قال: سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا، قلت: يرحمك الله من أين عرفت اسمى واسم أبى؟ فوالله ما رأيتك قط ولا رأيتنى، قال: عرفت روحى روحك حيث كلمت نفسى؟ لأن الأرواح لها أنفس كأنفس الأجساد، وإن المؤمنين يتعارفون بروح الله عز وجل، وإن ناءت بهم الدار، وتفرقت بهم المنازل، قلت: حدثنى عن رسول الله ﷺ حديثا لأحفظه عنك، قال: إنى لم أدرك رسول الله ﷺ ولم يكن لى معه صحبة، وقد رأيت رجالا رأوه، وقد بلغنى عن حديثه كبعض ما يبلغكم ولست أحب أن أفتح هذا الباب على نفسى لا أحب أن أكون قاضيا أو مفتيا، فى نفسى شغل، قلت: فاتل آيات من كتاب الله عز وجل أسمعهن منك، فأدع الله لى بدعوات وأوصنى بوصية، فأخذ بيدى وجعل يمشى على شاطئ الفرات، ثم قال: ربى وأحق القول قول ربى عز وجل، وأصدق الحديث حديث ربى عز وجل، وأحسن الكلام كلام ربى. أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٤٠] ثم شهق شهقة فأنا أحسبه قد غشى عليه.

ثـم قـرأ: ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٠]، ثم نظر إلى فقال: يا هرم بن حيان، مات أبوك ويوشك أن تموت، ومات أبو حيان، وإما إلى الجنة، وإما إلى النار، ومات آدم، وحواء ماتت يا ابن حيان، ومات إبراهيم الخليل خليل الرحمن يا ابن حيان، ومات موسى نجى الرحمن يا ابن حيان، ومات أبو بكر خليفة المسلمين، ومات أخى وصديقى وصفيى عمر، واعمراه واعمراه. وذلك فى آخر خلافة عمر.

قلت: يرحمك الله إن عمر لم يمت، قال: بلى، إن ربى عز وجل قد نعاه لى، وقد علمت ما قلت، وأنا وأنت غدا فى الموتى، ثم دعا بدعوات خفاف، ثم قال: هذه وصيتى لك يا ابن حيان، كتاب الله عز وجل ونعى الصالحين من المؤمنين، والصالحين من المسلمين، ونعيت لك نفسى فعليك بذكر الموت، فإن استطعت ألا يفارق قلبك طرفة عين فأفعل، وأنذر قومك إذا رجعت إليهم، واكدح لنفسك، وإياك أن تفارق الجماعة فتفارق دينك، وأنت لا تشعر فتموت فتدخل النار يوم القيامة، ثم قال: اللهم إن هذا يزعم أنه يحبنى فيك، وزارنى من أجلك فأدخله على زائرا فى الجنة دار السلام، وأرضه من الدنيا باليسير، وما أعطيته من شيء فى الدنيا فى يسير وعافية، واجعله لما تعطيه من الشاكرين.

استودعك الله يا هرم بن حيان والسلام عليك لا أراك بعد اليوم تطلبنى، ولا تسأل عنى، أذكرك وأدعو لك، إن شاء الله. انطلق هاهنا، حتى انطلق هاهنا، فطلبت أن أمشى معه ساعة، فأبى على وفارقنى، يبكى وأبكى، ثم دخل فى بعض السكك فكم طلبته بعد ذلك وسألت عنه فما وجدت أحدا يخبرنى عنه بشيء.

حضوره صفين:

نادى رجل من أهل الشام يوم صفين: أحيكم أويس القرنى، قالوا: نعم وما تريده منه؟ قال: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أويس القرنى خير التابعين بإحسان»، وعطف دابته فدخل مع أصحاب على، رضى الله تعالى عنهم.

من أشراط الساعة:

سمع حميد بن صالح أويس القرني يقول: قال النبي ﷺ: «أحفظوني في أصحابي، فإن من أشراط الساعة أن يلعن آخر هذه الأمة أولها، وعند ذلك يقع المقت على الأرض وأهلها، فمن أدرك ذلك فليضع سيفه على عاتقه، ثم ليلقى ربه تعالى شهيدا، فإن لم يفعل، فلا يلومن إلا نفسه».

ركوعه وسجوده:

كان إذا أمسى يقول: هذه ليلة الركوع، فيركع حتى يصبح، وكان يقول إذا أمسى: هذه ليلة الركوع، فيركع حتى يصبح وكان إذا أمسى يقول: هذه ليلة السجود، فيسجد حتى يصبح، وكان إذا أمسى تصدق بما في بيته من الفضل من الطعام والثياب ثم يقول: اللهم من مات جوعا فلا تؤاخذني به، ومن مات عريانا فلا تؤاخذني به.

موته:

عن عبد الله بن سلمة، قال: غزونا أذربيجان زمن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ومعنا أويس القرني، فلما رجعنا مرض علينا - يعني أويس - فحملناه، فلم يستمسك فمات، فنزلنا فإذا قبر محفور، وماء مسكوب، وكفن وحنوط، فغسلناه وكفناه، وصلينا عليه ودفناه، فقال بعضنا لبعض: لو رجعنا فعلمنا قبره، فرجعنا، فإذا لا قبور، ولا أثر!!.

* * *

تسمع بالمعيدى خير من أن تراه
الأحنف بن قيس

أدرك النبى ولم يره، ولم تكن له صحبة معه، ولم يحضر غزوة من غزواته، وكان أول من لقى من الصحابة عمر بن الخطاب، فهو تابعى مميز بدعاء النبى له، دعا له النبى دون أن يراه، فقال: «اللهم اغفر للأحنف».

الأحنف: ما شيء من عملى أرجى عندى من ذلك.

وقال عمر: الأحنف سيد أهل البصرة.

الأحنف بن قيس
أبو بحر التميمى السعدى

الأحنف: لقب له، لاعوجاج كان برجله. **اسمه:** قيل الضماك، وقيل: صخر. **أبوه:** قيس بن معاوية بن حصين بن عبادة بن النزال بن مرة بن عبيد ابن الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم. **أمه:** امرأة من باهلة.

دعا له النبى ﷺ دون أن يراه، قال الأحنف: بينما أنا أطوف بالبيت فى زمن عثمان، إذ أخذ رجل من بنى ليث بيدى، فقال: ألا أبشرك؟ قلت: بلى، قال: أتذكر إذ بعثنى رسول الله إلى قومك، فجعلت أعرض عليهم الإسلام وأدعوهم إليه، فقلت أنت: إنك لتدعو إلى خير، وتأمر به، وإنه ليدعو إلى الخير فبلغ ذلك النبى ﷺ، فقال النبى ﷺ «اللهم اغفر للأحنف»، فكان الأحنف يقول: فما شىء من عملى أرجى عندى من ذلك.

كان أحد الحكماء الدهاة العقلاء، قدم على عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فى وفد البصرة. اعتزل الحرب بين على، وعائشة، رضى الله عنهما، بالجمل، شهد وقعة صفين مع الإمام على، بقى إلى إمارة مصعب بن الزبير على العراق، توفى بالكوفة سنة سبع وستين، مشى مصعب بن الزبير فى جنازته، كان وقتها أميرا على العراق لأخيه عبد الله، خلف ولده بحرا. وبه كان يكنى «أبو بحر»، توفى ابنه بحر، انقضى عقبه من الذكور، والله تعالى أعلم.

تسمع بالمعيدى خير من أن تراه

هل سمعت بهذا المثل، ومتى يقال؟ وفيمن قيل أول مرة؟ ومن الذى قاله؟

معيد: اسم قبيلة، وكان المعيدى يغير على مال النعمان، والنعمان يطلبه فلا يقدر عليه، فكان يعجب بما يسمع عنه من شجاعة وإقدام، ولشدة

إعجابه به أمنه، فلما حضر إليه ورآه.. استقبح منظره لأنه كان دميم الخلقة فقال النعمان هذا المثل: تسمع بالمعيدى خير من أن تراه.

أجابه المعيدى: أبيت اللعن، إن الرجال ليست بجزر - ليست بهائم للذبح - وإنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه! فأعجب النعمان كلامه، وجعله من خواصه إلى أن مات، وهذا ما حدث مع الأحنف بن قيس، رآه رجل فقال: تسمع بالمعيدى لا أن تراه، قال الأحنف: ما ذممت منى يا ابن أخى؟ قال الرجل: الدمامة، وقصر القامة، قال الأحنف: لقد عبت على ما لم أشاور فيه!.

ووصفه عبد الملك بن عمير، قال: قدم علينا الأحنف الكوفة مع المصعب ابن الزبير، فما رأيت خصلة تذم إلا وقد رأيتها فى الأحنف: كان صَعْل الرأس - صغير الرأس - متراكب الأسنان، أشدق مائل الذقن، ناتئ الوجه به عيب فى عينه، خفيف العارض أحنف الرجل، ولكنه إذا تكلم جلا عن نفسه.

ويظهر أن هذا العيب الخلقى كان يلاحقه، عن قصد أو عن غير قصد، ولكنه كان يقابله بالحلم الذى عرف عنه.

قال رجل فى مجلس الأحنف: ليس شىء أبغض إلى من التَّمر والزبد، وقال الأحنف: رُبَّ ملوم لا ذنب له، وضحك إلى الحاضرون، ربما على إلحاق العيب بالتمر والزبد، فلا يكاد أحد من الناس يبغضها.

وقد روى أن الحجاج قال يومًا لجلسائه: ليكتب كل رجل فى رقعة أحب الطعام إليه، ويجعلها تحت مصلاَّى، فإذا فى الرقاع كلها: الزبد والتمر.

وروى عن عمر بن الخطاب سأل الأخضر: أى الطعام أحب إليك؟ قال: الزبد والكمأة. الزبد معروف والكمأة شىء يشبه القلقاس، ولكنه يحب الخصب للمسلمين!

وكان لعمر بن الخطاب موقف سابق مع الأحنف، قدم الأحنف على

عمر فى وفد البصرة، فرأى منه عقلا ودينا وحسن سمت، فاستبقاه عنده سنة، ثم أحضره وقال: يا أحنف، أتدرى لم احتبستك عندى؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، قال عمر بصراحته المعهودة: إن رسول الله ﷺ حذرنا كل منافق عليم، فخشيت أن تكون منهم، ثم كتب معه كتابا إلى الأمير على البصرة يقول له: الأحنف سيد أهل البصرة، ما زال يعلو من يومئذ.

وهكذا نرى أن الله تعالى يبدى للناس صورا من آياته فى مخلوقاته، ولو تطابق الشكل مع المضمون لما كان هناك هذا الإعجاز المبهر فى الإنسان إذ كان يكفى أن توضع مواصفات للإنسان مستقاة من الوصف الخارجى له، وتكون دليلا على ما يدور بداخله من عواطف جميلة أو قبيحة، ولأصبح ظاهر الإنسان كاشفا عن باطنه، وهذا هو عين المحال وقد حاول العلماء فى علم الإجرام وضع صفات ظاهرية يتميز بها من يسمونه بالمجرم بطبيعته، والمجرم بالصدفة فباءت هذه المحاولات بالفشل! لأن حقيقة الإنسان تكمن فى هذا المضمون الداخلى، والذى يحار والإنسان فى معرفة الحقيقة الداخلية فى نفسه هو، ولا يعرف منها إلا القليل: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]

الأحنف الحليم:

هذا الرجل الذى قيل فى وصفه الظاهرى ما قيل، والذى جعل من عوج ساقه وحنفها علما على اسمه. كان الشعراء يمتدحون الكبراء والأمراء بحلمه فقد التصقت صفة الحلم بالأحنف حتى أصبحت مثلا عليه، قال أبو تمام يمدح الأمير فى قصيدة جاء فيها:

إقدام عمر فى سماحة حاتم   فى علم أحنف فى ذكاء إياس

قال له أحد الحضور من أصحاب النظرة القاصرة المتعجلة وكأنه عثر على نقد يوغر به صدر الأمير عليه، قال: الأمير فوق من ذكرت، ورد أبو تمام على النور ودون إعداد سابق:

لا تنكروا ضربى له من دونه   مثلا شرودا فى الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل نوره مثلا من المشكاة والنبراس

والحق أن أبا تمام ربما كان مبالغا فى مدح الأمير بكل هذه الصفات، حين وصفه:

بشجاعة عمرو بن معدى كرب، وبكرم حاتم الطائى، وبحلم الأحنف ابن قيس، وبذكاء إياس القاضى، وقل أن تجتمع كل هذه الصفات فى شخص واحد حتى لو كان أميرا، ماعدا رسول الله ﷺ الذى اجتمعت فيه أعلا مميزات العنصر البشرى. كما رأينا كيف أن رد أبى تمام كان ذكيا ومفحما إذ أشار فيه إلى قول الله تعالى:

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٣٥]

فأتى بمثال على سبيل التشبيه لنور الله تعالى كمصباح فى طاقة أو كوة فيها مصباح نوره له المواصفات الواردة فى القرآن.

جمال المخبر (الباطن):

إذا كان الله تعالى لم يمنح الأحنف جمالا فى الشكل الخارجى، فقد أغدق عليه الكثير من الصفات النفسية الجمالية العالية.

التواضع:

قيل له: ما أحلمك؟ قال: تعلمت الحلم من قيس بن عاصم المنقرى، لقد ذهبنا إليه نتلقى عنه العلم كما نختلف إلى الفقهاء نأخذ عنهم الفقه. أى أن الحلم يحتاج إلى ممارسة وجهد وصبر فهو ليس مطلبا سهلا ميسورا لكثير من الناس.

قال الأصمعى: لا يكاد يجتمع عشرة إلا وفيهم مقاتل وأكثر، ويجتمع ألف وليس فيهم حليم. فالحلم اندر وأعز من الشجاعة، فقد تكون الشجاعة عن طيش، أما شجاعة الحليم فهى عن تعقل وصبر وجلد.

صور من تواضعه:

جلس الأحنف على باب دار، فمرت به ساقية، فوضعت قربتها وقالت له: يا شيخ، احفظ قربتى حتى أعود ومضت، فأتاه الآذن، وقال: انهض. فقال: إن معى وديعة، وأقام حتى جاءت الساقية، وأخذت قربتها.

وكان تواضعه يستند إلى تعقل وتفكر فى حقيقة الأشياء، ومنها الإنسان نفسه، فكان يقول: عجبت لمن جرى فى مجرى البول مرتين كيف يتكبر.

وللحلم ضوابط:

أغضب زيد بن جبلة الأحنف فوثب إليه، فأخذ بعمامته وتناصبا، قيل للأحنف: أين الحلم اليوم؟ قال: لو كان مثلى أو دونى لم أفعل هذا به، إن آفة الحلم الضعف، ولا خير فى حلم إذا لم تكن له بوادر تحمى صفوة أن يكدرا.

أى لا خير فى حلم لا تسانده قوة وتدافع عنه. فالضعيف الذى لا يستطيع أن يرد عدوانا لا يوصف بالحلم،

ولذا حين سمع الأحنف رجلا يقول: لا أبالى أمدحت أم هجمت، قال الأحنف: استرحت من حيث تعب الكرام. أى أن الذى لا يبالى بشىء من المدح أو الهجاء يكون بليد الإحساس، غير كريم النفس.

هل كان الأحنف حليما فحسب، أم كان شجاعا فى الحرب؟

ذكرنا أن الحلم صفة كريمة فى الإنسان، وأنه لا يعنى المهانة، وكان الأحنف ممن يتمتعون بكثير من صفات السيادة، فقد كان إلى حلمه رجل حرب وقتال.

شجاعته الحربية:

بعثه عمر بن الخطاب على جيش قبل خراسان، فبينهم العدو ليلا وفرقوا جيوشهم أربع فرق، وأقبلوا معهم الطبل ففزع الناس، كان أول من ركب واتجه إلى العدو هو الأحنف، تقلد سيفه ومضى نحو الصوت الصادر عن الطبل، وهو ينشد:

إن على كل رئيس حقا أن يخضب الصعدة أو تندقا

ثم حمل على صاحب الطبل فقتله، فلما فقد أصحاب الطبل الصوت دخلهم الخوف والرعب وانهزموا، وحمل الأحنف على الفرقة الأخرى للأعداء، وقتل أيضا حامل الطبل، وهو وحده، ثم جاء الناس وراءه وقد انهزم العدو، فاتبعونهم يقتلونهم، ثم مضوا حتى فتحوا مدينة يقال لها مرو الروذ، وهذا يدل على دهائه وشجاعته حينما هاجم العدو ليلا وقتل حاملى الطبل الذين يشيعون الحماس فى جنودهم ليلا.

مشاركته فى وقعة صفين:

قاتل الأحنف فى وقعة صفين إلى جانب الإمام على، رضى الله عنه، ضد معاوية بن أبى سفيان، ولكنه اعتزل الحرب فى موقعة الجمل.

الشهادة له بالشرف:

كتب معاوية إلى عامله الشهير زياد بن أبيه أن يتخير رجلا يصلح لثغر الهند فيوله على هذا الثغر، فكتب زياد إلى معاوية: إن قبلى رجلين يصلحان لذلك: ١- الأحنف بن قيس، ٢ - سنان بن سلمة الهزلى، فكتب إليه معاوية يعترض على الأحنف ومستنكرا ترشيحه لهذه الولاية لسابق عداوته وخوضه الحرب ضده. قال معاوية: بأى الأيام نكافئ الأحنف أنكافؤه بخذلانه أم المؤمنين؟ أم بقتاله ضدنا يوم صفين، فوجه سنانا إلى ثغر الهند ودعك من الأحنف، فكتب زياد إلى معاوية: إن الأحنف قد بلغ من الشرف والحلم والسؤدد ما لا تنفعه الولاية، ولا يضره العزل.

وهذا يجعلنا نتأمل ما وصل إليه الأحنف من احترام، وتقدير حتى عند من قاتل ضدهم ولذلك وصفه خالد بن صفوان، فقال: كان الأحنف يفر من الشرف والشرف يتبعه.

وقال الأصمعى: وفد الأحنف والمنذر بن الجارود إلى معاوية بعدما انتهى الأمر لمعاوية، تهيأ المنذر، وخرج الأحنف على قعود بلا تظاهر، وكلما مر المنذر فى موكبه قال الناس: هذا الأحنف!! وتجاهلوا المنذر، وتغيظ المنذر

مما يرى من تكريم للأحنف وقال: كأنما تزينت لهذا الشيخ، وقالت بنو تميم للأحنف وكأنها تمن عليه بالمكانة التى وصل إليها من حب الناس وتقديرهم له، قالوا: ما أعظم منتنا عليك! فضلناك وسودناك! فقال لهم: هذا شبل بن معبد، من سوده؟ وليس بالبصرة أحد من قبيلته؟.

والأحنف يعنى كما قال: السؤدد مع السواد، أى أنه يكون سيدا من أتته السيادة فى شبابه، وحداثته أمام سواد شعره ولحيته، أو من تسوده عامة الناس شجاعته فى مواجهة معاوية: عدد معاوية على الأحنف ذنوبا، فقال الأحنف: يا أمير المؤمنين! لم ترد الأمور على أعقابها؟ أما والله إن القلوب التى ابغضناك بها لبين جوانحنا! وإن السيوف التى قاتلناك بها لعلى عواتقنا، ولئن مددت لنا بشبر من غدر، لنمدن عليك باعا من ختر، ولئن شئت لتستصفين كدر قلوبنا بصفو حلمك. قال معاوية: فإنى أفعل.

أرأيت إلى هذه الجرأة والشجاعة مع فتح الباب أمام معاوية للمصالحة الكريمة، وكيف قبل معاوية على الفور هذا العرض، فقد كان معاوية من دهاة العرب، ومن حلمائهم أيضا، ومن صور شجاعته الفريدة ما كان منه يوم وقف زياد من أبيه وخطب خطبته البتراء، أى التى لم يصل فيها على النبى ﷺ ، وجاء فى هذه الخطبة التهديد الأهوج ومنه:

وأيم الله، وأن لى فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاى، وأيم الله، لآخذن البرئ بالسقيم، والمطيع بالعاصى، والمقبل بالمدبر، حتى تستقيم لى قناتكم، وحتى يقول القائل: انج سعد فقد قتل سعيد.

أرأيت تهديدا أشرس من هذا، رجل هائج جبار يلقى بهذه المقذوفات النارية على الرعية، ولا يجد أحدا يرد عليه.

قام أحد الخطباء ينافقه فقال له: أيها الأمير، أشهد أنك أوتيت الحكمة وفصل الخطاب!! ولم يعجب هذا النفاق ابن زياد، فقال له: كذبت، ذاك نبى الله داود، فى إشارة إلى أن نبى الله داود هو الذى آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب.

ووقف الأحنف بن قيس، فماذا تراه يقول؟ هل ينافق؟ أم يواجه هذا الهائج المتجبر مواجهة طائشة تؤدى إلى قتله! كلا إنه اختار أن يعبر عن رأيه فى صدق وشجاعة، وفى غير تطاول على هذا الظالم.

فقال له: إنما المرء بجده، والسيف بحده، والجواد بشده، وقد بلغك جدك أيها الأمير، ما ترى وإنما الحمد بعد الاختبار، والثناء بعد العطاء، وإنا لا نثنى حتى نختبر!.

بلاغة وفصاحة، بلا خوف، ولا تملق، وتعبير عن رأيه فى صراحة لا تؤخذ عليه، وهذه ميزة فى الأحنف بن قيس قل أن توجد فى سواه.

أتى الأحنف بن قيس مصعب بن الزبير فكلمه فى قوم حبسهم مصعب، قال الأحنف: أصلح الله الأمير إن كانوا حبسوا فى باطل، فالحق يخرجهم، وإن كانوا حبسوا فى حق، فالعفو يسعهم، فأفرج عنهم مصعب.

وفى مثل هذه الصورة فعل عمر بن عبد العزيز، فقد أمر بعقوبة رجل، ونذر إن أمكنه الله منه ليفعلن به، وليفعلن، وأمكنه الله من هذا الرجل، فقال له رجاء بن حيوة: قد فعل الله ما تحب من الظفر، فافعل ما يحب الله من العفو، فعفى عمر عنه.

هذه من الصور البليغة فى حسن الاعتذار لا إسفاف فيها ولا إهانة، ولا إهدار كرامة وجه.

سئل خالد بن صفوان: بم ساد الأحنف؟ قال: بفضل سلطانه على نفسه.

وقال رجل للأحنف - أراد أن يعيبه - قال الرجل: بم سدت قومك؟ وشعر الأحنف أنه يستهين به، فقال له: سدت قومى بتركى من أمرك ما لا يعنينى كما عناك من أمرى، ما لا يعنيك.

أى لا شأن لك بأمرى فإنه لا يعنيك فلا تشغل نفسك به، كما أنى لا اشغل نفسى بأمرك.

يتصور البعض أن الحلم ذل، فهل هو كذلك، أم أنه سوء فهم للحلم؟

قال رجل من قريش لشيخ منهم: يا شيخنا، علمني الحلم، قال الشيخ: هو الذل يا ابن أخي، أفتصبر عليه، قال الأحنف: ما يسرني بنصيبي من الذل حمر النعم، **قال له رجل: أنت أعز العرب، قال الأحنف: عن الناس يرون الحلم ذل، ألم تسمع الشيخ، فقلت ما قلت على ما يعلمون!**

الحلم يشعر الطرف الآخر بالهوان:

جاء رجل فشتم الأحنف فسكت عنه، وأعاد، فسكت عنه، قال الرجل: وا لهفاه، ما يمنعه من أن يرد على إلا هواني عليه.

كيف يدرب الإنسان نفسه على الحلم، كما فعل الأحنف؟ وضع لنا رسول الله ﷺ دواء يروضنا ويروض طباعنا على التحمل، ألا ترى أن كلمة الحلم هي نفسها الحمل، والمرء لا يحتاج إلى الحلم إلا ساعة الغيظ والغضب، فإذا استطاع أن يمتلك نفسه عند الغضب صار حليما، فقد قال رسول الله ﷺ: «أن الغضب جمرة توقد في جوف ابن آدم، ألم تروا إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه»، قال رجل: يا رسول الله، أوصني، قال: «لا تغضب»، ثم أعاد عليه، فقال: «لا تغضب»، ثم أعاد عليه، فقال: «لا تغضب». هذا التحكم في النفس هو دليل القوة، ولذا قال الرسول: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب».

فالحلم إذن دليل على قوة الشخصية وسيطرة المرء على نفسه. والعرب تقول: احلم تسد. ما أحسن الإيمان يزينه العلم، وما أحسن العلم يزينه العمل، وما أحسن العمل يزينه الرفق، وما أضيف شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم، ومن عفو إلى مقدرة.

شتم رجل الأحنف وألح عليه، فلما فرغ من سبابه، قال له الأحنف: يا ابن أخي، هل لك في الغداء، فإنك منذ اليوم تسير بجمل بطئ ثقيل الحركة.

وكان معاوية بن أبي سفيان من المشهورين بالحلم، ولهذا كانت علاقته بالأحنف علاقة حليم بحليم رغم العداوة السابقة، أغلظ رجل لمعاوية فحلم عنه، قيل له: أتحلم عن هذا؟ فقال كلماته التي ما زالت شعارًا على حرية

الرأى: إنى لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا. وقيل للأحنف: من أحلم أنت أم معاوية؟ قال ضاحكا: ما رأيت أجهل منكم، معاوية يقدر فيحلم، وأنا أحلم ولا أقدر، فكيف أقاس عليه أو أدانيه.

ارتباط الحلم بحسن الخلق:

قال رجل للأحنف: بم سودك قومك، وما أنت بأشرفهم بيتا، ولا أصبحهم وجها، ولا أحسنهم خلقا؟ قال له الأحنف: بخلاف ما فيك يا ابن أخى.

وقال عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، لرجل: من سيد قومك؟ قال الرجل: أنا، قال عمر: كذبت، لو كنت كذلك لم تقله!.

وهكذا نرى أن الحلم يعود على الحليم بالتقدير والاحترام فى كل الأحوال. وفى الحديث، أقرب ما يكون المرء من غضب الله إذا غضب.

وقال الأحنف: من لم يصبر على كلمة سمع كلمات، ورب غيظ تجرعته مخافة ما هو أشر منه، رضيت ببعض الذل خوف جميعه، كذلك بعض الشر أهون من بعض، مع أن الحلم فى حقيقته ليس ذلا، فقد وصف الله به أنبياءه وهم أعز الناس، وأكرمهم على الله ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ صدق الله العظيم.

* * *

فهرس كتاب صور من حياة الصحابة والتابعين

رقم الإيداع : ١١٨٨٧ / ٢٠٠٠